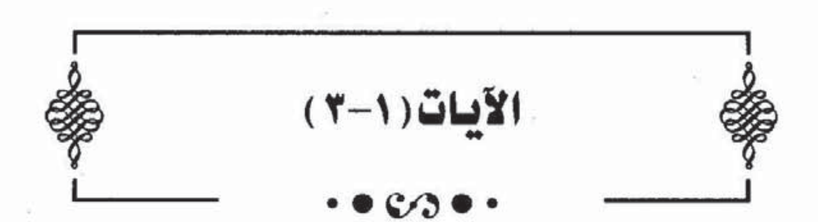
تفسير سورة القصص

تفسير القرآن الكريم



الآيات (١-٣)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿طسٓمٓ ١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ٢ نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ بِٱلۡحَقِّ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [القَصَص:١-٣].

• • • •

الحمدُ للهِ ربِّ العَالَمِينَ، وصلَّى اللهُ وسلَّمَ عَلَى نبيِّنا مُحمَّدٍ، وعَلَى آلِهِ وأصحَابِهِ ومَنْ تَبِعَهُم بإحسَانٍ إِلَى يَومِ الدِّينِ. وبَعد:

قَالَ الْمُفَسِّرُ[1] رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿طسٓمٓ﴾ اللهُ أَعْلَمُ بِمُرَادِهِ بِذَلِكَ، ﴿تِلۡكَ﴾ أَيْ هَذِهِ الْآيَاتُ، ﴿ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ الْإِضَافَةُ بِمَعْنَى مِنْ، ﴿ٱلۡمُبِينِ﴾ الْمُظْهِرُ الْحَقَّ مِنَ الْبَاطِلِ، ﴿نَتۡلُواْ﴾ نَقُصُّ، ﴿عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ﴾ خَبَرِ، ﴿مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ بِٱلۡحَقِّ﴾ الصِّدْقُ ﴿لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ لِأَجْلِهِمْ، لِأَنَّهُمُ الْمُنْتَفِعُونَ بِهِ].

الحِكمة من القَصَص فِي الْآيَاتِ واضحةٌ، فهو يُتلَى عَلَى النَّاسِ لكي يُؤمنوا، فَإِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ فِي الْأَصْلِ فهو لتَثْبيت إيمانهم وزيادَتِه.

من فوائد الآيات الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: بيان عِظَم القُرْآن وعُلُوِّهِ، وذلك عَنْ طَرِيقِ الْإِشَارَةِ إِلَيْهِ بالبُعد ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ﴾.

---

(١) المقصود بـ(المفسر) هنا: محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم جلال الدين المحلي، المتوفى سنة (٨٦٤هـ) رَحِمَهُ اللَّهُ، ترجمته في: الضوء اللامع (٧/ ٣٩)، حسن المحاضرة (١/ ٤٤٣).

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: هَذَا الْقُرْآنُ مكتوبٌ؛ لِقَوْلِهِ تعالى: ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾، ونحن نعلم أنَّ كتابةَ القُرْآن مُتحَقِّقَةٌ فِي ثَلاثَةِ أماكنَ:

١- فِي اللَّوحِ المَحْفُوظِ.

٢- فِي صُحُفِ الملائكة.

٣- فِي المَصَاحِفِ الَّتِي بَيْنَ أيدينا.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ مُظهِر مُبَيِّن للأُمُور؛ لِقَوْلِهِ تعالى: ﴿ٱلْمُبِينِ﴾، فهو مُظهِر ومُبَيِّن للأُمُور.

وحَذْفُ مُتَعَلَّق ﴿ٱلْمُبِينِ﴾ يُستفاد مِنْهُ عُمُومُ إِبَانَةِ الْقُرْآنِ لِكُلِّ شَيْءٍ.

وحذفُ المُتَعَلَّق هَذَا مِنَ القَواعِدِ التَفْسِيرِيَّة، فإنَّ حَذْفَ المُتَعَلِّقِ يُفيد العُلُوَّ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى:٨]، حيثُ لَمْ يَقُلْ: (فأغناك)؛ لِأَنَّ الله أغناهُ، وأغنى به، وَقَالَ تعالى أَيْضًا: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى:٧]، فالله هداه وهدَى به.

فقوله: ﴿ٱلْمُبِينِ﴾ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ مُبَيِّنٌ لِكُلِّ شَيْءٍ، ويدل لذلك قَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل:٨٩].

ولذلك فإنَّ أيَّ مُشكلة تَعرِضُ لَنَا فِي دِينِنَا نَجِدُ حَلَّها فِي الْقُرْآنِ، والقُرْآن يُرشدنا إلى الأخذ بالسُّنة، قَالَ تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر:٧].

إذن: الْقُرْآنُ وَالسُّنَّةُ يَحِلَّان كُلَّ مَا يَعْرِضُ لَنَا مِنْ مُشْكِلَاتٍ فِي أُمُورِ دِيننا، أو دُنيانا، ولكن المشكلة هي القُصور فِي فَهمِ النَّص لَدَى بَعْضِ النَّاسِ، ويرجع الْأَمْرُ إِلَى سببين: إمَّا هَوًى مُتَّبع، وإمَّا جَهْلٌ.

فهناك مِنَ النَّاسِ مَنْ يريد اتباعَ الهوى، وَلَا يُرِيدُ اتِّبَاعَ الحَقِّ، فيذهب إِلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ عَلَّهُ يَجِدُ مَا يُبَرِّرُ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ.

فمثلًا هُنَاكَ مَنْ يُبَرِّر للاشتراكيَّة، ويبحث فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ عما يؤيد رأيه هذا، فَإِنْ وَجَدَ مَا يُخَالِفُ رأيه تَرَكَه وتجاوزَه إِلَى غَيْرِهِ، فهذا الرَّجُلُ لَمْ يَقْصِدِ الحقَّ.

وكذلك بعضُ الذين يُشَرِّعُون القوانين، أو الأُمُورَ الفِقهية، أَوْ مَا شابَهَ، لَا يَرْجِعُونَ إِلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ إِلَّا مِنْ أَجْلِ تبريرِ مواقِفِهم، فإذا رأوا ما يُخالِفُها أَغْمَضُوا أَعْيُنَهم، وإن رأوا مَا يُشِيرُ إليها -وَلَوْ لإبطالها- فَتَحُوا أعينَهم.

وهؤلاءِ لهم غَرَضٌ فِي صُدُورِهِمْ في تَصَفُّحِهِم للقرآن والسُّنة، كَمَا قَالَ شَيْخُ الإِسْلام ابن تَيمِيَّة رَحِمَهُ اللَّهُ فِي (العقيدة الواسطية)، وَهِيَ كَلِمَةٌ عظيمة المعنى، قال[1]: «وَمَنْ تَدَبَّرَ الْقُرْآنَ طَالِبًا لِلْهُدَى مِنْهُ؛ تَبَيَّنَ لَهُ طَرِيقُ الْحَقِّ».

كلمةٌ عظيمةٌ، فِيهَا أَمْرَانِ: تَدبُّر، وطَلَبُ الهدى. فـ(تَدَبَّرَ): الفعل، و(طالبًا للهُدى): النية الصَّالِحة، (تبيَّن له طَرِيقُ الحَقِّ) جَوَاب الشَّرْطِ.

فالشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ جزَم به؛ لأَنَّهُ مَوْجُودٌ فِي الْقُرْآنِ لَا شَكَّ فِي هَذَا.

إذن: القُرْآنُ مُبَيِّنٌ لكُلِّ الأُمُور؛ إِمَّا مِنَ الْقُرْآنِ نَفْسِهِ، أَوْ مِمَّا يُرْشِدُ إِلَيْهِ، أي السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ.

أحيانًا تَعْتَرِضُنا مَسائِلُ، ونَبْحَثُ عَنْهَا فِي كُتُبِ الفُقهاء؛ فُقَهاء الحنابلة، وفُقَهاء الشافعية، وغيرهم، فما نجدُها، فَنَرْجِعُ إِلَى الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ، فنجدُها واضحةً جَلِيَّةً.

(١) العقيدة الواسطية اعتقاد الفرقة الناجية المنصورة، لشيخ الإسلام ابن تيمية (ص٧٤).

وَالرُّجُوعُ إِلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ يُفِيد الإِنْسَان -حقيقةً- فائدتين عظيمتين:

الأُولى: الطُّمأنينة والاستقرار؛ لِأَنَّ اتِّبَاعَ كَلَامِ أَهْلِ الْعِلْمِ -وَإِنْ كَانَ الْإِنْسَانَ قَدْ يطمئِن إليه بَعْضَ الشَّيْءِ- مَا تَكُونُ الطُّمأنينة إليه كطُمأنِينَتِه إِلَى مَا دَلَّ عَلَيْهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ.

الثَّانية: أنه يَسْتَطِيعُ أَنْ يُقْنِعَ غيره، ويُطَمْئِنَ غيره.

فمثلًا إِذَا قُلْتَ لِإِنْسَانٍ مَا: هَذَا حَرَامٌ. يَقُولُ لَك: مَا الدَّلِيلُ عَلَى الحُرمة؟ فإذا قلتَ: له حَرَّمَهُ اللهُ، أَوْ حَرَّمَهُ رسولُه. اطمأنَّ لِقَوْلِك، أَمَّا إِذَا قُلْتَ لَهُ: هناك كِتَابٌ مَا قَدْ حَرَّمَهُ. قَالَ لَك مستنكرًا: أيُّ كتابٍ هذا؟ هَلْ هُوَ مُوحًى بِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ؟

إذن: الرُّجُوعُ إِلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ يَبُثُّ الطُّمأنينة فِي قُلُوبِ المخاطَبين ويُقْنِعُهم.

ولذلك أنا أَمِيلُ إِلَى الرُّجُوعِ دائمًا إِلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَلَا يَعْنِي كلامي هذا طَرْحَ كَلَامِ أَهْلِ الْعِلْمِ، لا، فكلامُ أَهْلِ الْعِلْمِ مفاتيحُ لهذه الخزائن، فَكَمْ مِنْ إِنْسَانٍ لَا يَهْتَدِي بالكتاب والسُّنة إِلَّا إِذَا دَخَلَ مِنْ حَيْثُ دَخَلَ هؤُلاءِ العلماءُ.

وهناك فَرْقٌ بَيْنَ مَنْ يَقُولُ: اتَّبع الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ، واقْتَدِ بكلامِ أَهْلِ الْعِلْمِ. وَبَيْنَ مَنْ يَقُولُ: اتَّبعِ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ، واطْرَحْ كَلَامَ أَهْلِ الْعِلْمِ؛ فهو لَيْسَ بِشَيْءٍ. وَهَذَا خطأٌ كبيرٌ.

واعْلَمْ أَنَّ الحَقَّ دائمًا بَيْنَ طَرَفَيْنِ مُتَطَرِّفَيْنِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: فِي الْآيَةِ دَلِيلٌ أَيْضًا عَلَى أَنَّ القَصَص يُسَمَّى تِلاوةً، يُقال: قَصَّ الإِنْسَانُ القِصَّة، إذا تَلاها علينا؛ وَذَلِكَ مَأْخُوذٌ مِنْ قَوْلِهِ تعالى: ﴿نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: بيانُ أهمية قِصَّةِ مُوسَى مَعَ فِرعونَ، ولهذا تَكَفَّلَ اللهُ تعالى بتِلَاوَتِها عَلَى النَّبِيِّ ﷺ لأهميتها، وبيان فوائِدها.

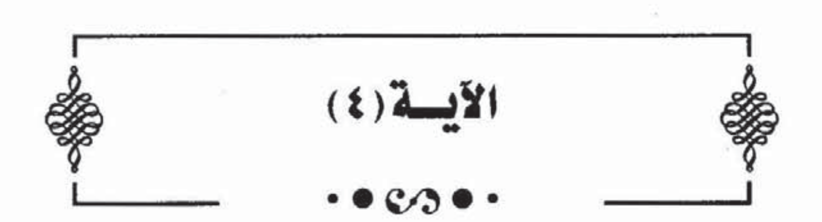
وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تجمعوا الْقِصَّةَ مِنْ جَمِيعِ أطرافها فِي الْقُرْآنِ، واستخرجوا مَا فِيهَا مَنْ فَوَائِدَ، فهذه الْقِصَّةُ مِنْ أَهَمِّ القَصَص الَّتِي وَرَدَتْ فِي الْقُرْآنِ الكريم، وَقَدْ تكَرَّرَتْ فِي مَوَاضِعَ مُخْتَلِفَةٍ بأساليبَ مختلفةٍ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أَنَّ مَا أَخبَرَ اللهُ بِهِ هُوَ الحَقُّ، فَجَمِيعُ مَا أَخْبَرَ اللهُ بِهِ عَنْ هَذِهِ القَصَص هُوَ حَقٌّ، وَقَدْ سَبَقَ أَنْ قُلنا: إِنَّ الْحَقَّ إِذَا وُصِفَ بِهِ الْخَبَرُ، فَهُوَ بمعنى الصِّدق، وإذا وُصِفَ بِهِ الْحُكْمُ، فهو بمعنى العَدْل.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أَنَّ هَذِهِ القَصَص سببٌ لحدوث الإِيمَان، وكذلك سبب لزيادته أيضًا، أي سبب لِمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ حَتَّى يُؤْمِنَ، ولمن آمَنَ حتى يزدادَ إيمانُه؛ ثباتًا وكَمِّيَّةً.

وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّهُ يَنْتَفِعُ بِهَا غيرُ المؤمن قَوْلُهُ تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [يوسف:١١١]، فكلُّ إنسان عنده لُبٌّ -أَيْ عقل- فَلا بُدَّ لَهُ أَنْ يُعْتَبَرَ وينتفع.

• • ۞ • •



الآيــة (٤)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [القَصَص:٤].

•●○●•

قَالَ المُفَسِّـرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا ﴾ تعظَّمَ ﴿فِي الْأَرْضِ ﴾ أَرْضِ مِصْـرَ ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا ﴾ فِرَقًا فِي خِدْمَتِهِ ﴿يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ ﴾ هُمْ بَنُو إِسْـرَائِيلَ ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ المَـوْلُودِينَ ﴿وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ﴾ يَسْـتَبْقِيهِنَّ أَحْيَاءً لِقَـوْلِ بَعْضِ الْكَهَنَة لَهُ: إِنَّ مَوْلُودًا يُولَدُ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ يَكُونُ سَبَبَ زَوَالِ مُلْكِكَ ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ بِالْقَتْلِ وَغَيْرِه].

﴿وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ﴾: قَالَ المُفَسِّـرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [يَسْـتَبْقِيهِنَّ أحيـاء]، لأنَّهُن فِي الْأَصْلِ أحياء، وَلَا يَقْدِرُ عَلَى إِحْيَاءِ الموتى إِلَّا اللهُ.

وجملتا (يُذَبِّحُ) و(يَسْتَحْيِي) حَالٌ مِنْ فَاعِلِ (عَلَا) و(جَعَلَ).

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: بَيَانُ مَا كَانَ عَلَيْهِ فِرْعَوْنُ مِنَ العُلُوِّ والجَبَرُوت، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّ مَنْ عَلَا فِي الْأَرْضِ، وطلـب العُلُوَّ عَلَى الْخَلْقِ؛ فهو شـبيه بِفِرْعَون ووارثُه، وبئس الرَّجُلُ مَنْ كَانَ فِرْعَوْنُ إمامَه.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّ تفريق الأُمة سببٌ لفَشَلِها وذُلِّها، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾، ومنها نعلم أَنَّ الحِكْمَةَ الإنجليزية المشهورة (فَرِّقْ تَسُدْ) أصلُها فِرْعوني؛ لأن فِرْعون هُوَ أَوَّلُ مَنْ جعَلَ أَهْلَ الْأَرْضِ شيعًا؛ حَتَّى يَسُودَ عليهم.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ أَهْلِ مِصْرَ، مَعَ أَنَّهُمْ فِي الْأَصْلِ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ.

فيتفرع عَلَى هَذِهِ الْفَائِدَةِ: أَنَّ مَنْ سَكَنَ أرضًا، وأقام فيها، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ أَهْلِهَا فِي الْأَصْلِ، نُسب إليها، وَصَارَ مِنْ أَهْلِهَا.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: بيانُ شِدَّة استضعاف فِرْعَون لِبَنِي إِسْرَائِيلَ؛ حَيْثُ كَانَ ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ﴾.

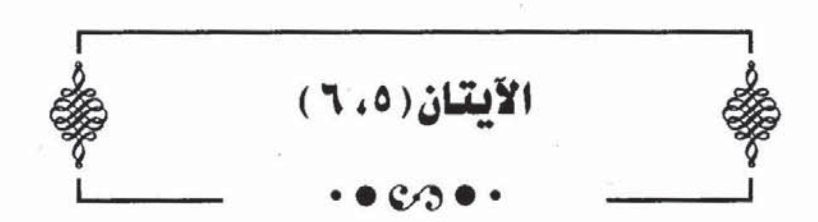
وَقَدْ قِيلَ فِي سَبَبِ فِعْلِهِ هَذَا: إِنَّهُ أُخبر بأنه سيُولَد مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ولدٌ، يَكُونُ هَلَاكُهُ عَلَى يَدِهِ.

وَقِيلَ: لِأَنَّ ذَلِكَ هُوَ الطَّرِيقُ لإذلال الأُمَّة؛ لِأَنَّهُ إِذَا ذَهَبَ الرجال، وبقيت النساء صِرن إماءً للمُسْتَعْبِد، وهُنَّ بلا شك مَا عِنْدَهُنَّ قَيِّمٌ عليهن، ولا مُدافِعٌ عنهن.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أَنَّ الْعُلُوَّ فِي الْأَرْضِ، والعُتُوَّ عَلَى الخَلْقِ، والسَّعْيَ بينهم بالتفريق يُعَدُّ مِنَ الإفساد، وَذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

ويتضح مِنَ الْآيَةِ أَنَّهُ مَنْ كَانَ عَلَى نقيض ذَلِكَ مِنَ التواضع للحَقِّ والخَلْقِ، جَمَعَ شَمْلَ الأُمة، وقَصَرَ عدوانه عنها، يَكُونُ مِنَ المُصْلِحِينَ، وَكَمَا قِيلَ: وبِضِدِّها تتميز الأَشْياء.

• • ۞ • •



الآيتان (٥، ٦)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ [القصص:٥-٦].

•••

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾ بِتَحْقِيقِ الْهَمْزَتَيْنِ، وَإِبْدَالِ الثَّانِيَةِ يَاءً: يُقْتَدَى بِهِمْ فِي الْخَيْرِ ﴿وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ مُلْكَ فِرْعَوْنَ، ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أَرْضِ مِصْرَ وَالشَّامِ ﴿وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: «وَيَرَى» بِفَتْحِ التَّحْتَانِيَّةِ وَالرَّاءِ وَرَفْعِ الْأَسْمَاءِ الثَّلَاثَةِ ﴿مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ يَخَافُونَ مِنَ الْمَوْلُود الَّذِي يَذْهَبُ مُلْكُهُمْ عَلَى يَدَيْهِ].

الإرادةُ الْوَارِدَةُ فِي الْآيَةِ هنا هِيَ إِرَادَةٌ كونِيَّة، وهي المشيئة، ويتعلق بها الحُكم القَدَرِيُّ، فالإرادة الكَوْنِيَّة مُرادِفَةٌ للمَشِيئَة، وتَتَعلَّق بالأُمُور الكَوْنِيَّة.

أمَّا الإرادةُ الشرعيةُ فمُرادِفَةٌ للمَحبَّة، وهي تتعلق بالأُمُور الشرعية، فمثلًا: اللهُ يُرِيدُ مِنَّا أَنْ نُصَلِّيَ فِي جَماعَةٍ، فهذه إرادةٌ شرعيةٌ.

وَهَلِ ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ هُنا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فقط، أَمْ مِنْ عُموم أَهْلِ مِصْرَ الذين استضعفهم فِرْعَون؟ المرادُ هنا كل الذين استضعَفَهم فِرْعَونُ.

فَقَدْ كَانُوا مُضطهَدين، ولذلك أَرَادَ اللهُ أَنْ يَمُنَّ عَلَيْهِمْ بالهداية والإيمَان والإمامة، وكذلك بميراثهم لِفِرْعَونَ وجُنُودِه.

وَهَذَا كُلُّهُ فِي المُسْتَقْبَلِ؛ لأَنَّهُ أتى بالفعل المضارع (نُرِيدُ) الَّذِي يَدُلُّ عَلَى المُسْتَقْبَلِ، أي: نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عليهم مستقبلًا.

قَوْلُه تعالى: ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾ أي: أَئِمَّةً فِي الْخَيْرِ، والإمامُ هُوَ كُلُّ مَنْ يُقْتَدَى بِهِ، وَقَدْ يَكُونُ فِي الْخَيْرِ، أَوْ فِي الشَّرِّ، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ [القَصَص:٤١]، وَلَكِنَّ المُرَادَ هُنَا: أَئِمَّةٌ فِي الْخَيْرِ.

قَوْلُهُ تعالى: ﴿وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ أي: يَرِثُون فِرْعَونَ وجُنوده، قَالَ تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء:٥٩].

من فوائد الآيتين الكريمتين:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: إثباتُ إِرَادَةِ اللهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿ وَنُرِيدُ﴾، ووجهُ إثباتِ الإرادةِ هنا، مع أنها فِعْلٌ، وليس اسمًا، هُوَ أَنَّ الْفِعْلَ يَدُلُّ عَلَى الحَدَث وزَمَانِه.

فقولُه: ﴿ وَنُرِيدُ﴾ مُشْتَقٌّ مِنَ الْإِرَادَةِ، وَبِنَاءً عَلَى ذَلِكَ نقول: إنه يَدُلُّ عَلَى إِثْبَاتِ الإرادة لله عَزَّوَجَلَّ.

المعتزلة لم يُثبتوا الإرادة للهِ عَزَّوَجَلَّ، بل نَفَوْهَا، فِي الْوَقْتِ الَّذِي أَثْبَتَها الأشاعرةُ له عَزَّوَجَلَّ، واستدلوا بكون الليل ليلًا، والنهار نهارًا، والحَرِّ حَرًّا، والبَرْدُ بَرْدًا أَنَّهُ يَدُلُّ عَلَى الْإِرَادَةِ؛ إِذْ لَا يَقَعُ هَذَا التَّخْصِيصُ إلا بإرادةٍ.

ولكنهم يستدلون عَلَى إِثْبَاتِ الصفات عامَّةً بالعَقْلِ، فَمَا وَافَقَ عُقُولَهُم قَبِلُوه، وَمَا خَالَفَهَا أَوَّلُوه وصَرَفُوه حتى يُوافِقَ العقل.

وقد تبين لَنَا قَبْلَ ذَلِكَ فَسَادُ هَذَا المنهجِ، فَهُوَ مُخَالِفٌ للقرآن الكريم، يَقُولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [المؤمنون:٧١].

قَالَ الْإِمَامُ مَالِكٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كُلَّمَا جَاءَنَا رَجُلٌ أَجْدَلُ مِنْ رَجُلٍ أَرَادَنَا أَنْ نَرُدَّ مَا جَاءَ بِهِ جِبْرِيلُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ»[1].

نعم، هَذَا أَمْرٌ لَا يَسْتَقِيمُ؛ فإثبات صِفَاتِ اللهِ بالطُّرق العقلية، وَنَفْيُ مَا لَمْ يَدُلَّ عَلَيْهِ الْعَقْلُ؛ هُوَ فِي الْحَقِيقَةِ عُدوانٌ، وطريقٌ فاسِدٌ.

ويمكننا أَنْ نَرُدَّ عليهم بأَنَّنا نستطيع أَنْ نُثْبِتَ ما نَفَوْهُ بطريق العقل، كما أثبتوا هم ما أثبتوا بطريق العقل، بل بصورةٍ أَفْلَحَ وأَبْلَغَ.

فظُهور صِفة الرَّحْمة فِي المَخْلُوقَاتِ أَبْلَغُ مِنْ ظُهُورِ صفة الإرادة، وَكَذَلِكَ الْإِحْسَانُ إِلَى الْخَلْقِ بالرِّزق، والإمداد، والإعداد، وَفِي جَمِيعِ مَا يَتَمَتَّعُون به، وَهَذَا ثَابِتٌ لِكُلِّ إِنْسَانٍ.

أَمَّا كونُ البَرْدِ بَرْدًا، والحَرِّ حَرًّا، فَهَذَا لَيْسَ دليلًا قويًّا عَلَى الْإِرَادَةِ، فَدَلالةُ مَا سَبَقَ عَلَى الْإِرَادَةِ أَقْوَى مِنْ دَلَالَةِ النِّعم عَلَى الرَّحْمة بلا شك.

أَيْضًا إِذَا نَظَرْنَا لِنَصْرِ الله للطائعين، وفُقْدَانِه للعاصِين، فَهُوَ يَدُلُّ عَلَى الْحُبِّ والكُره، فَلَوْلَا أَنَّهُ يُحِبُّ هَؤُلَاءِ مَا نَصَرَهُم، وَلَوْلَا أَنَّهُ يُبْغِض هَؤُلَاءِ مَا نَصَرَهُم، وهذا معروفٌ، حَتَّى إِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا صَارَ يُبغض أَحَدًا مَا فما نَصَرَهُ، وَلَا أَحِبَّهُ.

إذن: نَصْرُ هؤلاءِ، وإذلالُ هؤُلاءِ دَلَّ عَلَى إِثْبَاتِ المَحبَّة والبُغض، وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ ينكرون، ويقولون: الْعَقْلُ لَا يَدُلُّ عَلَيْهِ.

---

(١) الإبانة الكبرى، لابن بطة (٢/ ٥٠٧، رقم ٥٨٢).

فَالْحَمْدُ للهِ الَّذِي جَعَلَ الحقَّ واضحًا، فَمَا مِنْ شَيْءٍ يزعُم هَؤُلَاءِ أَنَّ العقل يُنكره، أَوْ لَا يُثْبِتُهُ، إلا وجدنا أَنَّ الْعَقْلَ يُثبته كما أثبته الشرعُ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: تمام قُدْرَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ وذلك عندما جعل هؤُلاءِ المستضعفين أئمةً، ووارثين لهؤُلاءِ الطُّغاة، وذلك بإرادةٍ مِنَ اللهِ وَحْدَهُ، وليس بِقُدْرَتِهِم، فالمسلمون -مثلًا- وَرِثُوا ديار الفُرس والرُّوم بفعلهم وجهادهم، وإرادة الله.

ولكنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَرِثُوا فِرْعَونَ بلا قتالٍ، وَلَا فِعْلٍ منهم، بَلْ كَانَ ذَلِكَ بإرادة الله المَحْضَة فقط، وَهَذَا مِنْ قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾، فاللهُ يُيَسِّر لِعِبَادِهِ مِنَ النَّصْرِ ما لم يَكُنْ فِي مَقْدُورِهِم، وَلَا فِي حسابهم.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّ مَنِ استُضعِف لِقِيَامِه بالحقِّ فَلَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ العاقبةُ له؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾، وَإِنْ كَانَتْ فِي سِيَاقِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فغيرُهم دَاخِلٌ فِي الْعُمُومِ اللفظي، إِذَا قُلْنَا ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ فِي أَيِّ مكانٍ وزمانٍ، أو العُموم المعنوي، وذلك بقياس غَيْرِهِمْ عَلَيْهِم؛ لأن دَلالات العُموم إمَّا لَفظِيَّة، أو مَعْنَوِيَّة، فالقياسُ الصحيحُ دَلَالَةُ اللَّفْظِ عَلَى المَقِيس دلالة معنوية، فحينئذٍ نقول: ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إِذَا جعلناهم هم بَنِي إِسْرَائِيلَ فقط، فالمستضعفون بقيامهم بِالْحَقِّ مِنْ غَيْرِهِمْ مثلُهم؛ لِأَنَّ اللهَ تعالى يَقُولُ: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الفتح:٢٣].

فسُنَّةُ الله للخَلق واحدة؛ لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ليس بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَحَدٍ نَسَب، أو حَسَبٌ حتى يُرَاعِيَهُ، يَقُولُ تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات:١٣].

قد يَقُولُ قَائِلٌ: هناك أُناسٌ استُضْعِفوا بالحَقّ، وقُتِلوا، أو طُرِدوا، أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، فأين الْعَاقِبَةُ الَّتِي تزعمون؟

فنقول: إِنَّ العاقبةَ لَا تَكُونُ للشَّخص الجسدِيِّ فقط، بل للشَّخصِ المعنوي، فمَقَالتُه هَذِهِ لَا بُدَّ أَنْ تُنصَر.

وانظروا الْآنَ إِلَى مَنْ سَبَقَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ، كَمْ مِنْ عَالِمٍ أُوذِيَ فِي الْحَقِّ، سواء قُتِلَ أَمْ لَا، تجدوا مقالاتِه ما زالت باقِيَةً، ومُنْتَشِرَةً أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِ، وهذا واضحٌ لِمَنْ تَأَمَّلَهُ.

إذن: النصرُ لقائل الْحَقِّ فِي حَيَاتِهِ، أَوْ لمقالته بَعْدَ وَفَاتِهِ، والإِنْسَان المجاهد للهِ هُوَ لَا يُرِيدُ أَنْ يَثْأَرَ لنفسه، بل هَمُّه أَنْ يَبْقَى هَذَا الْحَقُّ الَّذِي قَامَ بِهِ، لَا يَهُمُّهُ بقاؤه هُوَ، أَوْ مماتُهُ إِذَا كَانَ يَدْعُو إِلَى اللهِ، أَمَّا مَنْ يَدْعُو إِلَى نَفْسِهِ -وَنَسْأَلُ اللهَ أَنْ يُعِيذَنا مِنْ ذَلِكَ جَمِيعًا- نَجِدُه يَقُولُ إِذَا أُوذِيَ، أَوْ أَصَابَهُ ضَرَرٌ: أَنَا مَا انتصرتُ.

وَلَكِنْ مَنْ يَدْعُو إِلَى اللهِ لَا يَشْغَلُهُ إِلَّا أَنْ تنتصر الدعوة، ولهذا فإنه يُقاتِل مِنْ أَجْلِهَا. لا بُدَّ مِنْ نَصْرِ الحَقِّ بأسبابه، فإذا أَعْيَتْكَ الأُمور جاء النَّصْرُ مِنْ عِنْدِ اللهِ بلا سبب.

لكنك مأمورٌ بِسُلُوكِ طريقٍ مُعَيَّنٍ حَتَّى تُنْصَرَ، وَقَدْ لَا تَنَالُ النصرَ بسبب مخالفتك لهذا الطريق، وتقصيرك فيه، فَلَيْسَ كُلُّ مَنْ حَسُنت نِيَّتُه حَسُنَ فِعْلُه ونُصِر.

فالأمر هنا يختلف، ومَسَائِلِ هَذَا الْبَابِ مِن أَدَقِّ المَسَائِلِ، وَقَدْ تَكَلَّمْنَا عنها كثيرًا.

فَلَا يَجِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَكُونَ كالكُرة فِي يَدِ غَيْرِهِ، يُقَلِّبُه كَيْفَ يَشَاءُ، أو تذهب به رِيحٌ عاصفةٌ بعيدًا جدًّا، بَلْ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مُتَّزِنًا، لا مُتَهَوِّرًا، فإذا تَهَوَّرَ، ثم خالفه النصر، فالبلاء مِنْ عِنْدِ نَفْسِهِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: بيانُ فضائلِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، ومَنَاقِبِ بَنِي إِسْرَائِيلَ؛ لقوله: ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾.

وهنا قد يُشْكِلُ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنَّ اللهَ تعالى يَقُولُ ذَلِكَ، وفي آيات كثيرة يَذُمُّ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَلَكِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بَيَّنَ السَّبَبَ فِي جَعْلِ هؤُلاءِ أئمةً، فَقَالَ تعالى فِي سُورَةِ السَّجْدَةِ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة:٢٤]، فحينما كانوا مُتَّصِفِينَ بهذين الوصفين: الصَّبْرِ واليَقِينِ، كانوا أئمةً، وَقَدْ أَخَذَ شيخُ الْإِسْلَامِ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ جملةً، فقال[1]: «بالصَّبْرِ واليَقِينِ تُنَالُ الْإِمَامَةُ فِي الدِّينِ».

لَكِنْ لَمَّا تخلَّفَ الصَّبْرُ، وتَخَلَّفَ اليَقِينُ منهم، صاروا ﴿قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [البقرة:٦٥]، وجاءت الْآيَاتُ فِي ذَمِّهم، فالآياتُ لا يُكَذِّبُ بَعْضُهَا بَعْضًا، ولكن هناك أشياءُ تُوجِبُ تَخَلُّفَ أحكام بعض الآياتِ لِتَخَلُّفِ السبب.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّ الْمُسْلِمِينَ إِذَا اسْتَوْلَوْا على بلاد الكُفَّارِ مَلَكُوها، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾، والوارثُ يَمْلِكُ مَا وَرِثَ، فَهُمُ الَّذِينَ يجعلهم اللهُ الْوَارِثِينَ، وَلِهَذَا قَالَ أَهْلُ الْعِلْمِ: إِنَّ الأراضي تُملك.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أَنَّ الأراضي لَيْسَتْ مِنَ الْغَنَائِمِ المحضة، فَاللهُ تعالى يَقُولُ: ﴿وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾، مَعَ أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ يقول: «أُحِلَّتْ لِيَ المَغَانِمُ، وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي»[2].

---

(١) قاعدة في الصَّبْر، لشيخ الإسلام ابن تيمية (ص٩٤).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب التيمم، بابٌ رقم (٣٣٥)، مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب جعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، رقم (٥٢١).

انظروا هذا التَّقرير هُوَ غَيْرُ صَحِيحٍ؛ لِأَنَّ الله تعالى وَرَّث بَنِي إِسْرَائِيلَ أَرْضَ بَنِي فِرْعَونَ وأموالَهم، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء:٥٧-٥٩].

فلو ادَّعى أحدُهم أَنَّ اللهَ أخرجَ آلَ فِرْعَوْنَ مِنْ أَرْضِهِمْ، وجعلها مَغْنَمًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ بقوله: ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، وهذا مُعارِضٌ لحديث الرَّسُول، فكيف نُجيب عنه؟

نقول: إِنَّ هَؤُلَاءِ لَمْ يأخذوها بَعْدَ قِتَالٍ، فالغنيمةُ معروفة، إنما أُخِذَتْ عَنْ طَرِيقِ قتال الأعداء، ولكن هَؤُلَاءِ مَا وَرِثُوها بالقتال، بل بِقُوَّةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ الَّتِي لَيْسَ لَهُمْ إِلَيْهَا سَبِيل، فالأراضي والمساكن والكُنوز الَّتِي أَخَذَهَا بَنُو إِسْرَائِيلَ لَا تُعَدُّ مِنَ الْغَنَائِمِ، بَلْ هِيَ مِن وَهْب اللهِ لَهُمْ بلا قتال.

وَعَلَى هَذَا فَلَا تَعَارُضَ بين الْآيَةِ وَبَيْنَ قولِ الرَّسُولِ ﷺ: «أُحِلَّتْ لِيَ المَغَانِمُ، وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي».

وَلَكِن هَذَا لَا يَنْفِي أَنَّ الغنائم كَانَتْ مَوْجُودَةً فِي المَاضِي، لَكِنَّ الله لَمْ يُحِلَّهَا للمقاتلين، بَلْ كَانَت تَنْزِلُ نَارٌ مِنَ السَّمَاءِ تحرقها، وَإِنْ كَانَ فِيهَا شَيْءٌ مِنَ الْغُلُولِ فَلَا تنزل النار.

والحِكْمَة مِن إحراق الغنائم هي قطعُ التَّعَلُّقِ بِهَا نهائيًّا؛ لِأَنَّهَا لَوْ بَقِيَتْ لَتَدَاوَلَهَا النَّاسُ بالبَيْع والشِّراء والانْتِفاع، وصار مِلكًا لهم.

وَمِنَ المَعْرُوفِ أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَمُدُّ الأُمة بأشياءَ تستعين بِهَا فِي حَيَاتِهَا؛ فهو يَمُدُّ الإِنْسَان عامَّة بأشياءَ مُعَيَّنة لِأَجْلِ أَنْ يَصِلَ إِلَى الفَضِيلَة.

فالنَّبي ﷺ يستغفر ربه، مَعَ أَنَّ اللهَ قد غَفَرَ له ما تقدَّم مِن ذَنْبِه، وما تأخر، ونحن مأمورون بأن نُصَلِّيَ عليه، واللهُ تعالى يَقُولُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ [الأحزاب:٥٦]، فلا يلزم مِن الوُصول إلى الكمال ألَّا يسعى الإِنْسَانُ بأسبابِه.

ولو قال قائلٌ: كيف تَحِلُّ لنا الغنائم ونحنُ أفضلُ الأُمَمِ؟ لماذا لا يُوكَلُ الْأَمْرُ إِلَى مَناقِبنا وفضائلنا؟

فنقول له: هذا مِن نِعْمَة الله علينا، لا لأن نَصِلَ إلى درجة الكمال، ولكنه أَحَلَّ هَذِهِ المَغَانِم حتى نستعين بها.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: تمكينُ الإِنْسَانِ فِي الْأَرْضِ مِنْ نِعْمَةِ الله عليه؛ لقوله: ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [القَصَص:٦]، لأن هَذَا مِن جُملة ما أنعم به على بَنِي إِسْرَائِيلَ؛ أَنْ مَكَّنَهُم فِي الْأَرْضِ، فكونُ الإِنْسَان يُمَكَّن له فِي الْأَرْضِ، سواء كان هذا التمكين عَنْ طَرِيقِ سُلطة السُّلطان، أَوْ عَنْ طَرِيقِ سُلطة القُرْآن.

والتَّمكيـن فِي الْأَرْضِ ليس معناه أن الإِنْسَان يَحكم النَّاس؛ ليكون سلطانًا عليهم، لا، بل قد يكون التَّمكين للإنسان فِي الْأَرْضِ بتمكين قوله؛ حتى يكون له سُلطان على المُؤمِنينَ.

ولنأخُذْ شيخ الإِسْلام ابن تَيمِيَّة مثلًا، فَقَدْ مَكَّنَ اللهُ لَهُ فِي الْأَرْضِ أعظمَ مِن تمكين الوُلاة أنفسهم، فتمكينُ الوُلاة قد انقضى بِمَوْتِهم، أما ابن تَيمِيَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ فَقَدْ مَكَّن الله له بأنْ جَعَلَ قولَهُ مُعْتَبَرًا بَيْنَ النَّاس، وما زالت أقوالُه باقيةً حتى الآن.

فقَوْلُ مَن قام بالحقِّ لَهُ سُلْطَانٌ وقُوة، وهذا أيضًا جاء به الحديث، بأن اللهَ تعالى كما أخبر رسول اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَقَالَ: إِنِّي أُحِبُّ فُلَانًا

فَأَحِبَّهُ، قَالَ: فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي السَّمَاءِ فَيَقُولُ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، قَالَ ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ»[(١)].

أي: يَكُونُ لَهُ قَبُولٌ فِي الْأَرْضِ، ولقوله نَفَاذٌ، وَهَذَا مِنْ تمكين اللهِ تعالى فِي الْأَرْضِ، لكن قوله: ﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ﴾ هَذَا مِن جُملة الأمثلة على قُدْرَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن فِرْعَون وقومَه كانوا يَحْذَرون مِنْ بَنِي إسرائيل، فأراهم اللهُ تعالى ما كانوا يحذرون.

وهنا إشكال، وهو: كيف أراهم اللهُ تعالى مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ مَعَ أَنَّهُمْ هَلَكُوا؟

والجواب: أنهم أدركوا ذلك في آخِر لَحَظَاتِ حياتهم، وقَبْلَ خُروج الروح، وذلك ظاهِرٌ في قولِ فِرْعَونَ عندما أدركه الغَرَقُ: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [يونس:٩٠].

وبعضهم قال فِي قَوْلِه تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَنُرِيَ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنۡهُم مَّا كَانُواْ يَحۡذَرُونَ﴾ [القصص:٦]: ليس المرادُ الهلاكَ، بل المرادُ بما كَانُوا يَحْذَرُونَ مُنازعة آل فِرْعَون؛ فإن بَنِي إِسْرَائِيلَ لما بُعِث موسى اسْتَقْوَوْا، وقصة السَّحَرَةِ واضحةٌ فيها، لما اجتمعوا واجتمع النَّاس في يومِ عيدِهم، وفي الضحى في رَابِعَةِ النهار، وصارت الهزيمة على آلِ فِرْعَوْنَ، هزيمة حِسِّية ومعنوية: هُزِمُوا حِسًّا بأنَّ عَصَا موسى ﷺ جَعَلَتْ تَلْقَفُ ما يأفِكُون، وهُزموا معنًى بأنَّ السحرةَ أنفُسَهُم آمنوا، وصَرَّحُوا للملأ بأنَّ فِرْعَونَ هو الذي أَكْرَهَهُم على السِّحْر، وبَيَّنوا أن الرب الحقيقيَّ هو رَبُّ موسى وهارون سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فهذه هزيمةٌ معنوية، بالإضافة إلى الهزيمة الحِسِّيَّة.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب كلام الرب مع جبريل، ونداء الله الملائكة، رقم (٧٠٤٧)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب إذا أحب الله عبدًا حببه لعباده، رقم (٢٦٣٧).

وهذا ما غاظَ فِرْعَونَ وهامانَ وجُنودَهما، وهذ آيةٌ عظيمة، فظُهور بَنِي إِسْرَائِيلَ على آلِ فِرْعَوْنَ في ذلك المجمع العظيم كان له أكبرُ الأثر، فَقَدْ وعَدَهُم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بأن يَتَحَدَّاهُم يومَ الزِّينة: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾ [طه:٥٩]، و﴿يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾ هو يوم العيد، يتزين النَّاس فيه، ﴿وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ [طه:٥٩]، يُجمَعون في رابعة النهار.

نعم، هذا الموعدُ اقترحَهُ موسى؛ لأَنَّهُ واثقٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِأَنَّ الله سينصُره، وحَصَلَ هذا الاجتماعُ فِي هَذَا اليوم، وصار فِي الْحَقِيقَةِ يومَ عيدٍ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ، ويومَ شَرٍّ وسُوءٍ لِفِرْعَون، وهو نظيرُ ما قاله أبو جهلٍ بَعْدَ ذَلِكَ قَبْلَ غزوةِ بَدْرٍ: «وَاللهِ لَا نَرْجِعُ حَتَّى نَأْتِيَ بَدْرًا -وَكَانَتْ بَدْرٌ سُوقًا مِنْ أَسْوَاقِ الْعَرَبِ- فَنُقِيمَ بِهَا ثَلَاثًا، فَنُطْعِمَ بِهَا الطَّعَامَ، وَنَنْحَرَ بِهَا الْجُزُرَ، وَنَسْقِيَ بِهَا الْخَمْرَ، وَتَعْزِفَ عَلَيْنَا الْقِيَانُ، وَتَسْمَعَ بِنَا الْعَرَبُ، وَبِمَسِيرِنَا فَلَا يَزَالُونَ يَهَابُونَنَا بَعْدَهَا أَبَدًا»[1].

ولقد تحقق ذلك بالفعل، وسَمِعَت العربُ بما حَدَث في غزوة بَدر، ولكن انقلب الأمرُ عليهم، فما غَنَّتِ لهمُ القِيانُ، ولكن غَنَّت عليهم! فقد ظهر عَوَارُهم وجَبَرُوتُهم، حتى أَعَزَّ اللهُ الإِسْلام والمسلمين بعددهم.

نعود لِقصَّة موسى مع فِرْعَونَ، قَالَ تعالى: ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾ [الشعراء:٥٦]، نعم، لقد حصل ما كان يَحْذَرُ فِرْعَونُ وآلُه؛ وجعل اللهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أئمة.

ومِن المُفيد أن نذكُر أَنَّ الجَعْل له مَعانٍ متعددةٌ، وكلُّ معانيه تعود إلى التصيير فِي الْحَقيقة، لكن التصيير هو تصيير المعدوم موجودًا.

• • ۞ • •

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٣/ ٣٣).



الآيـة (٧)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص:٧].

قَالَ المُفَسِّـرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَأَوْحَيْنَآ﴾ وَحْيَ إِلْهَـامٍ أَوْ مَنَامٍ ﴿إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ وَهُوَ المَوْلُودُ المَذْكُورُ، وَلَمْ يَشْعُر بِوِلَادَتِهِ غَيْرُ أُخْتِهِ ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾ الْبَحْرُ أَيِ النِّيلُ ﴿وَلَا تَخَافِى﴾ غَرَقَهُ ﴿وَلَا تَحْزَنِىٓ﴾ لِفِرَاقِهِ ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ فَأَرْضَعَتْهُ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ لَا يَبْكِي، وَخَافَتْ عَلَيْهِ، فَوَضَعَتْهُ فِي تَابُوتٍ مَطْلِيٍّ بِالْقَارِ مِنَ الدَّاخِلِ، مُمَهَّدٍ لَهُ فِيهِ، وَأَغْلَقَتْهُ وَأَلْقَتْهُ فِي بَحْرِ النِّيلِ لَيْلًا].

قوله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ﴾: الوحيُ في اللغة: الإعـلامُ بسـرعةٍ وخفَاءٍ، ودليلُه قَوْلُهُ تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم:١١]، ويُطلَق على مَعانٍ متعـددة؛ منها:

الوحيُ الشرعي: وهو وحيُ النُّبوة، أو الرِّسالَة.

ووحيُ الإلهام: وهو ما يُعطيه اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في نفس الموحَى إليه.

ووحيُ النوم، فإن الرؤيةَ الصَّالِحَةَ جُزء مِن سِتة وأربعين جزءًا مِن النُّبوة[١].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التعبير، باب: الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة، رقم (٦٥٨٨).

فإذا نظرنا فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ فهنا وحيٌ، ولكن وحيُ النُّبُوَّةِ، أَوِ الرِّسالَة خيرٌ منه؛ لأن الذي أُوحي إليها ليس بِشَرْعٍ، بل هو أمرٌ بإرضاعِ موسى، إلى آخِره.

ثم إنَّ الصحيحَ أنه لم تُبعث واحدةٌ مِن النساء لتكون نبيًّا، قَالَ تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم﴾ [يوسف:١٠٩].

إذن: يكون الوحيُ هنا إمَّا إلهامًا، وإما مَنامًا، فالإلهام لَيْسَ بِشَيْءٍ غريب أَنْ تُلهَم امرأةٌ مَا يَكُونُ فِي مصلحتها، فالله تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَلْهَمَ النحلَ كما يُلْهِم بَنِي آدَمَ مَا فِيهِ مصلحتُه ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ [النحل:٦٨].

وَلِهَذَا قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿وَأَوْحَيْنَآ﴾ وحيَ إلهام، أو منام. فقولُه: أو هنا للتنويع، يعني لبيان الْخِلَافِ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ، فَإِنَّ بَعْضَ الْعُلَمَاءِ يَقُولُ: إِنَّ الوحيَ وحيُ إلهامٍ. وبعضهم يقول: إِنَّ الوحيَ وحيُ منام.

والمهم: أَنَّهُ لَيْسَ وحيَ رسالةٍ، أو نُبُوَّة.

وكنا قَدْ تَكَلَّمْنَا عَنِ الْوَحْيِ، وَقُلْنَا إِنَّهُ يَنْقَسِمُ إِلَى ثَلَاثَةِ أنواع:

الْأَوَّلُ: الوحي بالشرع، ويكون إطلاقًا، مِثل وحي الأنبياء، قَالَ تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ [النساء:١٦٣].

الثَّاني: الوحيُ بالإلهام، مِثْلُ قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ [النحل:٦٨].

الثالث: الوحي بالمنام، كَمَا يَقُولُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ**».

وقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص:٧]، يحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الوحيُ هُنَا مِنَ النوعين الثَّانِي وَالثَّالِثِ، أي الوحي بالإلهام، أو الوحي بالمنام.

وقوله تعالى: ﴿إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ [القصص:٧]، يعني: التي ولَدَتْه، وَهَذَا هُوَ الْأَصْلُ فِي الْأُمِّ، كَمَا قَالَ تعالى: ﴿إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ﴾ [المجادلة:٢].

وَأَمَّا الْأُمُّ مِنَ الرَّضَاعَةِ، فلا تُذْكَرُ مُطلقةً، وإنما تُذْكَرُ مُقَيَّدَةً، وَلِهَذَا قَالَ تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ﴾ [النساء:٢٣]، ثُمَّ قَالَ تعالى: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ﴾ [النساء:٢٣]، فالأُم مِنَ الرَّضَاعَةِ لَا تَدْخُلُ فِي مُطْلَقِ الأُم، بَلْ لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ مُقَيَّدَةً.

وإنما قررتُ هذا؛ لِيَتَبَيَّنَ أنَّ قَوْلَهُ تعالى: ﴿وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ﴾ [النساء:٢٣]، الْمُرَادُ بِهَا الْأُمُّ الَّتِي وَلدت، وليس الْأُمَّ الَّتِي تُرْضِع.

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾، وهو المولود المذكور، ولم يَشْعُر بولادته غيرُ أُخْتِه].

ونحن هنا نسأل: أين المولودُ المذكور؟ المولودُ الْمَذْكُورُ هُوَ موسى؛ لِأَنَّهُ مَا مِنْ أُمٍّ إلا ولها ولدٌ، فقوله: [ولم يَشْعُر بولادته غيرُ أُخْتِه]. هَذَا مِنَ الْأَقْوَالِ الإسرائيلية الَّتِي لَا تُصَدَّقُ، ولا تُكَذَّب، فَنَحْنُ لَا نملك دَلِيلًا عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَشْعُرْ بِهِ إِلَّا أُمُّه.

وقوله تعالى: ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾: ﴿أَنْ﴾ هَذِهِ تَفْسِيرِيَّة، وضابط التَفْسِيرِيَّة: الَّتِي تَقَعُ بَعْدَ مَا فِيهِ مَعْنَى الْقَوْلِ دُونَ حُروفِه، فكل (أَنْ) إِذَا وَقَعتْ بَعْدَ مَا فِيهِ مَعْنَى الْقَوْلِ دُونَ حُروفه، فهي تَفْسِيرِيَّة. كَمَا فِي قَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ﴾ [المؤمنون:٢٧].

قَوْلُهُ تعالى: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾ هنا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ هناك خَوْفًا مِن فِرْعَونَ وآله، الَّذِينَ كَانُوا يبحثون عن الأولاد ليَقْتُلُوهم، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ﴾، فَسَّرَهُ بقوله: البَحر. ثُمَّ فَسَّرَ البَحر بقوله: أي النِّيل. فاليمُّ هو البحر، كَمَا قَالَ اللهُ تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ﴾ [القَصص:٤٠]، واليمُّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ هُوَ البَحر، ولكن اليَمُّ المُرَادُ فِي الْآيَةِ الَّتِي بَيْنَ أَيْدِينَا هو النِّيل، وسُمِّيَ بَحْرًا -وَإِنْ كَانَ نهرًا- لِكَثْرَتِه واتِّسَاعِه.

قَوْلُهُ تعالى: ﴿فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي﴾، قوله: ﴿فَإِذَا خِفْتِ﴾ هَذَا فِعْلُ الشرط، وجوابُ الشرط: ﴿فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ﴾، وَهُوَ مِنَ الغرائب، أَنْ يُلْقَى مَن يُخَافُ عَلَيْهِ فِيمَا فِيهِ هَلَاكُهُ؛ لأن إلقاءه فِي الْبَحْرِ معناه استعجالُ الهلاكِ له؛ فمِن المعروف أَنَّهُ يَمُوتُ إِذَا أُلْقِيَ فِي الْبَحْرِ، وَهَذَا مِنْ آيَاتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ أَنْ يُلْقَى مُوسَى فِي مَكَانِ الخوف، فلا يموت، ثم يعيش بين أحضان فِرْعَون، الَّذِي كَانَ يتتبع أَوْلَادَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فيُقَتِّل أبناءَهم، ويستحيي نساءَهم، وَهَذَا مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى كَمَالِ قُدْرَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وَأَنَّ اللهَ إِذَا حَمَى أحدًا، فإن الأَسْباب المُؤَدِّيَة إِلَى الْهَلَاكِ لَا تُؤَثِّرُ، وَلَا يَكُونُ لَهَا تَأْثِيرٌ، وأَمَّا قُدْرَةُ اللهِ فَهِيَ فوق الأَسْباب، فالنار مُحْرِقة بلا شكٍّ، ولكن صَارَتْ عَلَى إِبْرَاهِيمَ بَرْدًا وَسَلَامًا.

قَوْلُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَخَافِي﴾، قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿تَخَافِي﴾ غرقَهُ. وَهُوَ مَفْعُولٌ محذوفٌ مُقَدَّر للفِعل ﴿تَخَافِي﴾.

قَوْلُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنِيٓ﴾ قال: [لِفِرَاقِه]؛ لأن الحزن يَكُونُ فِي المَاضِي، وَالْخَوْفَ فِي الْمُسْتَقْبَلِ، فما أَهَمَّ الإِنْسَانَ إِذَا كَانَ مستقبلًا، فهو خوفٌ، وَإِنْ كَانَ ماضيًا فهو حُزن، فهنا قَالَ اللهُ لَهَا: ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ﴾؛ فَإِنَّ الْأَمْرَ سيكون عَلَى خِلَافِ مَا

تتوقعين، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

قَوْله تعالى: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ﴾ هنا جاءت الجُملة اسميَّةً، وليس فِعلِيَّة، كَأَنْ يَقُولَ مثلًا: نردُّه. والجملة الاسمية تَدُلُّ عَلَى الثُّبوت والاستقرار.

وقوله: ﴿إِنَّا﴾ بضميرِ الجمع للتعظيم، فاللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يُخْبِرُ عَنْ نَفْسِهِ بصيغة التعظيم.

وَقَوْلُهُ: ﴿رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾ أي: مُرْجِعُوه، ولا يُبَيِّنُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى المُدَّةَ الَّتِي ستفقده أُمُّه فيها، ولكن الظَّاهر أَنَّهَا لَيْسَتْ بِبَعِيدَة، كَمَا سَيَأْتِي فِي آخِرِ الْقِصَّةِ.

وَقَوْلُهُ تعالى: ﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ هَذِهِ بِشارةٌ فوقَ البِشَارَةِ الأُولى، وَهُوَ أَنْ يَكُونَ هَذَا المولود ﴿مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، أي: ممن أرسلهم اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وأفضلهم بالرِّسالَة.

وهَذِهِ الْآيَةُ فِيهَا أَمْرَانِ، ونَهْيَان، وبِشَارَتَان.

أمَّا الأمران: فقولُه تعالى: ﴿أَرْضِعِيهِ﴾ وقوله: ﴿فَأَلْقِيهِ﴾.

وَأَمَّا النَّهْيَانِ: فقوله تعالى: ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ﴾.

وأما البِشَارَتَان: فقوله تعالى: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

ثُمَّ قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [فَأَرْضَعَتْهُ ثَلاثَةَ أَشْهرٍ لَا يَبْكِي، وَخَافَتْ عَلَيْهِ، فَوَضَعَتْهُ فِي تَابُوتٍ مَطْلِيٍّ بِالقَارِ مِنْ دَاخِلٍ مُمَهَّدٍ، وَأَغْلَقَتْهُ، وَأَلْقَتْهُ فِي بَحْرِ النِّيلِ لَيْلًا].

قوله: [أَرْضَعَتْهُ ثَلاثَةَ أَشْهرٍ]. لَا نَجِدَ فِي الْآيَةِ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ، ولكنها -لَا شَكَّ فِي ذَلِكَ- امتثلت لِأَمْرِ اللهِ بإرضاعه، ولما خَافَتْ عَلَيْهِ ألقته.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فَوَضَعَتْهُ فِي تَابُوتٍ]، أَخَذَهُ مِنْ آيَةٍ أخرى: ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِي ٱلْيَمِّ﴾ [طه:٣٩]، وَهَذَا مِنْ إرشاد الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ له؛ لِأَنَّهُ مَا أَمَرَهَا أَنْ تُلْقِيَه وتُسَلِّم فِي الْبَحْرِ، وإنما أَمَرَهَا أَنْ تُلْقِيَه في تابوت؛ ليكون حفظًا له.

والتابوت يَكُونُ مِنَ الْخَشَبِ، والخشبُ عادةً يَطْفُو عَلَى المَاءِ، وَلَا يَغْرَق، فإذا جُعِل فيه القارُ، فإنه أيضًا يَمْنَعُ مِنْ دُخُولِ الماء إليه؛ لِأَنَّهُ رُبَّما إِذَا دَخَلَ الماء إليه، وتسلل فِي الخَشَبَ، يَثْقُلُ ثم يغُوص.

وَأَمَّا قَوْلُه: [وَأَلْقَتْهُ فِي بَحْرِ النِّيلِ لَيْلًا] ربما يُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا﴾ [القَصَص:١٠]، أنها ألقته فِي اللَّيْلِ، ثم جعلت توسوس فيه، وتَهْتَمُّ له، حَتَّى كَانَت لا تُفكِّر فِي غَيْرِهِ، كَمَا سَيَأْتِي.

ثُمَّ إِنَّهُ مِمَّا يؤيد ذَلِكَ أَنَّ المَرْأَةَ قد خَافَتْ عَلَيْهِ، وإذا خَافَتْ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ مِنَ المستبعد عَادَةً أَنْ تَخْرُجَ به نهارًا، وتُلقيه أمامَ النَّاس، فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ لَيْلًا، فَيَكُونُ هَذَا الْحُكْمُ بِأَنَّهُ (ليلًا) مَأْخُوذًا مِنَ الْآيَةِ، وَمِنَ العادة، بِأَنَّ هَذَا لَا يَكُونُ إِلَّا فِي اللَّيْلِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: قَوْلُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى إكرام اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لأُم موسى، وهذا الإكـرامُ يُفْهَمُ مِن عِدَّة أوجُـه حقيقةً، يُفْهَمُ مِـنَ الْوَحْيِ والإلهـام، ومِن تَطْمِينِها فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ﴾، ومِن بِشارتها بأنه سيُردُّ إليها، ويجعله اللهُ مِنَ المُرْسَلِينَ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: فِيهَا بَيَانُ عناية اللهِ تعالى بموسى.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: فِيهَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الأنبياءَ كغيـرهم مِنَ الْبَشَـرِ، يَحْتَاجُونَ إِلَى الغِذاء؛ لقوله ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: وجوب الإِرضَاع، إذا جعلنا الْأَمْرَ لِلْوُجُوبِ، لا للإرشـاد، ولكن القَواعِد الشرعية تَقْتَضِي وُجُوبَ الإرضاعِ، وإنقاذَ المعصوم.

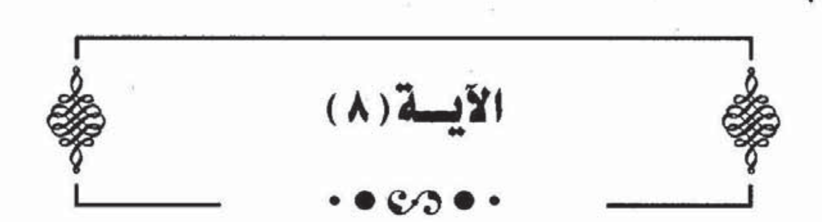
الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: بيانُ قُوَّةِ إيمان أُمِّ مُوسَى، وَهَذَا مِنْ مَناقبها؛ لأنَّها ألقت بِهِ فِي الْيَمِ، وهو ابنها، وهذا شَيْءٌ لَا يَقَعُ إِلَّا للمؤمن حقًّا.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: بيان قُدْرَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ فِي هَذَا الْوَلَدِ الصغير، الذي أُلْقِيَ فِي الْيَمِّ الْمُهْلِك، ولا حَافِظَ لَهُ إِلَّا اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، كيف صار في آخِرِ أَمْرِهِ مِنَ الرُّسُلِ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أَنَّهُ يَنْبَغِي طَمْأَنة المحـزونِ ببشارَته بمستقبله؛ لِأَنَّهُ يَقُولُ: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: إثبات الرِّسالَة لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

• • ۞ • •



الآية (٨)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ﴾ [القَصَص:٨].

•••

قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُٱللَّهُ: [﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ﴾ بِالتَّابُوتِ صَبِيحَةَ اللَّيْلِ ﴿ءَالُ﴾ أَعْوَانُ ﴿فِرْعَوْنَ﴾ فَوَضَعُوهُ بَيْنَ يَدَيْهِ وَفُتِحَ، وَأُخْرِجَ مُوسَى مِنْهُ وَهُوَ يَمُصُّ مِنْ إِبْهَامِهِ لَبَنًا ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ﴾ فِي عَاقِبَةِ الْأَمْرِ ﴿عَدُوًّا﴾ يَقْتُلُ رِجَالَهُمْ ﴿وَحَزَنًا﴾ يَسْتَعْبِدُ نِسَاءَهُمْ وَفِي قِرَاءَةٍ بِضَمِّ الْحَاءِ، وَسُكُونِ الزَّايِ لُغَتَانِ فِي المَصْدَرِ، وَهُوَ هُنَا بِمَعْنَى اسْمِ الْفَاعِلِ مِنْ حَزَّنَهُ كَأَحْزَنَهُ ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ﴾ وَزِيرَهُ ﴿وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ﴾ مِنَ الْخَطِيئَةِ، أَيْ عَاصِينَ، فَعُوقِبُوا عَلَى يَدَيْهِ].

قوله: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ﴾، أي: أخذَ آلُ فِرْعَوْنَ التابوتَ صبيحة الليل، وَلَمْ يَقُلْ (أخذه)؛ لأَنَّهُ أَصْبَحَ فِي حُكْمِ اللَّقِيط المنبوذِ، وَأَهْلُ الْعِلْمِ يَقُولُونَ: إِنَّ اللَّقِيطَ هُوَ الطِّفل المنبوذ الذي طُرِح، فهو يُسمى لقيطًا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ﴾.

وقوله: ﴿ءَالُ فِرْعَوْنَ﴾ قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُٱللَّهُ: [آلُهُ أَيْ: أَعْوَانُهُ]، فَيَحْتَمِلُ أَنَّ آله أي: قَرابته.

عَلَى كُلِّ حَالٍ: المهم أَنَّهُ أَخذَهُ مَن يَنْتَسِبُ إِلَى فِرْعَوْنَ، وَهُوَ المَلِكُ.

والالتقاط يَكُونُ بِقَصْدٍ؛ لأن المُلتَقِط الذي يَلْتَقِطُ اللَّقِيط المنبوذ مَثَلًا فِي

الشارع، أَوِ المَسْجِدِ، يريد أَخْذَه، لكن هناك قد يشعر بأنه شيء ظَفَرَ بِهِ، لكن العلماء يقولون: الالتقاط يَكُونُ فِي الطفل المنبوذ. فوَضَعَهُ آلُ فِرْعَوْنَ بَيْنَ يَدَي فِرْعَون، وَكَانُوا لَا يَشْعُرُونَ بالذي فيه، وربما يظنون أَنَّ الَّذِي فِيهِ مَالٌ مِنَ الأموال.

وفُتح التابوتُ، [وَأُخْرِجَ مُوسَى مِنْهُ وَهُوَ يَمُصُّ مِنْ إِبْهَامِهِ لَبَنًا] معناه: يُرضِع نَفْسَهُ مِنْ نَفْسِهِ، وَهَذَا مِمَّا لَا نَعْلَمُهُ، لكن مِمَّا لَا شَكَّ فِيهِ أَنَّ التابوتَ فُتِح كالعادة؛ لِأَنَّ الشَّيْءَ المُغْلَقَ لَا بُدَّ أَنْ يفتحه الإِنْسَانُ، وَيَنْظُرَ مَا فِيهِ، وَأَمَّا كَوْنُهُ يَمُصُّ مِن إبهامه لَبَنًا، فَهَذَا مِنَ الْأُمُورِ الإسرائيلية الَّتِي لَا تُصَدَّقُ، ولا تُكَذَّب، إِنْ لَمْ نَقُلْ: إنها كاذبة؛ لِأَنَّ هَذَا بَعِيدٌ مِنَ الْعَادَةِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ﴾ فِي عَاقِبَةِ الأمر، وَالضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ ﴿لِيَكُونَ﴾ يَعُودُ عَلَى مُوسَى، وَالضَّمِيرُ فِي ﴿لَهُمْ﴾ يَعُودُ عَلَى آلِ فِرْعَوْنَ، وَيَدْخُلُ فِي آلِ فِرْعَوْنَ نَفْسِه.

وقولُه ﴿لِيَكُونَ﴾ قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [فِي عَاقِبَةِ الأَمْرِ] إِشَارَةً إِلَى أَنَّ اللامَ هنا للعَاقِبَةِ، وليست للتَّعلِيل؛ لِأَنَّهُمْ لَوْ شَعَرُوا بأنه يَكُونُ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا لَقَتَلُوه، ولكن العاقبة أَنَّهُ كَانَ كَذَلِكَ.

وما ذَهَبَ إِلَيْهِ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ مِنْ أَنَّ اللامَ هنا للتَّعلِيل، باعتبار عِلْم الله، لَهُ وَجْهٌ، يعني: ﴿فَالْتَقَطَهُ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ فِي عِلْم الله، وليست تعليلًا للالتقاط، هَذَا لَهُ وَجْهٌ، لكن الأقربُ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ المُفَسِّر وَغَيْرُهُ مِنْ أن اللام هنا للعاقِبة، وليست للتَّعلِيل.

واللام الَّتِي تَدْخُلُ عَلَى الْفِعْلِ المضارع تَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ: زائدة، وغير زائدة. اللَّام الزَّائِدة تكون للتَّعلِيل، وتكون للعاقبة، وتكون لتأكيد النفي، وَهَذَا لَيْسَ

لغير الزَّائِدة، والزَّائِدة هِيَ الَّتِي تَقَعُ فِي الْغَالِبِ بَعْدَ فِعْلِ الإرادة، مِثْلَ قَوْلِهِ تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ [النساء:٢٦]، وقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ﴾ [الأحزاب:٣٣]، فَإِنَّ اللَّامَ هنا زائدة؛ لِأَنَّك لَوْ حذفتَها وقَدَّرْتَ (أَنْ) ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُذهب، تَمَّ الكلام.

واللام غير الزَّائِدة تكون للتَّعلِيل، مِثل قولك: حَضَرْتُ لأَتَعَلَّم، أي: مِنْ أَجْلِ أَنْ أتعلَّم، وتكون لتأكيد النفي، مِثْلَ قَوْلِهِ تعالى: ﴿لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ [النساء:١٣٧]، ولهذا يُسَمِّيها النحويون لامَ الجُحُود، يعني: النفي، فهي لتأكيد النفي.

والثالثة تكون للعاقبة، مِثْل هَذِهِ الْآيَةِ ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾، وَهِيَ الَّتِي تَكُونُ بَعْدَ (كان) مضارعًا كانت، أَوْ فِعْلًا ماضيًا.

وَقَوْلُهُ: [﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا﴾ يقتُل رِجالَهُمْ، ﴿وَحَزَنًا﴾ يَسْتَعْبِدُ نِسَاءَهُمْ]، هَذَا فِيهِ نَظَرٌ، بل الظَّاهِرُ أَنَّهُ ﴿عَدُوًّا﴾؛ لِمَا يَحْصُلُ عَلَى يَدَيْهِ مِنَ الأضرار البالغة لآل فِرْعَون، ﴿وَحَزَنًا﴾ لأَنَّهُ سوف يُحزنهم حين يَظْهَرُ لَهُ مِنَ الانتصار العظيم، وأَبْلَغُها حين انتصر يومَ الزينة؛ فإنه انتصر عليهم انتصارًا بالغًا باهرًا، وحصل لهم بِهَذَا مِنَ الحُزن مَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وَلَمْ نَعْلَمْ أَنَّ مُوسَى ﷺ قتَل رجال آلِ فِرْعَوْنَ، وَلَا أَنَّهُ استعبد نساءهم، وإنما المَعْرُوفُ أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أغرقهم بفعله، [وَفِي قِرَاءَةٍ بِضَمِّ الْحَاءِ وَسُكُونِ الزَّايِ لُغَتَانِ فِي المَصْدَرِ، وَهُوَ هُنَا بِمَعْنَى اسْمِ الْفَاعِلِ مِنْ حَزَنَهُ كَأَحْزَنَهُ]، إِذَا قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فيه قراءة. فهو يعني: سَبْعِيَّة، وَإِذَا قَالَ قُرِئَ، فهو يعني قِرَاءَةٌ شَاذَّةٌ.

قال: [بِضَمِّ الْحَاءِ وَسُكُونِ الزَّايِ] «لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وحُزْنًا»، حُزْنًا وحَزنًا

معناهما واحِدٌ، وهما لُغتان في المصدر، يقول: حَزَنَه كأَحْزَنَهُ. يعني: أن الحَزن الَّذِي لَيْسَ مزيدًا بالهمزة مِثل: أَحْزَنَه المزيد بالهمزة مِنْ حِيْثُ التَّعَدُّد.

وقوله: [بِمَعْنَى اسْمِ الْفَاعِلِ هُنَا] أي: حازِن، أي: مُحزِن، وقد أوَّله المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ إِلَى هَذَا؛ لأن الحُزن شُعور بالنَّقْصِ، وموسى ﷺ مُدْخِل لهذا الشعور -وهو الحُزْنُ- فِي أَنْفُسِهِمْ، وَعَلَى هَذَا فيكون ﴿وَحَزَنًا﴾ بمعنى: حازنًا.

والمصدر أحيانًا يَأْتِي بِمَعْنَى اسم الفاعل، وأحيانًا بمعنى اسم المفعول، فيقال: فلانٌ عَدْلٌ رِضًى، ويقال أيضًا: فلانٌ ثِقَةٌ. وعَدْلٌ، ورِضًى، وثِقَةٌ مصادرُ بمعنى اسم الفاعل: عادل، وهو اسم فاعل، ومَرْضِيٌّ، وموثوق، وكلاهما اسم مفعول.

وقوله ﷺ: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**»[(١)]، هذا مصدر بمعنى اسم مَفْعُول.

﴿فَالْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾، الْعَدُوُّ عِنْدَ الْفُقَهَاءِ حَدُّوه بتعريف، هُوَ الْحُكْمُ فِي الواقع، فقالوا: إِنَّ الْعَدُوَّ مَنْ سَرَّهُ مَساءة شخصٍ، أو غَمَّه فَرَحُه، فهو عَدُوُّه.

كُلُّ إِنْسَانٍ يَسُرُّه أَنْ تُسَاءَ، ويَحْزُنه أَنْ تُسَرَّ؛ فهو عَدُوٌّ، وَكُلُّ إِنْسَانٍ يَسُرُّه أَنْ تُسَرَّ، ويُحزنه أن تَحْزَنَ؛ فَهُوَ وَلِيٌّ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ﴾ هَذِهِ الجملة تعليلٌ لقوله: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ كَأَنَّهُ قِيلَ: لماذا يكون ﴿لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾؟ فتبيَّنَ أَنَّ السَّبَبَ فِي ذَلِكَ هُوَ خَطَأُ هؤُلاءِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب إذا اصطلحوا على صلح جور، رقم (٢٦٩٧)، مسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، رقم (١٧١٨).

﴿فِرْعَوْنَ﴾: المَلِك، ﴿وَهَـٰمَـٰنَ﴾: وَزِيرُه، ﴿وَجُنُودَهُمَا﴾: أتباعهما الَّذِينَ يَمْتَثِلُونَ بأَمْرِهِما، وكلمة جنود: جمع جُند، والجُند هم أنصار الإِنْسَان.

قوله تعالى: ﴿كَانُواْ خَـٰطِـِٔينَ﴾ مِن الخطيئة، أي: عاصين، فعُوقبوا عَلَى يَدَيْه.

وهناك فرقٌ بين الخاطئ والمخطئ؛ فالخاطئ -مثلًا- مَنْ قَتَلَ مُتَعَمِّدًا، أَمَّا مَنْ قَتَلَ غَيْرَ مُتَعَمِّد فَهُوَ مُخْطِئٌ، ولذلك فإن الخاطئ مُعذَّب، والمخطئ غير مُعذَّب، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿نَاصِيَةٍ كَـٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ [العلق:١٦].

والمخطئ لَيْسَ عَلَيْهِ إِثْمٌ، قَالَ تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة:٢٨٦]، والفعل مِن خاطئ: خَطِئَ، والفعل مِن مُخطئ: أخطأ. هَذَا هُوَ الْفَرْقُ.

إذن: قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿خَـٰطِـِٔينَ﴾ أي: وَاقِعِيْنَ فِي الْخَطَأ عَن عَمْدٍ وقَصْد، وَلِهَذَا قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [أَيْ: عَاصِينَ فَعُوقِبُوا عَلَى يَدَيْهِ].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أَنَّ أَتْبَاعَ الرَّجُلِ وحاشيتَه مِن آلِه؛ لقوله: ﴿ءَالُ فِرْعَوْنَ﴾ وقد علمنا أن المفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ فَسَّرَهَا بِقَوْلِهِ: [أعوانُ فِرْعَون].

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّ الإِنْسَانَ مَهْمَا بَلَغَ فِي العُتُوِّ والاستِكْبار، فَإِنَّهُ لَا يَعْلَمُ المستقبَل، وهذا مَأْخُوذٌ مِنْ أَنَّ آلَ فِرْعَوْنَ مَا عَلِمُوا أَنَّ هَذَا الطفل سيكون عَدُوًّا لهم وحَزَنًا.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ أعداءٌ للكُفَّار؛ لقوله: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا﴾، وأنهم أيضًا حَزَنٌ لهم، وَهَذَا أَمْرٌ ظَاهِرٌ.

وَلَا شَكَّ أنهم يُساءون بما يَسُرُّهم، والعكس صحيح.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّ الإِنْسَانَ قَدْ يسعى لِمَا فِيهِ حَتْفُه؛ لِأَنَّ هَؤُلَاءِ سَعَوْا فِيمَا فِيهِ حَتْفُهم؛ فَقَدِ التقَطُوا هذا الطِّفْلَ الَّذِي سيكون عَدُوًّا لهم وحَزَنًا.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: بيان قُدْرَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي هَذَا الطفل الصَّغِيرِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، الَّذِينَ كَانُوا يُقَتَّلُ أبناؤهم، أَرَادَ اللهُ بِقُدْرَتِه أَنَّ الذي يُؤوِيه ويُرَبِّيه فِي بَيْتِهِ هو فِرْعَونُ نَفْسُه، الَّذِي أَمَرَ بِالْبَحْثِ عَنِ الأولاد مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ليقتُلهم.

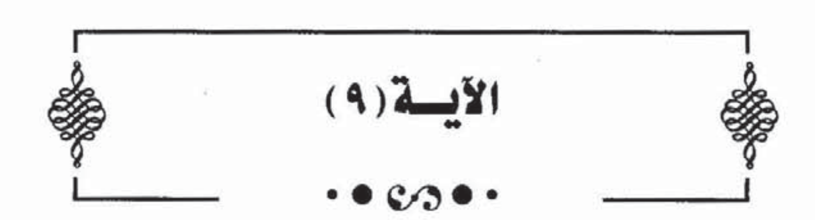
فكأن اللهَ تعالى يَقُولُ لَهُ: أنت تقتُل الأولادَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وقد أرسلتُ لك وَاحِدًا مِنْهُمْ، فعاشَ فِي حِجْرِك.

وَهَذَا مِنْ أَكْبَرِ الأدلة على قُدْرَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وَأَنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَعْتَمِدَ عَلَى الْأَسْبَابِ المادِّيَّة، فإن اللهَ تعالى يُغَيِّرُ الأحوال.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: بَيَانُ أَنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا عَلَى باطل؛ لقوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَـٰطِـِٔينَ﴾، وَفَرْقٌ بَيْنَ الخاطئ والمخطئ، فالخاطئ: الذي يرتكب المعصية عَنْ عَمْدٍ، والمخطئ: الذي يرتكبها عَنْ غَيْرِ عَمْد، أَوْ عَنْ جَهْلٍ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: فِيهَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ لِهَامَانَ -وَهُوَ وزير فِرْعَون- سُلطة كبيرة فِي مَمْلَكَةِ فِرْعَونَ؛ لقوله: ﴿وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَـٰطِـِٔينَ﴾ ففي عدة آياتٍ يُضيف اللهُ عَزَّوَجَلَّ الجنودَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَحْدَه، باعتبار أن فِرْعَون هُوَ المَلِكُ، ولكنه هنا أضاف الجنودَ لِفِرْعَونَ وهامانَ، وذلك لِيُبَيِّنَ قوة تَأْثِيرِهِ فِي الحُكْمِ.

• • ۞ • •



الآية (٩)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [القَصص:٩].

•• ● ● ••

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ﴾ وَقَدْ هَمَّ مَعَ أَعْوَانِهِ بِقَتْلِهِ هُوَ ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ فَأَطَاعُوهَا ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بِعَاقِبَةِ أَمْرِهِمْ مَعَهُ].

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ﴾ وَقَدْ هَمَّ مَعَ أَعْوَانِهِ بِقَتْلِهِ]، أي: بقتل موسى، [هو ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾]، كلمة ﴿قُرَّتُ﴾ مكتوبة بالتاء المفتوحة، والقاعدة أَنْ تَكُونَ بالتاء المربوطة، وَهِيَ كَذَلِكَ فِيمَا بَقِيَ مِنَ الْآيَاتِ بالمربوطة ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ [الفرقان:٧٤]، بالتاء المربوطة، ولم تأتِ مفتوحةً إِلَّا فِي هَذَا الْمَوْضِعِ مِنَ القُرْآن، وذُكرت فِي الْقُرْآنِ فِي مَوْضِعَيْنِ سِوى هذا بالتاء المربوطة.

وَإِذَا قِيلَ: مَا الْفَرْقُ؟

نقول: إِنَّ هَذَا يُتبع فيه الرسمُ العثماني، هكذا رسمه الصَّحَابَةُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ.

وقوله ﴿وَقَالَتِ﴾ تَوَجَّهَ الْخِطَابُ فِيهِ إِلَى فِرْعَوْنَ، وقوله: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ﴾ قَدَّر الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ [هو]؛ لِيُبَيِّنَ أَنَّهُ خبرُ مبتدأ محذوف، وَهُوَ مَأْخُوذٌ مِنَ القَرِّ، أَوْ مِنَ القَرَار،

ويَصِحُّ مِنْهُمَا جَمِيعًا، مِن القَرِّ، وهو البَرد؛ لِأَنَّ الْعَيْنَ إذا بَرَدَت، فَإِنَّهَا تَكُونُ عَلَامَةً عَلَى السُّرور، ولهذا يقال: دَمُ السُّرور بارد، ودَمُ الحُزن حارٌّ.

ويقال: يبكي عليه بدمعٍ حَارٍّ، يعني: مِنَ الْحُزْنِ.

إذن نقول: قُرةُ العَين كِنَايَةٌ عَنِ بُرودتها، وبُرودة العين دَلِيلٌ عَلَى السرور.

وقيل: إِنَّهَا مِن قَرَّ بالمكان، وهو القَرار وعدمُ الاضطراب؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا كَانَ خَائِفًا بدأت عينُه تَجُول مِن هنا، ومِن هنا، تَشْخَصُ وتَجُولُ وتلتفت، لَكِنْ هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهَا قارَّة، ولكن قرارها دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهَا لَمْ تَخَفْ.

قَوْله تعالى: ﴿قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا﴾. قولها: ﴿لَا تَقۡتُلُوهُ﴾ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ هَمُّوا بقتله، وإلَّا لَمَا كَانَ لقولها: ﴿لَا تَقۡتُلُوهُ﴾ فائدة.

وقوله تعالى: ﴿لِّي وَلَكَ﴾ لَا شَكَّ أنه وَقَعَ الْأَمْرُ كَما توقَّعَتْ، وصار هَذَا الْوَلَدُ قُرَّةَ عَيْنٍ لها، ورِفعة لَهَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وأما لِفرعونَ فلا، فما صَارَ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ قُرَّةَ عَيْنٍ، بَلْ كَانَ لَهُ عَدُوًّا وَحَزَنًا.

ومِن غرائب التَّفْسِيرِ أَنَّ بَعْضَهُمْ كَانَ يَقْرَأُ هَكَذَا: ﴿قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي﴾ ويقِفُ، ثُمَّ يَقْرَأُ: ﴿وَلَكَۖ لَا﴾، ثم يَقِف، ثُمَّ يَقْرَأُ: ﴿تَقۡتُلُوهُ﴾ جملة مُستأنَفة، وَهَذَا فِي الْحَقِيقَةِ مِن التلاعُب بالقُرْآن؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ كَمَا يَقُولُونَ لَقَالَ اللهُ تعالى (تقتلونه)؛ إِذْ إِنَّ حذفَ النُّون هُنَا لَا نَعْلَمُ لَهُ سَبَبًا سِوى النهي، فكيف يُفسَّر كَلَامُ اللهِ بِمِثْلِ هَذِهِ التفاسير الواردة، ولكن ذكرناه؛ لِأَنَّهُ قَدْ قِيلَ بِهِ، حَتَّى إِنَّهُ رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1] وَلَكِنْ هَذَا مِنْ أَبْعَدِ مَا يَكُونُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ؛ لِمَا فِيهِ مِنْ تفكيك الكلام وتَنَاثُره،

(١) معاني القرآن للفراء (٢/ ٣٠٢).

وعدم التئام بعضه مَعَ بَعْضٍ، ولأن النون فِي الْفِعْلِ ﴿تَقْتُلُوهُ﴾ محذوفة، مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ ﴿لَا﴾ مُسلَّطة عليه.

ولكن امرأة فِرْعَون رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا؛ إما أَنَّهَا قَالَتْ ذَلِكَ مِنْ بَابِ التهدئة له، ولتُفرحه، وإما أنها قَالَتْ ذَلِكَ معتقدةً له، وَلَكِنْ لَيْسَ مَنِ اعتقدَ شيئًا يَكُونُ الْأَمْرُ عَلَى وِفَاقِ مَا اعْتَقَدَ، بَلْ قَدْ يُخْلِفُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى اعتقادَ الإِنْسَان؛ لِحكمة يُريدها، وَهَذَا لَا مَانِعَ مِنْ أَنْ تَقُولَه معتقدةً أَنَّهُ سَيَكُونُ قُرَّةَ عَيْنٍ له ولها أيضًا، وَيَدُلُّ عَلَى هَذَا قولها: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا﴾.

قوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ﴾ للترجِّي، وقوله: ﴿يَنفَعَنَآ﴾ للخدمة، ﴿أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا﴾ نتبنَّاه.

وَقَدْ قِيلَ: إِنَّهُ لَيْسَ لِفِرْعَونَ مِنِ امْرَأَتِهِ ولدٌ، فقالت: ﴿أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا﴾، وَمَعْلُومٌ أَنَّ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ فرقًا، فإن انتفاعَهم بِهِ لَا يجعلهم يَحْنُون عَلَيْهِ كَمَا يَحْنُون عَلَى الْوَلَدِ، فالخادم عِنْدَ الْإِنْسَانِ يأمرُه وينهاه، وَلَا يَكُونُ فِي قَلْبِهِ لَهُ مِنَ الرَّحْمة والرأفة والعطف مَا يَكُونُ للولد، وَلِهَذَا قَالَت: ﴿أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا﴾، وهذا انْتِقَالٌ مِنَ الْأَدْنَى إِلَى الْأَعْلَى.

إذن: هي تُرِيدُ أَنْ تَقُولَ: نحن لسنا محرومين مِنْ هَذَا الْوَلَدِ؛ فَإِمَّا أَنْ نتخذه خادمًا ننتفع به، وإما نَتَّخِذَهُ وَلَدًا نفخر به، ويكون لَنَا فِي مَنْزِلَةِ الولد.

وهناك احتمال ثالث لِمَا سَبَقَ، فلا ينفعهم، ولا يتخذونه ولدًا، وَلَكِنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ فِي مِثْلِ هَذَا السياق؛ لأَنَّهَا تريد ترغيبهم في إبقائه، والترغيب في الإبقاء لَا تَذْكُرْ فِيهِ إِلَّا الصفات المرغوبة، وَهِيَ أَنْ ينفع، أو يُتخَذ ولدًا.

وقد يـدلُّ تَبَنِّيهَا لموسى عَلَى أَنَّهَا كَانَتْ عاقرًا لا تلد، وَقَدْ لَا يَـدُلُّ عَلَى ذَلِكَ؛ فالمرأةُ قد تتخذ الولد زِيَادَةً عَلَى مَا عندها، ولكننا عندما لَا نَجِدَ دَلِيلًا بَيِّنًا لما نقول: وربما يَكُونُ كَذَا.

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، هَـذِهِ جُمْلَةٌ الظَّاهر أَنَّهَا مِن كَـلَامِ اللهِ، يعني ﴿وَهُمْ﴾ أي: آلُ فِرْعَوْنَ ومنهم المرأة، ﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾ بعاقبة أَمْرِ هَذَا الْوَلَدِ؛ لِأَنَّهُمْ لَوْ شعروا بعاقبة أَمْرِه لَمَا قَبِلُوا منها مَشُورَتها، وَلَكِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أعمى ذَلِكَ عَنْهُمْ.

بعضهم يقول ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ آلُ فِرْعَـوْنَ لَا يَشْعُرُونَ بمـا تريده المرأة، وكأنَّ المرأة ألهمها اللهُ عَزَّوَجَلَّ مآلَ هَذَا الرَّجُلِ، وأمَّا هُم فلا يشعرون، لكن الأقرب أَنَّهُ مِنْ كلام اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ومِن الظَّاهِرِ أَنَّ امْرَأَةَ فِرْعَونَ لَمْ تَكُنْ قَدْ أسلمت حينئذ، فَقَدْ كَانَتْ زوجته، وَلَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ مُطيعة له، وأَنْ تَكُونَ عَلَى دِينِهِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: بيانُ فَضِيلَة امرأةِ فِرْعَوْنَ مِنْ قَوْلِها: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾، وَفِيهَا أَيْضًا دَلِيلٌ عَلَى فِرَاسَـتِها؛ لأنَّها توقَّعَـت أن ينفعهم، ولكن حدث بَعْضُ مَا توقَّعَتْه، فقد نَفَعَها هي فقط، وضَرَّ فِرْعَونَ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: فِيهَا دَلِيلٌ عَلَى مَا قِيلَ: (إنَّ البـلاء مُوَكَّلٌ بِالمَنْطِـقِ)، والتفاؤل كلام؛ فامرأةُ فِرْعَونَ قالـت: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾، فتفاءلت بِهِ خَيْـرًا، فحصل لَهَا ذَلِكَ، وصار قُرَّةَ عَيْنٍ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: فِيهَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ تُستعمل الأساليب الَّتِي تُحَقِّقُ المقصود؛ لقوله: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾، فَإِنَّ هَذَا الْقَوْلَ منها، سَوَاءٌ كَانَت تتوقع ذَلِكَ، أَوْ لَا تتوقعه، لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ سَبَبًا فِي مُوَافَقَةِ فِرْعَونَ لِمَا بَلَغَهُ.

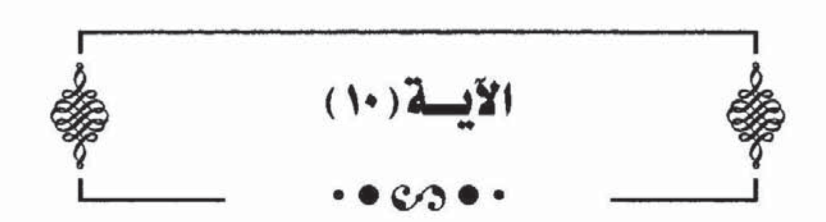
الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّهَا تَدُلُّ عَلَى أَنَّ فِرْعَونَ هَمَّ بقتل موسى، وذلك يُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِ امرأة فِرْعَون: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾، فَالظَّاهِرُ أَنَّهُ هَمَّ بِهِ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: قُصور عِلم الْإِنْسَانِ مَهْمَا بَلَغَ فِي عُلُوِّهِ واستِكْباره؛ لقوله: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: هَذَا الْآيَةُ لَيْسَتْ دَلِيلًا عَلَى جَوَازِ التَّبَنِّي، فقوله تعالى: ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ: نُكرمه ونجعله في بيتنا مِثْلَ الْوَلَدِ، وقوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ أي: مِثل الخادم، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ معناه: نتبنَّاه.

وَعَلَى هَذَا المَعْنَى، فَلَا دَلِيلَ عَلَى جَوَازِ التَّبَنِّي، فالتَّبَنِّي كان مَشْرُوعًا حَتَّى فِي عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ، في بداية الدعوة، ثُمَّ نُسِخَ وحُرِّم.

• • ۞ • •



الآية (١٠)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [القَصَص:١٠].

•••

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ﴾ لَمَّا عَلِمَتْ بِالْتِقَاطِهِ ﴿فَٰرِغًا﴾ مِمَّا سِوَاهُ ﴿إِن﴾ مُخَفَّفَةٌ مِنَ الثَّقِيلَةِ، وَاسْمُهَا مَحْذُوفٌ، أَيْ: إِنَّهَا ﴿كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ﴾ أَيْ بِأَنَّهُ ابْنُهَا ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ بِالصَّبْرِ، أَيْ: سُكْنَاهُ ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الْمُصَدِّقِينَ بِوَعْدِ اللهِ، وَجَوَابُ (لَوْلَا) دَلَّ عَلَيْهِ مَا قَبْلَهَا].

قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَصْبَحَ﴾ هَذَا بِنَاءٌ عَلَى أَنَّهَا أَلقته ليلًا، وتأتي كلمة (أصبح) بمعنى: (صار)، بِغَضِّ النظر عَنِ الزَّمَنِ، وتأتي (أصبح) بمعنى (صَارَ) فِي الإصباح، يقال مثلًا: أصبح الماء ثلجًا، أي: صار الماء ثلجًا.

وفِي اللُّغَةِ العامِّية الآن دائمًا يُعَبِّر النَّاسُ بِقَوْلِهِم: أصبح كذا، وأصبح كذا، يُرِيدُونَ بِذَلِكَ أَنَّهُ انْتَقَلَ إِلَى هَذَا، كما أَنَّ الإصباح انْتِقَالٌ مِنَ اللَّيْلِ إِلَى النهار، لكن هنا ليس ببعيد أَنَّهُ فِي صباحِ تِلْكَ اللَّيْلَةِ استولت عليها الوساوس والهواجس، حَتَّى صَارَ قَلْبُهَا فَارِغًا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، لا تُفكِّر في أَيِّ شَيْءٍ إِلَّا بِهَذَا الولد، وَهَذَا يَعْنِي: أَنَّ الْمُرَادَ بالإصباح هنا الدُّخُولُ فِي الصباح، وَهُوَ أَوْلَى مِنْ أَنْ نَجْعَلَهُ بمعنى: صار؛ لِأَنَّ الشَّيْءَ يُحزن عَلَيْهِ عِنْدَ فَقْدِهِ، لَكِنْ إِذَا طَالَ الزَّمَن، فَإِنَّهُ قَدْ يُنْسَى، لأن الحوادث

تُنسيه، فَالظَّاهِرُ أَنَّ (أصبح) أي: فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ.

قوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ﴾ الفؤاد: القلب، قوله: ﴿فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا﴾ يقول: مِمَّا سِوَاهُ، أَمَّا قَوْلُ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [لَمَّا عَلِمَتْ بِالْتِقَاطِهِ] فَهَذَا لَا يَتَعَيَّنُ أنها علمت؛ لأنَّها بمجرد أن أَلْقَتْه سوف تُوَسْوَسُ به.

﴿إِن﴾ مُخَفَّفة مِن الثقيلة، واسمُها محذوف، أي: إنها ﴿كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ﴾ أي: بأنه ابنُها، ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ إِلَى آخِرِهِ.

الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أَعْرَب قَوْلَهُ تعالى: ﴿إِن﴾ مُخَفَّفَة مِن الثقيلة، وابنُ مَالِكٍ يَقُولُ[1]:

وَخُفِّفَتْ إِنَّ فَقَلَّ الْعَمَلُ ... وَتَلْزَمُ اللَّامُ إِذَا مَا تُهْمَلُ

وَرُبَّمَا اسْتُغْنِيَ عَنْهَا إِنْ بَدَا ... مَا نَاطِقٌ أَرَادَهُ مُعْتَمِدَا

وَالْفِعْلُ إِنْ لَمْ يَكُ نَاسِخًا فَلَا ... تُلْفِيهِ غَالِبًا بِإِنْ ذِي مُوصَلَا

فالآية إذن جَارِيَةٌ عَلَى اللُّغَةِ الفصحى؛ لأن (كاد) ناسخة، وَاللَّامَ فِي ﴿لَتُبْدِي بِهِۦ﴾ جائزةٌ غير لازمة، ولو حذفناها وقلنا: إِنْ كَادَتْ تبدي به. فتكون بمعنى (ما)، يعني: ما كادت تبدي به، جاز ذلك.

ولذلك فَإِنَّ اللَّامَ يجب ذِكرهُا إِذَا كَانَ حذفُها يُوقِع فِي الْإِشْكَالِ؛ لِأَنَّك إِذَا حذفتَها التبسَت بـ(إِن) النافية، وإذا أوجدتَها، فَلَن يَكُونُ هناك اشتباهٌ؛ لأن لام التوكيد لَا تَأْتِي مَعَ النَّفْيِ.

---

(١) ألفية ابن مالك (ص٢٢).

وقيل: تخفف المعنى؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ تعالى: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ﴾ معناه: أنه قَرُبَ إبداؤها لذلك، لَكِنْ مَا كَانَـت لِتُبْدِيَ بِهِ معناها مستحيل؛ لأن السياق يَدُلُّ عَلَى أَنَّهَا جَائِزَةٌ، ولأن السياق يَدُلُّ عَلَى المَعْنَى، وَهُوَ قَوْلُهُ تعالى: ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾؛ فَإِنَّ هَذِهِ الجُمْلَةَ لَا تُناسب أَنْ تَكُونَ (إِنْ) نافيةً، يعني: ما كادت تُبدي به ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾.

والرَّبط عَلَى الْقَلْـبِ يقتضي الكتمان، وَلَا يَصْلُحُ أَنْ نَقُولَ: ما كادت تُظهره لَوْلَا أَنْ رَبطْنَا؛ لأن ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا﴾ يستلزم أَلَّا تُظْهِرَه، فَعَلَى هَذَا تَكُونُ اللَّامُ هنا جائزة، وَهَـذَا جَائِـزٌ مِنْ حِيْـثُ الصناعةُ النحويةُ، أَمَّا مِنْ حَيْـثُ التِّلاوةُ القُرْآنيةُ، فَلا يجوز حذفُها، والسبب أن كَلَامَ اللهِ لَا يُمْكِنُ أَنْ يُبدَّل؛ لا بالنَّقص، ولا بالزيادة.

قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ﴾، تُبدي أي: تُظهر به، وَأَمَّا قَوْلُ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [أَيْ: بِأَنَّهُ ابْنُهَا]، فَهُوَ بِنَاءٌ مِنْهُ عَلَى أَنَّهَا وَصَلْت إِلَى آلِ فِرْعَوْنَ، وَلَوْلَا أَنْ رُبِطَ عَلَى قَلْبِهَا لَقَالَت: هذا ابني.

وَلَا شَكَّ أَنَّ هَذَا بَعِيـدٌ مِنَ الْقِصَّةِ، بَعِيدٌ مِنَ المَعْنَى، وَلَكِنْ مَعْنَى قَوْله: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ﴾ أي: لَتُظْهِر بما فَعَلَتْهُ به، وهي تُحدِّث النَّاس، وتقول: والله أنا فعلتُ كذا، وفعلتُ كذا، وألقيتُ ابني فِي الْيَمِّ، إِلَى آخِرِهِ، وَإِنَّمَا قَالَ: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ﴾؛ لِأَنَّ المَعْرُوفَ أَنَّ الْإِنسَانَ إذا حَزِن بِشَيْءٍ، فَإِنَّهُ يُخَفِّفُ مِنْ آلامِ الحُزْنِ عَلَى نَفْسِهِ، أو يتحدثُ بِهِ إِلَى أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ لمن يَتَّصِلَ بِهِ.

ولذلك تجـد الإِنْسَانَ يَضِيق صدرُه بالشَّيْء حَتَّى يُحَـدِّثَ به، وهذا الشَّيْء معلوم، فَلَوْلَا أَنَّ اللهَ رَبَـطَ عَلَى قَلْبِهَا لَأَبْدَتْ ذَلِكَ الْأَمْرَ، لا أنها تُبدي وتقول: هذا ابني، بل أَبْدَت الْأَمْـرَ الَّذِي وَقَعَ منها، وهي أنها أَلْقَتْـه في تابـوتٍ، وأَلْقَته فِي الْيَمِّ،

لَوْ فَعَلْت هَذَا لَطَارَ الخبرُ، كَمَا يَقُولُ النَّاسُ؛ لِأَنَّ الْخَبَرَ مكتومٌ مَا لَمْ يَظْهَرْ، فَإِذَا ظَهَرَ لِوَاحِدٍ، فَثِقْ أنه سيتشعَّب، فلو أَبْدَتْهُ -ولو لأقرب النَّاسِ إِلَيْهَا- لَظَهَر أمرُ الطفل، وعُلِم به، وَلَكِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى رَبَطَ عَلَى قَلْبِهَا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ بالصَّبْر، أي: سَكَّنَّاه، والربطُ عَلَى الشَّيْءِ معناه: شَدُّ الرِّباط عليها.

وانْظُرْ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾، فهو أَبْلَغُ مِن: أَسْكَنَّا قَلْبَها، والربطُ عليه معناه: أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يتحرك، فهذا أبلغُ، وَاللهُ تعالى رَبَطَ عَلَى قَلْبِهَا، بحيثُ إنها صَبَرت، ولم تُحَدِّث أحدًا بِمَا جَرَى.

قوله تعالى: ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: الُمصَدِّقيـن بِوَعْدِ اللهِ، وجواب (لَوْلَا) دَلَّ عَلَيْهِ مَا قَبْلَهُ، وتقديره: لَأَبْدَتْ به.

وَلِهَذَا قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: إنه دَلَّ عَلَيْهِ مَا قَبْلَهُا، وَلَمْ يَقُلْ: إِنَّهُ مَا قَبْلَهَا، ولكن دَلَّ عَلَيْهِ. وَقَدْ سَبَقَ لَنَا أَنَّ مِثْلَ هَـذَا التَّعْبِيـرِ لَا يَحْتَاجُ إِلَى جَوَابٍ، وَذَكَرْنَا أَنَّ بَعْضَ الْعُلَمَاءِ قَالَ: يَحْتَاجَ إِلَى جَوَابٍ. ولكنك لَوْ أَتَيْت بالجواب لكان الكلامُ رَكِيكًا، فنقول مثلًا: أَكْرِم الطالبَ إِنْ كَانَ مجتهدًا. وَهَذَا لَا يَحْتَاجُ إِلَى جَوَابٍ؛ لِأَنَّك لَوْ أجبت: أَكْرِم الطالب إِنْ كَانَ مجتهدًا فأَكْرِمْه. يَكُونُ الْكَلَامِ ركيكًا، وَهَذَا الْمَعْنَى الَّذِي ذَكَرْنَاهُ أَشَارَ إِلَيْهِ ابْنُ القيم فِي كِتَابِهِ (التبيان فِي أَقْسَامِ الْقُرْآن)[1].

وهو قوله: ﴿أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ أي: شَدَدْنَاه بالربط، وَالْمُرَادُ بِهِ التسكين، وقوله: ﴿لِتَكُونَ﴾ اللامُ للتَّعليل، والمعلَّل ربطُ القلب، يعني: رَبَطَ اللهُ عَلَى قَلْبِهَا لهذه الغاية، ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لَيسَ الْمُرَادُ الإيمان الجديد؛ لأنَّها مؤمنة بلا شك، وأدلُّ دَلِيلٍ عَلَى أَنَّهَا مُؤْمِنَةٌ أَنَّهَا امْرَأَةٌ أَلْقَتِ ابنَها فِي الْيَمِّ ثِقةً بوعد اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وَلَكِنَّ

(١) انظر على سبيل المثال التبيان في أقسام القرآن، لابن القيم (ص٢).

المُرَادَ هُنَا بالإِيمَانِ الإِيمَانُ الزَّائِدُ عَلَى أَصْلِهِ، يعني: التثبيت واليَقِين، وَهَذَا هُوَ الَّذِي وَقَعَ.

وفي القصة -إِنْ شَاءَ اللهُ- فوائدُ عظيمةٌ، ومناقبُ لأُم موسى.

قوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ﴾ الالتقاط غير الأخذ، فالالتقاط يَكُونُ عَنْ طَلَبٍ، وَهُوَ يَخْتَصُّ بالآدميِّين، فالإِنْسَانُ فقط هُوَ مِنْ يُطْلَقُ عَلَيْهِ اسْمُ (اللقيط)، وَهُوَ عِبَارَةٌ عَنِ الطفل المنبوذ، أَوِ الطِّفْلِ الضائع، هَذَا هُوَ التعبير.

وَقَدْ يُقَالُ إنهم التقطوه، بمعنى: أخذوه، أي: بِدُونِ أي عِوَضٍ، وعلى سبيل الامتهان، كغَنيمة أخذوها.

وَاللَّامُ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ للعاقبة، وَلَا تَكُونُ للتَّعليل؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يلتقطوه لكي يكون عدوًا لهم، ولكن العاقبة كَانَتْ كَذَلِكَ؛ لِأَنَّهُمْ لَوْ عَلِمُوا بأنه يَكُونُ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا لقتلوه. وهناك من أَهْلَ الْعِلْمِ مَنْ قَالَ بِأَنَّ اللام للتَّعليل تَكُونُ فِي عِلْمِ اللهِ، ولكن الصَّحِيحُ أَنَّهَا للعاقبة؛ لأنَّها تعليل للفعل منهما ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ﴾ تعليليَّة، ومُعَلِّلُها قَوْلُهُ تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ﴾ هَذَا التَّعْلِيلُ تعليلٌ لِمَا قَبْلَهُ، يكون عَلَيْهِمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا؛ لأَنَّهُم خاطئون.

قَوْله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا﴾، أي: فَارِغًا مِنْ ذِكْرِ كُلِّ شَيْءٍ، مَا فِي قلبها إلا موسى.

وَقَوْلُهُ تعالى: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ﴾: ﴿إِن﴾ هُنَا ليست نافية، كَمَا فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف:٣١]، بَلْ هِيَ مُخَفَّفَة مَنْ (إِنَّ) الثقيلة، وَالمَانِعُ مِنْ كَوْنِهَا نافيةً اثنان:

الأول: مانعٌ لفظيٌّ: وَهُوَ وُجُودُ اللام.

والثَّاني: مانعٌ معنويٌّ: وذلك لِأَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُرِيدَ أَنَّهَا كادت تبدي به، ولذا يَقُولُ فِي باقي الآية: ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا﴾، والربط يَقْتَضِي أَنَّهَا مَا أَبْدَتْ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أَنَّ الْإِنْسَانَ يَكُونُ عَلَى حَالٍ، فَإِذَا نَزَلَ بِهِ البلاء تغير حالُه، فهذه أُمّ مُوسَى كَانَتْ فِي البداية مطمئنة، ولذلك وضعته فِي التَّابُوتِ، ثم وضعته فِي الْيَمِّ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَعْلَى دَرَجَاتِ الطُّمأنينة، ولكنها أصبحت بعدما فارقته كَمَا قَالَ تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا﴾، فَقَدْ صَارَ قلبُها الآن فارغًا، وأصبحت قَلِقَةً، كأنه ليس فِي الدُّنْيَا سِوى ابنِها، فالواقع أَنَّ الْإِنْسَانَ لَهُ حَالٌ قَبْلَ نُزُولِ الْبَلَاءِ، وله حالٌ بَعْدَ نُزُولِهِ، وَلِهَذَا لَا يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يُعَرِّضَ نَفْسَهُ للبلاء.

يُذكَر أَنَّ سَمْنُون بْنَ حَمْزَةَ، وَهُوَ أَحَدُ مشايخ الصوفية، وَكَانَ عَلَى دَرَجَةٍ عالية مِنَ الْعِبَادَةِ والزهد، وَلَكِنَّهُ قَالَ يَوْمًا:

فَلَيْسَ لِي فِي سِوَاكَ حَظٌّ فَكَيْفَمَا شِئْتَ فَامْتَحِنِّي

فابتُلِيَ بِحَبْسِ البَول، فَلَمْ يَقَرَّ لَهُ قرارٌ، فكان بعد ذلك يطوف عَلَى المَكاتب وبِيَدِه قارورةٌ يقطُر منها بوله ويقول للصبيان: ادعوا لِعَمِّكم الكذاب[1]. وذلك لِأَنَّ

(١) حلية الأولياء، لأبي نعيم (١٠/ ٣٠٩)، وتلبيس إبليس، لابن الجوزي (ص٣٠٦).

الصِّبْيَانَ تُرجَى إجابة دعوتهم.

فالمهم: أَنَّ الْإِنْسَانَ لَهُ قَبْلَ البلاء حالٌ، وبَعد البلاء تتغير حالُه، وهكذا أَيْضًا فِي الْأُمُورِ الشرعية، فالنَّبيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال: «مَنْ سَمِعَ بِالدَّجَّالِ فَلْيَنْأَ عَنْهُ، فَوَاللهِ إِنَّ الرَّجُلَ لَيَأْتِيهِ وَهُوَ يَحْسِبُ أَنَّهُ مُؤْمِنٌ فَيَتَّبِعُهُ، مِمَّا يَبْعَثُ بِهِ مِنَ الشُّبُهَاتِ»، أَوْ «لِمَا يَبْعَثُ بِهِ مِنَ الشُّبُهَاتِ»[1].

وَهَذَا هُوَ الواقع، فالْإِنْسَانُ يَجِبُ أَنْ يتحرَّز مِنَ الْبَلَاءِ، وَقَدْ رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَا يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يُذِلَّ نَفْسَهُ». قَالُوا: وَكَيْفَ يُذِلُّ نَفْسَهُ؟ قَالَ: «يَتَعَرَّضُ مِنَ الْبَلَاءِ لِمَا لَا يُطِيقُ»[2].

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: فِيهَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الطبيعة البشرية لَا يُؤَاخَذُ بِهَا المرء، فما تقتضيه الطبيعة البشرية لا يؤاخذ به المرء، ووجه ذَلِكَ أَنَّ فؤاد أُمِّ مُوسَى كَانَ يَنْبَغي أَلَّا يَكُونَ فَارِغًا مِنْ ذِكر اللهِ عَزَّوَجَلَّ ومِن الدَّار الآخرة، لكنه أصبح فارغًا، لَيْسَ فِيهِ شيءٌ أبدًا لِذِكْرِه، سوى ذِكر موسى، وهذا مقتضى الطبيعة البشرية؛ لِأَنَّ الْأُمُورَ العظيمة التي تنزل بالمرء تُنسيه كُلَّ شيء.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: فِيهَا دَلِيلٌ عَلَى فَضِيلَة أُمِّ مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا؛ لكونها لم تُبْدِ مَا فِي قلبها لأحد، لقوله: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: فِيهَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْمَرْءَ مُفْتَقِرٌ إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فِي كُلِّ أحواله،

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٤٣١)، أبو داود: كتاب الملاحم، باب خروج الدجال، رقم (٤٣١٩).

(٢) أخرجه الترمذي: كتاب الفتن، بعد باب ما جاء في النهي عن سب الرياح، رقم (٢٢٥٤)، وابن ماجه: كتاب الفتن، باب قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ [المائدة:١٠٥]، رقم (٤٠١٦)، وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

وَلَا سِيَّمَا عِنْدَ نُزُولِ الحوادث؛ لقوله: ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾، فالإِنْسَان مُفْتَقِرٌ إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ولولا معونةُ اللهِ مَا فَعَلَ الإِنْسَانُ شيئًا، لا صَبْرَ عَلَى بلاء، ولا شُكر عند الرخاء.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: فِيهَا دَلِيلٌ عَلَى إِثْبَاتِ العِلل والأَسْباب؛ لقوله: ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، فهناك مَنْ يُنْكِرُ الأَسْباب والعِلل، وهُم الجهميَّة والأشاعرة، فهُم يُنكرون حتى الأَسْباب الظَّاهرة الجَليَّة، ويقولون: إِنَّ الشَّيْء يَحْدُثُ عِنْدَهُ لَا بِهِ، فلو أخذتَ حَجرًا وضربتَ به الزُّجاج وانكسر، فلا يقولون: إِنَّ الزجاج انكسر بالحَجَر، بل انكسر عنده. مع أَنَّك إِذَا وَضَعْتَ الحَجَرَ عَلَى الزجاج لا ينكسر، وَلَكِنْ إِذَا ضربتَه به انكسر.

وكذلك عند تناوُل المريض الدواءَ، هُم يَدْعُون: (اللهم اجعل شفائي عند الدواء). وذلك بِنَاءً عَلَى إنكارهم الأَسْباب، نَسْأَلُ اللهَ الْعَافِيَةَ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: فِي قَوْلِهِ: ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الإِيمَان والكمال فِي الرِّجَالِ أكثرُ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَقُلْ: لِتَكُونَ مِنَ المُؤْمِنَاتِ، وَيَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ أَيْضًا قَوْلُهُ تعالى فِي مَرْيَمَ: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ [التحريم:١٢]، وَلِهَذَا جَاءَ فِي الحَدِيثِ: «كَمَلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا آسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ، وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ»[1].

ولا ريب أَنَّ الْإِيمَانَ فِي الرِّجَالِ أكثرُ وأثبتُ وأزيدُ، فَفِي الحَدِيثِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ:

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ [التحريم:١١]، إلى قوله تعالى: ﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ [التحريم:١٢]، رقم (٣٤١١)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل خديجة أم المُؤمنين رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، رقم (٢٤٣١).

«مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلُبِّ الرَّجُلِ الحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ»[1].

وإنما قَرَّرْنا هَذَا مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى الرَّجُلِ مُراعاةُ المرأة، وأنها مُحْتَاجَةٌ إِلَى الرعاية، وَكَذَلِكَ يَجِبُ أَلَّا تُجاب إلى كُلِّ مَا تطلُب؛ لأنَّها ناقصةُ عَقْلٍ، وناقصةُ دِين، كما وصفها النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بذلك.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: فِيهَا دَلِيلٌ عَلَى إِثْبَات الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ، نأخُذه مِنْ قَوْلِهِ تعالى: ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾؛ فَإِنَّ هَذَا مِن قضاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وقَدَرِه.

وَلَا يَصِحُّ أَنْ نَشْتَقَّ لله اسْمًا مِنَ الفِعل المُسنَد إليه ﴿رَّبَطْنَا﴾ فنقول: الرابط. لِأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ فِي الكون هُوَ مِنْ فِعْلِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ومِن تقديره، وَلَا يَجُوزُ أَنْ نشتق لِكُلِّ فِعْلٍ مِنْ أَفْعَالِ الله اسمًا، فأفعالُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ متنوعة وكثيرة، والفعل يَخْتَلِفُ عَنِ الاسم، فَقَدْ يَكُونُ الْفِعْلُ مُقَيَّدًا، مِثْل قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ﴾ [الأنفال:٣٠]، فلا نَشْتَـقُّ اسْمًا مِنْ هَذَا الْفِعْلِ ونقول: الماكر مِنْ أَسْمَـاءِ اللهِ. وَكَذَلِكَ قَوْله: ﴿وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء:١٤٢]، فلا نُسميه خادعًا، وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة:١٥]، فَلَا نَقُولُ: إنه مستهزئ. وهكذا، فَهَذِهِ كُلُّهَا أفعالٌ مُقَيَّدَةٌ فِي أنواعها، وَلَكِنْ يَجُوزُ أَنْ نَقُولَ: إِنَّ اللهَ مستهزئ بالمنافقين، وإِنَّ اللهَ خادع المنافقين، وإِنَّ اللهَ ماكِرٌ بالماكرين، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

• • ۞ • •

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحيض، باب ترك الحائض الصوم، رقم (٣٠٤)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان نقصان الإيمان بنقص الطاعات، وبيان إطلاق لفظ الكفر على غير الكفر بالله، رقم (٨٠).



الآية (١١)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [القَصَص:١١].

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ﴾ مَرْيَمَ ﴿قُصِّيهِ﴾ اتَّبِعِي أَثَرَهُ حَتَّى تَعْلَمِي خَبَرَهُ ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ﴾ أَبْصَرَتْهُ ﴿عَن جُنُبٍ﴾ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ اخْتِلَاسًا ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أَنَّهَا أُخْتُهُ وَأَنَّهَا تَرْقُبُهُ].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ﴾ قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [مريم]. وَنَحْنُ نَقُولُ له: مِنْ أَيْنَ لَكَ أَنَّ اسمها مريم؟ وَمِثْلُ هَذِهِ الْأَخْبَارِ مِنَ الإسرائيليات، وَهُوَ أَمْرٌ لَا يَعْنِينا، وَلَوْ كَانَ مُهِمًّا لَبَيَّنَه اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وقد يقول الْبَعْضُ فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿لِأُخْتِهِۦ﴾ إِنَّهَا كَانَتْ أُخْتَهُ مِن أبيه أَوْ مِنْ أُمِّهِ، ولكن الأُخُوَّة هنا مُطلَقة، فيَكُونُ الْمُرَادُ شقيقته، وَلَوْ كَانَتْ مِنْ أُمِّهِ أو أبيه لقُيِّدَتْ.

قَوْلُهُ تعالى: ﴿قُصِّيهِ﴾ أي: اتَّبِعِي أَثَرَهُ حتى تعلمي خبرَه، والقَصص معناه: التتبُّع، يعني: تتبَّعي أثَره، وابحثي عنه.

قَوْلُهُ تعالى: ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ﴾ أي: أبصرَتْه، والفاء فِي قَوْلِهِ: ﴿فَبَصُرَتْ﴾ للترتيب والتعقيب، أي: إِنَّهَا ما ذَهَبَتْ بعيدًا حتى رأته.

وقوله تعالى: ﴿عَن جُنُبٍ﴾ أي: مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ، وَعَلَى هَذَا فالموصوف محذوف،

والتقدير: عن مَكَانٍ بَعِيدٍ، بَعِيدٍ منها، لكنها عَرَفَتْ أَنَّ هَذَا أخوها، وقوله: ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ﴾ أي: مِنْ مَكَان بَعِيدٍ اختلاسًا، والاختلاس معناه: المُسَارَقة، أي: كانت تَنْظُرُ إِلَيْهِ دُونَ أَنْ تُحِدَّ النَّظَرَ إِلَيْهِ، فلو أنها فعلَت، وأقبلَت إليه مُسرعة، وظَهَرَت منها علاماتٌ عَلَى أَنَّهُ مقصودُها، لَعَرَفُوا منها ذلك، ولكنها جعلت تَنْظُرُ إِلَيْهِ خِلسةً حَتَّى لَا يَشْعُرُوا بها.

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: إن آلَ فِرْعَوْنَ لَا يَشْعُرُونَ أَنَّهَا أُخْتُهُ، وأنها ترقُبه، فَإِنَّهَا كَانَتْ ذكيَّة، مَا فَعَلَتْ مَا دَلَّ عَلَى شخصيتها.

وجُملة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ حَالٌ مِنْ فَاعِل ﴿فَبَصُرَتْ﴾، والجملة الحاليَّة لَا يُشْتَرَطُ أَنْ تَكُونَ وصفًا لصاحِب الحالِ، وَلِهَذَا تَقُولُ: جَاءَ زَيْدٌ والشمسُ طالعةٌ. فجملة (والشمس طالعة) حاليَّة، مع أَنَّهَا لَيْسَتْ مِنْ صِفَاتِ زيد، لكن الجملة الحالية يُكتفَى فيها بأدنى مُلابسة مع الفاعل.

• • ❁ • •



❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ [القَصَص:١٢].

•••

قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ أَيْ قَبْلَ رَدِّهِ إِلَى أُمِّهِ، أَيْ مَنَعْنَاهُ مِنْ قَبُولِ ثَدْيِ مُرْضِعَةٍ غَيْرِ أُمِّهِ، فَلَمْ يَقْبَلْ ثَدْيَ وَاحِدَةٍ مِنَ المَرَاضِعِ المُحْضَرَةِ لَهُ ﴿فَقَالَتْ﴾ أُخْتُهُ ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ﴾ لَمَّا رَأَتْ حُنُوَّهُمْ عَلَيْهِ ﴿يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ﴾ بِالْإِرْضَاعِ وَغَيْرِهِ ﴿وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ وَفَسَّرَتْ ضَمِيرَ ﴿لَهُۥ﴾ بِالمَلِكِ جَوَابًا لَهُمْ فَأُجِيبَتْ، فَجَاءَتْ بِأُمِّهِ فَقَبِلَ ثَدْيَهَا، وَأَجَابَتْهُمْ عَنْ قَبُولِهِ بِأَنَّهَا طَيِّبَةُ الرِّيحِ طَيِّبَةُ اللَّبَنِ فَأَذِنَ لَهَا فِي إِرْضَاعِهِ فِي بَيْتِهَا، فَرَجَعَتْ بِهِ كَمَا قَالَ تعالى].

كان الطفل عند عرش فِرْعَونَ يبكي، يريد الرَّضاع، ولعلهم خرجوا به يطلبون المُرضعة، فصادف أَنْ رأته أختُه، فَقَدْ تكُونُ أُمُّ مُوسَى قد طلبت مِنْ أُخْتِهِ الخروجَ إِلَيْهِ بَعْدَ مَا سَمِعْت عَنْ طَلَبِ آلِ فِرْعَوْنَ مُرضِعَةً لموسى، وَقَدْ تكُونُ قد أَمَرَتْها بالخروج إيمانًا منها بِوَعْدِ اللهِ لَهَا بِأَنْ يَرُدَّهُ إليها.

قوله تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ﴾ أَيْ قَبْلَ رَدِّهِ إِلَى أُمِّهِ.

وقوله: ﴿وَحَرَّمْنَا﴾ أي: مَنَعْنَا، وَالتَّحْرِيمُ فِي اللُّغَةِ: المنعُ، والتحريمُ يَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ: تحريم شرعي، وتحريم قدَري، والتحريمُ الشرعي متعلِّق بالأحكام الشرعية،

والتحريمُ القَدَري متعلق بالأحكام الكَوْنِيَّة، ومثاله قَوْلُهُ تعالى: ﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء:٩٥]، وقوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ [المائدة:٢٦]، فالتحريم هنا تحريمٌ قدري.

قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ﴾ ولم تَقُل: عَلَى أَهْلِهِ. فلو قَالَتْ ذَلِكَ افتضح أمرُها، وقالته بصيغة التنكير؛ حَتَّى لَا يعرفوها، مع أنها أختُ موسى، وصاحبة البيت هِيَ أُمُّهُ، فأخت مُوسَى لَمَّا رَأَتْ حُنُوَّ آلِ فِرْعَوْنَ عَلَى هَذَا الطفل؛ لأنَّهم يُحِبُّونَ أَنْ يجدوا مَنْ يَقُومُ بكَفَالته وإرضاعِه، قالت: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ﴾ للإرضاع وغيره.

قَوْلُهُ تعالى: ﴿يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ﴾، الكَفْل معناه: القيام بحَضانة الطفل، ويسمى كَفْلًا، كَمَا فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ [آل عمران:٣٧]، وَفِي قِرَاءَةٍ ثانية «وكَفَلَهَا زَكَرِيَّا»، والمعنى: أنا أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يقومون بحضانته على أَتَمِّ قيام، بدليل قولها: ﴿وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾.

هنا الكَفالة عبَّرَ عَنْهَا بالفعل ﴿يَكْفُلُونَهُ﴾، والنصيحة عبَّرَ عَنْهَا بالجُملة الاسمية ﴿وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾، فالنصيحة مَبْنِيَّةٌ عَلَى النِّيَّةِ فِي الْقَلْبِ.

قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿نَاصِحُونَ﴾ أي: مخلصون، وأصلُ النُّصح: إخلاصُ الشَّيْءِ مِنَ الشوائب، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا﴾ [التحريم:٨]، أي: خَالِصَةٌ مِنَ الشوائب لله وَحْدَهُ، وهي هنا صَادِقَةٌ فِي قَوْلِها هذا.

وقوله: ﴿وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ الضَّمِيرُ فِي ﴿لَهُ﴾ يَعُودُ إِلَى هَذَا الطفل بلا رَيْبٍ، ونُصح أهل هَذَا الْبَيْتِ لموسى يُعجب آلَ فِرْعَوْنَ؛ لأنَّهم أحبُّوا هذا الطفل، ورَغِبُوا فِي الْبَحْثِ عمن يكفُلُه ويُرَبِّيه عَلَى الْوَجْهِ الأتَمِّ.

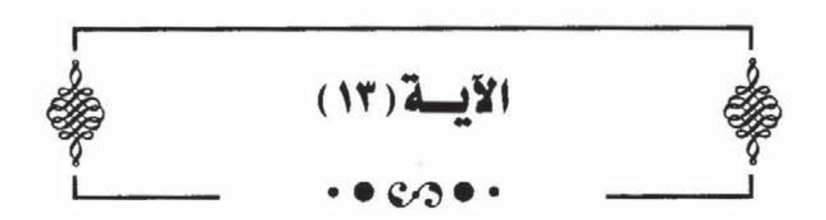
يقول المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [وَفَسَّرَتْ ضَمِيرَ ﴿لَهُۥ﴾ بِالمَلِكِ جَوَابًا لَهُمْ، فأُجِيبَتْ]، هَذَا مَبْنِيٌّ عَلَى قصةٍ إسرائيلية؛ أَنَّهَا لَمَّا قَالَتْ: ﴿وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ كأنهم شَكُّوا فقالوا: مَا الَّذِي أدراكِ أنهم ينصحون له؟ فقالت: أريد أنهم ينصحون للمَلِك، أي فِرْعَون. يعني: وهُم للمَلِك ناصحون.

وهذه قصة لَا شَكَّ أنها بَعِيدَةٌ مِنَ الصَّوَابِ، وَإِنَّمَا المُرَادُ ﴿لَهُۥ﴾ للطفل، وَلَيْسَ هُنَاكَ مَا يَمْنَعُ أَنْ يَكُونَ الضَّمِيرُ عَائِدًا إليه، وَلَا حَاجَةَ أَيْضًا إِلَى تَفْسِيرِهِ بالمَلِك؛ لأن آلَ فِرْعَوْنَ يُحِبُّونَ مَنْ يَنصح له، فليسوا بسائلين عَنْ هَذَا الشَّيْء، فتكوين المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ هَذَا لَا داعيَ له.

يقول: [فَجَاءَتْ بِأُمِّهِ فَقَبِلَ ثَدْيَهَا، وَأَجَابَتْهُمْ عَنْ قَبُولِهِ بِأَنَّهَا طَيِّبَةُ الرِّيح طَيِّبَةُ اللَّبَنِ فَأَذِنَ لَهَا فِي إِرْضَاعِهِ فِي بَيْتِهَا، فَرَجَعَتْ بِهِ]. هذا التَّقرير الَّذِي ذَكَرَهُ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ أيضًا بَطَلَ فِي الآتي عليه، هو يقول: [إِنَّهَا جَاءَتْ، وَقَبِلَ ثَدْيَهَا] أمام النَّاس، واتُّهمت به، ودافعت عن التُّهمة بأن ثديَها طَيِّب الريح، ولَبَنَها طَيِّب.

وكُلُّ هَذَا لَا أَصْلَ لَهُ، والصَّواب أَنَّهُ لَمَّا قَالَتْ: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ قالوا: نعم، دُلِّينا. فالقِصة واضحة جدًّا، قلوا: دُلِّينا فَدَلَّتهم، فجاؤوا بِهِ إِلَى أُمِّهِ، وَهَذَا أَبْلَغُ فِي المعجزة، والآية أَنَّ أُمَّهُ فِي بَيْتِهَا أَمَرَت أخته أَنْ تَخْرُجَ فِي طَلَبِهِ، فما رجعت أختُه إِلَّا بِهِ إِلَى أُمِّهِ.

• • ۞ • •



❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَرَدَدْنَـٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص:١٣].

•●❦●•

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَرَدَدْنَـٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ بِلِقَائِهِ ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ حِينَئِذٍ ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ بِرَدِّهِ إِلَيْهَا ﴿حَقٌّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ أَيِ النَّاسُ ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ بِهَذَا الْوَعْدِ، وَلَا بِأَنَّ هَذِهِ أُخْتُهُ، وَهَذِهِ أُمُّهُ، فَمَكَثَ عِنْدَهَا إِلَى أَنْ فَطَمَتْهُ، وَأَجْرَى عَلَيْهَا أُجْرَتَهَا لِكُلِّ يَوْمٍ دِينَارٌ، وَأَخَذَتْهَا لِأَنَّهَا مَالُ حَرْبِيٍّ، فَأَتَتْ بِهِ فِرْعَوْنَ، فَتَرَبَّى عِنْدَهُ، كَمَا قَالَ تعالى حِكَايَةً عَنْهُ فِي سُورَةِ الشُّعَرَاءِ: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ [الشعراء:١٨]].

ما حكاه الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ مِنْ أَنَّ الأُم ذهبت إِلَيْهِم، وأنها أَلقمته الثدي، وأنها اتُّهمت به، ودافعت بأنها طَيِّبة الريح، أو طَيِّبة اللبَن، لَيْسَ بِصَحِيحٍ.

وَمِثْلُ هَذِهِ الْأُمُورِ لَا يَلْزَمُ أَنْ تَكُونَ لها أسبابٌ حِسِّية معلومة؛ لِأَنَّهَا مِن خَوارق العاداتِ، وخوارقُ العادات لَا تَحْتَاجُ أن نُوَجِّهَ لها أشياء تناسب العادات، بَلْ هِيَ فوق العادة.

فَعَلَى هَذَا نقول: المسألة سائرة عَلَى حَسَبِ مَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ الكريم، فإِنَّ الأُم لَمْ تَأْتِ إِلَيْهِم، كَمَا أَخْبَرَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿فَرَدَدْنَـٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ﴾، أي: رَدَدْنَا

مُوسَى إِلَى أُمِّهِ ﴿كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ بلقائه، ﴿تَقَرَّ﴾ سَبق أَنَّهَا مَأْخُوذَةٌ إِمَّا مِنَ القَرِّ، وهو البُرودة، وَإِمَّا مِنَ القَرار والسُّكون، ولعله يشمل المَعْنيَيْن.

و﴿كَيْ﴾ هنا حرف تعليل، وهي مصدريَّة تَنصب الفعل المضارع؛ ولهذا ﴿تَقَرَّ﴾ منصوبةٌ، وعلامَةُ نصبه فتحةٌ ظَاهِرَةٌ عَلَى الراء.

قوله تعالى: ﴿كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ بلقائه، ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ حينئذٍ، يعني: لَا تَحْزَن عَلَى مَا مَضَى، بل يزول عنها الحُزن، تَقَرُّ العين، ويزول عنها الحُزن، ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ بردِّه إليها ﴿حَقٌّ﴾، وهذه أيضًا ثلاث فوائد:

الْأُولى: ﴿تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾، الثَّانية: ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾، والثالثة: ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾.

أَمَّا الأُولَيان فظاهِر أنها تَقَرُّ عينُها برجوعه، وَأَنَّهَا لَا تَحْزَنُ، بل يزول عنها الحُزن، لَكِنْ قَوْلُهُ: ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ هَذِهِ الْعِلَّةُ سَبقت؛ لأَنَّها مُنذ أن أَلْقَتْه فِي الْيَمِّ قَدْ عَلِمَت أنَّ ﴿وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾، ولولا عِلمها ويَقِينُها بأن ﴿وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ ما أَلْقَتْه، فيكون هنا المرادُ بالعِلم عينَ اليَقِين، أَوْ حَقَّ اليَقِين إِنْ شِئْتَ.

فعِلمُها بِالْأَوَّلِ عِلْمٌ عَنِ الشَّيْءِ خَبَرًا، وعِلمُها الثَّاني عِلم عَنِ الشَّيْءِ وُقوعًا، وَفَرْقٌ بَيْنَ عِلم الْإِنْسَانِ بالشَّيْء خبرًا، وبَين عِلمه به وقوعًا، وَلِهَذَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ ﷺ: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة:٢٦٠]، وَجَاءَ فِي الْحَدِيثِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَيْسَ الخَبَرُ كَالْمُعَايَنَةِ»(١).

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢١٥، رقم ١٨٤٢)، والحاكم (٢/ ٣٥١، رقم ٣٢٥٠) وقال: صحيح على شرط الشيخين. والطبراني في الأوسط (١/ ١٢، رقم ٢٥)، والضياء (١٠/ ٨٢، رقم ٧٦)، وابن حبان (١٤/ ٩٦، رقم ٦٢١٣).

وقَوْلَهُ: ﴿وَلِتَعْلَمَ﴾ يعني: عِلم الشَّيْءِ بَعْدَ وقوعه، وأمَّا عِلْمُهَا بِهِ خَبَرًا فَقَدْ تَقَدَّمَ، وَلَوْلَا أَنَّهَا واثقة فِي الْأَوَّلِ مَا فَعَلَتْ.

وَقَوْلُهُ: ﴿أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾، ذَكَرُوا أَنَّ الْوَعْدَ هو الوعدُ بما يَسُرُّ، والوعيد بما يُحْزِن، يعني: الوَعد بالخير، والوعيد بالشَّرِّ، وأنَّ الشَّرَّ مِن (أَوْعَد)، والخير مِن (وَعَد)، فقالوا: أَوْعَدَهُ أي: بالشر، ووَعَدَهُ بالخير.

﴿كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ قُرَّةُ عَينه ينسى الحُزن والسأم، أي نَفْي الحزن هنا لِأَجْلِ أَنْ يُبَيِّن أنَّ القرَّ كامل؛ لِأَنَّهُ قَدْ تَقَرَّ عينُها مع شيء مِنَ الْحُزْنِ.

والوعِيدُ حقٌّ، والوَعد حقٌّ، ولو قلنا: إنَّ الوعيد ليس بحق. لَزِمَ أن يَكُونَ فِي خبر الله كَذِبٌ، وهذا غير ممكن، لكن الوعيدُ قد لا يُنَفَّذ؛ تفضلًا مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لأَنَّه حقُّه، الوعيد حقُّ الله، والله تَبَارَكَ وَتَعَالَى قد يتجاوز عنه، أما الوعد فإنه حقٌّ للموعود، وَلِهَذَا لَا يمكن أن يتخلف، قال الشاعر[1]:

وَإِنِّي وَإِنْ أَوْعَدْتُهُ أَوْ وَعَدْتُهُ ... لَمُخْلِفُ إِيعَادِي وَمُنْجِزُ مَوْعِدِي

لأن الوعد حقٌّ للموعود، والوعيد حقٌّ للواعد أو للمُوعد.

وأضرب لذلك مثلًا: إذا قلتُ لهذا الرَّجل: إِنْ فَعَلْتَ كَذَا أعطيتُك مائة دينار. فهذا وعدٌ، لأَنَّه في الخير، فهذا فَعَل ما قُلتُ، يجب عليَّ أنْ أوفيه؛ لأن الحق له، لكن لو قلتُ لولدي مثلًا: إنْ فعلتَ كذا حَبَسْتُك. ثم فَعَلَه، ولكني عفوتُ عنه، فهذا جائز، ويكون فضلًا، لَا سِيَّمَا إِذَا عَفَا عَنْهُ مع القُدرة، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [النساء:١٤٩].

---

(١) البيت لعامر بن الطفيل، كما في لسان العرب: ختأ، وتاج العروس: ختأ، وبلا نسبة في إنباه الرواة (٤/ ١٣٩)، ومراتب النحويين (ص٣٨).

والحاصِلُ: أَنَّ وَعْدَ اللهِ ووعِيدَه كلاهما حقٌّ، لكن وعده لما كان حقًّا للموعود صار لَا بُدَّ مِنْهُ لوقوعه، ووعيدُه لَّمَا كَانَ حقًّا له إِنْ شَاءَ عَفَا عنه؛ تكرُّمًا وتفضلًا، حسب ما تقتضيه حِكمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وَلَكِنْ فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾ [الأعراف:٤٤]، هـذا وعيدٌ أُطلق على الوعد؛ إما لِأَنَّهُ فِي المقابلة مع قولهم بهذا صار مُشاكلًا له، أو أَنَّهُ يُطْلَقُ عَلَيْهِ أحيانًا.

قال تعالى: ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾: ﴿حَقٌّ﴾ هنا بمعنى: ثابت، وقد قُلْنَا: إِنَّ الْحَقَّ إِذَا تعلَّق بالأخبار، فمعناه الصِّدق، وفي الأحكام معناه العَدْل، وَعَلَى هَذَا فيكون هُنَا بِمَعْنَى: الصدق.

﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أي: صِدْق، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يتخلف؛ لأن تخلُّف الوعد إما أَنْ يَكُونَ عَنْ كذبِ الواعد، أَوْ عَنْ عَجْزِه عن تنفيذه، وكِلا الأمرين في حَقّ اللهِ مستحيلٌ، فلا كَذِبَ فِي قَوْلِهِ، ولا عجزَ في فِعله؛ ولهذا فإن عِباد اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يختمون الدُّعاء بقولهم: (إنك لا تخلف الميعاد).

قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ أي: النَّاس لا يعلمون بهذا الوعد، ولا بأن هَذِهِ أخته.

والمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ خَصَّص الآية، والحقيقة أن الآية عامة: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: ليس عندهم عِلم ينفعهم في وعد الله، فنَفْيُ العِلم هنا إما لإثبات الجهل، أو لنفي العِلم النافع، فأَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ أنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ.

وقوله تعالى: ﴿أَكْثَرَهُمْ﴾ أي: النَّاس، أقول: أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ أنَّ وَعْدَ

اللهِ حَقٌّ؛ إما لجهلهم، وإما لعدم انتفاعهم بهذا العِلم، ونَفْيُ الشَّيْء لِنَفْيِ الانتفاع به ثابتٌ فِي الْقُرْآنِ: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ [الأنفال:٢١].

ودائمًا ينفي اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى العَقل، أو السمع عن النَّاس، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ؛ لعدم انتفاعهم بذلك، فأكثرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ.

والمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ خصَّ هَذِهِ بقصة موسى، والآيةُ عامَّة، فأَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ.

أقول: إما للجهل بذلك، لكونهم لا يعرفون مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ وصفاته ما هو اللائق به، وإما لكونهم لا ينتفعون بهذا العِلم.

فالذين لا يحرصون على فعل الخير، أو على تجنُّب الشر فِي الْحَقِيقَةِ هُم كالجاهلين بأن وَعْدَ اللهِ حَقٌّ؛ إِذْ إِنَّ الطبيعة البشرية والعقل يقتضيان أنك ما دُمْتَ مؤمنًا بهذا الشَّيْء، سَوَاءٌ كَانَ وعدًا، أو وعيدًا، فَلَا بُدَّ أَنْ تسعى له بمقتضى إيمانك، وإذا كنتَ تعلم أَنَّ الْإِنْسَانَ سيموت، وأن المؤمن إذا مات سيجد الخير، ويكون في الجنة، وينجو مِن النار، هذا حق، لكن الذي لا يسعى إلى الجنة، ولا يسعى إِلَى هَذَا الخير، ويَنْهَمِكُ بسَعْيِه للدنيا الفانية، هذا فِي الْحَقِيقَةِ ليس عالمًا بأن وَعْدَ اللهِ حَقٌّ، أو منتفعًا بعِلْمِه، فلو انتفعَ به ما فوَّت هَذِهِ الفُرصة العظيمة، فالإِنْسَان يعرف أن المعصية سبب لدخول النار، ويعرف أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ، لكن مع ذلك يتجرأ على المعاصي.

نقول: إنَّ عِلمه هنا ناقص؛ إذ لَوْ آمَنُ بذلك حقًّا لتجنَّب هذا الشَّيْء، فصَدَقَ معنا قَوْلُهُ تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

حَلَّ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ هَذَا الْآيَةَ فقال: [لَا يَعْلَمُونَ بِهَذَا الوَعْدِ]. يعني: بما وَعَدَ اللهُ أُمَّهُ مِن رَدِّه إليها، وَلَا بِأَنَّ هَذِهِ أُختُه.

وعلى هذا، فيقول: الضَّمِيرُ فِي ﴿أَكْثَرَهُمْ﴾ يَعُودُ عَلَى آلِ فِرْعَوْنَ، وهذه فمَكَث عندها إلى أن فَطَمَتْهُ، وأُجري عليها أُجْرَتُها لكل يوم دينار.

أما [كونه بقي عندها إِلَى أَنْ فَطَمَتْه]، فهذا واضح؛ لِأَنَّهُ مَا دَامَ يحتاج للرضاع فسوف يبقى عندها.

وأما [أُجْرِيَ عليها أُجرَتُها] فهذا أيضًا صحيح؛ فإنه جُعل لها أجرة، وصاروا يرسلون إليها بالهدايا والتحف ويكرمونها؛ لأنَّها كافلةُ هذا الطِّفْلِ الَّذِي قَالُوا: إنه ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ﴾، و﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾، ولهذا رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**مَثَلُ الَّذِينَ يَغْزُونَ مِنْ أُمَّتِي، وَيَأْخُذُونَ الجُعْلَ يَتَقَوَّوْنَ بِهِ عَلَى عَدُوِّهِمْ مِثْلُ أُمِّ مُوسَى تُرْضِعُ وَلَدَهَا وَتَأْخُذُ أَجْرَهَا**»[1].

وَهَذَا مِنْ آيَاتِ اللهِ، يأتيها ولدُها وتُرضِعه، وتُكرَم عليه، فلو لم تُلقه فِي الْيَمِّ، ولم يلتقطه آلُ فِرْعَوْنَ، لَبقيت خائفةً وَجِلَةً، ولا تحصل لها أُجرة، ولا إكرام، ولا إعزاز مِن هؤُلاءِ الطغاة.

وأما قوله: [لِكُلِّ يومٍ دينار] فهذا غير مُسلَّم؛ لأن طريقنا في مِثْلِ هَذِهِ الْأُمُورِ أن نقول: ما ثبت عن الرَّسُول ﷺ فهو مقبول، وَمَا لَمْ يَثْبُتْ مِن أخبار بَنِي إِسْرَائِيلَ؛ فإننا نتوقف فيه، وَلَا يَنْبَغِي أَنْ نجزم به هذا الجزم، بل نُحدِّث به، ولكننا لا نجزم به.

يقول: [لِكُلِّ يَوْمٍ دِينَارٌ، وَأَخَذَتْهَا لِأَنَّهَا مَالُ حَرْبِيٍّ]، سبحان الله العظيم! ذهب وَهْم بَعْضِ الْعُلَمَاءِ مَذهبًا غريبًا، هل أخذتها؛ لأنَّها مالُ حربيٍّ، أم أخذتها لأنَّها أجرة على إرضاعها؟ بَلْ هِيَ أُجْرَةٌ، فهذا هو الأمر الطبيعي، أما كونُها تأخذ الأجرة؛

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٤/ ٢٢٨، رقم ١٩٥٣٢)، وسعيد بن منصور (٢/ ١٧٤، رقم ٢٣٦١)، أبو داود في المراسيل (١/ ٢٤٧، رقم ٣٣٢)، والبيهقي (٩/ ٢٧، رقم ١٧٦١٨).

لأنَّها مالُ حربيٍّ، فَهَذَا لَا وجه له، فلا يقال مثلًا: إنَّ أُمَّ مُوسَى لما لم يَقبل ثديَ غيرها كان إرضاعُها إياه فرضًا عليها، والفرضُ لَا يَجُوزُ أَخْذُ العِوَض عليه، ففسَّر أخذ المال هنا عَلَى أَنَّهُ مالُ حربيٍّ.

نقول: حتى مال الحربيِّ إذا جاء بصيغة عَقْدٍ، فلَا يَجُوزُ أَخْذُهُ، إنما تأخذه بمقتضى العقد، والمُعاقَدَة بينك وبين الحَرْبِيِّين مِثل الاستِئمان، بَلْ هِيَ استئمانٌ في الواقع.

فالصَّواب أنها أخذتها؛ لأنَّها أُجِرَت عليه على كفالته وإرضاعه؛ لِأَنَّهُ لَوْ لم تأخذ لكان فِي ذَلِكَ بلاء، ولَعَلِم أنها قريبة له أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، فهي أخذته؛ لأنَّهم يعتقدون أَنَّهَا لَيْسَتْ أُمَّه، ويعتقدون أَنَّ هَذَا الطفل سوف يكون لهم، وذلك جائز باطنًا؛ لأجل كفالتها بالنِّسبة لهم.

يقول المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فَأَتَتْ بِهِ فِرْعَوْنَ، فَتَرَبَّى عِنْدَهُ، كَمَا قَالَ تعالى حِكَايَةً عَنْهُ فِي سُورَةِ الشُّعَرَاءِ: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ [الشعراء:١٨]]، تربَّى عند فِرْعَون في بيت المَلِك، وكان يركب كما يركب الملوك، ويلبس لِباس الملوك، فبدلًا مِن أَنَّهُ لَوْ كَانَ عند أُمِّه ما حصل له هذا الشَّيْء بلا شك، أمَّا الآن فأصبح مُعَزَّزًا مُكَرَّمًا، وَذَلِكَ مِنْ تسخير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى له.

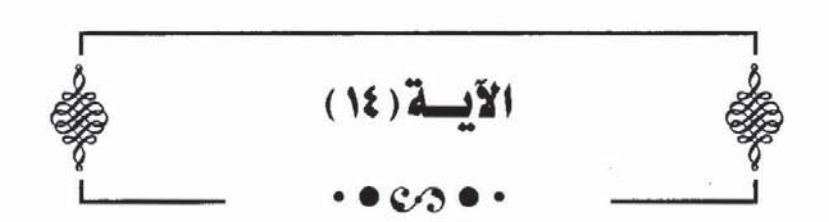
وقد ظل موسى يتردد على أُمِّه بَعْدَ الفِطام وبعد أن كَبِرَ، فهي أُمُّه مِن الرضاعة.

ومِن المظنون عقلًا أنها أخبرته بالحقيقة بعدما كَبِرَ، فعَرَف وكتم الخبر عن آلِ فِرْعَوْنَ.

فائدة: لا يُعرف تحديدًا مَن أسماه باسمه هذا، هل هِيَ أُمُّهُ أَمْ آلُ فِرْعَوْنَ،

ولكن الاسم عِبري، وَقَدْ يَكُونُ اسمه الَّذِي كَانَ عِنْدَ فِرْعَون هو اسمه الذي سَمَّتْه به أُمُّه إكرامًا له مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فقد قَالَ تعالى: ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴾ [الشعراء:١٨]، فبقي الرجل عند المَلِك مُكَرَّمًا مُعَظَّمًا مُعَزَّزًا.

• • ۞ • •



الآية (١٤)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [القصص:١٤].

قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ وَهُوَ ثَلَاثُونَ سَنَةً أَوْ وَثَلَاثٌ ﴿وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ أَيْ بَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا﴾ حِكْمَةً ﴿وَعِلْمًا﴾ فِقْهًا فِي الدِّينِ قَبْلَ أَنْ يُبْعَثَ نَبِيًّا ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ كَمَا جَزَيْنَاهُ ﴿نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ لِأَنْفُسِهِمْ].

الأَشُدُّ قيل: إنه ثلاث وثلاثون سَنة، وقيل: ثلاثون سَنة، وقيل: قريبًا مِن أربعين، وَذَلِكَ أَنَّ اللهَ يقول: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ [الأحقاف:١٥]، فدل هَذَا عَلَى أَنَّ بلوغ الأَشُدِّ غيرُ الأربعين؛ لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ عَلَى أَنَّهُ يَحْتَمِلُ أَنَّ بُلُوغَ الْأَشُدِّ معناه كمالُ العقل، ولا يُنافي أن يكون كَمالُ الْعَقْلِ عند تمام الأربعين.

قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ أي: بمعنى: كَمَل، والاستواء فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ بمعنى: الكمال، ومنه قولهم: استوت الثمرة، أي: كَمَلَت، وهو فِي كُلِّ مَوْضِعٍ بِحَسَبه، ولكنه إذا عُدِّي بـ(إلى) فهو بمعنى: القَصْد، وإذا عُدِّي بـ(على) فهو بمعنى: العُلُوِّ والاستقرار؛ لأن ذلك هو الكمال.

قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا﴾ حِكمةً، ﴿وَعِلْمًا﴾ فِقْهًا في الدِّين قبل

أن يُبعث نَبيًّا].

﴿ءَاتَيۡنَٰهُ﴾ بمعنى: أعطيناه، وهذا الإيتاء كونيٌّ، والإتيان يكون كونيًّا، ويكون شرعيًّا، وَإِنْ كَانَ مُتَعَلِّقًا بالقضاء والقَدَر، فهو كونيٌّ، وَإِنْ كَانَ مُتَعَلِّقًا بالشرع فهو شرعيٌّ: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ﴾ [التوبة:٥٩]، هذا الإتيان شرعي؛ لأنَّه يتعلق بالشرع والقصد، وهنا ﴿ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمًا وَعِلۡمًا﴾ كوني؛ لِأَنَّهُ يَتَعَلَّقُ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ.

أما قَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡ﴾ [النور:٣٣]، فكلمة ﴿وَءَاتُوهُم﴾ شرعيٌّ، و﴿ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡ﴾ قَدَرًا، فهو قَدَّره لكم، فالإتيان إذن يكون شرعيًّا، ويكون كونيًّا بحسب متعلَّقِه.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿حُكۡمًا﴾ فَسَّره بحِكمة، يقال: عِلمًا أي: فِقهًا.

وَقَدْ فَسَّرَ الحُكم بالحِكمة؛ لِأَنَّ الْعِلْمَ هُوَ عِلْمُ الأحكام، فإذا فَسَّرنا الْحُكْمَ بِأَنَّهُ الحُكْمُ الَّذِي هو مقتضى خطابِ بالشرع، صَارَ فِيهِ نَوْعٌ مِنَ التَّكْرَارِ؛ لِأَنَّهُ عَلِمَ، ولكنه يَجُوزُ أَنْ نَقُولَ: آتَيْنَاهُ حُكْمًا، أي: عِلمًا بالأحكام الشرعية، وعِلمًا بالأخبار والأسرار، وحينئذٍ مَا يَكُونُ فِي الْآيَةِ تكرار، ولا نلجأ إلى تفسير الحُكم بالحِكْمَة؛ لأن المَعْرُوفَ أَنَّ الْحُكْمَ غَيْرُ الحِكمة، فالحُكم هُوَ مُقْتَضَى خطاب الشرع المتعلِّق بِأَفْعَالِ المُكَلَّفِينَ، والحِكمة هي علة ذَلِكَ الحُكْمِ.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ﴾: (لَمَّا) هنا شرطية، بِدَلِيلِ أَنَّهُ جَاءَ لَهَا فِعْلٌ وجواب، ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ ءَاتَيۡنَٰهُ﴾، فهي إذن شرطية، وَهِيَ تَرِدُ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ شَرطية كما هنا، وتَرِد بمعنى: (إلا)، مِثْلَ قَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ﴾ [الطارق:٤]، أي:

إِلَّا عَلَيْهَا حافظ، وتَرِد ظَرْفًا، مثل: جئتك لَمَّا عرفتُ أنك مستيقظ، أي: حينَ عرفتُ، والذي يُعَيِّن هَذِهِ المَعَانِيَ هو السياق.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ كما جزيناه، ﴿نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ لأنفسهم].

قوله: [كما جزيناه] يُفِيدُ أَنَّ الإشارة هنا إِلَى هَذَا الإعطاء الَّذِي أَعْطَاهُ اللهُ، يعني: ومثلَ ذلك، والكاف هنا -وهي كَثِيرَةٌ فِي الْقُرْآنِ- مفعولٌ مُطْلَق، بمعنى: مِثل، أي: مِثْلُ ذَلِكَ الجزاء ﴿نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ إِذَا كَانَتْ مفعولًا مطلقًا، بمعنى: مثل، فهي اسم، قَالَ ابْنُ مالك[1]:

شَبِّهْ بِكَافٍ وَبِهَا التَّعْلِيلُ قَدْ ... يُعْنَى وَزَائِدًا لِتَوْكِيدٍ وَرَدْ

وَاسْتُعْمِلَ اسْمًا وَكَذَا عَنْ وَعَلَى ... مِنْ أَجْلِ ذَا عَلَيْهِمَا مَنْ دَخَلَا

فالكاف تَأْتِي بِمَعْنَى: مِثل، وتُعرب عَلَى أَنَّهَا اسمٌ لا حَرْفُ جَرٍّ.

وقوله تعالى: ﴿نَجْزِي﴾ أي: نكافئ، وقوله: ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ يقول لأنفسهم، و﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ في الواقع يَشمل الْإِحْسَانَ فِي عِبَادَةِ اللهِ، وَالْإِحْسَانُ إِلَى عِبَادِ اللهِ، وَالدَّلِيلُ عَلَى هَذَا أَنَّ جِبْرِيلَ قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: «أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ؟ فقال: أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّك تَرَاهُ؛ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»[2].

---

(١) ألفية ابن مالك (ص٣٥).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان، وعلم الساعة، رقم (٥٠)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان، رقم (٩).

فهذا إِحْسَانٌ فِي عِبَادَةِ اللهِ، وقوله ﷺ: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّك تَرَاهُ» هَذِهِ عِبَادَةُ الطَّلَب، وقوله: «فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ؛ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»، هَذِهِ عِبَادة الهَرَب والخوف، وَلَا شَكَّ أَنَّ العابد بِالمَعْنَى الْأَوَّلِ أكملُ مِن العابد بالمعنى الثَّاني؛ لأن العابد الأول مَرتبتُه عُليا، يَعْبُدُ اللهَ كأنه يراه، فهو يَقْصِدُ اللهَ، وله شوق كَبِيرٌ إِلَى رَبِّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

أما الثَّانِي، فَإِنَّهُ يَعْبُدُ اللهَ كأن اللهَ يَرَاهُ، فهو خائفٌ مِنْ رَبِّهِ، فعبادتُه هِيَ عِبَادَةُ الهَرَب، والأول عبادةُ طَلَب.

ولكن الإِحْسَان بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْخَلْقِ إِذَا فسرناه بأنه إرادةُ الخير فقط لَا يَكْفِي، يقال: إنه بَذْلُ النَّدى، وَكَفُّ الْأَذَى، وهذا هو الْإِحْسَانُ إِلَى النَّاسِ، والندى بمعنى: العطاء، وَكَفُّ الْأَذَى واضح، فالإِحْسَان إذن له شِقَّان: بَذْلُ الندى، سَوَاءٌ كَانَ ذَلِكَ يَتَعَلَّقُ بِالمَالِ، أَوْ بالجاه، أو بالبَدَن، وَكَفُّ الْأَذَى القولي والفعلي، وقد يتخلف أحدُهما ويكون الإِنْسَان مُحسنًا مِنْ وَجْهٍ، غيرَ محسنٍ مِنْ وَجْهٍ، ويكون مسيئًا إذا تخلف كفُّ الأذى.

وَمِنْ هَذَا التَّعْرِيفِ لَا يَدْخُلُ الْعِلْمُ فِي الندى، نحن قلنا: إِنَّ الإِحْسَان يشمل المَالَ وَالْبَدَنَ والجاهَ، وتعليمُ الْعِلْمِ مِن الإِحْسَان البَدني، وكذلك النصيحة.

على كُلِّ حَالٍ: الإِحْسَان هُوَ عِبَارَةٌ عَن: بَذْل الندى، وَكَفِّ الْأَذَى.

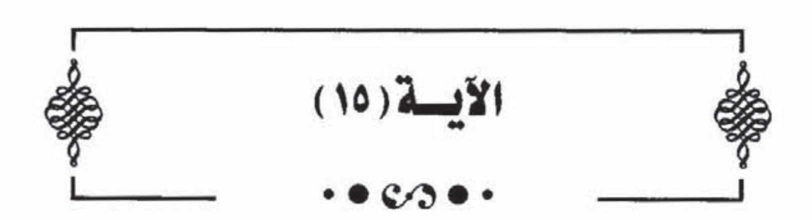
وَأَنَا أَرَى أَنَّ هَذِهِ الْعِبَارَةَ هِيَ أَحْسَنُ مَا قِيلَ، فَأَنْتَ لَا تؤذي النَّاس فتكون مسيئًا، ولا تحرِمُهم خيرَك، فَلَا يَكُونُ فيك إحسانٌ، فليس هناك إحسان إِذَا لَمْ تبذل الندى.

قوله: ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ الإِحْسَان هنا يَكُونُ فِي عِبَادَةِ اللهِ، وَإِلَى عِبَادِ اللهِ.

فأما الْإِحْسَانُ فِي عِبَادَةِ اللهِ، فَقَدْ فَسَّرَها النَّبيّ ﷺ بقوله: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّك تَرَاهُ؛ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ».

وأما الْإِحْسَانُ إِلَى عِبَادِ اللهِ، فهو بَذْلُ الندى، وَكَفُّ الْأَذَى.

• ● ۞ ● •



الآيـة (١٥)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ [القصص:١٥].

•••

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَدَخَلَ﴾ مُوسَى ﴿الْمَدِينَةَ﴾ مَدِينَةَ فِرْعَوْنَ -وَهِيَ مَنْفُ- بَعْدَ أَنْ غَابَ عَنْهُ مُدَّةً ﴿عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ وَقْتِ الْقَيْلُولَةِ ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ﴾ أَيْ إِسْرَائِيلِيٌّ ﴿وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ أَيْ قِبْطِيٌّ يُسَخِّرُ إِسْرَائِيلِيًّا لِيَحْمِلَ حَطَبًا إِلَى مَطْبَخِ فِرْعَوْنَ ﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ فَقَالَ لَهُ مُوسَى خَلِّ سَبِيلَهُ. فَقِيلَ: إِنَّهُ قَالَ لِمُوسَى: لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَحْمِلَهُ عَلَيْكَ ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ﴾ أَيْ ضَرَبَهُ بِجَمْعِ كَفِّهِ، وَكَانَ شَدِيدَ الْقُوَّةِ وَالْبَطْشِ ﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ قَتَلَهُ، وَلَمْ يَكُنْ قَصَدَ قَتْلَهُ، وَدَفَنَهُ فِي الرَّمْلِ ﴿قَالَ هَٰذَا﴾ قَتْلُهُ ﴿مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ الْمُهَيِّجِ غَضَبِي ﴿إِنَّهُۥ عَدُوٌّ﴾ لِابْنِ آدَمَ ﴿مُّضِلٌّ﴾ لَهُ ﴿مُّبِينٌ﴾ بَيِّنُ الْإِضْلَالِ].

كان هذا الدُّخولُ بَعْدَ بُلُوغِ الْأَشُدِّ؛ لِأَنَّ الْأَصْلَ أَنَّ مَا تَقَدَّمَ ذِكْرًا فهو مُتقدم وُقوعًا وعملًا، هَذَا هُوَ الْأَصْلُ، وُقوعًا إِنْ كَانَ فِي الْأَخْبَارِ، وعملًا إِنْ كَانَ فِي الْأَحْكَامِ.

ولهذا أقبل النَّبيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ على الصَّفَا، وقال: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن

شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١٥٨]، ثم قال: «أَبْدَأُ بِمَا بَدَأَ اللهُ بِهِ»[(١)].

وَقَالَ الْعُلَمَاءُ: إِنَّ الْفُقَرَاءَ أشد حاجةً مِن المساكين؛ لِأَنَّ اللهَ بَدَأَ بِهِمْ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ [التوبة:٦٠].

فهنا نَقُولَ: لَمَّا ذَكَرَ اللهُ: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَدَخَلَ﴾ عَلِمْنَا بِأَنَّ دخوله المدينةَ بَعْدَ أَنْ بَلَغَ أَشُدَّهُ.

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَدَخَلَ﴾ مُوسَى، ﴿ٱلْمَدِينَةَ﴾ أَيْ مَدِينَةَ فِرْعَوْنَ، وَهِيَ مَنْفُ أَوْ مُنْفُ -بِضَمِّ الميم وسكون النون- بَعْدَ أَنْ غَابَ عَنْهُ مُدَّةً].

تعيين المدينة بأنها مدينة فِرْعَون فِي نَفْسِي مِنْ هَذَا شَيْءٌ؛ لِأَنَّ الرَّجُلَ تربّى عند فِرْعَون، في مدينته نفسها، وفي مكانه نفسه، اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يقال: إِنَّ فِرْعَوْنَ كَانَ فِي مِصْرَ، وإِنَّ مَنْفَ هَذِهِ بلد خَارِجَةٌ عَنِ القاعدة الأصلية، يعني: قصبة البلد، وإنه خَرَجَ فِي يَوْمٍ مِنَ الأيام، فدخلها، والأحسنُ فِي مِثْلِ هَذَا المَقَامِ إِذَا لَمْ تَرِدْ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنْ نَقُولَ: مدينة مِن مُدن مصر، ويسكنها أقباطٌ وإسرائيليون بدليل القصة.

قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾، قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وقتَ القيلولة].

قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: المراد عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ زمنًا، يعني: أَنَّهُمْ فِي زَمَنٍ يَغْفُل النَّاسُ فِيهِ، وبعضُهم يَقُولُ إِنَّهُمْ نَسُوا موسى وقِصَّته، وطال الزَّمَن، فدخل ﴿عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ﴾ مِن التحدث فِي هَذَا الْأَمْرِ.

ولكن المَعْنَى الْأَوَّلُ أَظْهَرُ، وهو أنه دَخَلَهَا فِي وَقْتٍ أهلُها غافلون، وَلَا يَتَعَيَّنُ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، رقم (١٢١٨).

أَنْ يَكُونَ وَقْتَ القيلولة، الَّذِي قَدْ يَكُونُ بالليل، أَوْ فِي المَغْرِبِ، اللهُ أَعْلَمُ، إنما هو فِي وَقْتٍ أَهْلُ الْبَلَدِ غافلون.

قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ﴾ قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: إسرائيلي، ﴿وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ أي: قِبطي].

الاقتِتالُ بمعنى: المنازَعةِ والمخاصَمةِ، والمضارَبة أيضًا، وَلَيْسَ المُرَادُ فِيهَا يَبْدُو أنهما يريدان أَنْ يَقْتُلَ أحدهما الآخر.

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ﴾: شِيعة الرَّجل: أتباعُه، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ﴾ [الصافات:٨٣].

وقيل: إِنَّ الشيعة مَن يُناصِرُك، كُلُّ مَنْ يُناصرك فهو شيعة لك، سَوَاءٌ كَانَ مُتَّبِعًا لك، أَوْ غَيْرَ مُتَّبِعٍ.

وَعَلَى كُلِّ حَالٍ: المراد بالشيعة: أَنَّهُ مِنْ قبيلته، وَلِهَذَا قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: إسرائيلي].

قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ مِنْ عَدُوِّ موسى، أي: مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ، وهُم الأقباط.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي قِبطي يُسخِّر إسرائيليًّا لِيَحْمِلَ حَطَبًا إلى مَطْبَخ فِرعونَ].

هَذَا مِنَ الْعَجَبِ.

عَلَى كُلِّ حَالٍ: ﴿يَقْتَتِلَانِ﴾ يَتَخَاصَمان ويتنازعان، وربما يحصل بَيْنَهُمَا ضَرْبٌ، كعادة النَّاس، الأعداء يُخاصِم بَعْضُهُمْ بَعْضًا دائمًا، ويُقاتل بَعْضُهُمْ بَعْضًا.

وَقَدْ ذَكَرَ شيخُنا عَبْدُ الرَّحْمَنِ السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي تَفْسِيرِهِ، بِأَنَّ هَذَا يَدُلُّ عَلَى قُوَّةِ شعب بَنِي إِسْرَائِيلَ بَعْدَ أَنْ كَانُوا أَذِلَّةً؛ يُقَتَّل أبناؤهم، ويُستحيَا نساؤهم، أصبحوا الآن يرون أنفسهم أندادًا لآل فِرْعَون الأقباط؛ لِأَنَّهُمْ يَعْرِفُونَ أَنَّ مُوسَى منهم، وأن مُوسَى فِي مَنْزِلَةٍ عظيمة عند فِرْعَونَ، فقد استقوت ظُهورهم بهذا الشَّيْء، وهذا واضح، سوف يَقوون بهذا الشَّيْء، ويرون أنفسهم أندادًا لآل فِرْعَون.

أَمَّا أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُسَخِّرَه ليحمل الحطب إلى المطبخ، فَهَذَا ليس ظَاهِرًا، وَيَحْتَاجُ إِلَى دَلِيلٍ بَيِّن، وَلَا دَلِيلَ هنا، فيشرح الموقف عَلَى قَوْلِهِ: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُجري الأُمُورَ بأسباب، وأصلُ القصةِ دخولُ مُوسَى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ المدينةَ، ووجود الرَّجلين، وقَتْله النفس، كُلُّ هَذَا كَانَ سَبَبًا لخروجِ موسى، ثم نُبُوَّتِهِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: قَوْلُهُ تعالى: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ﴾ فِيهِ جَوَازُ الاستغاثة بالمخلوق، فهي مشروعة بما تُفيد فيه، أَمَّا مَا لَا يُفِيدُ فِيهِ، فَلَا يَجُوزُ.

فَعَلَى هَذَا إِذَا استغاث إنسانٌ بِميِّت، فَلَا يَجُوزُ؛ لِأَنَّهُ لَا يُفيده، وإذا استغاث بحيٍّ بِمَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ، فَلَا يَجُوزُ؛ لِأَنَّهُ لَا يُفيده، وإذا استغاث بِحَيٍّ فيما يَقْدِرُ عَلَيْهِ فَهُوَ جَائِزٌ.

إذن: الاستغاثَةُ بالمخلُوقِ جائزةٌ بِشَـرْطِ أَنْ يَكُونَ فِيمَا يُفيد، كَذَلِكَ فِي حَيٍّ قَادِرٍ عَلَى دَفْعِ الشدة.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثبات الْعَدَاوَةِ وَالْوِلَايَةِ؛ لقوله: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾، وَهُوَ أَصْلٌ فِي الدِّينِ، فإن وِلاية الْمُؤْمِنِينَ مِن واجب المؤمن، والبراءة مِنَ الْكُفَّارِ مِنْ وَاجِبِ المؤمن، قَالَ تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الممتحنة:٤]، فهذا أَمْرٌ لَا بُدَّ مِنْهُ، فلَا بُدَّ أَنْ يتبرأ الْإِنْسَانُ مِن كُلِّ كَافِرٍ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: فِيهَا دَلِيلٌ عَلَى قُوَّةِ مُوسَى؛ لقوله: ﴿فَوَكَزَهُۥ﴾، ﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾.

الْفَائِدَةُ الْخَامِسَةُ: فِيهَا إِثْبَاتُ غَيْرَتِه، وسرعة استجابته، لِأَنَّهُ لَمْ يَتَلَكَّأْ فِي الْأَمْرِ، بل بادَرَ فيه.

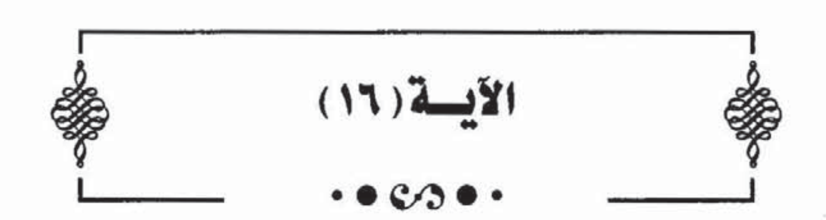
الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: جَوَازُ دَفْعِ الصائل بما يَصِلُ إِلَى الْقَتْلِ، ففي الشريعة الإِسْلامية معروف أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا صَالَ عَلَيْهِ أَحَدٌ، ودفعه بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، ولم يندفع؛ فَلَهُ أَنْ يَقْتُلَهُ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أَنَّ الْمَعَاصِيَ مِنْ أَوَامِرِ الشَّيْطان وأعماله؛ لقوله: ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: إثبات السبب؛ لقوله: ﴿مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾؛ لأن ﴿مِنْ﴾ هنا سببيَّة.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: ثبوت عداوة الشَّيْطان لِبَنِي آدَمَ ﴿إِنَّهُۥ عَدُوٌّ﴾، وأُكِّد بـ(إِنَّ) لِشِدَّة التنفير منه؛ لأن عداوته لَيْسَ فيها التباس.

• • ۞ • •



الآيــة (١٦)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [القَصَص:١٦].

•• ❦ ••

قَالَ الْمُفَسِّـرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قَالَ﴾ نَادِمًا ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ بِقَتْلِهِ ﴿فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أَيِ الْمُتَّصِفُ بِهِمَا أَزَلًا وَأَبَدًا].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾، إثبات أَنَّ الرُّسُلَ -عليهم الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- قد يخطئون، ولكن يَكُونُ ذَلِكَ قَبْلَ الرِّسالَة، لَكِنْ لَا يَقَعُ منهم فسادُ الأخلاق وشُرب الخمور، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، أما الغَيْرَةُ والحَمِيَّة فهذا قَدْ يَقَعُ منهم.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثبات هذين الاسمين مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ: الغَفُور والرَّحيم، وإثبات الاسم -كما مَرَّ علينا- فِي أُصُولِ العقيدة يتضمن ثَلَاثَةَ أُمُورٍ: إِذَا كَانَ الِاسْمُ مُتعديًا، وأَمْرَيْن إِذَا كَانَ لازمًا، يتضمن إِثْبَاتَ هَذَا الِاسْمِ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ، وإثبات مَا دَلَّ عَلَيْهِ مِنْ صِفَةٍ، وإثباتَ الأثَرِ، وهو تَعَدِّيهِ إِلَى المَخْلُوقِ، مثلًا: الْغفورُ الرَّحِيمُ، يتضمن ثَلَاثَةَ أَشْيَاءَ: إثبات الْغفُور الرَّحيم عَلَى أَنَّهُمَا مِنْ أَسْمَـاءِ اللهِ، وإثبات صِفَتَيِ المَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ للهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وإثبات الأثر المترتب عَلَى ذَلِكَ، وأنه يَغفر ويَرحم.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾ دَلِيلٌ عَلَى إِثْبَاتِ الأَسْباب، وَذَلِكَ لِأَنَّ (الفاء) هنا سببية، يعني: فبِسَبب ظُلم نفسي، فإني أسألك أن تَغْفِرَ لِي.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿فَغَفَرَ لَهُ﴾ استجابة اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَمَا تَضَمَّنَتْهُ هَذِهِ الاستجابة مِنْ صِفَاتٍ؛ لأن الاستجابة تتضمن السمع والعِلم والقُدرة والغِنى، فإذا استجاب اللهُ لإنسان فمَعْنَاهُ أَنَّهُ كَانَ قَدْ سَمِعَهُ، وعَلِمَ بحاله، وقَدَرَ عَلَى إِعْطَائِهِ سُؤْلَهُ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إثباتُ كَرَمِ اللهِ؛ لقوله تعالى: ﴿فَغَفَرَ لَهُ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: جَوازُ التوسُّل إلى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بحالِ الدَّاعي، ويُؤخَذ مِنْ قَوْلِهِ تعالى: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾، فالظَّالِمِ لنفسه مُحْتَاجٌ إِلَى مَن ينصحُه، فهو توسَّلَ إلى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بحال الدَّاعي، وَمِنْهُ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنْ مُوسَى: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص:٢٤].

والتوسُّل إلى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يكون بحالِ الدَّاعي، ويكون بِالثَّنَاءِ عَلَى اللهِ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وكذلك بأفعاله، التي يُنعم بها، وَقَدِ اجْتَمَعَ الْجَمِيعُ فِي تَعْلِيم النَّبِيِّ ﷺ لِأَبِي بَكْرٍ عندما قَالَ لَهُ: عَلِّمْنِي دُعَاءً أَدْعُو بِهِ فِي صَلَاتِي؟ قال: «قل: اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ، وَارْحَمْنِي، إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ»[1].

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إثبات أَنَّ الدُّعَاءَ سببٌ، خِلَافًا لِمَنْ أَنْكَرَ سببيته.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب الدعاء قبل السلام، رقم (٨٣٤)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب استحباب خفض الصوت بالذكر، رقم (٢٧٠٥).

فقد يَقُولَ قَائِلٌ: إِنَّ الشَّيْء إِنْ كَانَ قَدْ كُتِب لِي، لَمْ يَحْتَجْ إِلَى دعاء، وَإِنْ كَانَ لَمْ يُكْتَبْ لِي، فَلَا فَائِدَةَ مِنَ الدُّعَاءِ.

والجواب عَلَى ذَلِكَ أَنْ يُقَالَ: هو مكتوب لك بالدُّعاء، مكتوب لك بِهَذَا الشَّرْطِ بالدُّعاء، مثلًا لَا يَقُولُ قَائِلٌ: أَنَا لَا أدعو؛ لأن المكتوب لَا بُدَّ أَنْ يَحْصُلَ، وَمَا لَا يُكْتَبُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَحْصُلَ. فَهَذَا لَيْسَ بِصَحِيحٍ؛ لأَنَّه مكتوب لك بِهَذَا السَّبَبِ.

كما لَوْ قَالَ قَائِلٌ: أنا لن أتزوج، إِنْ كَانَ اللهُ قَدَّرَ لِي ولدًا فسيكون، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ قَدْ قَدَّرَ لِي ولدًا، فَلَا فَائِدَةَ مِنَ الزَّوَاجِ. نقول: ولكنه مقدرٌ بالزواج، فَهَذِهِ الْأُمُورُ الغيبية مِثل الأُمُور المشاهدة، كَمَا أَنَّ الْأُمُورَ المشاهدة لَا تَصْلُحُ إِلَّا بفعل الْأَسْبَابِ الَّتِي تُوصِلُ إليها، فكذلك الأُمُور الغائبة لَا تَصْلُحُ.

إذن نقول: لَا تَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا؛ لِأَنَّك إِذَا كُنْت مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ؛ فإنك سَتَكُونُ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ، وَإِنْ كُنْت مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فلن تَكُونَ إِلَّا مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فيقال: أنت تَكُونُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ بعملك.

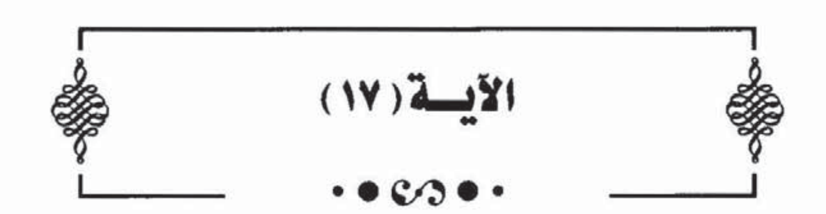
ولهذا لَمَّا قَالَ الرَّسُولُ ﷺ لأصحابه: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ إِمَّا فِي الجَنَّةِ أَوْ فِي النَّارِ». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَفَلَا نَدَعُ العَمَلَ وَنَتَّكِلُ عَلَى الْكِتَابِ؟ قَالَ: «لَا، اعْمَلُوا، فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ»، أو: «فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ»، ثُمَّ تَلَا قَوْلَهُ تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل:٥-١٠][1].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ﴾، رقم (٤٩٤٥)، ومسلم: كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته، رقم (٢٦٤٧).

فَفِي هَذِهِ الْآيَةِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْآيَاتِ الكثيرة دَلِيلٌ عَلَى تأثير الدُّعَاءِ فِي حُصُولِ المطلوب؛ لِأَنَّ مَنْ أَنْكَرَ ذَلِكَ فَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ مُكابر، أَوْ جَاهِلٌ.

••۞••



❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [القَصَص:١٧].

•●○●•

قَالَ الْمُفَسِّـرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ﴾ بِحَقِّ إِنْعَامِكَ ﴿عَلَيَّ﴾ بِالْمَغْفِرَةِ اعْصِمْنِي ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا﴾ عَوْنًا ﴿لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ الْكَافِرِينَ بَعْدَ هَذِهِ إِنْ عَصَمْتَنِي].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: هَذِهِ الْآيَةُ -كما مر علينا- مِنَ الْعُلَمَـاءِ مَن يقول: إنها دعاء. وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: إنها خبرٌ بمعنى: التزام.

فَإِنْ قِيلَ: إنها دعاء؛ فإنه يُستفاد منها ما يُستفاد مِنَ الْآيَةِ السَّابِقَةِ، فيستفاد جَواز التوسُّل بِنِعَمِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لِأَنَّ قَوْلَه: ﴿بِمَآ أَنْعَمْتَ﴾ أي: بسبب إنعامك عليَّ.

وَإِنْ قِيلَ: إنها التزامٌ، فإنها تَدُلُّ عَلَى شُكْرِ النِّعَمِ، وَإِنَّ الإِنْسَانَ إِذَا أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ؛ فَإِنَّهُ يَجِبُ أَلَّا يَكُونَ عَوْنًا بهذه النعمة للمجرمين.

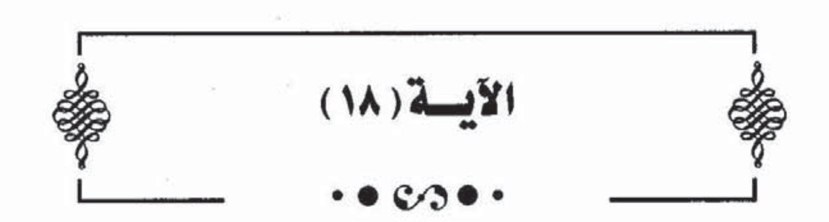
وقلنا: إِنَّ المَعْنَى الثَّانِيَ أقربُ وأرجح؛ لِأَنَّهُ ظَاهِرُ الْآيَةِ، وَلَا يَنْبَغِي الْعُدُولُ عَنْ ظاهرِها، وَإِنْ كَانَتْ تحتمل المَعْنَى الثَّانِيَ.

فيستفاد منها إذن كمالُ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ حيث التزم للهِ تعالى شُكْرًا عَلَى نِعْمَتِهِ بألَّا يكون ظهيرًا للكافرين والمجرمين.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: فِيهَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ مُظاهرة المجرم تُنافي الشكر، فَهِيَ مُحَرَّمَةٌ؛ لأَنَّها إجرامٌ حقيقةً، بَلْ تَكُونُ مساعدة المجرم بمنع إجرامه، وَلِذَلِكَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا، أَوْ مَظْلُومًا». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، هَذَا الظَّالِمُ، فَكَيْفَ نَنْصُرُ المَظْلُومَ؟ قَالَ: «تَمْنَعُهُ مِنَ الظُّلْمِ»[1].

• • ۞ • •

(١) أخرجه البخاري: كتاب المظالم والغصب، باب: أعِن أخاك ظالمًا أو مظلومًا، رقم (٢٣١٢).



الآيـة (١٨)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [القَصَص:١٨].

• • • •

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ يَنْتَظِرُ مَا يَنَالُهُ مِنْ جِهَةِ الْقَتِيلِ ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ﴾ يَسْتَغِيثُ بِهِ عَلَى قِبْطِيٍّ آخَرَ ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾ بَيِّنُ الْغَوَايَةِ لِمَا فَعَلْتَهُ بِالْأَمْسِ وَالْيَوْمِ].

قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ﴾ أي: موسى، ومعنى أصبح أي: دَخَلَ فِي الصباح، يعني: بات ليلته، وَلَكِنَّهُ فِي صباحها أصبح ﴿خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾، وقوله تعالى: ﴿فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾: (ال) هنا للعهد الذِكري؛ لأَنَّه سبق ذِكرها، وقوله: ﴿خَآئِفًا﴾ خبر أصبح، وهو منصوب، وقوله ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ إِمَّا أَنْ تَكُونَ خبرًا ثانيًا، فيَكُونُ مِنْ بَابِ تَعَدُّد الخبر مَعَ الاِخْتِلَافِ؛ لِأَنَّهُ يَجُوزُ تَعَدُّد الخبر، سواء تَعَدَّد بلفظ الْمُفْرَد، أو تَعَدَّد بِلَفْظِ الْجُمْلَةِ، أو تَعَدَّد بلفظ المفرد والجملة، أو حَالًا مِنَ الضَّمِيرِ فِي ﴿خَآئِفًا﴾، أَيْ حَالَ كونِه يترقَّب.

وَقَوْلُهُ تعالى: ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ يقول الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [ينتظر مَا يَنَالُهُ مِنْ جِهَةِ القتيل]، لِأَنَّ هَذَا القتل إجرامٌ، فكلُّ إنسان يقتل شَخْصًا فِي بَلَدٍ فَلَا بُدَّ أَنْ يَخَافَ، وَهَذَا الْخَوْفُ مِنَ طبيعة البشر، وليس خوفَ عبادةٍ.

والخوفُ نوْعانِ:

الْأَوَّلُ: خوف عبادة يقتضي التَّقَرُّبَ إِلَى المَخوف، والتزامَ طاعته، وَنَحْوَ ذَلِكَ.

الثَّاني: خوفٌ طبيعي مما يُخَافُ مِنْهُ، وَهَذَا لَا بَأْسَ بِهِ؛ لِأَنَّهُ مِنَ طبيعة البشر، لكنه يكون مذمومًا إِذَا أَدَّى إِلَى تَرْكِ واجب، أَوْ فِعْل محرَّم، قَالَ تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٧٥].

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ﴾: ﴿فَإِذَا﴾ فُجائية، يعني: فاجأه في الصباح وهو خائف يترقَّب، فاجأه أَنَّ صَاحِبَهُ الإسرائيلي الذي استنكره بالأمس هُوَ الْيَوْمَ يسْتَصْرِخُه، والاستِصْراخُ معناه: طلب الإنقاذ مِن الشِّدة.

وهنا نجد أَنَّ الرَّجُلَ قَدِ استغاثَ واستصْرَخ واستَنْصر، والظَّاهرُ أن الاستغاثة والاستنصار بِمَعْنًى وَاحِدٍ، ولكن الاستنصار أعمُّ؛ لأنك قد تستنصر إنسانًا لينصُرَك، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ فِي شِدَّةٍ.

والاستغاثَةُ أَخصُّ، إِلَّا أَنَّ الْآيَةَ الكَرِيمَةَ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الاستغاثة مِنْ بَابِ الاستنصار.

قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿يَسْتَصْرِخُهُۥ﴾: [يَسْتَغِيثُ بِهِ عَلَى قِبْطِيٍّ آخَرَ].

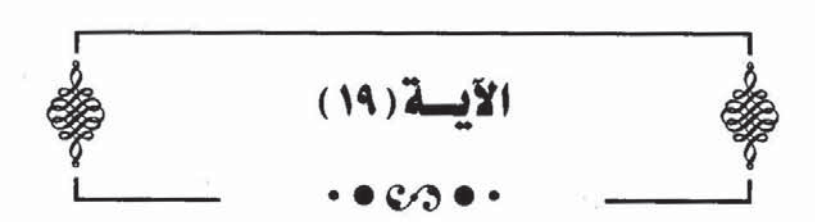
قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ﴾ الضَّمِيرُ فِي ﴿لَهُۥ﴾ يَعُودُ إِلَى الإسرائيلي الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ، وَزَعَمَ بَعْضُ المُفَسِّرِينَ أَنَّ الضَّمِيرَ يَعُودُ إِلَى القبطي، وأَنَّ مُوسَى ﷺ عاقب القبطي، وَقَالَ لَهُ: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾، وَلَكِنَّ هَذَا بَعِيدٌ عن السياق، فالصَّواب أَنَّ الضَّمِيرَ يَعُودُ إِلَى الإسرائيلي الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ أي: بَيِّن الغِواية لما فعلتَه أمسِ واليوم.

غَوِيّ: عَلَى وَزْنِ فَعِيل، بمعنى: فاعِل، أَوْ عَلَى أَنَّهَا صِفَة مُشبَّهة، والغويُّ ضِدُّ المُرشِد، وَهُوَ الَّذِي يَتَصَرَّفُ عَلَى وَجْهِ الإساءة، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ﴾ [البقرة:٢٥٦]، والرُّشد هو إحسان التصرُّف، والغَيُّ سُوء التصرف، فَيَكُونُ المَعْنَى: ذو غِواية، أو سيئ التصرف.

وقوله: ﴿مُّبِينٌ﴾ أي: بَيِّنُها، ووجهُ سُوء تصرُّفه أَنَّ أمسِ القريب كان يتخاصم مع قِبطي، واليوم الثَّانِي الَّذِي يَلِيهِ كَانَ يتخاصم أَيْضًا مَعَ قِبطي آخَر صاحب مَشاكل، فلهذا قَالَ لَهُ: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾، فمن الجَائِزِ أَنْ يتسبب في مشكلات كثيرة غدًا، وَبَعْدَ غَدٍ.

• • ۞ • •



۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّآ أَنۡ أَرَادَ أَن يَبۡطِشَ بِٱلَّذِي هُوَ عَدُوّٞ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقۡتُلَنِي كَمَا قَتَلۡتَ نَفۡسَۢا بِٱلۡأَمۡسِۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ﴾ [القَصَص:١٩].

•●◌●•

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَلَمَّآ أَنۡ﴾ زَائِدَةٌ ﴿أَرَادَ أَن يَبۡطِشَ بِٱلَّذِي هُوَ عَدُوّٞ لَّهُمَا﴾ لِمُوسَى وَالْمُسْتَغِيثِ بِهِ ﴿قَالَ﴾ الْمُسْتَغِيثُ ظَانًّا أَنَّهُ يَبْطِشُ بِهِ لَمَّا قَالَ لَهُ ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقۡتُلَنِي كَمَا قَتَلۡتَ نَفۡسَۢا بِٱلۡأَمۡسِۖ إِن﴾ مَا ﴿تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ﴾ فَسَمِعَ الْقِبْطِيُّ ذَلِكَ فَعَلِمَ أَنَّ الْقَاتِلَ مُوسَى فَانْطَلَقَ إِلَى فِرْعَوْنَ فَأَخْبَرَهُ بِذَلِكَ، فَأَمَرَ فِرْعَوْنُ الذَّبَّاحِينَ بِقَتْلِ مُوسَى فَأَخَذُوا فِي الطَّرِيقِ إِلَيْهِ].

قوله تعالى: ﴿أَن﴾ كلمة ﴿أَن﴾ زائدة، والزيادةُ هنا لفظيةٌ وإعرابية، وليست زيادةً معنويةً؛ لأنَّها تُفيد التوكيد، وجميعُ الحروف الزَّائِدة فِي الْقُرْآنِ لفظًا هي أصليةٌ مَعنًى؛ لأنَّها تُفيد معنى التوكيد، وتَطَّرِد زيادةُ (أَنْ) بَعْدَ لَمَّا، وَكَذَلِكَ قَبْلَ (لو، نعم)، كَمَا فِي قَوْلِ الشَّاعِرِ[1]:

وَأُقْسِمُ أَنْ لَوِ الْتَقَيْنَا وَأَنْتُمُ ....

---

(١) هذا صدر بيت لامرئ القيس، كما في خزانة الأدب، للبغدادي (١٠/ ٨٠)، وعَجُزه:
لَكَانَ لَكُمْ يَوْمٌ مِنَ الشَّرِّ مُظْلِمُ

ومِثل قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ [الجن:١٦]، فـ(أنْ) هنا مُخَفَّفَة مِن الثقيلة، يعني: وأنهم لو استقاموا.

قوله تعالى: ﴿أَرَادَ أَن يَبْطِشَ﴾ أي: أراد موسى، والبطشُ: الأخذ بِقُوَّة.

قوله تعالى: ﴿بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا﴾ لموسى والمستغيث به، قال المستغيث ظانًّا أنه يَبْطِشَ بِهِ لَمَّا قَالَ لَهُ: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ﴾. والظَّاهر هُنَا أَنَّ مُوسَى قد تهيَّأ، وَأَرَادَ أَنْ يَفْعَل، فشاهد المستغيثُ ذلك، وإلا فكيف عَرَفَ أَنَّ مُوسَى أراد، والإرادة محلُّها القلب؟

قول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [قَالَ المُسْتَغِيثُ] يعني: الْفَاعِل فِي [قَالَ المُسْتَغِيثُ]، وهذا يُبعده أمران: أمرٌ لفظي، وأمرٌ معنوي:

أما الأمر اللفظي: فإنَّ ﴿قَالَ﴾ ضميرهُا يَعُودُ إِلَى أَقْرَبِ مَذْكُورٍ، وهو القبطي.

والأمر المعنوي: أَنَّهُ قَالَ: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى﴾، وَاللهُ يَقُولُ: ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا﴾، فنحن نفسر الإرادة الثَّانية بالإرادة الأُولى؛ لأن القبطي هُوَ الَّذِي قَالَ: ﴿أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ﴾.

والقبطي قَدْ عَلِمَ ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِ للإسرائيلي: ﴿إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾، فقد اشتهرت قصة الْقَتْلِ فِي المَدِينَةِ وظهرت، وصار النَّاس يتحدثون عنها، فعرف القبطي أن الإسرائيلي عَدُوٌّ لَهُ، وَهُوَ مَا لَامَه مُوسَى عليه قائلًا: ﴿إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾، فاستنتج مِنْ ذَلِكَ أَنَّ الَّذِي قَتَلَ القبطي بالأمس هو موسى، فقال: ﴿أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ﴾، وَهَذَا الْقَوْلُ هُوَ الراجح مِن قَوْلَيِ المُفَسِّرين.

والمُفَسِّرون لَهُمْ فِي ذَلِكَ قَوْلَانِ:

أحدهما: أَنَّ الَّذِي قَالَ ذَلِكَ الإسرائيلي، مَعَ أَنَّ مُوسَى تهيَّأ للبَطش بالقبطي، لَكِنَّهُ ظَنَّ أنه سيَبطش به، لذا قال: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾.

ثانيهما: أَنَّ الْقَائِلَ هو القِبطي، ويُرجح ذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا قَالَ: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾، وَقَدْ عَلِمَ أَنَّ الإسرائيليين أعداءٌ للأقباط، وعَلِم أو استنتج أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هُوَ الَّذِي قَتَلَ القبطي بالأمس، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي﴾؛ لأني قبطي مثلما قتلت القبطي بالأمس.

قَوْلُه تعالى: ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾: ﴿إِن﴾ بِمَعْنَى (مَا)، وهي نافية، وقوله: ﴿جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ الجبَّار: معناه المتعالي المترفِّع عَلَى غَيْرِهِ، وَهُوَ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ويُوصَفُ بِهِ غَيْرُهُ، وله ثَلَاثَةُ مَعَانٍ:

أحدها: المتعاظِم، وذو القُوَّة والبطش.

الثَّاني: الجَبَّارُ الَّذِي يَجْبُرُ الكَسِير، ويرحمه، ويعطف عليه.

الثالث: يَقُولُ ابْنُ القيم في (النونية)[1]:

وَلَهُ مُسَمًّى ثَالِثٌ وَهْوَ الْعُلُوّ ... فَلَيْسَ يَدْنُو مِنْهُ مِنْ إِنْسَانِ

مِنْ قولهم: جَبَّارَة، للنخلة العُليا، وجَبَّار: بمعنى الارتفاع، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: نخلة جَبَّارة، يعني: طويلة مرتفعة، لَكِنْ إِذَا جَاءَتْ فِي صِفَاتِ غَيْرِ اللهِ؛ فإنها للذَّم، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر:٣٥].

واتِّهام موسى بقوله: ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ استنادًا على قَتْلِه القِبطي بالأمس، وإرادة قتله اليوم.

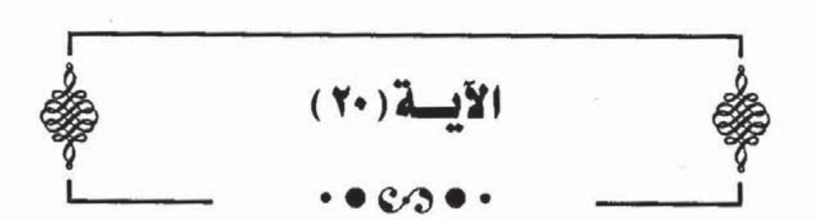
---

(١) نونية ابن القيم المسماة بالكافية الشافية (ص٢٠٩).

واتِّهامه بقوله: ﴿وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ أخذها أَيْضًا مِنْ قَتْلِه بالأمس، وسيَقتُل اليوم، والمصلح عَادَةً لَا يعتدي عَلَى أَحَدِ المتخاصمَينِ، ولكنه يحاول الْإِصْلَاحَ بَيْنَهُمَا، فَهُوَ يَقُولُ: إنك بإرادتك الْقَتْلَ، وَقَدْ قتلتَ بالأمس، معناها أنك تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا، ولا تريد الإصلاح؛ إِذْ إِنَّ مَن يُريد الإصلاح يسعى بالإصلاح بَيْـنَ النَّاسِ، لا يسعى بأن يَسْتَعْدِيَ عَلَى أَحَدِهِمْ دُونَ الْآخَرِ، وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ لا ينطبق عَلَى مُوسَى؛ لأن مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ما أَرَادَ إِلَّا الإصلاح، وَلَكِنَّ هَذَا الرَّجُلَ ظَنَّ أَنَّهُ لَا يُرِيدُ إِلَّا الجبروت، وَالِاعْتِدَاءِ عَلَى مَنْ كَانَ مِنْ غَيْرِ شِيعته.

قَالَ الْمُفَسِّـرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾: [فَسَمِعَ الْقِبْطِيُّ ذَلِكَ فَعَلِمَ أَنَّ الْقَاتِلَ مُوسَى فَانْطَلَقَ إِلَى فِرْعَوْنَ فَأَخْبَرَهُ بِذَلِكَ، فَأَمَرَ فِرْعَوْنُ الذَّبَّاحِينَ بِقَتْلِ مُوسَى فَأَخَذُوا فِي الطَّرِيقِ إِلَيْهِ]، هَذَا الَّذِي فَسَّره بِنَاءً عَلَى مَا اخْتَارَهُ مِنَ أَنَّ الَّذِي قَالَ: ﴿أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي﴾ هو الإسرائيلي، أَمَّا عَلَى الْقَوْلِ الثَّانِي؛ فإن القبطي لَمَّا رَأَى أَنَّ مُوسَى يُرِيدُ قَتْلَهُ، استنتج أنه القاتل بالأمس، فترك المخاصمة، وَذَهَبَ إِلَى آلِ فِرْعَوْنَ، وأخبرهم، وإذا أخبرهم فسوف ينتقمون لأنفسهم.

• • ۞ • •



الآية (٢٠)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [القصص:٢٠].

•••

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَجَآءَ رَجُلٌ﴾ هُوَ مُؤْمِنُ آلِ فِرْعَوْنَ ﴿مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾ آخِرُهَا ﴿يَسْعَىٰ﴾ يُسْرِعُ فِي مَشْيِهِ مِنْ طَرِيقٍ أَقْرَبَ مِنْ طَرِيقِهِمْ ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ﴾ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ ﴿يَأْتَمِرُونَ بِكَ﴾ يَتَشَاوَرُونَ فِيكَ ﴿لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ﴾ مِنَ الْمَدِينَةِ ﴿إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ فِي الْأَمْرِ بِالْخُرُوجِ].

عَلِمْنَا أَنَّ هُنَاكَ مَنْ أَخْبَرَ آلَ فِرْعَوْنَ بأن مُوسَى هُوَ مَنْ قَتَلَ القِبطي، فإما أنهم أرسلوا مَنْ يُرِيدُ قتل موسى، أَوْ لَمْ يُرسلوا، ولكنهم تشاوروا فِي أَمْرِهِ، كَمَا هُوَ ظَاهِرٌ مِنْ كَلَامِ مَنْ جَاءَ يُحذِّره.

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ﴾ قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [هو مُؤمن آلِ فِرْعَوْنَ]، وَهَذَا التَّأْوِيلُ الَّذِي قَالَهُ لا يُجزَم به؛ لِأَنَّ اللهَ تعالى نكَّره، وَلَمْ يَقُلْ: إنه مؤمن. بينما قَالَ عَنْهُ فِي قِصَّةِ مؤمن آلِ فِرْعَوْنَ: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ [غافر:٢٨]، وَلَكِنْ مَا يَعنينا في قصتنا هَذِهِ أَنَّ هَذَا الرَّجُلَ -وَلَا شَكَّ- عنده عَطْفٌ عَلَى مُوسَى، وَرَحْمَةٌ بِهِ، وَلِهَذَا جَاءَ يُخبره.

فائدة: يَقُولُ اللهُ تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾، ويقول فِي سُورَةِ يس فِي

قِصَّةٍ أخرى: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [يس:٢٠]، فِي الْأُولَى قَدَّم ﴿رَجُلٌ﴾ على ﴿أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾، وفِي الثَّانية أَخَّرها، والحِكمة مِنْ ذَلِكَ أَنَّ قِصَّةَ سُورَةِ الْقَصَصِ فِيهَا اهتمامٌ بِالخَبَرِ الَّذِي جاءَ بِهِ ذَلِكَ الرَّجُل، فقدَّم ذِكْرَهُ عَلَى ذِكْرِ المكان، فكونه جاءَ مِنَ الأقصى، أَوْ مِنَ الْأَدْنَى لَا يُؤَثِّر، أَمَّا فِي قِصَّةِ الرُّسل الثَّلاثَةِ فِي سُورَةِ يس، ففيها اهتمامٌ بكَوْن هَذَا الرَّجُلِ بَعيدًا عن الرُّسل، وَمَا جاءَ إِلَّا ليؤكد صِحَّةَ مَا جاءوا بِهِ قَبْلَهُ.

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾ آخِرُها، يعني: أَبْعَدُها مِنْ مَكَان موسى. وقال: في ﴿يَسْعَىٰ﴾: [يُسرع في مشيه مِنْ طَرِيقٍ أَقْرَبَ مِنْ طريقهم]، وتقدَّم أَنَّ هَذَا بِناءً عَلَى أَنَّ الذَّبَّاحين خرجوا ليذبحوا موسى، وَلَكِنَّهُ لَيْسَ بِلازِمٍ.

وقوله: ﴿يَسْعَىٰ﴾ يَجُوزُ أَنْ تكُونَ صِفة، وَيَجُوزُ أَنْ تكُونَ حالًا، صِفة لِأَنَّ قَوْله ﴿رَجُلٌ﴾ نكرة، وحالٌ لِأَنَّ هَذِهِ النكرةَ وُصِفت بقوله: ﴿مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾.

ومعنى ﴿يَسْعَىٰ﴾: أي يُسرع فِي المَشْيِ، كَمَا قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وَقَدْ يَكُونُ هَذَا الإسراع -كَمَا زَعَمَ- حَتَّى يسبق مَنْ أُرْسِلَ إِلَى مُوسَى ليقتُله، وَقَدْ يَكُونُ خَوْفًا مِن تنفيذ ما ائتَمَروا عَلَيْهِ فِي شَأْنِهِ، والأخير هُوَ الْأَفْضَلُ.

قَالَ الْمُفَسِّـرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ﴾: [مِن قَـوْمِ فِرْعَونَ، ﴿يَأْتَمِرُونَ بِكَ﴾ يتشاورون فيك].

قَوْلُهُ تعالى: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ﴾ نداؤه بهذا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَذَا الرَّجُل كَانَتْ لَهُ مَعْرِفَةٌ بموسى، ولهذا ناداه باسمه، وَلَكِنْ فِي قِصَّةِ مؤمن آلِ فِرْعَوْنَ فِي سُورَةِ غافر قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا﴾ [غافر:٢٨]، وهنا نجد أَنَّهُ مَا قَالَ: أتقتلون موسى؟ لأن المقام يَقْتَضِي أَلَّا يُبيِّـنَ أَنَّ لَهُ

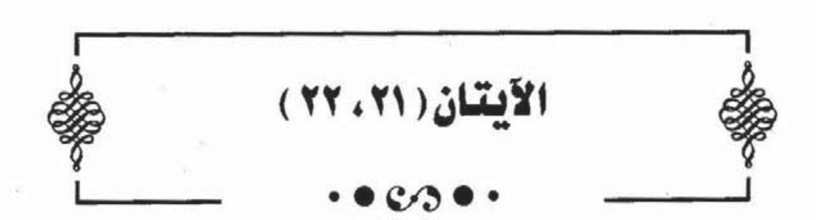
اتصالًا به ومعرفةً، فلَوْ قَالَ: أتقتلون موسى؟ لقالوا: هَذَا الرَّجُلُ يعرف موسى. ولَأَخَذُوه، وَلَكِنَّهُ قَالَ: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا﴾، كَأَنَّهُ لَا يَعْرِفُهُ، ولكن يَعْرِفُ مَا جَاءَ بِهِ مِنَ الدعوة الصحيحة السليمة.

أما هنا فَإِنَّ الرَّجُلَ يعرف موسى؛ وَلِهَذَا ﴿قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ﴾، وأكَّد له الخبر بقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ﴾، مَعَ أَنَّ مُوسَى كَانَ خاليَ الذهن مِنْ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ الْأَمْرَ مُهِمٌّ، وَقَدْ ذَكَرْنَا فِيمَا سَبَقَ أَنَّ الْأَسْبَابَ الَّتِي تَقْتَضِي تأكيد الجملة الخبرية لَيْسَتْ هِيَ حَالَ المخاطَب فقط، ولكن حال الْمُخْبَرِ عَنْهُ أَيْضًا، إِذَا كَانَ مُهِمًّا فإنه يُؤَكَّدُ.

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: [﴿فَٱخْرُجْ﴾ مِنَ الْمَدِينَةِ، ﴿إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ﴾ فِي الْأَمْرِ بِالْخُرُوجِ]. وَهُوَ لَهُ مِنَ الناصحين، لَيْسَ فِي الْأَمْرِ بِالْخُرُوجِ فقط، وَلَكِنْ فِي مَجِيئِهِ إِلَيْهِ أَيْضًا، وإخباره بذلك.

وَأَمَّا الَّذِينَ يأتمرون بشأنه، فليس عَامَّةَ النَّاسِ، بَلْ هُمُ الملأ، والكُبراء الذين يُنَفِّذُون ما ائتمروا به؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ مِنْ عَامَّةِ النَّاسِ الذين يَتَشَاوَرُونَ فِي هَذَا، مَا كَانَتْ لَهُ أهمية.

• • ۞ • •



الآيتان (٢١، ٢٢)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [القصص:٢١-٢٢].

•●۞●•

قال الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ لُحُوق طَالِب أَوْ غَوْث الله إيَّاهُ ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ قَوْم فِرْعَوْن، ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ﴾ قَصَدَ بِوَجْهِهِ ﴿تِلْقَآءَ مَدْيَنَ﴾ جِهَتَهَا وَهِيَ قَرْيَة شُعَيْب مَسِيرَة ثَمَانِيَة أَيَّام مِنْ مِصْر سُمِّيَتْ بِمَدْيَن بْن إبْرَاهِيم وَلَمْ يَكُنْ يَعْرِف طَرِيقهَا، ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أَيْ قَصْد الطَّرِيق أَيْ الطَّرِيق الْوَسَط إلَيْهَا فَأَرْسَلَ الله مَلَكًا بِيَدِهِ عَنَزَة فَانْطَلَقَ بِهِ إلَيْهَا].

•●۞●•



الآية (٢٣)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ [القصص:٢٣].

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ﴾ بِئْرٌ فِيهَا، أَيْ وَصَلَ إِلَيْهَا ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً﴾ جَمَاعَةً ﴿مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ﴾ مَوَاشِيَهُمْ ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ﴾ سِوَاهُمْ ﴿ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ تَمْنَعَانِ أَغْنَامَهُمَا عَنِ الْمَاءِ ﴿قَالَ﴾ مُوسَى لَهُمَا ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾ مَا شَأْنُكُمَا لَا تَسْقِيَانِ ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ﴾ جَمْعُ رَاعٍ أَيْ يَرْجِعُونَ مِنْ سَقْيِهِمْ خَوْفَ الزِّحَامِ فَنَسْقِي، وَفِي قِرَاءَةٍ يُصْدَرَ مِنَ الرُّبَاعِيِّ أَيْ يَصْرِفُوا مَوَاشِيَهُمْ عَنِ الْمَاءِ ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ لَا يَقْدِرُ أَنْ يَسْقِيَ].

من فوائد الآية الكريمة:

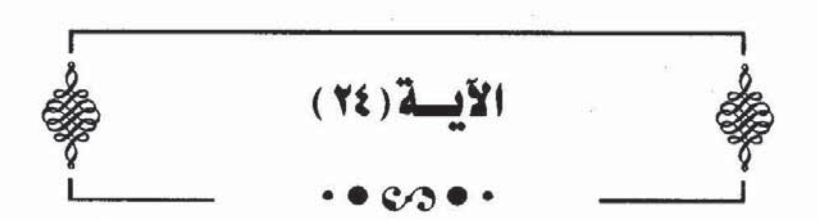
الْفَائِدَةُ الأُولَى: أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُحْكَمُ عَلَى الْأُمُورِ إِلَّا بَعْدَ مَعْرِفَةِ الأَسْباب، فَإِنَّ مُوسَى لَمْ يَحْكُمْ على المرأتين بِأَيِّ حُكْمٍ إِلَّا بَعْدَ أَنْ قَالَ: ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾ يعني: لماذا تَذُودان غَنَمَكُما عن السَّقْي؟ وَلَمْ يَحْكُمْ بِأَيِّ حُكْمٍ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ، فسألهما.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ [القصص:٢٥]، قوله ﴿تَمْشِي﴾ حالٌ، وقوله: ﴿عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ حالٌ مِنَ الضَّمِيرِ المستتر

فاعِل ﴿تَمْشِى﴾.

وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ أَيُّ الفتاتين الكبيرة، أو الصغيرة هِيَ مِنَ جاءت، فالقُرْآن مَا بَيَّنَ ذَلِكَ.

• ● ۞ ● •



الآية (٢٤)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القَصَص:٢٤].

• • ◦ • •

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ مِنْ بِئْرٍ أُخْرَى بِقُرْبِهِمَا، رَفَعَ حَجَرًا عَنْهَا لَا يَرْفَعُهُ إِلَّا عَشَرَةُ أَنْفُسٍ ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ﴾ انْصَرَفَ ﴿إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ لِسَمُرَةٍ مِنْ شِدَّةِ حَرِّ الشَّمْسِ وَهُوَ جَائِعٌ ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ طَعَامٍ ﴿فَقِيرٌ﴾ مُحْتَاجٌ، فَرَجَعَتَا إِلَى أَبِيهِمَا فِي زَمَنٍ أَقَلَّ مِمَّا كَانَتْ تَرْجِعَانِ فِيهِ، فَسَأَلَهُمَا عَنْ ذَلِكَ فَأَخْبَرَتَاهُ بِمَنْ سَقَى لَهُمَا، فَقَالَ لِإِحْدَاهُمَا ادْعِيهِ لِي، قَالَ تعالى].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: قوله: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ أي جَلب المَاءَ مِنَ البئر لأغنامهما، وَاللَّامُ فِي ﴿لَهُمَا﴾ للتَّعليل، وليست للتعدية.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: قوله: ﴿إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ [القَصَص:٢٤]، المراد بالظل ظِلُّ كُلِّ شَيْءٍ، مِنْ جَبَلٍ أَوْ أَكَمَةٍ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: قوله: ﴿إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ هنا لَمْ يَتَعَدَّ قوله: ﴿فَقِيرٌ﴾ بـ(إلى)، بينما قَالَ اللهُ تعالى فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [فاطر:١٥]، فعُدِّي الْفَقْرُ إِلَى اللهِ بـ(إلى)، وإذا أُضِيفَ إِلَى الشَّيْءِ الْمُحْتَاجِ إِلَيْهِ

عُدِّي باللام، فكان فقيـرًا للمال، وَلَمْ يَكُنْ فقيـرًا إليه؛ لِأَنَّ المَالَ ليس مَبْلَغَ هـوى المفتقِرين، وَإِنَّمَا فِيهِ زوالُ فَقْرِهم، وأَمَّا اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فهو مُنْتَهى فقرهم.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: قوله: ﴿فَقِيرٌ﴾ هُوَ فِي الْأَصْلِ وصـفٌ لموسى، ولكنه هنا فِي الْإِعْرَابِ خبر (إِنَّ).

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: رأفةُ نَبِيِّ اللهِ موسى بهاتين القاصِرَتين؛ لقوله: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: تَوَقِّي الأُمُور الضارة.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: جَوَازُ الِاقْتِصَارِ فِي الدُّعَاءِ عَلَى ذِكْرِ حال الدَّاعي بِدُونِ طلب، وَذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: يَنْبغي تقديمُ الدُّعاء بِذِكْر الرب؛ لقوله: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ﴾ وَقَدْ ذَكَرْنَا قبل ذلك أَنَّ هَذَا هُوَ أَكْثَرُ مَا يُتَقَبَّل به الدُّعاء، يعني بلفظ الربوبية؛ لأن بالربوبية يكون الخلق والتقدير للإنسان.

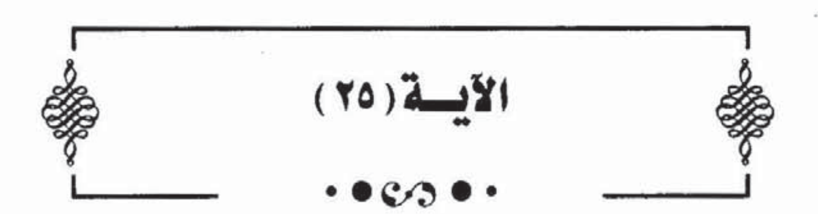
الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: حَاجَةُ الْإِنْسَانِ إِلَى رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَأَنَّهُ فِي غَايَةِ ما يَكُونُ مِنَ الضَّرُورَةِ إِلَى الْخَيْرِ النازل إِلَيْهِ مِنَ اللهِ.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: عُلُوُّ اللهِ؛ لقوله: ﴿لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ﴾؛ فَإِنَّهُ لَا يَكُونُ إنزاله للشيء إِلَّا إِذَا كَانَ عاليًا، فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عالٍ بذاته وصفاته، فعُلُوُّه نوعان: عُلُوُّ ذاتٍ، وعُلُوُّ صِفة.

وَلَا يَلْزَمُ مِنْ إِثْبَاتِ عُلُوِّ الذات التجسيمُ الَّذِي يَقُولُهُ المُعَطِّلُون، وَلَا أَنَّ المكان يُحِيطُ بِهِ كَمَا قالوه أيضًا، مُتوصلين بِذَلِكَ إِلَى إنكار عُلُوِّه؛ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ المُعَطِّلَة يتوصلون إلى تعطيله بِمِثْلِ هَذَا الكلمـات؛ بأن إِثْبَاتَ هَذَا يَقْتَضِي كَذَا مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي لَيْسَتْ

بلازمة، لكنْ هم يرونها بعقولهم لازمة، فيُلزِمون بها غيرَهم، ثم يَتَوَصَّلُونَ بِهَا إِلَى إنكار الصفات، الَّتِي وَصَفَ اللهُ بِهَا نَفْسَهُ، ووصَفَه بِهَا رَسُولُهُ ﷺ.

• ● ۞ ● •



الآية (٢٥)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص:٢٥].

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾ أَيْ وَاضِعَةً كُمَّ دِرْعِهَا عَلَى وَجْهِهَا حَيَاءً مِنْهُ ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾، فَأَجَابَهَا مُنْكِرًا فِي نَفْسِهِ أَخْذَ الْأُجْرَةِ، كَأَنَّهَا قَصَدَتِ المُكَافَأَةَ إِنْ كَانَ مِمَّنْ يُرِيدُهَا، فَمَشَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَجَعَلَتِ الرِّيحُ تَضْرِبُ ثَوْبَهَا، فَتَكْشِفُ سَاقَيْهَا، فَقَالَ لَهَا امْشِي خَلْفِي، وَدُلِّينِي عَلَى الطَّرِيقِ. فَفَعَلَتْ إِلَى أَنْ جَاءَ أَبَاهَا -وَهُوَ شُعَيْبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ- وَعِنْدَهُ عَشَاءٌ، فَقَالَ: اجْلِسْ فَتَعَشَّ. قَالَ: أَخَافُ أَنْ يَكُونَ عِوَضًا مِمَّا سَقَيْتُ لَهُمَا، وَإِنَّا أَهْلُ بَيْتٍ لَا نَطْلُبُ عَلَى عَمَلِ خَيْرٍ عِوَضًا، قَالَ: لَا عَادَتِي وَعَادَةُ آبَائِي نَقْرِي الضَّيْفَ وَنُطْعِمُ الطَّعَامَ، فَأَكَلَ وَأَخْبَرَهُ بِحَالِهِ، قَالَ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ﴾ مَصْدَرٌ بِمَعْنَى المَقْصُوصِ مِنْ قَتْلِهِ الْقِبْطِيَّ وَقَصْدِهِمْ قَتْلَهُ، وَخَوْفِهِ مِنْ فِرْعَوْنَ ﴿قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ إِذْ لَا سُلْطَانَ لِفِرْعَوْنَ عَلَى مَدْيَنَ].

قوله تعالى: ﴿عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾ قال عُمَرُ بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «جَاءَتْ تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ، قَائِلَةً بِثَوْبِهَا عَلَى وَجْهِهَا، لَيْسَتْ بِسَلْفَعٍ خَرَّاجَةٍ، وَلَّاجَةٍ». وهذا ذَكَرَهُ

ابْنُ كَثِيرٍ[1] عَنْ عُمَرَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وقال: هَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ.

وَمِثْلُ هَذَا عَن عُمَرَ قَدْ يَكُونُ عَلَى سَبِيلِ التوقُّع، أي: إِنَّهُ تَوَقَّعَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنها كانت واضعةً كُمَّ دِرعها عَلَى وَجْهِهَا، لَكِنْ فِي الْآيَةِ لَيْسَ ذَلِكَ بوارد.

والدِّرع يُسمى درعًا؛ لِأَنَّهُ مِثْلُ الدِّرع الذي يُلبس فِي الْحَرْبِ، فوضعت كُمَّها عَلَى وَجْهِهَا حياءً منه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَبِى﴾ هنا ﴿أَبِى﴾ اسم (إِنَّ) منصوب بفتحة مُقَدَّرة، وليس منصوبًا بالألف، ولا بالياء، فهذه الياء ليست علامة إعراب، ولكنها ياء المتكلم.

ومِن شروط نَصْب كلمة (أب) بالألف أَنْ تَكُونَ مُضافة لغير ياء المتكلم، قَالَ ابْنُ مَالِكٍ فِي أَلفِيَّته[2]:

وَشَرْطُ ذَا الإِعْرَابِ أَنْ يُضَفْنَ لَا ... لِلْيَا كَجَا أَخُو أَبِيكَ ذَا اعْتِلَا

وَنَقُولُ فِي إِعْرَابِهِ: اسمُ (إِنَّ) منصوب، وعلامة نصبه فتحة مُقَدَّرة مَنَعَ مِن ظُهورها اشتغالُ المَحَلِّ بحركة المناسَبة، وهي الكسرة المناسِبة لياء المتكلم.

قوله تعالى: ﴿يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ﴾ اللام للتَّعلِيل يعني: يدعوك لهذا الغرض.

ومعنى يجزيك: يكافئك بمكافأة، مِن: جَزَى يجزي.

وقوله تعالى: ﴿أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ أي لتنالَ أجرًا أو عِوَضًا، فالأجر هو العِوَض المأخوذُ مُقابِل عملٍ، وقوله: ﴿مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ أي: لأجْلِنا، و﴿مَا﴾ هنا مَصْدَرِيَّة، أي: لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ سَقْيِك.

---

(١) تفسير ابن كثير (٦/ ٢٢٨).

(٢) ألفية ابن مالك (ص١١).

وَلَا يَصِحُّ تَقْدِيرُ: أَجْرَ الَّذِي سَقَيْتَ؛ لأنَّها تريد مِن والدها أَنْ يُعْطِيَهُ أجر سَقْيِ الغَنَم، ولا تُرِيدُ أَنْ يُعْطِيَهُ أجرَ الغَنَم.

قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [فأجَابَهَا مُنْكِرًا فِي نَفْسِهِ أَخْذَ الْأُجْرَةِ]، أي أَجَابَ مُوسَى دعوةَ أبيها، وَهُوَ يُضْمِرُ أخذَ أُجرة، وهذا نستنتجه مِنْ أَنَّ مُوسَى فَعَلَ ذَلِكَ لله، وَمَنْ فَعَلَ شَيْئًا للهِ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَأْخُذَ أَجْرًا فِي الدُّنْيَا، وَلَكِن هَذَا لا يُعِين أَنْ يَكُونَ موسى يأخذ أجرًا، وَنَحْنُ لَا نَشْهَدُ أَنَّ مُوسَى فِي تِلْكَ الحَالِ حينما أجابَ الدعوة قَدْ أَضْمَرَ فِي نَفْسِهِ أَخْذَ الأُجْرَةِ، وَمَا نَدْرِي فَقَدْ يَكُونُ موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يأخذ الأُجرة؛ لأنَّه محتاج، ويأخذُها لِسَدِّ حاجته، وَقَدْ لَا يَأْخُذُهَا؛ تكرُّمًا منه.

إما أَنَّهُ مَمْنُوعٌ، فإن الإِنْسَان يأخذ أجرًا مُقَدَّمًا عَلَى مَا يَفْعَلُهُ لله، ثُمَّ لَا مَانِعَ أَنْ يَأْخُذَهُ لو كُوفِئ به مكافأةً، بَلْ إِنَّ الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَمَّا بَعَثَ عُمَرَ عاملًا عَلَى الصَّدَقَةِ وأعطاه، قال: أَعْطِه أَفْقَرَ مِنِّي، فقال: «مَا جَاءَكَ مِنْ هَذَا المَالِ، وَأَنْتَ غَيْرُ مُشْرِفٍ وَلَا سَائِلٍ؛ فَخُذْهُ»[1].

وَمَعْلُومٌ أَنَّ عُمَرَ لَمْ يَكُنْ يتطلع إِلَى أَخْذِهِ، بِدَلِيلِ أَنَّهُ قَالَ: أعطه أَفْقَرَ مِنِّي.

فالإِنْسَان الَّذِي يَعْمَلُ عَمَلًا للهِ إِذَا كُوفِئ عَلَيْهِ لَا يَبْطُلُ عملُه، مَا دَامَتْ نِيَّتُهُ فِي الْأَصْلِ خَالِصَةً لله.

إذن: فَدَعْوَى أَنَّ مُوسَى كَانَ مُنْكِرًا فِي نَفْسِهِ أَخْذَ الْأُجْرَةِ لَيْسَ عَلَيْهَا دَلِيلٌ، وَلَيْسَ لَنَا الحَقُّ أَنْ نَتَكَلَّمَ فِي هَذَا، وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُهُ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب من أعطاه الله شيئًا من غير مسألة ولا إشراف نفس، رقم (١٤٧٣)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب إباحة الأخذ لمن أعطي من غير مسألة ولا إشراف، رقم (١٠٤٥).

وأما بالمكافأة إِنْ كَانَت مِمَّنْ يُرِيدُهَا فَجرَت بَيْنَ يَدَيْهِ، يعني: أَجْرَ مَا سَقَاهُ لهما، والمعروف أَنَّ الأَجْرَ لَا يَكُونُ إِلَّا بِعَقْدِ إيجار، وَلَمْ يَقَعْ بين موسى، وبين المرأتين عَقْدُ إِجَارَةٍ عَلَى أَنْ يَسْقِيَ لهما، لكن كأنها قَصَدَت بالمكافأة إِنْ كَانَ مِمَّنْ يُرِيدُهَا، فسَمَّت هَذِهِ المكافأةَ أجرًا.

قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [فَمَشَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَجَعَلَتِ الرِّيحُ تَضْرِبُ ثَوْبَهَا، فتكْشِفُ سَاقَيْهَا، فَقَالَ لَهَا: امْشِي خَلْفِي، وَدُلِّينِي عَلَى الطَّرِيقِ] هَذِهِ الْقِصَّةُ يأتون بها توطئةً لقولها: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ﴾.

وَقَدْ سَبَقَ أنه نزع الصخرة العظيمة التي ما يرفعُها إِلَّا عَشَرَةُ رجال، فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى قُوَّتِه، وفِعْلُه أثناءَ سَيْرِه معها دَلَّ عَلَى أَمَانَتِهِ.

قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [فَفَعَلَتْ إِلَى أَنْ جَاءَ أَبُوهَا، وَهُوَ شُعَيْبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَعِنْدَهُ عَشَاءٌ، فَقَالَ لَهُ: اطْلُبْ. فَتَعَشَّى، فَتَأَخَّرَ، قَالَ: أَخَافُ أَنْ يَكُونَ عِوَضًا مِمَّا سَقَيْتُ لَهُمَا، وَإِنَّا أَهْلُ بَيْتٍ لَا نَطْلُبُ عَلَى عَمَلِ خَيْرٍ عِوَضًا. قَالَ: لَا، عَادَتِي وَعَادَةُ آبَائِي نَقْرِي الضَّيْفَ، وَنُطْعِمُ الطَّعَامَ. فَأَكَلَ، فَأَخْبَرَهُ بِالْحَالِ].

كُلُّ هَـذَا لَا دَلِيلَ عَلَيْهِ، والذي عَلَيْهِ الدَّلِيلُ أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أجاب الدعوة، ومشى حَتَّى وَصَلَ إِلَى الْأَبِ، وهذا يكفينا أن نعتقد مَا دَلَّ عَلَيْهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ، وَمَا دَلَّ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ مِنْ هَذِهِ الْقِصَّةِ، أَمَّا أَنْ نأتيَ بِشَيْءٍ لَا ذِكْرَ لَهُ فِي الْآيَةِ؛ فلا.

يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ﴾ الْفَاعِلُ في ﴿جَآءَهُۥ﴾: موسى، ﴿وَقَصَّ عَلَيْهِ﴾ أي: موسى، ﴿ٱلْقَصَصَ﴾ بمعنى المقصوص؛ لأن القَصَص مصدر، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ [الكهف:٦٤]، أي: يقُصَّان الأثر قَصَصًا؛

لأَنَّه يُقَّص المقصوص، وَعَلَى هَذَا فَهُوَ مصدر بمعنى: اسم المفعول، والمصدر بمعنى اسم المفعول يأتي كثيرًا، كقوله: ﴿وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ﴾ [الطلاق:٦]، فهنا ﴿أُوْلَٰتِ حَمْلٍ﴾ أي: محمول، مَعَ أَنَّ الآيَةَ لَا تَتَعَيَّنُ؛ لِأَنَّهُ قَصَدَ المرأة.

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»[1]. أي مردُود.

عَلَى كُلِّ حَالٍ: هنا القَصَص مَصدر بمعنى: المقصوص، وَلَا يَكُونُ مصدرًا بمعناه الحقيقي؛ لأن القَصَص فِعْل القاصِّ، وَلَيْسَ هُوَ شَيْئًا يُخْبَرُ عَنْهُ، وَإِنَّمَا الَّذِي يُخْبَرُ عنه ويُقَصُّ هو الشَّيْء المقصوص، يعني: القضية، أَوِ الْقِصَّة، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، هَذَا الَّذِي يُقَصُّ.

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [مِنْ قَتْلِهِ الْقِبْطِيِّ، وَقَصْدِهِمْ قَتْلَهُ، وَخَوْفِهِ مِنْ فِرْعَوْنَ] قَصَّ عَلَيْهِ قضيته كُلَّها؛ بِأَنَّهُ كَانَ فِي مِصْرَ مثلًا، وأنه حَصَل كَذَا وَكَذَا، وقَتَلَ القِبطي، وَأَنَّ رَجُلًا جاءه فنَصحه أَنْ يَخْرُجَ، فخرج، وَلِهَذَا كَانَ الْقَصْدُ.

قَوْلُه تعالى: ﴿قَالَ لَا تَخَفْ﴾: ﴿قَالَ﴾ هُنَا جَوَابُ (لَمَّا)، أي: فَلَمَّا جَاءَهُ موسى وَقَصَّ عَلَيْهِ قَالَ صَاحِبُ مَدْيَنَ: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾: ﴿لَا﴾ هنا ناهية، وَالْمُرَادُ بِهَا حَقِيقَةُ النهي، ولكنها هنا لتطمين هَذَا الرَّجُلِ، وَعَلَى هَذَا فَيَكُونُ قَوْلُه: ﴿نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ تأكيدًا للجُملة فِي المَعْنَى، أي: لَا خَوْفَ عليك؛ لأنك ﴿نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

وَمِنْ عَجِيبِ صُنْعِ اللهِ أَنَّ هَذَا الْكَلَامَ جاء مطابقًا لسؤال موسى، فموسى قد دَعَا رَبَّهُ عندما خرج خَائِفًا مِنَ المَدِينَةِ، ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القَصَص:٢١]،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب إذا اصطلحوا على صلح جور، رقم (٢٦٩٧)، مسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، رقم (١٧١٨).

فجاء الجواب هُنَا مِن هَذَا الرَّجُلِ: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، فقوله: ﴿لَا تَخَفْ﴾ إجابة لقوله: ﴿خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾، وقوله: ﴿نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ إجابة لقوله: ﴿نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

وهكذا تكون إجابة اللهِ تعالى للمضطر مطابقةً تمامًا لسؤاله؛ إِذْ لَا سُلْطَانَ لِفِرْعَون على مَدْين، وَهَذَا هُوَ الظَّاهِرُ، أنه طَمْأَنَهُ بأنه نَجَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ؛ لأن سلطان فِرْعَونَ فِي مِصْـرَ وَمَا حَوْلَهَا، أَمَّا مَدْيَنَ، فَإِنَّهُ لَا سُلْطَانَ لِفِرْعَـوْنَ عليها؛ إِذْ لَوْ كَانَ لَهُ سُلْطَانٌ عليها لما نَجَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ.

ومَدْيَن بلدٌ قَرِيبٌ مِن مِصْرَ، تَقَدَّمَ فِي كَلَامِ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّهَا عَلَى ثَمَانِيَةِ أَيَّامٍ مِنْ مِصْرَ، ولكن الحدود متقاربة، فهُمَا مَمْلَكَتَان لَيْسَ بَيْنَهُمَا إِلَّا خَطٌّ وَهْمِيٌّ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾، يستفاد بيانُ الوَقار الَّذِي جَعَلَهُ اللهُ لِمُوسَى؛ حيث جَاءَتْ إِلَيْهِ عَلَى اسْتِحْيَاءٍ تَعْظِيمًا لَهُ؛ لِأَنَّهُ كُلَّمَا كَانَ الإِنْسَان أشدَّ وَقارًا، كان الحياء منه أكثرَ، ولذلك الرَّجُلُ الَّذِي لَيْسَ بِوَقُورٍ تجد النَّاسَ لَا يستحيون منه، ولا يُبالون به، فيَتَفَوَّهُون عنده بِالْكَلَامِ الَّذِي لَا يَلِيقُ، ويفعلون عِنْدَهُ مَا لَا يَلِيقُ؛ لأَنَّه ليس وَقُورًا، ولهذا يقال: احْتَشِم تُحْتَشَم.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: بيان كمال خُلقِ هَاتَيْنِ الْمَرْأَتَيْنِ؛ حيث جاءت تمشي، غير مُسرِعة، ولا مُهَرْوِلَة، بل تمشي بهدوء، وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى كَمَالِ أدبها، وكذلك كَوْنُهَا عَلَى اسْتِحْيَاءٍ فِيهِ أَيْضًا مِنْ كمال الأدب.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: فِي قَوْلِها: ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ﴾ يُستفاد منه كمالُ أدب؛ حيث

نسبت الدعوةَ إِلَى الْأَبِ دُونَ نفسها، وَهُوَ أَيْضًا مِنْ كمال الذَّكاء؛ لِأَنَّ نِسْبَةَ الدعوة إِلَى الْأَبِ أَقْرَبُ إِلَى إِجَابَةِ موسى للدعوة؛ حيث يَكُونُ الدَّاعِي له رَجُلًا، وقد وَصَفَتْه مِنْ قَبْلُ بأنه شَيْخٌ كَبِيرٌ، فتكونُ دعوته لموسى، وتوجيه الدعوة مِنْهُ إِلَى مُوسَى أَقْرَبَ إِلَى الإجابة.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: فِيهَا دَلِيلٌ عَلَى ذكاء الفتاة، فهي لَمْ تَقُلْ: إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ مِنْ أَجْلِ أَنْ يُوَجِّهَ إليه التُّهْمَةَ مثلًا، أَوْ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَغْدِرَ به، أو يطلبه، أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، لكنها قالت: ﴿لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾، وليكون أدعى إِلَى إِجَابَةِ الدعوة.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّهُ يَنْبَغِي للإنسان كمال الْأَدَبِ فِي الأساليب وإزالةُ الوَحْشَة؛ لقوله: ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾، فَإِنَّ فِي هَذَا إزالةَ الوَحْشَة، وَأَنَّهُ يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يُزِيلَ الوَحْشَة عن المخاطَب، لَا سِيَّما فِي المَكَانِ الَّذِي تَعْتَرِيه الوَحْشة.

وكما يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ فِي اللَّفْظِ، يَنبَغِي أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ فِي حَالِ المَرْءِ، بحيث يُقابِل غيرَه بالبِشر والسَّماحة، وانطلاقِ الوجه، وَلِهَذَا كَانَ مِنْ أَوْصَافِ النَّبيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ دائمَ البِشر، كثيرَ التبسُّم، وضد العُبوس والتقطيب، وعدم الانشراح؛ فَإِنَّ هَذَا يُوجِبُ لِغَيْرِكَ أَنْ يَنْفِرَ منك.

وَكَذَلِكَ أَيْضًا يُوجِبُ أَلَّا يأنسَ بك أَحَدٌ، حَتَّى لَوْ جلس عنده، لَكِنْ إِذَا رآكَ الْإِنْسَانُ فَإِنَّ فَضْلَ الله يُؤْتِيه مَنْ يَشَاءُ، هَـذَا الْأَمْرُ قَـدْ يَكُونُ اكتسابًا، وَقَـدْ يَكُونُ غريزةً؛ فَإِنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَهَبُه اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مِثْلَ هَذِهِ الخَصْلة الطَّيِّبة، وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُحْرَم منها، وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يحاول أن يَتَخَلَّق بها.

وَلِذَلِكَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لأشج عَبْدِ الْقَيْسِ: «إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُما اللهُ: الحِلْمُ،

وَالْأَنَاةُ». قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ: أَخُلُقَيْنِ تَخَلَّقْتُ بِهِمَا أَمْ جَبَلَنِي اللهُ عَلَيْهِمَا، قَالَ: «بَلْ جَبَلَكَ اللهُ عَلَيْهِمَا»، قَالَ: «الحَمْدُ للهِ الَّذِي جَبَلَنِي عَلَى خَلَّتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ وَرَسُولُهُ»[1].

مِن: حَلُم، ويتأنَّى.

فهذا يُؤْخَذُ مِنْهُ أَنَّ مِثْلَ هَذِهِ الأخلاق تكون بالتخلُّق، وتكون بالجِبِلَّة، والجِبِلَّة أثبتُ.

وَلِهَذَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «بَلْ جَبَلَكَ اللهُ عَلَيْهِمَا»؛ لأن التخلُّق قد ينسى الإِنْسَان أحيانًا، ولا يَتَخَلَّق، وَيَكُونُ عَلَى جِبِلَّتِه، لكن الجِبِلَّة لَا شَكَّ أنها أكملُ، وإنما يمكن للإنسان بالتَّعَوُّد والتَّخَلُّق عَلَى الشَّيْءِ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ خُلقًا له.

والجِبِلَّة أكملُ للإنسان، فَقَدْ يَكُونُ تخلُّقه بالأخلاق الفاضلة مِن جِبلَّته، إِلَى الْآنَ قد يَكُونُ مِنَ الْعَامَّةِ مَنْ لَا يوافقون عليها، وَكَمْ مِنْ أُناس تغيرت طِباعُهم وحَسُنت أخلاقُهم بما مَنَّ اللهُ بِهِ عَلَيْهِمْ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: قَصُّ الْأَخْبَارِ لَا يُعْتَبَرُ شِكَايةً، فلو قصصتَ عَلَى إِنْسَانٍ مَا جَرَى عَلَيْكَ مِنَ المصائب، فَلَا يُعْتَبَرُ ذَلِكَ مِنَ الشكاية إليه، ولهذا يُقال: هذا إخبارٌ. فالمريض يقول مَثَلًا لِمَنْ سَأَلَهُ عَنْ حَالِهِ: إني مريض، فَهَذَا إِخْبَارٌ، لَا شَكْوَى، وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا أَنَّ الشكوى تتضمن طلبَ إزالة الشَّيْء، والتَّضَجُّر منه، وأما الخَبَرُ، فإنه مُجَرَّدٌ عَنْ ذلك، فهو مُجرد إِخْبَارٍ عَنْ أَمْرٍ وَقَعَ.

فالإِنْسَانِ إِذَا عَبَّرَ عَنْ حالِه -مثلًا- بقوله: وَقَعَ عَلَيَّ ظُلم وكذا وكذا، فَهَذَا لَا يُعَدُّ شِكاية، فَلَا يُمْكِنُ دفعُ ظُلم الظَّالِمِ إلا بِذِكر ظُلمه، ولهذا يَقُولُ اللهُ تعالى:

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الأدب، باب في قبلة الرجل، رقم (٥٢٢٥)، وأصل الحديث عند مسلم: كتاب الإيمان، باب الأمر بالإيمان بالله ورسوله، وشرائع الدين، والدعاء إليه، رقم (١٧).

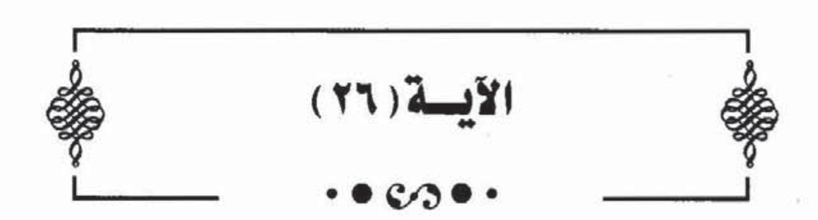
﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ [النساء:١٤٨].

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: فِيهَا دَلِيلٌ عَلَى صِدْق صاحب مَدْيَنَ، حيث طمأنه مَعَ ذِكْرِ السَّبَبِ، فقال: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فقوله: ﴿لَا تَخَفْ﴾ يُفيد طُمأنينة الرَّجُل، وقوله ﴿نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الْعِلَّةُ فِي ذَلِكَ، فَلَوْ أَنَّهُ لَمْ يَقُلْ لَهُ ﴿نَجَوْتَ﴾ لَظَنَّ الظانُّ أَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يُهَوِّن عَلَيْهِ الْأَمْرَ، وَإِنْ كَانَ فِيهِ احْتِمَالُ أَلَّا ينجو.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أَنَّ آلَ فِرْعَوْنَ معروفون بالظلم عِنْدَ النَّاسِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ؛ لقوله: ﴿نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أَنَّ جُنود الظَّالِمِ ظَلَمَةٌ؛ لِأَنَّهُ مَا قَالَ: نَجَوْتَ مِنَ الظَّالِمِ، بَلْ قَالَ: ﴿مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وَهُوَ كَذَلِكَ؛ فإن جُنود الظَّالِمِ ظَلَمَة، ولهذا لو أَمَرَك الأميرُ، أَوْ مَنْ فَوْقَ الأمير، بأمرٍ تعرف أنه ظالمٌ فيه؛ فإن طاعتك له مُحَرَّمَة، وَأَنَّ ذَلِكَ مِنْ بَابِ طاعة المخلوق فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ.

• ● ۞ ● •



الآية (٢٦)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص:٢٦].

قال المُفَسِّـرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا﴾ وَهِيَ المُرْسَلَةُ الْكُبْـرَى، أَوِ الصُّغْرَى ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾ اتَّخِذْهُ أَجِيـرًا يَرْعَى غَنَمَنَا بَدَلَنا ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ أَي اسْتَأْجِرْهُ لِقُوَّتِهِ وَأَمَانَتِهِ، فَسَأَلَهَا عَنْهُ، فَأَخْبَرَتْهُ بِمَا تَقَدَّمَ مِنْ رَفْعِهِ حَجَرَ الْبِئْرِ وَمِنْ قَوْلِهِ لَهَا: امْشِي خَلْفِي، وَزِيَادَةِ أَنَّهَا لَمَّا جَاءَتْهُ وَعَلِمَ بِهَا صَوَّبَ رَأْسَهُ، فَلَمْ يَرْفَعْهُ، فَرَغِبَ فِي إِنْكَاحِهِ].

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا﴾، قَالَ المُفَسِّـرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [المُرْسَلَةُ الكُبْرَى، أَوِ الصُّغْرَى]، ولكننا لَا نَعْلَمُ أيتها بالتحديد، أما كون القائلة هي المرسَلَة، فَهُوَ بِنَاءٌ عَلَى مَا سَبَقَ مِنْ أَنَّهَا جَعَلَتْ تمشي أمامَه، وجَعَلَت الرِّيح تكشف عن ساقَيْها، فقال: كُوني خَلْفِي. فعَرَفت بِذَلِكَ أَنَّ الرَّجل أَمِينٌ، هَذَا السَّبَبُ فِي قَوْلِهِ: [وَهِيَ المُرْسَلَةُ]، وَلَكِن تَعْيين القائلة بأنها المُرْسَلَة، أو الباقية أَمْرٌ لَا نَعْرِفُهُ، وحسبُنا أَنْ نُبْهِم ما أَبْهَمَهُ الله تعالى.

قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾ هَذِهِ التاء مُبْدَلَةٌ مِن الياء، والأصل: يا أبي، و﴿ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾ أي: اجعله أجيرًا عندك، وهذا الأمر ليس بمعناه الحقيقي، فهو ليس

طلبًا للفِعل عَلَى وَجْهِ الاستعلاء؛ لِأَنَّ الْبِنْتَ لَا يُمْكِنُ أَنْ تأمُرَ أباها أمـرًا، ولكنه للاستعانة.

قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [اتَّخِذْهُ أَجِيرًا يَرْعَى غَنَمَنَا بَدَلَنَا]، وهنا فائدتان للبنتين؛ أولًا: سوف تَرْتَاحَان مِنَ الْعَمَلِ، ثانيًا: أَنَّ الرَّجُلَ قويٌّ وأمين، وَنَحْنُ فِي طُمَأْنِينَةٍ منه، وكذلك نَحْنُ فِي طُمَأْنِينَةٍ مِنْ أَنَّهُ سوف يَسْقِي لنا سَقْيًا كاملًا لقُوَّتِه.

قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ﴾ أي: استأجِرْه لقُوَّته وأَمَانَتِه.

فقولها ﴿ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾ حُكم، وقولها: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ﴾ تعليلٌ، يعني: استأجره؛ لأَنَّه قويٌّ أمين، لكنها أتت بالتَّعلِيل عَلَى سَبِيلِ القاعدة العامَّة، لَوْ قَالَتِ: استأجره إنه قويٌّ أمينٌ، صَارَ هَذَا تَعْلِيلًا لمسألةٍ خاصة، وهي استئجار موسى، لكنها أتت بِهَذِهِ الْعِلَّةِ مُنْطَوِيَة تحت قاعدة عامَّة، وهي: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ﴾، وهـذان الوصفان هما رُكنان فِي كُلِّ عَمَلٍ، فكل عَمَلٍ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ هَـذَيْنِ الأمرين، لَا يَكُونُ إِلَّا بِهِمَا، وهما القُوَّة والأمانة، فبالقُوَّة يَكُونُ الْفِعْلُ، وبالأمانة يكون تَمَامُ الْفِعْلِ، فغيرُ القويِّ لَا يَفْعَلُ، وغيرُ الأمين لا يُتَمِّمُ الفِعل، وَقَدْ لَا يَفْعَلُهُ أصلًا، وَلِذَلِكَ إِذَا كَانَ الإِنْسَان قويًّا أمينًا حَصَلَ بِهِ تَمَامُ الْفِعْلِ، فِي غَيْرِ المستأجر، يعني: فِي الْإِجَارَةِ إننا نطلب الْقَوِيَّ الْأَمِينَ فِي جَمِيعِ الأعمال، لو وكَّلنا شخصًا عَلَى بَيْعٍ فخيرُ مَن نُوَكِّل ﴿ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ﴾.

إذا أَرَدْنَا أَنْ نُؤَمِّر شخصًا على قرية، فخيرُ مَن نُؤَمِّرُ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ، وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُولِّيَ شخصًا عَلَى قَضَاءِ بلدٍ فخيرُ مَن نُوَلِّي عَلَى الْقَضَاءِ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ، وَلِهَذَا قَالَ الجنِّي لِسُلَيْمَـانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ﴾

[النمل:٣٩]، وهو ليس بأجير.

قَالَ الْمُفَسِّـرُ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾: [فَسَأَلَهَا عَنْهُ، فَأَخْبَـرْتُهُ بِمَا تَقَدَّمَ مِنْ رَفْعِ حَجَرِ الْبِئْرِ، وَمِنْ قَوْلِهِ لَهَا: امْشِي خَلْفِي، وَزِيَادَةُ أَنَّهُ لَمَّا جَاءَتْهُ، وَعَلِمَ بِهَا صَوَّبَ رَأْسَهُ، فَلَمْ يَرْفَعْهُ، فَرَغِبَ فِي إِنْكَاحِهِ]، أي: سألها أبوها عن القُوة والأمانة، وكيفية معرفتها بهاتين الصِّفتين، فَذَكَرَتْ لَهُ، وَأَخْبَرَتْهُ بِمَا تَقَدَّمَ مِنْ رَفْعِ حَجَر البئر، وكان مِن العادة أَنْ يَرْفَعَهُ عَشَرَةُ أنفُس، وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى قُوَّتِه، وكانت تمشي أمامَه والريح تكشف ساقَيْهَا، فقال: كُونِي وَرَائِي. وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَمَانَتِهِ.

كذلك أيضًا زِيَادَةٌ مِنَ الْأَمَانَةِ أَنَّهُ لَمَّا عَلِمَ بِهَا موسى خَفَضَ رأسَه، فلم يرفعه، وَهَذَا مِنَ الْأَمَانَةِ، لكن نَحْنُ لَا نحتاج إِلَى هَذِهِ القضايا الثلاث، بل هنا يكفينا أنهما عَرَفَتَا أَنَّهُ قَـوِيٌّ لِنَزْعِه الدَّلْوَ، وسَقْيِه لهمـا، وَأَنَّهُ أَمِينٌ؛ حَيْـثُ إِنَّهُ سقى سَقْيًا تامًّا، وَلَمْ يَأْخُذْ شَيْئًا مِنَ الْغَنَمِ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَمَانَتِهِ.

فالأمانةُ والقُـوَّة أُخِذَتَا مِن سَقْيه، وَلَا يَلْزَمُ أَنْ يَصطَنِعَ شيئًا لِأَجْلِ أَنْ نُمَهِّـد لكونه قويًّا أمينًا، لَيْسَ هنـاك حَاجَةٌ لهذا، فالإِنْسَان يُعرَف بقُـوَّته مِن نَزْعِه الدَّلْـوَ، فالإِنْسَان يَحْمَرُّ وجهُه، وتَيْبَسُ يَدُه، ولكن مُوسَى لَمْ يَتَغَيَّـرْ وجهُه، ونَزَعَهُ بسُهولة ويُسْرٍ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ قَوِيٌّ، وكَوْنه أيضًا يَسْقِي سَقْيًا كاملًا، فيَدَع الغَنَم حتى تروَى، يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ أَمِينٌ؛ لِأَنَّ غَيْرَ الأمين لا يسقي سَقْيًا كامِلًا، بل ينزع الدلو قبل الرِّيِّ، لكن الأمين هُوَ الَّذِي يَأْتِي بالشَّيْء عَلَى وَجْهِهِ، فَهَذَا وَجْهُ معرفتهما لِقُوَّتِه وأمانتِه.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: الأصلُ وجوبُ طاعةِ وليِّ الأمر، وَلَا يُوجَدُ مَا يَمْنَعُ هَذَا الْأَصْلَ؛ إِذْ إِنَّك لَا تَدْرِي: هَلْ هُوَ ظالمٌ أَمْ لَا، وَلِأَنَّهُ مِنَ المشقَّة أَنَّ الجُندي -مثلًا- إذا أَمَرَهُ مَن فَوْقَه أَنْ يَضْرِبَ، أو يحبس، أَنْ يَقُولَ: لماذا أضربُ؟ لماذا أَحْبِسُ؟ وَلِأَنَّ هَذَا يُؤَدِّي إِلَى الفوضى، وتَفَكُّك الحُكومة والدولة؛ فلهذا نقول: يَجِبُ عَلَيْك التنفيذُ مَا لَمْ تَعْلَمْ أنه معصية لله.

وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ بالتفصيل، وَهُوَ أَنَّهُ إِذَا كَانَ الْآمِرُ معروفًا بالظُّلم؛ فَإِنَّهُ لَا يَجُوزُ لِلْإِنْسَانِ الْإِقْدَامُ عَلَى مُوَافَقَتِهِ، إِلَّا إِذَا علمتَ انتفاءَ الظلم فِي هَذِهِ الْقَضِيَّةِ الْمُعَيَّنَة؛ تقديمًا للظاهر عَلَى الْأَصْلِ، فظاهِرُ حال هَذَا الْأَمِيرِ -مثلًا- أنه ظالم، فَيُقَدَّمُ عَلَى الْأَصْلِ، وَهُوَ عَدَمُ الظُّلم، ووجوب الطاعة، وهذا التقسيم لَا بَأْسَ بِهِ، نعم، فيه ثِقَلٌ أيضًا؛ لِأَنَّهُ -وَإِنْ كَانَ ظَالِمًا- فَقَدْ لَا يَظْلِمُ فِي كُلِّ شَيْءٍ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: يَجُوزُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَكُونَ جُنديًا، حَتَّى لَوْ كَانَ الْإِمَامُ معروفًا بالظُّلم، بَلْ قَدْ يَجِبُ أحيانًا إِذَا كَانَ وُجُودُهُ فِي هَذَا يخفف بَعْضَ الْأَشْيَاءِ.

وَلَا يُعَارِضُ قَوْلَنَا هَذَا قَوْلُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ [هود:١١٣]، فهو يريد: لَا تَمِيلُوا إِلَيْهِم بمساعدتهم في الظُّلم.

فأَنْ تَصِيرَ جُنديًّا لَهُمْ هَذَا لَا شَيْءَ فِيهِ، ولكن أن تَنْضَمَّ إِلَيْهِم وتساعدهم، أو تُقَوِّي جانبهم -ولو مَعنويًّا- فَهَذَا لَا يَجُوزُ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: جَواز تَكلُّم المرأة بحضور الأجنبي، وَلَكِنْ ظَاهِرُ الْحَالِ أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لَمْ يكن قد نزلت عليه شريعته بعدُ، وهناك مَنْ يَقُولُ كَانَ الْأَمْرُ

بحضرة شُعيب النَّبيّ. وَلَكِنَّ هَذَا أَيْضًا غَيْرُ مُسَلَّمٍ به.

وَعَلَى كُلِّ حَالٍ: يجوز كلام المرأة بِحَضْـرَةِ الْأَجْنَبِيِّ حتى عِنْدَنَا فِي الْإِسْلَامِ، ولكن بِشَرْطِ عدم الفتنة، فإن خُشيت الْفِتْنَةُ فِي الْكَلَامِ فيجب الامتناع، فإن الامتناعَ خَوْفَ الْفِتْنَةِ -حتى عَنِ المُبَاحِ- مِنَ الْأُمُورِ المعروفة.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: تصدير الدُّعاء بـ(رَبِّ)، وَاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذَكَرَ ذَلِكَ عَلَى وَجْهِ الثَّنَاءُ عَلَيْهِ، ثم هَذَا أَيْضًا وَارِدٌ فِي السُّنَّةِ مِنْ دَلِيلٍ آخَرَ.

الْفَائِدَةُ الْخَامِسَةُ: مَشُورة الأدنى للأعلى؛ لقولها: ﴿ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾؛ لِأَنَّ الْأَمْرَ هنا ليس للإلزام، ولكن للمَشُورة والعَرض، فَقَدْ يَكُونُ الأدنى أَعْلَى مِنَ الْأَعْلَى فِي بَعْضِ الْأُمُورِ، كَمَا أَنَّ المفضول قَدْ يَكُونُ أَفْضَلَ مِنَ الفاضِلِ فِي بَعْضِ الْأُمُورِ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: الرُّجُوعُ فِي الْأَعْمَالِ إِلَى هَذَيْنِ الْوَصْفَيْنِ: القُوَّة والأمانة.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: يَنْبَغِي أَنْ يَتَحَرَّى الْإِنْسَانُ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ مَنْ كَانَ قَوِيًّا أمينًا، لقَولها: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾، والقوة فِي الْعَمَلِ بِحَسَـبِه، فالقُوَّة عَلَى الْأَعْمَالِ البَدَنِيَّة معناها قُوَّةُ الْبَدَنِ، وَالْقُوَّةُ فِي الْأُمُورِ الفكرية قوة الْفِكْرِ فِي هَذَا الشَّيْءِ، وَالْقُوَّةُ فِي الْأُمُورِ الحربيَّة الحربُ نفسُها، فَكُلُّ شَيْءٍ قُوَّتُهُ بِحَسَبِه، وباختلال أَحَدِ الْوَصْفَيْنِ يَخْتَلُّ العَمَلُ، فإذا اخْتَلَّتِ القُوَّة، وصار الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُومَ بالعَمَل -وَلَوْ كَانَ مِنْ آمَنِ النَّاسِ- يجب أن يتنحى، أو يجب تنحيته، وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لأبي ذَرٍّ: «يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنِّي أَرَاكَ ضَعِيفًا، وَإِنِّي أُحِبُّ لَكَ مَا أُحِبُّ لِنَفْسِي، لَا تَأَمَّرَنَّ عَلَى اثْنَيْنِ، وَلَا تَوَلَّيَنَّ مَالَ يَتِيمٍ»[1].

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب كراهة الإمارة بغير ضرورة، رقم (١٨٢٦).

فقوله: «إِنِّي أَرَاكَ ضَعِيفًا» الضعف هنا ضِدُّ الأمانة، وضِدُّ القُوة، فَقَدْ يَكُونُ الرَّجُلُ أمينًا لكنه ضَعِيفٌ فِي تولي الأعمال.

فعليه نقول: إِنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ تَخْتَلُّ فيه القُوة، أو الأمانة، والكمالُ وُجود القُوة، ووجودُ الأمانة.

• • ۞ • •



الآية (٢٧)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [القَصَص:٢٧].

• • ◦ • •

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ﴾ وَهِيَ الْكُبْرَى، أَوِ الصُّغْرَى ﴿عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي﴾ تكُونَ أَجِيرًا لِي فِي رَعْيِ غَنَمِي ﴿ثَمَانِيَ حِجَجٍ﴾ أَيْ سِنِينَ ﴿فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا﴾ أَيْ رَعْيِ عَشْرِ سِنِينَ ﴿فَمِنْ عِندِكَ﴾ التَّمَامُ ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ﴾ بِاشْتِرَاطِ الْعَشْرِ ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ﴾ لِلتَّبَرُّكِ ﴿مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ الْوَافِينَ بِالْعَهْدِ].

قوله تعالى: ﴿أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ﴾ هَذَا وَعْدٌ بنكاحٍ، وليس عقدًا، وَعَلَى هَذَا، فَلَا يَكُونُ فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى جَوَازِ الْعَقْدِ عَلَى المُبْهَمَة؛ لِأَنَّهُ يَقُولُ: ﴿أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ﴾ ومعناه: أُزَوِّجُك؛ لأن النكاح أصلُه: الضَّمُّ وَالجَمْعُ؛ لِأَنَّ الرَّجُلَ يضم زوجته إليه، ويَسْكُن إليها.

وقوله تعالى: ﴿إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ﴾ مُبْهَم؛ فَلَا نَدْرِي: أَهِيَ الكُبرى أَمِ الصُّغرى، ولهذا يقول المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [وَهِيَ الكُبْرَى، أَوِ الصُّغْرَى].

وقوله: ﴿ابْنَتَيَّ﴾ أصلُها: ابْنَتَيْنِ لي، فحُذفت النُّونُ مِنْ أَجْلِ الإضافة؛ وهي

مجرورة بالياء نيابةً عن الكسرة؛ لأنَّه مُثَنًّى، وحُذفت النُّونُ مِنْ أَجْلِ الإضافة.

وقوله: ﴿هَـٰتَيْنِ﴾ اسم إشارة لتعيين البنْتَين، وَقَدْ يَكُونُ مَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ لَهُ بناتٍ أُخْرَيَات؛ لِأَنَّ الْإِشَارَةَ تُثْبِتُ مَنْ عَداهُما، أَوْ أَنَّ المَعْنَى أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَدْ لَا يَعْلَمُ أَنَّ هَاتَيْنِ البنتين له، وَهَذَا هُوَ الأقرب.

وأمَّا تعيينُهما بالإشارة، فَلِئَلَّا يَتَوَهَّمَ المخاطَب أَنَّ لَهُ بناتٍ أُخْرَيات، وَلَيْسَ المَعْنَى أَنَّهُ يُعيِّن هاتين ليُخْرِج بقية البنات.

والغريب أَنَّ بَعْضَ المُفَسِّرِينَ قَالَ: إِنَّ هَذَا لإخراج بقيَّة البنات؛ لأن البناتِ سَبْعٌ، وهذا أخرجهما بالتعيين.

فيُقال: لَيْسَ كَذَلِكَ، وَلَيْسَ فِي الْآيَةِ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ، ولكني عندما أقول لشخص: أنا أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ، وعندي امرأتان. فهل يفهم أنها منهن؟ لا، لَا يَفْهَمُ حتى أقول: هاتان. فـ﴿هَـٰتَيْنِ﴾ فِي الْآيَةِ عَلَى هَذَا المَعْنَى.

وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي﴾، يعني: تأجُرني نفسَك، أي تكون أجيرًا لِي فِي رَعْيِ غنمي.

وقَوْلُهُ تعالى: ﴿ثَمَـٰنِيَ حِجَجٍ﴾ أي: ثَمانِي سِنِينَ، وهو جُمع حِجَّة.

وقَوْلُهُ تعالى: ﴿فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا﴾، أي: رَعْيَ عَشْرِ سِنِينَ.

وقَوْلُهُ تعالى: ﴿فَمِنْ عِندِكَ﴾ التمام، وَلَيْسَ بِوَاجِبٍ، أَخْبَرَهُ أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُزَوِّجَهُ إِحْدَى ابْنَتَيْه، وَيَكُونَ المَهْرُ أن يرعى الغَنَمَ ثَمانِيَ سِنِينَ.

وَلَكِنْ مِنْ أين يُعْرَفُ أَنَّ المُرَادَ رعيُ الغَنم؛ إِذْ قَدْ يقول: تأجرني نفسك لِأَجْلِ أَنْ تكون بَنَّاء عندي، أو حَرَّاثًا، أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ؟

والجوابُ: أنه يُفْهَمُ مِن سؤال البنات، وسياق القصة، عندما قَالَتْ إِحْدَاهُمَا: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾، والعَمَل الذي أمامه الْآنَ هُوَ رَعْيُ الغَنَم، فعُرِف بِذَلِكَ أَنَّ صاحِبَ مَدْيَنَ أَرَادَ أَنْ يَسْتَأْجِرَ مُوسَى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في رعي الغَنَم ثمانيَ سنوات؛ فإنْ أَتَمَّ عَشْرًا، فَمِنْ عِندِه، يعني: السَّنَتان تكونان تبرُّعًا، وَالْعَقْدُ عَلَى ثَمانِي سنوات.

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ﴾ قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بِاشْتِرَاطِ العَشْرِ]، وَقَوْلُه هَذَا فِيهِ نَظَرٌ ظاهِرٌ؛ لِأَنَّ اشْتِرَاطَ العَشر لو قَبِلَه موسى، فلا مَشَقَّةَ فِيهِ، وإِلَّا لَقُلنا: إن اشتراط الثماني بدل الست فِيهِ مَشَقَّةٌ، وَلَكِنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ﴾ أي: فِي حَالِ معاملتك فِي تَنْفِيذِ العَقد، أي: يَا مُوسَى، سأتساهل لَوْ مَرَّ يَوْمٌ، أَوْ أيام ما رعيت فيها. وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، أو حصل عليك أثرٌ مِنْ مَرَضٍ، أَوْ غَيْرِهِ؛ فإنني لا أَشُقَّ عَلَيْكَ بهذا.

وتكون عدم المَشَقَّةُ فِي تَنْفِيذِ الإجارة، أَمَّا فِي زِيَادَةِ المدة، فليست بمشقَّة، وإلا لَوْ قُلْنَا: إِنَّ الثمانيَ بالنِّسبة للسِّت تكون مَشقة. فالصَّواب بلا ريب: لَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ حالَ تنفيذ العَمَل؛ لِأَنَّ بَعْضَ النَّاسِ يَقُولُ: عندك مَشَقَّةٌ فِي المُعَامَلَةِ فِي حَالِ تَنْفِيذِ العَقد، تجده -مثلًا- لَا يَسْمَحُ لَهُ أَنْ يَتَأَخَّرَ، وإذا مرض يُلزمه، أَوْ يَقُولُ: عَوِّضْنِي عَنْ هَذَا الْيَوْمِ، أو أَسْقِطْ لِي مِنَ الأجرة، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، فَهُوَ يَقُولُ: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ﴾.

وَلِهَذَا قَالَ: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، فوعده فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿سَتَجِدُنِىٓ﴾ فِي المُسْتَقْبَلِ؛ لأن السين هَذِهِ تُحَوِّل المضارع إلى المستقبل، وهي -كما مَرَّ علينا- تُفِيد التحقيق والتقريب، فَفِيهَا ثَلَاثُ فَوَائِدَ إِذَا دَخَلَتْ على المضارع:

تحويله للمستقبل، وتحقيقه، وتقريبه.

قوله تعالى: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ مِن: وَجَدَ يَجِدُ، إِذَا أَدْرَكَ الشَّيْء، وَلَكِنَّهُ قَالَ: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ صاحب مَدْيَنَ مُؤمن؛ لأن كلامه هَذَا يَدُلُّ عَلَى إِيمَانِهِ، وَأَنَّهُ عَلَى مِلَّةٍ.

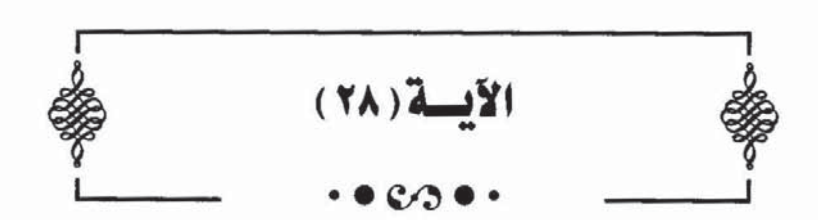
وقوله: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ تعليق، فَهَلْ هُوَ تَعْلِيقٌ يُرَادُ بِهِ حقيقته؟

يقول المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [إِنَّهُ لِلتَّبَرُّكِ]، والذي حَمَلَ المُفَسِّر عَلَى ذَلِكَ أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿سَتَجِدُنِىٓ﴾ وعدٌ منه، والوعدُ إِذَا عُلِّقَ لَمْ يَكُنْ مجزومًا به؛ وَلِهَذَا قَالَ: [﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ لِلتَّبَرُّكِ]؛ لئلا يُنافِيَ الوعدَ، وَلَكِنَّهُ فِي الْحَقِيقَةِ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَحْمِلَهُ على التَّبَرُّك، بل يَحْمِلُهُ عَلَى التعليق الحقيقي بالمشيئة؛ لأن عزم الْإِنْسَانِ عَلَى الشَّيْءِ مجزومٌ به، لكن تنفيذ الشَّيْءِ لَا يَسْتَطِيعُ الْإِنْسَانُ أَنْ يجزم به أبدًا مَهْمَا كَانَ الْعَمَلُ، يَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الكهف:٢٣-٢٤].

ولذلك فنحن نَرَى أَنَّ قَوْلَهُ: [لِلتَّبَرُّكِ] غَيْرُ صَحِيحٍ؛ لأن تنفيذ هذا الشَّيْء ليس بيدي صاحب مَدْيَنَ، فإن الأُمُور قد تُخْلَف.

وقوله: ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ جملة مُعترضة بين الفِعل ومفعوله؛ لِأَنَّ الْفِعْلَ ﴿سَتَجِدُنِىٓ﴾ يَنْصِبُ مفعولين؛ المفعول الأول الياء، والمفعول الثَّانِي قَوْلُه: ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

وقوله: ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: الوافِين بالعَهد؛ لأن صلاح كُلِّ شَيْءٍ بِحَسَبِه، فهنا المسألة عَقْدُ إِجَارَةٍ، والصلاح فيها يكون بالوفاء، وَفِي كُلِّ مَوْضِعٍ بحَسَبِه، وَالصَّلَاحُ فِي الدِّينِ هُوَ الْقِيَامُ بِطَاعَةِ الله، وصلاحُ الطعام أَلَّا يَكُونَ متغيرًا برائحةٍ كريهة، أَوْ فَسَادٍ، فالصلاح فِي كُلِّ مَوْضِعٍ بحسبه.



الآية (٢٨)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [القَصَص:٢٨].

• • • •

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قَالَ﴾ مُوسَى ﴿ذَٰلِكَ﴾ الَّذِي قُلْتُهُ ﴿بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ﴾ الثَّمَانِ أَوِ الْعَشْرَ، وَ(مَا) زَائِدَةٌ أَيْ رَعِيَّةً ﴿قَضَيْتُ﴾ بِهِ أَيْ فَرَغْتُ مِنْهُ ﴿فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ﴾ بِطَلَبِ الزِّيَادَةِ عَلَيْهِ ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ﴾ أَنَا وَأَنْتَ ﴿وَكِيلٌ﴾ حَفِيظٌ، أَوْ شَهِيدٌ، فَتَمَّ الْعَقْدُ بِذَلِكَ، وَأَمَرَ شُعَيْبٌ ابْنَتَهُ أَنْ تُعْطِيَ مُوسَى عَصًا يَدْفَعُ بِهَا السِّبَاعَ عَنْ غَنَمِهِ، وَكَانَتْ عِصِيُّ الْأَنْبِيَاءِ عِنْدَهُ، فَوَقَعَ فِي يَدِهَا عَصَا آدَمَ مِنْ آسِ الْجَنَّةِ، فَأَخَذَهَا مُوسَى بِعِلْمِ شُعَيْبٍ].

قوله تعالى: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ أي: قَالَ مُوسَى: ذَلِكَ الَّذِي قلته ﴿بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾، وَهَذَا الْكَلَامُ فِي الْحَقِيقَةِ يعني القَبول؛ لِأَنَّ كُلَّ عقد عندنا يَحْتَاجُ إِلَى إِيجَابٍ وقَبُول: إيجابٌ مِن الباذِل، سَوَاءٌ كَانَ بائعًا، أو مُؤَجِّرًا، أو مُزَوِّجًا، أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، وقَبُول مِن الآخِذ.

الْإِيجَابُ مِن صاحِب مَدْيَنَ لقوله: ﴿أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي﴾، وَالْقَبُولُ مِنْ مُوسَى بقوله: ﴿ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾، ومعناه: إني موافق وقابِل، وذلك بالرغم مِنْ أَنَّ صاحب مَدْيَنَ قَالَ فِي البداية: ﴿أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى

﴿ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ﴾ وَلَمْ يَقُلْ: أنكحتُك عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي. مِمَّا يَدُلُّ أَيْضًا عَلَى أَنَّ العُقُود تنعقد بِمَا دَلَّ عَلَيْهَا؛ لِأَنَّ الْإِرَادَةَ عَنِ الشَّيْءِ لَيْسَتْ هِيَ الشَّيْء، وَلِذَلِكَ لَوْ قَالَ الرَّجُلُ لامرأته: أُرِيدُ أَنْ أُطَلِّقَك، فَلا يَكُونُ طَلَاقًا، لِأَنَّ الْإِرَادَةَ غير الفعل، لَكِنْ هَذَا يَدُلُّ عَلَى الْقَوْلِ الراجحِ، الذي نتعرَّض له سَلَفًا فِي ذِكْرِ الفوائد، وَهِيَ أَنَّ الْعُقُودَ تنعقد بِمَا دَلَّ عَلَيْهَا، مَا لَهَا صيغة معيَّنة، حَتَّى إِنَّهُ ربما تنعقد بِالْفِعْلِ كَمَا فِي انعقاد البيع بالمُعاطاة.

يقول المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ﴾ الثَّمَانِيَ أَوِ الْعَشْرَ، وَ(مَا) زَائِدَةٌ، أَيْ رِعْيَةً].

يقول المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنَّ (ما) زائدة للتوكيد، وعليه فـ(أَيَّ) مفعولٌ مُقَدَّم بـ﴿قَضَيۡتُ﴾، وَلَا تَصِحُّ مِنْ بَابِ الاشتِغَال؛ لأن باب الاشتِغَال لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ فِي العامل ضمير، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ ضَمِيرٌ، فالسابق مفعول، تقول -مثلًا-: زيدٌ أكرمتُه. هَذَا مِن باب الاشتغال؛ لِأَنَّ فِيهِ ضَمِيرًا، لكن قولك: زيدًا أكرمتُ. بِدُونِ ضمير، هَذَا مِنَ باب المفعول المقدَّم، وَلَيْسَ مِنْ بَابِ الاشتغال، ولذلك هي هنا مَفْعُولٌ بِهِ مقدم؛ لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ﴾، وَلَمْ يَقُلْ: أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قضيتُه.

وقوله تعالى: ﴿ٱلۡأَجَلَيۡنِ﴾ يقول المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَيْ رِعْيَةً]، ولكن السياق لَا يَحْتَاجُ إِلَى تَقْدِيرٍ، لأَنَّه معروف مِن السياق، فمُوسى سيقضِي الرَّعْيَ في الأجلين؛ وَلِهَذَا قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَيْ رِعْيَةً]، لَكِنْ هَذَا سَائِرٌ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَكَثِيرًا مَا يُطْلَقُ الْأَجَلُ عَلَى الْعَمَلِ، فمعنى ﴿أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ﴾: أي المدتين قَضَيْتها فِي الرَّعي، فالصَّواب: أَنْ يَبْقَى عَلَى ظَاهِرِهِ، فهو قال ﴿أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ﴾ بالرَّعي، وهو محذوف؛ لِأَنَّهُ مَعْلُومٌ، أَمَّا أَنْ يُقدَّر أَنَّ المفعول رَعْي، وَأَنَّ هَذَا عَلَى سَبِيلِ التوسع والمَجاز، ففيه نظر.

وقوله: ﴿أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ﴾ هُمَا عِنْدَنَا الآن ثَمَانِي سِنِينَ، وَهِيَ وَاجِبَةٌ، وعشرٌ، وهي نفلٌ مِنْ مُوسَى، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ﴾ أي: قضيتُ به، أو فرغتُ منه، والقضاء بمعنى: الْفَرَاغِ مِنَ الشَّيْءِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ [فصلت:١٢]، أي: أَتَمَّهُنَّ، وانتهى منهن، وَهَـذَا هُوَ مَعْنَاهَا فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّـةِ، وَأَمَّا فِي الاصطلاح، فَإِنَّ الْقَضَاءَ عِنْدَ الْفُقَهَاءِ: مَا فُعِلَ بَعْدَ فَوَاتِهِ، ولهذا يقولون: الرَّجُلُ إِذَا صَلَّى الصَّلَاةَ بَعْدَ الْوَقْتِ تُسمى قضاءً، وَكَذَلِكَ إِذَا فَاتَتْهُ الصَّلَاةُ مَعَ الْإِمَامِ، أَوْ بَعْضُهَا، فقام يصلي، فهذا يسمى قضاء، ولهذا يقولون: إنه يقرأ فِيهِ سُورَةً مَعَ الْفَاتِحَةِ، ويستفتح، ويتعوَّذ، كأنه الآن قَدْ دَخَلَ فِي الصَّلَاةِ.

والصَّواب أَنَّ قَضَى هُنَا بِمَعْنَى الإتمام، أي: انتهى مِنَ الشَّيْءِ، وَفِي مَسْأَلَةِ الصلاة يُفسره قول الرَّسُول ﷺ فِي الرِّوَايَةِ الْأُخْرَى: «وَمَا فَاتَكُمْ فَأَتِمُّوا»(١).

قوله تعالى: ﴿فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ﴾: (لا) نافية، والعُدوان معناه: الظُّلم والاعتداء، يعني: فإذا قضيتُ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ؛ فَإِنَّهُ لَا عُدْوَانَ عَلَيَّ بذلك؛ لأنني أتممت العَقْدَ، ومَن أَتَمَّ العقد فَإِنَّهُ لَا اعْتِدَاءَ عَلَيْهِ، وَالْعُدْوَانُ فِي مِثْلِ هَذَا الْعَقْدِ يكون -كَمَا قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ- [بِطَلَبِ الزِّيَادَةِ عَلَيْهِ]، وَهَذَا صَحِيحٌ، فقول المستأجِر لموسى: زِدْ. هُوَ مِنْ بَابِ العُدوان.

كذلك ﴿فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ﴾ في إلزامي بِمَا لَا يَسْتَطِيعُهُ العقل، كَمَا لَوْ طَلَبَ مِنْهُ مثلًا أن يرعى الْغَنَمَ لَيْلًا وَنَهَارًا، كَذَلِكَ لَا عُدْوَانَ عليه بِمُمَاطَلَتِهِ في الأجرة، فإذا

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب قول الرجل: فاتتنا الصلاة، رقم (٦٣٥)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب إتيان الصلاة بوقار وسكينة، رقم (٦٠٣).

قضيتُ الأَجَل يتم العَقد.

والمهم: أنَّ العُدوان لَا يَخْتَصُّ بطلب الزِّيادة فقط، بل بِكُلِّ مَا يُتَصَوَّرُ أنه ينافي مُطْلَقَ العَقد.

يقول المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي قَوْلِهِ تعالى: [﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ﴾ أَنَا وَأَنْتَ، ﴿وَكِيلٌ﴾ حَفِيظٌ، أَوْ شَهِيدٌ، فَتَمَّ العَقْدُ بِذَلِكَ].

قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ﴾، لفظ الجلالَة مبتدأ، و﴿وَكِيلٌ﴾ خبره، والمراد بالوَكالة هنا الحفظ والشَّهادَة جميعًا، فقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [أَوْ شَهِيدٌ] هَذِهِ للتنويع، وليست للشرط، ولكن الأصح أَنَّهَا عَامَّةٌ؛ لأن وَكالة اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَلَى الشَّيْءِ معناه الحفظ والشَّهادَة.

وَقَوْلُهُ تعالى: ﴿عَلَىٰ مَا نَقُولُ﴾ تقدَّمت على عاملها، وهو ﴿وَكِيلٌ﴾، والتَّقديم يُفيد الحَصر، وَمَعْلُومٌ أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وكيل، وَلَيْسَ عَلَى مَا نَقُولُ فقط، ولكنه حَصَر فِي هَذَا؛ لزيادة الاهتمام به، وَإِلَّا فَلَا شَكَّ أَنَّ اللهَ وكيلٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، ولكن كَأَنَّهُ يَقُولُ: لَوْ لَمْ يَكُنِ الله شَاهِدًا عَلَى شَيْءٍ لَكان شَاهِدًا عَلَى مَا نَقُولُ مِنَ الْعَقْدِ الَّذِي جَرَى بيننا، وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كان عَارِفًا بِاللهِ، وعنده الفِطرة، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ قَدْ نُبِّئَ؛ لِأَنَّ قَوْلَه: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ اعْتِرَافٌ مِنْهُ بِاللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وبما لَهُ مِنَ الصفات، لكونه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وكيلًا عَلَى كُلِّ شَيْءٍ.

وظاهر الحالة أَنَّهُ لَيْسَ هُنَاكَ شهود عَلَى هَذَا الْعَقْدِ، وَلَكِنْ فِي شَرْعِنَا لَا يُمْكِنُ الِاسْتِغْنَاءُ عَنِ الشهود حين كتابة العُقود، فلا يَكْفِي أَنْ يَكْتُبَ شخص مَا فِي الْعَقْدِ: وَاللهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ، أو شهيد، نَعَمْ نَحْنُ نُقِرُّ بِأَنَّ اللهَ شاهدٌ ونِعمَ الشاهدُ، لَكِنَّهُ

لَا يُدلي بشهادته، فليس هناك آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى صِدْقِ مَا قِيلَ، أو تكذيبه، فَاللهُ سُبْحَانَهُ -لَا شَكَّ- نِعْمَ الشاهدُ؛ لِأَنَّ شَهَادَتَهُ فوق كُلِّ شَيْءٍ، يَقُولُ اللهُ تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌ﴾ [الأنعام:١٩].

ولكننا نقول: أين الْآيَةُ مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الَّتِي تَشْهَدُ بأنه حصل كَذَا وَكَذَا؟ فنحن -مثلًا- تأتينا بعض الزَّكوات، ويأتينا فقير يقول: أَنَا وَاللهِ لَا أَمْلِكُ شيئًا، والله شَاهِدٌ عَلَى ذَلِكَ. وَيَقُولُ لَكَ: أَمَا تقبل الله؟ نقول له: نعم، نَقبل قَسَمَك بالله، لكن اذكُر آيَةً تَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللهَ شاهد بذلك، أما مُجرد كلامِك فَلَا يُعْتَدُّ بِهِ.

والنَّبيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يقول: «لَوْ يُعطَى النَّاسُ بِدَعْوَاهُمْ لَادَّعَى رِجَالٌ دِمَاءَ قَوْمٍ وَأَمْوَالَهُمْ، وَلَكِنِ الْبَيِّنَةُ عَلَى الْمُدَّعِي»[1]، فاذكُر -مثلًا- وَحْيًا مِنَ اللهِ بِذَلِكَ أَوْ آيَةً فِي كِتَابِهِ تَدُلُّ عَلَى صِدقك، فنحن نَقبل شَهَادَةَ اللهِ، وهي فوق كُلِّ شَهَادَةٍ، أَمَّا أَنْ تَقُولَ: إِنَّ هَذَا فِي الذِّمَّةِ، فَهَذَا لَا يُثْبِتُ شيئًا.

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [فَتَمَّ العَقْدُ بِذَلِكَ، وَأَمَرَ شُعَيْبٌ ابْنَتَهُ أَنْ تُعْطِيَ مُوسَى عَصًا يَدْفَعُ بِهَا السِّبَاعَ عَنْ غَنَمِهِ، وَكَانَتْ عَصَا الأَنْبِيَاءِ عِنْدَهُ، فَوَقَعَ فِي يَدِهَا عَصَا آدَمَ مِنْ آسِ الجَنَّةِ، فَأَخَذَهُ مُوسَى بِعِلْمِ شُعَيْبٍ].

هَذَا مِنَ الإسرائيليات التي ما تُصدَّق، فلا نَجِدُ فِي الْآيَاتِ دَلِيلًا عَلَى أَنَّهُ أَخَذَ عصًا، أَوْ شَيْئًا، فَقَدْ تَمَّ هَذَا الْعَقْدُ، وَصَارَ يُعْمَلُ له.

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الأحكام، باب ما جاء في أن البينة على المدعي، واليمين على المدعى عليه، رقم (١٣٤١).

من فوائد الآيات الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: يَجُوزُ أَنْ يُشتقَّ المَهْرُ مِنَ الأب، وَهَذَا فِي حقيقته عَائِدٌ عَلَى الْبِنْتِ؛ لِأَنَّهَا حَصَلَتْ لها فائدة، وهي أنها تَسْلَم مِن رَعْيِ الغَنم، والتعب فيه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: قَوْلُهُ تعالى: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ﴾ هو وعد، وليس عقدًا، وَالدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُه: ﴿أُرِيدُ﴾ والمُريدُ للشيء قد يَفْعَلُهُ، وَقَدْ لَا يَفْعَلُهُ، لَكِنْ قَوْلُهُ ﴿ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ قَبِل أَنْ يُزَوِّجَهُ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: قَوْلُهُ تعالى: ﴿هَٰتَيْنِ﴾ يفيد أنهما حاضرتان؛ لِئَلَّا يَظُنَّ أَنَّ هناك مَنِ البنات غَيْرَ هَاتَيْنِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿عَلَىٰ مَا نَقُولُ﴾ تقدِيم المعمول يَدُلُّ عَلَى الحصر، مَعَ أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وكيل، وَهَذَا أَبْلَغُ فِي المُحَافَظَةِ عَلَى الْعَقْدِ، كَأَنَّهُ يَقُولُ: لَوْ لَمْ يَكُنِ الله وكيلًا لَكان وكيلًا عَلَى مَا نَقُولُ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾ يُستفاد بَيَانُ أَنَّ مَشُورة الْإِنْسَانِ عَلَى أَبِيهِ لَا تَعُدَّ مِن التَنَقُّصِ له.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: تلطُّف هَذِهِ المَرْأَةِ فِي مُخَاطَبَةِ أبيها؛ لقولها: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾، وَلِهَذَا قَالُوا: لَا يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يُنَادِيَ والده باسمه، كَأَنْ يَقُولَ مثلًا: يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ، يَا عَبْدَ الْعَزِيزِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، حَتَّى إِنَّ بَعْضَهُمْ يَقُولُ: إذا نادى أباه باسمه يُعَزَّر؛ لِأَنَّهُ نَوْعٌ مِنَ الِاحْتِقَارِ لَهُ، وأَمَّا الخَبَرُ عَنْهُ باسمه، فَلَا بَأْسَ مِثْل أَنْ يَقُولَ: قَالَ فُلَانٌ، فَلَا حَرَجَ، ولهذا كَثِيرًا مَا نسمع فِي الْأَحَادِيثِ أَنَّ ابْنَ عُمَرَ يَقُولُ: قَالَ عُمَرُ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، وهَذَا لَا بَأْسَ بِهِ، بخلاف النداء، فالنداء لَهُ حَالٌ، والخبر لَهُ حَالٌ أخرى.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: يَنْبغي في الْقَائِمِ عَلَى الشَّيْءِ، سَوَاءٌ كَانَ متبرعًا، أو بأَجْرٍ، أَنْ يُرَاعَى فيه هذان الوَصْفَان؛ وهما: القُوَّة والأمانة؛ لأن في القُوَّة الْقُدْرَةَ عَلَى التنفيذ، وفي الأمانة الإتمام والإكمال.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كان متصفًا بهَذَيْن الوصفين: القُوَّة والأمانة؛ لِأَنَّا قُلْنَا: إِنَّ الجملة هَذِهِ تعليلٌ لقولها: ﴿اسْتَئْجِرْهُ﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: نُصْح هـذا الوالد لبناتـه؛ لِأَنَّهَا لَمَّا وصفتـه بالأمانة والقُـوَّة اختاره، وهكذا يَنْبغي للإنسان أن يختار لبناته مَن يتصف بالقُوة والأمانة.

الْفَائِدَةُ العَاشِرَةُ: جَواز خِطبة الزوج، بِمَعْنَى أَنَّ الرَّجُلَ يَخْطُبُ الرَّجُلَ لابنته عَلَى عَكسِ المُتعَارَفِ عَلَيْهِ، وَهَذَا جَائِزٌ، فَقَدْ رُوِيَ عَنِ ابْنُ عُمَرَ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ، حِينَ تَأَيَّمَتْ حَفْصَةُ بِنْتُ عُمَرَ مِنْ خُنَيْسِ بْنِ حُذَافَةَ السَّهْمِيِّ، وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا، تُوُفِّيَ بِالمَدِينَةِ، قَالَ عُمَرُ: فَلَقِيتُ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ، فَعَرَضْتُ عَلَيْهِ حَفْصَةَ، فَقُلْتُ: إِنْ شِئْتَ أَنْكَحْتُكَ حَفْصَةَ بِنْتَ عُمَرَ، قَالَ: سَأَنْظُرُ فِي أَمْرِي، فَلَبِثْتُ لَيَالِيَ، فَقَالَ: قَدْ بَدَا لِي أَنْ لَا أَتَزَوَّجَ يَوْمِي هَذَا، قَالَ عُمَرُ: فَلَقِيتُ أَبَا بَكْرٍ، فَقُلْتُ: إِنْ شِئْتَ أَنْكَحْتُكَ حَفْصَةَ بِنْتَ عُمَرَ، فَصَمَتَ أَبُو بَكْرٍ، فَلَمْ يَرْجِعْ إِلَيَّ شَيْئًا، فَكُنْتُ عَلَيْهِ أَوْجَدَ مِنِّي عَلَى عُثْمَانَ، فَلَبِثْتُ لَيَالِيَ، ثُمَّ خَطَبَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَأَنْكَحْتُهَا إِيَّاهُ، فَلَقِيَنِي أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ: لَعَلَّكَ وَجَدْتَ عَلَيَّ حِينَ عَرَضْتَ عَلَيَّ حَفْصَةَ، فَلَمْ أَرْجِعْ إِلَيْكَ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: فَإِنَّهُ لَمْ يَمْنَعْنِي أَنْ أَرْجِعَ إِلَيْكَ فِيمَا عَرَضْتَ، إِلَّا أَنِّي قَدْ عَلِمْتُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَدْ ذَكَرَهَا، فَلَمْ أَكُنْ لِأُفْشِيَ سِرَّ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَلَوْ تَرَكَهَا لَقَبِلْتُهَا[1].

(١) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، بعد باب شهود الملائكة بدرًا، رقم (٤٠٠٥).

وَهَكَذَا يَتَبَيَّنُ أَنَّ خِطبة الإِنْسَان الرَّجُلَ لابنته أَمْرٌ مَشْرُوعٌ، ومعروف فِيمَا سَبَقَ، وَفِي هَذِهِ الْأُمَّةِ.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: كَرَمُ هَذَا الرَّجُلِ، ووجهُه أَنَّهُ خَيَّـرَ موسى بين البنتين، فقال: اخْتَـرْ إحداهما، وَهَـذَا مِنَ الْكَرَمِ؛ لِأَنَّ التَّخْيِيـرَ فِي الْحَقِيقَةِ أوسعُ للإنسان، وأطيبُ لنفسه؛ حيث يَخْتَارُ مَا يَرَاهُ أنسبَ، لَكِنْ لَوْ قَالَ: إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ هَذِهِ البنت، فَقَدْ يَكُونُ الرَّجُلُ لَا رغبةَ لَهُ فِيهَا، أَمَّا قَوْلُه: ﴿إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ﴾ فالتخيير يَدُلُّ عَلَى الكرم، وأنه جَعَلَهُ فِي سَعَةٍ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: جَوَازُ الْعَقْدِ عَلَى المبهمـة؛ إيجابًا لا قَبُولًا، لأَنَّه مَعْنَاهُ أَنَّهُ يَقُولُ: زَوَّجْتُك إِحْدَى ابْنَتَيَّ. فيقول الزوجُ: قَبِلْـتُ نِكاح فلانة. وَهَـذِهِ المَسْأَلَةُ لها أربع صُوَر:

الْأُولَى: إِمَّا أَنْ يَحْصُلَ التعييـن بِالْإِيجَابِ وَالْقَبُـولِ، فيقول: زَوَّجْتُـك ابنتي عائشة. فيقول: قَبِلْتُ. هذا تَعْيِيـنٌ فِي الْإِيجَابِ، وفِي القَبول، فالإيجاب: الْوَلِيُّ قَالَ: زوَّجتُك ابنتي عائشة. فعَيَّنها، والزوج قال: قَبِلْتُ زواجَ هَذِهِ المَرْأَةِ.

الثَّانية: وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ الإبهام فِي الْإِيجَابِ وَالْقَبُولِ، فَلَا يَصِحُّ -مثلًا- أَنْ يَقُولَ: زَوَّجْتُكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ. فيقول: قَبِلْتُ نكاح إحداهما. فهنا لَا يَجُوزُ، وَلَا يَنْعَقِدُ النِّكَاحُ؛ لأَنَّنا لَا نَدْرِي أَيَّتَهُما التي انعقد نكاحها.

الثالثة: وَإِمَّا أَنْ يَكُـونَ التَّعْيِيـنُ فِي الْإِيجَابِ دُون القَبُـول، فيقول -مثلًا-: زَوَّجْتُك ابنتي عائشة. فيقول الزوج: قَبِلْتُ نكاحَ إحدى بناتك. وَهَذَا لَا يَجُوزُ.

الرابعة: أَنْ يَقُولَ: زَوَّجْتُك إحدى بناتي. فيقول: قَبِلْتُ نكاح فلانة. يُسَمِّيها،

فهنا الإبهامُ فِي الْإِيجَابِ والتعيين فِي الْقَبُولِ لَا يَصِحُّ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ التَّعْيِينُ فِي الْإِيجَابِ وَالْقبُولِ، ولكن الَّذِي يَظْهَرُ أَنَّهُ يَصِحُّ؛ لِأَنَّهُ لَمَّا قَالَ: زَوَّجْتُك إحدى بناتي. قال: قَبِلْتُ عائشةَ. وهنا حَصَل التعيين، لكن المُوجِب الَّذِي هُوَ الْوَلِيُّ أَرَادَ أَنْ يُفْسِحَ له المجال في الاختيار، فهـذا ظاهره صِحَّةُ الْعَقْدِ، لا سِيَّما إِذَا قَالَ: زَوَّجْتُك إحدى بناتي هؤُلاءِ. وعَيَّنَهم، فقال: قبلتُ عائشة. وَهِيَ مِنَ المُعَيَّنات، فَهَذَا أَيْضًا أَقْرَبُ إِلَى الصِّحة؛ لِأَنَّهُ قَدْ حَصَلَ تعيين بالإشارة، ثم عَيَّن واحدةً منهن بالقَبول.

ولكن قِصَّة مُوسَى هنا لَيْسَ فِيهَا دَلِيلٌ عَلَى ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيًّا حينئـذ، ولأنَّه لَمْ يَعْقِدْ عَلَيْهَا بَعْدُ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: قد يُفْهَمُ مِنَ الْآيَةِ أَنَّ الْأَبَ يملك الْعَقْدَ عَلَى ابْنَتِهِ دُونَ رضاها، وَلَكِنَّ الْآيَةَ لَيْسَ فِيهَا دَلِيلٌ؛ إِذْ مِنَ المُمْكِنِ أَنْ يَكُونَ الْأَبُ قد استأذن منها قَبْلَ ذَلِكَ، أَوْ أَنَّهُ فَهِمَ منها الرضا؛ لكونها عَرَضَتْ عليه، ووصفتْه بالقُوة والأمانة.

وَعَلَى كُلِّ تَقْدِيرٍ، حَتَّى لَوْ فَرَضْنَا احتمالَ أَنَّهُ لَمْ يَسْتَأْذِنْ؛ فإِنَّ شريعتنا وَرَدَتْ بِخِلَافِ ذَلِكَ، أَنَّهُ لَا يَجُوزُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يُزَوِّجَ ابنته بِدُونِ رضاها، وأَمَّا الْعَقْدُ إِذَا زَوَّجَ ابنته بِدُونِ رضاها فيُعْتبَر باطلًا لَيْسَ بِصَحِيحٍ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: جَواز اشتراط الأب شَيْئًا مِنَ الصَّدَاقِ لَهُ؛ فَإِنَّهُ قَدْ زوَّجه عَلَى أَنْ يأجُره ثَمانِيَ حِجَجٍ فِي رَعْيِ الغَنَم، فَيَكُونُ فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَشْتَرِطَ الأبُ مهرَ ابنته له، وَهَذَا فِيهِ إشكالٌ بالنِّسبة لشريعتنا؛ لِأَنَّ اللهَ يَقُولُ: ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗۚ فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا فَكُلُوهُ﴾ [النساء:٤]، وقال: ﴿فَنِصۡفُ مَا فَرَضۡتُمۡ إِلَّآ أَن يَعۡفُونَ أَوۡ يَعۡفُوَاْ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ عُقۡدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾ [البقرة:٢٣٧].

وهاتان الآيتان تَدُلَّان عَلَى أَنَّ المهـر للزوجة، وَهِيَ الَّتِي تملك التَّصَـرُّفَ فِيهِ بِالْعَفْوِ والإعطاء، وليس للأب حَقٌّ فِي ذَلِكَ، وَهُوَ الَّذِي دَلَّتْ عَلَيْهِ السُّنَّةُ أَيْضًا؛ أَنَّ مَا كَانَ مِنْ شَرْطٍ، أو حِبَاءٍ قَبْلَ الْعَقْدِ فهو للزوجة، وَمَا كَانَ بَعْدَهُ فأَحَقُّ ما يُكرَم عَلَيْهِ المَرْءُ ابْنَتُه وَأُخْتُه، فالمهـر الَّذِي قَبْلَ الْعَقْدِ كُلُّه يَجِـبُ أَنْ يَكُونَ لِلزَّوْجَةِ، وَهَذَا الْقَوْلُ هُوَ الصَّحِيحُ أَنَّ المَهْـرَ للزوجة، لَا يُشَارِكُهَا فِيهِ أَحَـدٌ؛ لِأَنَّهُ فِي مُقَابَلَةِ بُضْعِها فَيَكُونُ لَهَا، وليس لِلْأَبِ أَنْ يَشْتَرِطَ مِنْهُ شَيْئًا لِنَفْسِهِ.

والأب لَهُ أَنْ يَتَمَلَّكَ مِنْ مَالِ وَلَدِهِ مَا لَا يحتاجه، ولا يَضُرُّه؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «أَنْتَ وَمَالُكَ لِأَبِيكَ»[1].

فَأَمَّا أَنْ يَشْتَرِطَ مِنْهُ شَيْئًا لِنَفْسِهِ فَلَا؛ لِأَنَّ الشَّـرْعَ لَا يُجِيزُهُ، وَهُوَ أَيْضًا سببٌ للفساد، وملاحظة الأب للمَهر فيُزَوِّج مَن يَشْتَرِطُ لَهُ أَكْثَرَ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ كُفئًا، وَيَمْنَعُ مَنْ لَا يَشْتَرِطُ له، وَإِنْ كَانَ كُفئًا.

فالمصلحة والشَّرع كلاهما يقتضيان أَنَّهُ لَا يَجُوزُ لِلْأَبِ أَنْ يَشْتَرِطَ لنفسه شَيْئًا مِنَ المَهْرِ، وَالْأُمُّ وَالْأَخُ مِنْ بَابِ أَوْلَى، وقد يوجد خِلَافِ هَذَا من بعض الناس، وَهَذَا لَا يَجُوزُ، فالواجب أَنْ يَكُونَ المَهْرُ كُلُّهُ للزوجة.

واستدل بِهَذِهِ الْآيَةِ بَعْضُ الْعُلَمَـاءِ أَيْضًا عَلَى أَنَّهُ يَجُـوزُ أَنْ يَكُونَ المَهْـرُ منفعةً تَسْتَحِلُّها الزَّوْجَةُ مِنْ زَوْجِهَا، يعني: أَنْ يُعْمَلَ لها بناء؛ بأن يَبْنِيَ لها بيتًا، ويأتِيَ لها بشيء فائض، والاستدلال واضح؛ لأن رعي الغنم منفعة، إِذْ لَوْ لَمْ يَرْعَها موسى لَقَام بذلك هاتان البنتان، فَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ منفعة لها، ثُمَّ إِنَّ شرعنا وَرَدَ بوفاقه، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الإجارة، باب الرجل يأكل من مال ولده، رقم (٣٥٣٠)، وابن ماجه: كتاب التجارات، باب ما للرجل من مال ولده، رقم (٢٢٩٢).

لِلرَّجُلِ الَّذِي لَمْ يَجِدْ عِنْدَهُ شَيْئًا: «اذْهَبْ فَقَدْ مَلَّكْتُكَهَا بِمَا مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ»[1]، وهذا منفعة.

لكن لو اشترطَت عَلَيْهِ أَنْ يخدمها، يعني أَنْ يَكُونَ مَهْرُها خدمتها، فمثلًا: هَذِهِ امرأةٌ عجوزٌ كبيرةٌ خَطَبَها إنسانٌ لَيْسَ عِنْدَهُ مَالٌ، أو عِنْدَهُ مَالٌ، وقالت: المهر أنك تخدمني، أن تحملني -مثلًا- لأتوضأ، وَكَذَلِكَ أَيْضًا تُقَوِّم حذائي، تغسل ثوبي، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، فهذا فِيهِ خِلَافٌ بَيْنَ أَهْلِ الْعِلْمِ، مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: إِنَّهُ لَا يَجُوزُ؛ لأن مَقَامَ الزَّوْجِ أَنْ يَكُونَ أَعْلَى مِنْ مَقَامِ الزوجة، فَإِنَّ الزَّوْجَ سَيِّدٌ، كَمَا قَالَ اللهُ تعالى: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾ [يوسف:٢٥]، والزوج رَجُلٌ، فَهُوَ قَوَّامٌ عَلَى الْمَرْأَةِ، قَالَ تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء:٣٤]، والمرأةُ أَسِيرٌ عِنْدَ الزَّوْجِ، قَالَ ﷺ: «**أَلَا وَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا، فَإِنَّمَا هُنَّ عَوَانٌ عِنْدَكُمْ**»[2].

وَإِذَا قُلْنَا: إِنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمَهْرُ خدمتَها، انعكست القضية، وصار الأعلى هو الأسفل، وَهَذَا لَا يَجُوزُ، ولكن الْمَذْهَبُ جَوَازُ ذَلِكَ؛ لأَنَّها مَنفعة، وكما يَجُوزُ أَنْ تَتَزَوَّجَهُ عَلَى أَنْ يَبْنِيَ بيتها، ويرعى غَنَمَها، فكذلك أَنْ يَقُومَ بخدمتها، وهذا التَّعلِيل لَا يَمْنَعُ، فيخدمها الزَّوْجُ فِيمَا اشترطت عليه، وتخدمه فِيمَا يَجِبُ عَلَيْهَا، فتكون خادمةً مَخدومة؛ كحَرْفِ الجَرِّ يعمل فيه الْفِعْل، وَهُوَ يَجُرُّ الاسم، هو عامِلٌ مَعْمُول.

وَقَدْ تَكُونُ مصلحة الزَّوْجِ فِي خدمة زوجته، كأن تكون غَنِيَّة، وينتظر موتها حتى يرث منها، وَقَدْ يَحْدُثُ العكس، لكن الأمر حسب الحال، فَهَذَا رَجُلٌ شَابٌّ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب القراءة عن ظهر القلب، رقم (٤٧٤٢)، ومسلم: النكاح، باب الصداق وجواز كونه تعليم قرآن وخاتم حديد، رقم (١٤٢٥).

(٢) أخرجه الترمذي: كتاب الرضاع، باب ما جاء في حق المرأة على زوجها، رقم (٣٠٨٧) وقال: حسن صحيح. وابن ماجه: كتاب النكاح، باب حق المرأة على الزوج، رقم (٣٠٥٥).

فقير، وهـذه امرأةٌ عجوز كبيرة عندها أموال عظيمة، فَيَقُولُ فِي نَفْسِهِ: لَا يَضُـرُّ أن أخدمها، فربما تموت، وأَرِثُ منها مالها كُلَّه.

وَقَدْ يَكُونُ أَيْضًا لغيـر هَـذَا السَّبَبِ، قَـدْ يَكُونُ لرفع حَسَبِه؛ لِأَنَّ هَـذِهِ امرأة -مثلًا- مِنْ قَبِيلَةٍ مشهورة، وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يرفع حَسَبَهُ؛ لِأَنَّهُ قَدْ يَكُونُ عِنْدَ النَّاسِ غَيْرُ قَبيلي؛ فإذا تزوج هَذِهِ المَرْأَةَ المعروفة بِأَنَّهَا مِنْ قَبِيلَةٍ مُعَيَّنَة، عُلِم بذلك.

المهم: أن الْآيَةَ فِيهَا اعتبارات.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةَ عَشْرَةَ: أَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَجْعَلَ الإِنْسَان العَمَل عملين: عملًا واجبًا، وعملًا تَبَرُّعًا، فيجوز لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَطْلُبَ استئجار شَيْءٍ مَا مثلًا عَشْرَ سنوات بالأجر، وسَنَتَيْن تبرعًا مِن صاحبها، برغبته ومشيئته.

وَنَظِيـرُهُ مِن بَعْضِ الْوُجُوهِ: أَنْ يَقُولَ الْقَائِلُ لشخص: خُذْ هَـذَا الشَّيْءَ بِعْه بمائة، وَمَا زَادَ فَلَك. فَإِنَّ هَـذَا جَائِزٌ بِشَـرْطِ أَنْ يَكُونَ عِنْدَ كُلٍّ مِن الطرفيـن معرفة بالسعر؛ لئلَّا ينخدع أحدهما باعتبار أَنَّ واحدًا -مثلًا- عنده حاجة يريد بيعها، وَجَاءَ إِلَى الدلَّال، وقال: خذ هَذِهِ الْحَاجَةَ بِعْهَا بمائة، وَمَا زَادَ فَهُوَ لَكُ. فَهَذَا جَائِزٌ، يبيعها بِمِائَةٍ وَعِشْرِينَ، ويأخذ عشرين، أو بمائة وخمسة ويأخذ خمسة، أو بمائة وعَشَرة ويأخذ عَشَرة، ولكنه يُشْتَرَطُ فِي هَذَا أَنْ يَكُونَ لدى كُلٍّ مِن المُوكِّل والمُوَكَّل عِلْمٌ بالسعر؛ لئلا ينخدع أَحَدُهُمَا فِي سِعر هَذِهِ السِّلْعَةِ، فهو يعرِف -مثلًا- أنها تُساوي مائة، وقد تزيد قليلًا، وقد تنقُص قليلًا.

وَلَكِنْ إِنْ كَانَ لَا يَدْرِي مَا ثَمَنُها، ثُمَّ يَقُولُ: بِعْهُ بمائة. وَهُوَ لَا يَدْرِي أَنَّ سِعرها أربعمائة، فيذهب ذاك فيَبيعها بأربعمائة، أَوْ أَنَّهُ -مثلًا- يَعْرِفُ أَنَّ سعرها لَا يُسَاوِي خمسين، وَالْوَكِيلُ لَا يَدْرِي، فالذي يَغْتَرُّ هُنَا هُوَ الوكيل، وفي المَسْأَلَةِ الْأُولَى المُوكِّل.

وَلَكِنْ قَدْ يَكُونُ الموكِّل يَعْرِفُ أَنَّ سلعتَه لَا تَزِيدُ عن المائة، فيقول للوكيل: اذهب وبِعْهَا بمائةٍ، وَمَا زَادَ فَهُوَ لَكُ. فيذهب وَهُوَ لَا يَدْرِي، يَظُنُّ أَنَّه سيبيعها بِأَكْثَرَ مِنْ مِائَةٍ، فيَظَلُّ يُحاول ويُحاول، فما بِيعت إلا بثمانين، أو تسعين مثلًا، فيكُونُ فِي هَذَا غَرَرٌ على الوكيل، وَهَذَا لَا يَجُوزُ، والعكس أَيْضًا لَا يَجُوزُ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةَ عَشْرَةَ: حُسن معاملة صاحب مَدْينَ مِنْ وَجْهَيْنِ:

أولًا: أنه فَسَحَ لَهُ فِي الْأَجَلِ، فقال: ﴿ثَمَٰنِيَ حِجَجٍۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ﴾.

ثانيًا: أنه وَعَدَهُ بالتيسيرِ فِي المُعَامَلَةِ، حَيْثُ قَالَ: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ﴾، فهذان دليلان عَلَى أَنَّهُ كَانَ سمحًا فِي مُعَامَلَتِهِ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةَ عَشْرَةَ: يُستفاد مِنْ قَوْلِهِ تعالى: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِلْمَرْءِ أَنْ يَعْزِمَ عَلَى فِعْلِ الشَّيْءِ إِلَّا مَقْرُونًا بالمشيئة، بَلْ إِنَّ اللهَ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ نَهَى نَبِيَّهُ أَنْ يعزِمَ عَلَى فِعْلِ الشَّيْءِ بِدُونِ قَرْنِه بالمشيئة، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا﴾ [الكهف:٢٣].

والقَرْنُ بالمشيئة فِيهِ فَائِدَتَانِ:

الْأُولَى: تفويضُ المرءِ الأَمْرَ إِلَى اللهِ، وَهَذَا هُوَ تحقيقُ التوكّل.

الثَّانية: تيسيرِ الْأَمْرِ لَهُ، وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ فِي قِصَّةِ سليمان: **«لَوْ قَالَ: إِنْ شَاءَ اللهُ لَمْ يَحْنَثْ وَكَانَ دَرَكًا لِحَاجَتِهِ»**[1].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب كفارات الأيمان، باب الاستثناء في الأيمان، رقم (٦٣٤١)، ومسلم: كتاب الأيمان، باب الاستثناء، رقم (١٦٥٤).

تَرَى هَذَا إِذَا كَانَ الإِنْسَان يُرِيدُ أَنْ يُخْبِرَ عَنِ الفعل، أَمَّا إِذَا كَانَ يُرِيدُ أَنْ يُخْبِرَ عَنْ عزيمته عَلَى الْفِعْلِ، فَلَا يَلْزَمُهُ قول: إِنْ شَاءَ اللهُ، إِذَا كَانَ يُرِيدُ أَنْ يُخْبِرَ عَنِ العزيمة يقول: سأفعل غدًا، أي: هَـذِهِ نيتي وعزيمتي، فَإِنَّهُ لَا يَلْزَمُهُ القَرن بالمشيئـة؛ لأن العزيمة حاصلة، فقد شاءها الله، وَإِذَا كَانَتْ حاصلة، وقد شاءها الله، فليست هناك حاجة أَنْ نَقُولَ: إِنْ شَاءَ اللهُ؛ لِأَنَّ اللهَ شاءها، ففرْق بَيْنَ أَنْ يَقُولَ إنسان: سأزورك غدًا. وَهُوَ يُرِيدُ وُقُوعَ الْفِعْلِ، وَبَيْنَ أَنْ يَقُولَ: سأزورك غدًا. وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يُخْبِرُ عَمَّا فِي قَلْبِهِ مِنَ النِّيَّةِ والعزيمة، بَيْنَهُمَا فَرْقٌ، ففي الْأُولَى لَا بُدَّ أَنْ يَقُولَ: إِنْ شَاءَ اللهُ. وفِي الثَّانِيَةِ لَا يَحْتَاجُ أَنْ يَقُولَ: إِنْ شَاءَ اللهُ. فالعزيمة أمرٌ واقع، وأمَّا الفعل فأمرٌ مُسْتَقبل، فهذا أَمْرٌ لَا يُسْتَحَبُّ فِي العزيمة، إِلَّا إِذَا كَانَ عَلَى سَبِيلِ التعليم، فَلَا بَأْسَ، كَمَا قَالَ الرَّسُولُ ﷺ: «وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ بِكُمْ لَاحِقُونَ»[1]. يعني: حقًّا، وقال اللهُ تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [الفتح:٢٧].

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةَ عَشْرَةَ: يُستفاد مِنْ قَوْلِهِ تعالى: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ أَنَّ صَاحِبَ مَدْيَن مؤمن؛ لأن مِثْلَ هَذِهِ الصيغة لَا تَكُونُ إِلَّا مِنْ مُؤْمِنٍ ملتزم بالشريعة.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةَ عَشْرَةَ: أن الصَّلَاحَ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ بحَسَبه، ففي العبادةِ يكون الصَّلَاحُ فِي الْإِخْلَاصِ والمتابعة. أي: الْقِيَامُ بِمَا يَجِبُ مِنَ الْإِخْلَاصِ، والمتابعة لله، وترك الْمَنْهِيَّاتِ، وفعل المأمورات، وَالصَّلَاحُ فِي الْمُعَامَلَةِ بالْوَفَاءِ بِمَا يَقْتَضِيهِ الْعَقْدُ، هذا هو الصَّلَاحُ فِي الْمُعَامَلَةِ الْوَفَاءُ بِمَا يَقْتَضِيهِ الْعَقْدُ.

وهنا فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ نجد أَنَّ الأَلْيَق

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجنائز، باب ما يقال عند دخول القبور والدعاء لأهلها، رقم (٩٧٤، ٩٧٥).

بالسياق هو صلاح المعاملة؛ لِأَنَّ المَسْأَلَةَ جاءت تعقيبًا عَلَى عَقْدٍ، فَقَدْ قَالَ اللهُ تعالى بعده: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾.

الْفَائِدَةُ الْعِشْرُونَ: أَنَّ الْعُقُودَ لَيسَتْ لَهَا صِيَغ مُعَيَّنَة، فتنعقد بما دَلَّتْ عَلَيْهَا، وكذلك الفُسوخ، وكذلك الولايات، كل التصرفات مِنْ عُقُودٍ وفُسوخ وولايات؛ فإنها تَصِحُّ بِمَا دَلَّ عَلَيْهَا، وَلَا يُشْتَرَطُ لها لفظ مُعَيَّن، بل تُجْرَى عَلَى مَا يتعارفه النَّاسُ بَيْنَهُم، حتى عَقْدِ النِّكَاحِ عَلَى الْقَوْلِ الراجح لَا تُشْتَرَطُ له صيغةٌ مُعَيَّنَة، فيجوز عَقْدُ النِّكَاحِ بأيِّ لفظ يتعارف عَلَيْهِ النَّاسُ، فمثلًا يجوز قولنا: زَوَّجْتُك، أنكحتُك، مَلَّكْتُك، عقدتُ لَكَ عَلَى ابنتي. وكذلك الْأَمْرُ فِي الوقف والسبيل، فَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ مُحْتَمِلًا أَنْ يَدُلَّ عَلَى الْعَقْدِ أَوْ لا، حينئذ نرجع إِلَى اللَّفْظِ اللُّغَوِيِّ؛ لِأَنَّهُ إِذَا لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ عُرف رَجَعْنَا إِلَى الحقيقة اللُّغوية، كما ذَكَرُوا فِي الْأَيْمَانِ وَغَيْرِهَا، فَنَرْجِعُ إِلَى مُقْتَضَى الْأَلْفَاظِ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ مَا لَمْ يَكُنْ بَيْنَ الْمُتَعَاقِدَيْنِ نِيَّة مُسْبَقَة؛ لأنهما يريدان هَذَا الْعَقْدَ، فَإِذَا كَانَت بينهما نِيَّة معروفة، واتفقَا عليها، عُمِل بها.

الفقهاء رَحِمَهُمُ اللَّهُ استَثْنَوْا بعض العُقود، وجعلوا لها صِيَغًا مُعَيَّنَةً، ففي النكاح مثلًا قالوا: لَا يَنْعَقِدُ إِلَّا بِلَفْظِ (زَوَّجْتُك) أو (أَنْكَحْتُك)، فَلَمَّا قِيلَ لَهُمْ: «إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَعْتَقَ صَفِيَّةَ، وَجَعَلَ عِتْقَهَا صَدَاقَهَا»[1]. قالوا: هَذِهِ المَسْأَلَةُ تُستثنى، فَيُقَالُ لَهُمْ: مَا الدَّلِيلُ عَلَى استثنائها، بل هَذِهِ المَسْأَلَةُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ النِّكَاحَ يَنْعَقِدُ بِمَا دَلَّ عَلَيْهِ، فَفِي هَذِهِ الْآيَةِ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْعُقُودَ تنعقد بِمَا دَلَّ عَلَيْهَا؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب النكاح، باب الوليمة ولو بشاة، رقم (٥١٦٩)، ومسلم: كتاب النكاح، باب فضيلة إعتاقه أمته، ثم يتزوجها، رقم (١٣٦٥).

لَمْ يَقُلْ: قبلتُ النكاح، ولا: قبلتُ الإجارة، وَلَا شَيْءَ.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةُ وَالْعِشْرُونَ: يُستفاد مِنْ قَوْلِهِ تعالى: ﴿بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ أَنَّ الْعُقُودَ عهود فِي الحَقِيقَةِ، وَهُوَ كَذَلِكَ؛ لأن كُلَّ إِنْسَانٍ يعقد مع شخص فَقَدِ التزم أَلَّا يَخُونَه، والتزم أَنْ يَفِيَ له بمُقتضى هَذَا الْعَقْدِ، فيَكُونُ بِذَلِكَ عهدًا، فِي سُورَةِ الإسراء يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء:٣٤]، وَقَدْ قَالَ قَبْلَهَا: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء:٣٤]، فالوَلاية عَلَى الْيَتِيمِ نَوْعٌ مِنَ الْعَقْدِ، وجَعَلها اللهُ تعالى عهدًا، فقال: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ وَالْعِشْرُونَ: أَنَّ مُوسَى ﷺ قَبل مَا جَعلَهُ لَهُ صَاحِبُ مَدْيَنَ مِنِ اختيار أَحَدِ الْأَجَلَيْنِ، حينما قال: ﴿أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ﴾، وبَقِي العقدُ مفتوحًا، يعني: إِنْ أتممتُ العَشْرَ، فلا تعتدي عليَّ بإخراجي مِن بيتي، وطردي عن عملي إِنْ أردتُ العَشر، وإن أوفيتُ بالثماني، فلا تَلُمْنِي، وتَقُلْ: هَذَا الرَّجُلُ مَا وفَّى.

وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِه: ﴿فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ﴾ أي: لا اعتداءَ عليَّ، وَهَذَا فِي الحَقِيقَةِ يَتَوَجَّهُ؛ لِأَنَّهُ رُبَّمَا يَسأل سائل ويقول: كيف يقول: ﴿أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ﴾، ثم يَسري عَلَيْهِ عُدْوَانٌ، والرَّجُل وَفَّى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ؟

نقول: ربما يكون عُدوانًا، بمعنى: إِنَّهُ إِذَا أَرَادَ إتمام الْعَشْرِ لَا يتركه يذهب، وإذا اقْتَصَرَ عَلَى التَّمامِ يتكَلَّمُ بِهِ فِي المَجَالِسِ، والمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: [﴿فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ﴾ بِطَلَبِ الزِّيَادَةِ عَلَيَّ]، وهذا تَقَدَّمَ أَنَّهُ غَيْرُ صَحِيحٍ؛ لِأَنَّ أَصْلَ طلب الزيادة غير وارد.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ وَالْعِشْرُونَ: أَنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى حفيظٌ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ؛ لقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ وَالْعِشْرُونَ: جَوَازُ تَخْصِيصِ الْعُمُومِ لغرض، أي جَوَازُ تَعْلِيقِ الشَّيْءِ العامِّ بأمرٍ خاصٍّ بغرض، ويُؤْخَذُ ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾؛ فَإِنَّ هَـذَا يَقْتَضِي تخصيصَ وكالة اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بما قالاه فقط، وَلَكِنَّ الْأَمْرَ لَيْسَ كَذَلِكَ، إنما خُصِّص هذا لِغَرَضِ العِناية به.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ وَالْعِشْرُونَ: جَواز إشهاد اللهِ عَلَى الْعَقْدِ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾، ولكن شَرْعًا لَا يُقْتَصَرُ عَلَى ذَلِكَ، فأنت تَشهد لله، لَا لغرضٍ آخَرَ، لكن باطنًا فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَبَيْنَ اللهِ يُكتفى به، ويستفيد الرَّجُلُ إِذَا أَشْهَدَ اللهَ، أَوْ جعله الوكيلَ الحفيظَ المُراقِبَ، أَنْ يُذَكِّرَ بانتقام اللهِ مِنْهُ إِذَا خَالَفَ، أو خانَ.

فمَن أَشْهَدَ اللهَ، ثُمَّ خانَ، فَقَدِ استخفَّ به، وَهِيَ كَذَلِكَ فِي حَقِّ المخلوقين، فما بالُك أَنْ تكُونَ فِي حَقِّ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؟!

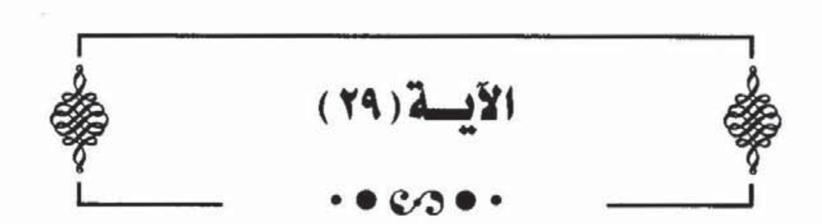
والله فِي كُلِّ حَالٍ شَاهَدٌ، سواء قُلنا، أَمْ لَمْ نَقُلْ، لكن استشهاده أَمْرٌ عَظِيمٌ، والتزام الإِنْسَان بمقتضى هَذِهِ الشَّهَادَةِ يكون أعظمَ، فَيَكُونُ فِيهِ توكيد للعقد، إِذَا قُلْنَا: الله شاهدٌ علينا أرأيتَ مَا عِنْدَنَا أحدٌ، لَكِنِ الْآنَ نُريد نحن وأنت أن نُشهِد اللهَ أنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو الشاهد، إذا وافقَ هَذَا يَكُونُ أَبْلَغَ فِي التَّأْكِيدِ؛ لأن مخالفته عُرضة للعقوبة، ولهذا قَلَّ مَنْ يَحْلِفُ بِاللهِ كَاذِبًا إلا أُصِيبَ فِي الدُّنْيَا قَبل الآخرة، وَفِي الْآخِرَةِ إصابتُه واضحة، وَهُوَ أَنَّهُ يَلْقَى اللهَ، وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ، لكن الغالب أنه تُعجَّل له الْعُقُوبَةُ فِي الدُّنْيَا، والقِصَصُ فِي هَذَا كَثِيرٌ.

فقد حدثني إنسان أَنَّهُ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ شخصٍ خُصومة فِي الْخَارِجِ، فتخاصموا

عِنْدَ الْقَاضِي، فأنكَرَ حَقَّهُ، وحَلَفَ المُدَّعَى عَلَيْهِ، لكنه فِي الْيَوْمِ التالي خرج هو وعائلته إلى الرياض فحصل لهم حادث، وماتت العائلة كلها، مَا بَقِيَ إِلَّا هُوَ، وهذه عُقوبة مُعَجَّلَة.

وَقَدْ ذَكَرَ بَعْضُ السَّلَفِ أَنَّ الْيَمِينَ الغَمُوس تَدَعُ الدِّيارَ بلاقِعَ، أي: خاليةً مِنْ أَهْلِهَا، تُدَمِّر وتُهلِك، وَإِنَّمَا قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَيْ رِعْيَةٌ]؛ لِأَنَّ الْأَجَلَ، أو الزَّمان نَفْسَهُ لَيْسَ بِيَدِ موسى، بل الَّذِي بِيَدِهِ هو الرَّعْيُ.

• • ۞ • •



الآيــة (٢٩)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [القَصَص:٢٩].

•••

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ﴾ أَيْ رَعْيَهُ، وَهُوَ ثَمانٍ، أَوْ عَشْرُ سِنِينَ، وَهُوَ المَظْنُونُ ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ﴾ زَوْجَتِهِ بِإِذْنِ أَبِيهَا نَحْوَ مِصْرَ ﴿ءَانَسَ﴾ أَبْصَرَ مِنْ بَعِيدٍ ﴿مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ﴾ اسْمُ جَبَلٍ ﴿نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ﴾ هُنَا ﴿إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ عَنِ الطَّرِيقِ، وَكَانَ قَدْ أَخطَأَهَا ﴿أَوْ جَذْوَةٍ﴾ بِتَثْلِيثِ الجِيمِ قِطْعَةٌ وَشُعْلَةٌ ﴿مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ تَسْتَدْفِئُونَ، وَالطَّاءُ بَدَلٌ مِنْ تَاءِ الاِفْتِعَالِ، مِنْ: صَلِيَ النَّارَ بِكَسْرِ اللَّامِ وَفَتْحِهَا].

قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿قَضَىٰ﴾ بمعنى: فرغ، وَاللهُ يَقُولُ: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ [فصلت:١٢]، أي: فَرَغ منهن.

قوله تعالى: ﴿ٱلْأَجَلَ﴾: (ال) هَذِهِ للعهد، يعني: الْأَجَلَ الَّذِي بَيْنَهُ وَبَيْنَ صاحب مَدْيَنَ، وَقَدْ عَلِمْنَا أَنَّ بينهما أَجَلَيْنِ: أَجَلًا واجبًا، وهو ثماني سنوات، وأَجَلًا تبرُّعًا مِنْ مُوسَى، وهو عَشْرُ سنوات، ولا ندري أَيَّ الْأَجَلَيْنِ قَدْ قَضَى، يقول المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ، وَهُوَ ثَمانِي أَوْ عَشْرَ سِنِينَ، وَهُوَ المَظْنُونُ بِهِ]، الضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ:

[وَهُوَ المَظْنُونُ بِهِ] يَعُودُ عَلَى الْعَشْرِ، يعني: الَّذِي يُظَنُّ بموسى أَنَّهُ أَتَمَّ عَشْرًا.

وَلَكِنَّ الْآيَةَ مُحْتَمِلَةٌ، فترجيح العَشر بِنَاءً عَلَى المَعْلُومِ مِنْ حَالِ مُوسَى ﷺ مِنَ الْكَرَمِ والوفاء، وترجيح أنه ثمانٍ؛ لِأَنَّهُ هُوَ الْوَاجِبُ عَلَيْهِ، وموسى كَانَ فِي اشتياقٍ إلى بلاده بمصر، وَقَدْ قَالَ فِيمَا سَبَقَ معتذرًا ﴿أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ﴾، وهذه جملة قد تشير إِلَى أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَقْتَصِرَ عَلَى الْأَجَلِ الواجب، وَإِلَّا فَمِنَ المَعْلُومِ أَنَّهُ إِذَا قَضَى الأجل الأول؛ فَإِنَّهُ لَا أَحَدَ يَلُومُه، أو يعتدي عليه، فلكُلٍّ منهما وجهٌ، وموقفنا نَحْنُ مِنْ هَذِهِ الْقِصَّةِ أَنْ نُبهِمَ ما أَبْهَمَهُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فنقول: قضى الأَجَلَ وَاللهُ أَعْلَمُ أَيَّهما قضاه.

ولكن هناك أَثَرٌ مَرْوِيٌّ عن عطاء بن السائب قَالَ لَقِيَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ رَاهِبًا فَقَالَ سَعِيدٌ: أَيَّهما الأَجَلَيْنِ قَضَى مُوسَى؟ فَلَمْ يَدْرِ، فَلَقِيتُ ابن عَبَّاسٍ فَسَأَلْتُهُ فَقَالَ: «قَضَى أَوْفَاهُمَا»[1]. وَهُوَ الْعَشْرُ، وَكَذَلِكَ قَوْلُ أَكْثَرِ الْمُفَسِّرين.

وَلَكِنَّ هَذَا قَوْلٌ لَا يُوجَدُ مَا يُرَجِّحُه، فتفسيرُ الصحابي ليس صحيحًا مطلقًا، لَا سِيَّمَا إِذَا كَانَ الصحابي ممن عُرِف بِالْأَخْذِ مِنَ الإسرائيليات، مِثْل ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قوله تعالى: ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ﴾ السير معناه: المشي، سار بأهله مِنْ عِنْدِ صاحب مَدْيَن وأهله.

---

(١) أخرجه سفيان الثوري في تفسيره، رقم (٧٥٤) موقوفًا على ابن عباس، وقد روي مرفوعًا من حديث جابر بن عبد الله قال: سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ: أَيُّ الْأَجَلَيْنِ قَضَى مُوسَى؟ قَالَ: «**أَوْفَاهُمَا**». أخرجه الطبراني في الأوسط (٨/ ١٩٢، رقم ٨٣٧٢)، وقال: لم يرو هذا الحديث عن جابر إلا بهذا الإسناد، تفرد به هشام بن عمار. وكذلك من حديث عُتْبَةَ بْنِ النُّدَّرِ السُّلَمِيِّ، قَالَ: سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ أَيُّ الْأَجَلَيْنِ قَضَى مُوسَى؟ قَالَ: «**أَبَرَّهُمَا وَأَوْفَاهُمَا**». أخرجه الطبراني في الكبير (١٧/ ١٣٤، رقم ٣٣٢).

وقوله: ﴿بِأَهۡلِهِۦٓ﴾ يقول المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [زَوْجَتُهُ بِإِذْنِ أَبِيهَا نَحْوَ مِصْرَ]، أَمَّا قَوْله: [زَوْجَتُهُ] فهذا صحيح؛ فَإِنَّ الزَّوْجَةَ تُسمى أهلًا، وَأَمَّا قَوْلُهُ: [بِإِذْنِ أَبِيهَا] فَهَذَا لَا دَلِيلَ عَلَيْهِ، وَلَا يَحْتَاجُ الزَّوْجُ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُسَافِرَ بزوجته إِلَى إِذْنِ أبيها؛ لِأَنَّهُ إِذَا تَزَوَّجَ المرأة صارت مِلكًا له، يسير بها حَيْثُ شَاءَ، اللهُمَّ إِلَّا إِذَا سار بِهَا إِلَى أَمْرٍ لَا يَجُوزُ شَرْعًا، فلها أَنْ تَمْتَنِعَ، ولأبيها أَيْضًا أَنْ يَمنعها، وإلا فالحَقُّ له؛ إِذْ لَوْ شَرَطَ عَلَيْهِ أَلَّا يُسَافِرَ بِهَا يَلْزَمُهُ الْوَفَاءُ، وَلَكِنْ لَوْ أَذِنتْ وأبى أبوها، وقد شَرَطَ عليه، فلها الحَقُّ أَنْ تسافر؛ لِأَنَّهُ يَتَعَلَّقُ بِهَا شخصيًّا، وقد تَرَى أَنَّ مِنَ الأفضل لَهَا أَنْ تُسَافِرَ مَعَ زَوْجِهَا.

قوله تعالى: ﴿ءَانَسَ﴾ أي: أبصَرَ مِن بَعيد، وأَصْلُ ﴿ءَانَسَ﴾ مُشْتَقَّةٌ مِنَ الْأُنْسِ، وهو زوال الوَحْشَة، ولكنها تَأْتِي بِمَعْنَى الإبصار بالشَّيْء؛ لِأَنَّك إِذَا أبصرتَ الشَّيْء وعرفتَه زال عَنْك مَا تخشاه.

قوله تعالى: ﴿مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ﴾ بالضَّم: اسمُ جَبَل، وجانِبُ الشَّيْء: جِهَتُه، أي: مِنْ جِهَةِ الطُّور.

قوله تعالى: ﴿نَارًا﴾ هَذِهِ النار ليست نارًا حقيقيةً، ولكنها نُور، وتُشبه النار، لَمَّا أَبْصَرَ هَذِهِ النارَ، وكان الزَّمَنُ زمَنَ شتاء، والظاهِرُ -وَاللهُ أَعْلَمُ- أَنَّ اللَّيْلَةَ كانت مُغَيَّمةً، وأن مُوسَى عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عنده نَوْعٌ مِنَ الاشتباه فِي الطَّرِيق، كما تَدُلُّ عَلَيْهِ الْقِصَّةُ، آنسَ نارًا.

قوله تعالى: ﴿قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ﴾ أي: هنا، قَالَ ذَلِكَ لأهله، وقد قَرَّرَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قَبْلَ قليل أَنَّ المُرَادَ بأهله الزَّوجة، وهنا قال ﴿ٱمۡكُثُوٓاْ﴾ وَهُوَ خِطَابٌ لجماعة؛ لأن خطاب الواحدة يكون: امكُثِي، وللخروج مِنْ هَذَا الْإِشْكَالِ قَالَ بَعْضُ المُفَسِّرِينَ:

إنه اصطحب معه خادمًا. وَقَالَ بَعْضُهُمْ أيضًا: إنه وُلِدَ لَهُ مِنْهَا بِنَاءً عَلَى أَنَّهُ سُلِّمت لَهُ مِنْ أَوَّلِ الْعَقْدِ، وبقيت معه ثماني، أو عَشْرَ سِنِينَ، فولَدتْ، فَعَلَى هَذَا يَكُونُ الخطاب ﴿ٱمْكُثُوٓا۟﴾ مطابقًا للواقع؛ لأن معه زوجةً وخادمًا وولدًا، وهـؤلاءِ جماعة، وَهَذَا لَيْسَ ببعيد؛ إذ إنه جَرَتِ الْعَادَةُ أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا سَافَرَ، لَا سِيَّما فِي مِثْلِ هَذِهِ الْحَالِ، أن يصطحب مَعَهُ مَنْ يخدمه.

قوله تعالى: ﴿لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم﴾: (لَعَلَّ) هنا للترجِّي؛ لأنَّه يَتَمَنَّى أَنْ يَحْصُلَ لَهُ هَذَا الْأَمْرُ، ﴿ءَاتِيكُم﴾ بمعنى: أجيئكم، وَلَا تَصْلُحُ أَنْ تَكُونَ اسم فاعل؛ لأنَّه هنا يُرِيدُ الْفِعْلَ، وَلَا يُرِيدُ أَنْ يُبيِّـنَ أَنَّهُ متصفٌ بالإتيان، والدَّليل أنَّك لَوْ حوَّلتها إلى معناها تقول: لعلي أجيئكم، فـ(أجيئكم) واضح أنها فِعل مضارع، فليست هُنَا اسْمَ فاعل.

قوله: ﴿مِّنْهَا﴾ أي: مِنْ هَذِهِ النار، وَمَعْلُومٌ أَنَّ النَّارَ نَفْسَهَا لَا تُعْطِي خبـرًا، وَلَكِنَّ الْمُرَادَ مِنْ عِنْدِهَا؛ لِأَنَّ النَّارَ عَادَةً لَا تشتعل إلا وعِندها أُناس.

وقوله: ﴿بِخَبَرٍ﴾ يَقُولُ فِيهِ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [عَنِ الطَّرِيقِ، وَكَانَ قَدْ أَخْطَأَهُ]، وهذا ممكن، وَقَدْ يَكُونُ أَعَمَّ مِنْ قَوْلِهِ هَذَا، فيكون عَنِ الطَّرِيقِ، وعما بَقِيَ مِنَ المسافة، وعن كُلِّ شَيْءٍ، وكلمة (خَبَر) نكِرَة تُفيد العُموم.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ يقول الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بِتَثْلِيثِ الجيم]، أي بِفَتْحٍ، أَوْ ضَمٍّ، أَوْ كَسْرِ الجِيم، فَإِذَا قِيلَ: بالتثليث، أي بالحركات الثلاث، وَإِذَا قِيلَ بالْمُثَلَّثَة أي بالثاء.

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي مَعْنَى الجَذْوة: [قِطْعَةٌ وَشُعْلَةٌ مِنَ النَّارِ]، أَيْ إِنَّ الجَذْوَةَ عُودٌ فِي طَرَفِهِ نارٌ مشتعلة.

وقوله تعالى: ﴿تَصْطَلُونَ﴾ تستدفئون؛ لأن الصَّلْيَ معناه: الاحتماء بالنار، فالاصْطِلَاء إذن الاحتماء بها، وهو الاسْتِدْفَاء، وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُمْ كَانُوا فِي بَرْدٍ.

يقول المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [وَالطَّاءُ بَدَلٌ مِنْ تَاءِ الِافْتِعَالِ] هَـذِهِ عِلَّةٌ تصـريفية، فتاء الافتعال هِيَ الَّتِي تَـدُلُّ عَلَى فِعْلِ الشَّيْء، فالفعل (اصطلى) أصـله (اصتلى)، و﴿تَصْطَلُونَ﴾ أصلها: (تصتلون)، مِثل تبتغون، ولكن القاعدة التصريفية فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ أَنَّهُ إِذَا وَقَعَتْ تاء الافتعال بعد الصاد، فإنها تُقلب طاءً، وَهِيَ مَأْخُوذَةٌ مِن: صَلِيَ النارَ -بِكَسْـرِ اللَّامِ وفتحها- كرَضِيَ، وكرَمَى، ففيها لُغتان فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّـةِ، فقوله تعالى: ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى﴾ [الليل:١٥]، مِنْ بَابِ رَضِيَ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ [الأعلى:١٢].

يَقُولُ اللهُ تعالى فِي سُورَةٍ أخرى: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾ [طه:١٠]، وَالْخَبَـرُ أَعَمُّ مِنَ الْهُدَى، وَمَعْنَاهُ أَنَّهُ يَنْفِي هَـذَا الشَّيْء، وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ كَانَ يَحْتَاجُ إِلَى دَلِيلٍ، وقُلنا: إِنَّ الظَّاهِرَ أَنَّ السماء مُغِيمة، وَإِلَّا لَكَانَ يَعرف النجوم؛ لأَنَّه راعٍ، وَقَدْ بَقِيَ ثمانيَ سنواتٍ، ويعرف غالب النجوم.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أَنَّهُ مَنْ تعهد بِشَيْءٍ فَإِنَّهُ لَا يشتغل بِغَيْرِهِ حَتَّى انتهائِه منه؛ لقوله: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ﴾، وهذه قاعدةٌ مهمة، إِذَا اشْتَغَلَ الإِنْسَان بِشَيْءٍ لَا يَنْتَقِلُ إِلَى غَيْـرِهَ حتى يُتِمَّهُ، وَكَذَلِكَ كَانَ السَّلَفُ، كانوا يبدءون بحفظ القُرْآن، فلا ينتقلون إِلَى غَيْرِهَ حتى يختموه، وهكذا.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: فِيهَا إِثْبَاتُ أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قد يُقدِّر لِلْمَرْءِ مِنَ الْأَسْبَابِ مَا توصله إلى الكمال، ذَلِكَ أَنَّ رَعْي الغَنم فيه مصلحة لرعاية الْخَلْقِ فِيما بَعْدُ، ولهذا

أَخْبَرَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أَنَّهُ «مَا بَعَثَ اللهُ نَبِيًّا إِلَّا رَعَى الغَنَمَ»[1].

فَإِذَا كَانَ الإِنْسَان يتعـود الرعاية، ومسئولية الرعية، فَإِنَّ هَـذَا فِيهِ توطئة لما يُوكَل إِلَيْهِ فِيمَا بَعْدُ.

المهم: أَنَّ اللهَ يُقَدِّر لِلإِنْسَانِ مِنَ الْأَسْبَابِ مَا يَصِلُ بِهِ إِلَى درجة الكمال.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ -عليهم الصَّـلَاةُ وَالسَّـلَامُ- حتى قَبْل النُّبُـوَّةِ هُم كغيرهم مِنَ الْبَشَرِ؛ يُحِسُّـون بآلام البَرْد، وكذلك بآلام الجُوع وغيره، ويهتدون إِلَى الطَّرِيقِ، وقد يَضِلُّون عنه، وهنا فائدتان شرعيتان:

الْأُولَى: أَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الغيب؛ إِذْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الغيبَ ما ضَلُّوا عَنِ الطَّرِيقِ.

الثَّانية: أَنَّهُمْ لَا يَمْلِكُونَ لأنفسهم نَفْعًا، وَلَا ضَرًّا، فإذا كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ ضَرًّا لأنفسهم، فلغيرهم مِنْ بَابِ أَوْلى، وهذا مُصَرَّحٌ بِهِ فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ﴾ [الأنعام:٥٠]، وَقَالَ اللهُ تعالى لِنَبِيِّه: ﴿قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ [الجن:٢١-٢٢].

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّ اللهَ تعالى إِذَا أَرَادَ أمرًا هَيَّأَ أَسْبَابَهُ، وَأَنَّ اللهَ لَمَّا أَرَادَ أَنْ يُوحِيَ إِلَى نَبِيِّهِ مُوسَى فِي ذَلِكَ المكان، هَيَّأَ له أسبابًا تُوَصِّلُه إِلَى النَّارِ التي رآها وقَصَدَها.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلإِنْسَانِ أَنْ يَبْقَى فِي المَكَانِ الَّذِي فارَقَهُ فيه صاحبُه، لأن مُوسَى قَالَ لِأَهْلِـهِ: ﴿ٱمْكُثُوٓا﴾، حتى يَسْـتَطِيعَ أَنْ يَرْجِـعَ إِلَيهِم، وَكَذَلِكَ هُمُ لا يَضِلُّون عَنِ الطَّرِيقِ، وهذه عَادَةٌ مِنَ الحزم.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإجارة، باب رعي الغنم على قراريط، رقم (٢٢٦٢).

وَانْظُرْ إِلَى قِصَّة عَائِشَةَ فِي الْإِفْكِ[1] لَمَّا جاءَتْ، ووجَدَتِ الْقَوْمَ قَدْ رَحَلُوا، بَقِيَتْ فِي مَكَانِهَا؛ لأنَّهَا عَلِمَت أَنَّهُمْ إِذَا فَقَدُوها فسوف يرجعون إليها مَرَّة أخرى، لَكِنْ لَوْ ذَهَبَتْ فَسَتَضِلُّ عنهم، وهُم إِذَا جاءُوا فلن يجدوها.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: فِيهَا دَلِيلٌ عَلَى حُسْنِ معاملة موسى لأهله؛ إِذْ جَعَلَ يتطلب لَهُمْ مَا يُدفئهم، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي»[2].

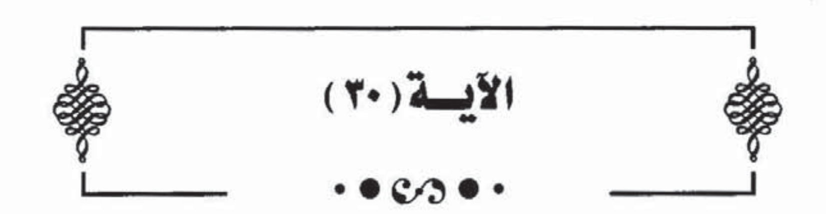
الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أَنَّهُ يَنْبَغِي لِمَنْ أَرَادَ أَمْرًا أَنْ يُخْبِرَ أَهْلَهُ عَنْ وِجهته؛ لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿لَعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾، خِلَافًا لِمَا يفعلُهُ بَعْضُ النَّاسِ الْيَوْمَ، يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ، وَلَا يُخْبِرُ أَهْلَهُ، وقد يُقْبَلُ هَذَا فِي الْأُمُورِ العادية، وَلَكِنْ إِذَا أَرَادَ الْخُرُوجَ والسَّفر -مثلًا- فَإِنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يُخْبِرَ أهله بوجهته.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: اتخاذ الأَسْباب لَا يُنَافِي التَّوكُّل، بَلْ هُوَ مِنْ تَمَامِ التَّوكُّل، ومِن تمام معرفة الإِنْسَان بِاللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن نأخذ بالأَسْباب؛ حيث إِنَّ الْإِنْسَانَ يَعْلَمَ أَنَّ اللهَ تعالى جَعَلَ لِكُلِّ شَيْءٍ سببًا، فيأخذ بِهَذِهِ الْأَسْبَابِ حتى يَصِلَ إِلَى الْغَايَةِ، لكن المحظور أَنْ يَعْتَمِدَ الإِنْسَان عَلَى السَّبَبِ ويظن أنه هو الغاية، فالتوكُّل على الله مع الأخذ بالأَسْباب هَذَا مِنْ تَمَامِ معرفة الْإِنْسَانِ لِرَبِّهِ.

• • ۞ • •

(١) أخرجه البخاري: كتاب الشهادات، باب تعديل النساء بعضهن بعضًا، رقم (٢٦٦١)، ومسلم: كتاب التوبة، باب في حديث الإفك وقبول توبة القاذف، رقم (٢٧٧٠).

(٢) أخرجه الترمذي: كتاب المناقب، باب في فضل أزواج النبي ﷺ رقم (٣٨٩٥) وقال: حسن غريب صحيح. وابن ماجه: كتاب: النكاح، باب حسن معاشرة النساء، رقم (١٩٧٧).



الآية (٣٠)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [القَصَص:٣٠].

•••

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ﴾ جَانِبِ ﴿ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ﴾ لِمُوسَى ﴿فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ﴾ لِمُوسَى لِسَمَاعِهِ كَلَامَ اللهِ فِيهَا ﴿مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ بَدَلٌ مِنْ شَاطِئِ بِإِعَادَةِ الجَارِّ لِنَبَاتِهَا فِيهِ، وَهِيَ شَجَرَةُ عُنَّابٍ، أَوْ عُلَّيْقٍ، أَوْ عَوْسَجٍ ﴿أَن﴾ مُفَسِّرَةٌ لَا مُخَفَّفَةٌ ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾].

قَوْلُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا﴾ أي: جَاءَ إِلَى النَّارِ، ووصل إليها.

قَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ﴾: ﴿نُودِيَ﴾ النِّدَاءُ هُوَ دُعَاءُ الشخص بصوتٍ مُرتَفِع، والمناجاةُ: المُسارَّة، وتكون بصوتٍ منخفض، وَقَدْ قَالَ اللهُ تعالى: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ [مريم:٥٢]، فمُوسى نُودِيَ مِنْ بُعْد، ثم قُرِّبَ فنُوجِيَ.

وكلمة ﴿نُودِيَ﴾ مَبْنِيَّة للمفعول، فالذي ناداه هُوَ اللهُ، كَمَا فِي آيَةٍ أُخْرَى ﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [النازعات:١٦]، فهنا حُذِفَ الفاعِلُ للعِلم به؛ لِأَنَّهُ مَعْلُومٌ أَنَّ الَّذِي نَادَاهُ هُوَ اللهُ، بِدَلِيلِ قَوْلِه بعدُ ﴿إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [القَصَص:٣٠].

وقوله تعالى: ﴿نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ﴾ أي: مِنْ جَانِبٍ، فشاطِئُ الشَّيْءِ جانِبُه،

ومنه: شاطئ النهر، أي: جانبه.

وقوله تعالى: ﴿بِٱلْوَادِ﴾ الْوَادِي: مَجرى الماء، فمَجرى الشَّيْء يُسَمى واديًا؛ لأَنَّه فيه جُمِع، والوَدْي: الجَمْعُ، فعليه يكون مَجْرَى الشَّيْء واديًا.

وقوله: ﴿ٱلْأَيْمَنِ﴾ صِفةٌ للشاطئ، وَيَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ تعالى: ﴿وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ﴾ [طه: ٨٠].

يقول المُفَسِّـرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿ٱلْأَيْمَنِ﴾ لِمُوسَى]، وَهَذَا مَعْلُـومٌ؛ لأَنَّه منادى، فَقَـدْ يَكُونُ الوادي أمامَ مُوسى، أَوْ هُوَ فِي وَسَـطِ الوادي، فيكـونُ الأيمن مِنْهُ هُوَ الَّذِي عَلَى يَمِينِ موسى.

قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ﴾ البُقعة: الأرض، أو الشَّيْء المتميز عَنْ غَيْرِهِ، ومنه: بُقَعُ المَاءِ فِي الثَّوْبِ مثلًا، فالبُقعة هي: الجانبُ مِنَ الْأَرْضِ المميَّز -مَثَلًا- بأشجار، أو شِبْهِها.

وقوله: ﴿ٱلْمُبَٰرَكَةِ﴾ معناه: التي أَحَلَّ اللهُ فِيهَا البَرَكةَ، والبَرَكةُ الخَيْرُ الْكَثِيرُ الثابتُ؛ لأَنَّه مُشْتَقٌّ مِنَ: بركة الماء، وبِركةُ الماء تكون مُجَمَّعًا لَهُ مَعَ ثُبوته فيه، والبَرَكة تَكُونُ مِنَ اللهِ، وَلَيْسَ شَيْءٌ مُبارَكٌ لشخصه، بَلْ لِمَا أَنْزَلَ اللهُ فِيهِ مِنَ البَرَكة.

وقد مَرَّ علينا بحثٌ فِي كَوْنِ الإنْسَان يُتبَرَّكُ به، وهل يَصِحُّ هَذَا أَمْ لَا؟ وقلنا فِيمَا سَبَقَ: إِنْ كَانَ المُرَادُ البَركة الشخصية، فَهَذَا لَيْس بِصَحِيحٍ، إلا للنبي ﷺ، وَإِنْ كَانَ المُرَادُ بالبَركة مَا يَحْصُلُ مِنْهُ مِن مَنافِعَ عِلمِيَّةٍ، أَوْ مَالِيَّةٍ؛ فَإِنَّ هَذَا صَحِيحٌ؛ لِأَنَّ بَعْضَ النَّاسِ قَدْ يَكُونُ مجلسُه مُبارَكًا ينفع الحاضرين؛ إما بالذِّكر، وإما بالعِلم، وإما بالمال، وإما بالآداب، والأخلاقِ، هَذِهِ بركة لَا شَكَّ، وبعضُ النَّاس يكون بالعَكس

مَشْئُومٌ على جَلِيسه، كَمَا أَنَّ مِنَ النَّاسِ أَيْضًا مَنْ يَكُونُ مِفتاحًا للخَير، ومِغلاقًا للشَّرِّ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ بالعكس.

لكن المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قَيَّدها قَيْدًا حَسَنًا، فقال: [مُبَارَكَةٌ لِمُوسَى]، فهي مُبارَكة فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ بالنِّسبة لموسى، أَمَّا بَعْدَ ذَلِكَ فَلَيْسَتْ لها صِبْغَةٌ دينية، وليست مُقَدَّسةً بَعْدَ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ هَذَا خَاصٌّ فِي وَقْتِ تكليمِ موسى.

ومنه أيضًا: غَارُ حِرَاءٍ، فهو بالنِّسبة للرسول ﷺ مُبَارَك، لكن حين نُزول الوحي عَلَيْهِ فِيهِ، أَمَّا بَعْدَ ذَلِكَ فَلَيْسَتْ له صِبغة دينية، ولهذا مِن البِدع أَنَّ الْإِنْسَانَ يَذْهَبُ إِلَى غَارِ حِرَاءٍ ليزورَه تعبُّدًا، وكذلك غارُ ثَوْرٍ، أَمَّا إِذَا كَانَ يزوره اطلاعًا فقط؛ فَإِنَّ هَذَا لَا بَأْسَ بِهِ، وَلَا حَرَجَ؛ لِأَنَّهُ لَا يُرِيدُ التعبد.

فمِن هَذِهِ الأماكن التي ما تثبت لها قُدسية عامَّة، تكون قدسيتُها خاصَّة في حِينِها فقط، ولِمَن هِيَ لَهُ أَيْضًا، وأَمَّا لِغَيْرِهِ، فَلَا يَكُونُ لَهَا هَذَا الْحُكْمُ.

ولهذا كان مِنْ أَحْسَنِ مَا صَارَ عَلَيْهِ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ تقييدُه هنا بموسى؛ لسماعه كَلَامَ اللهِ فِيهَا فِي هَذِهِ البُقعة، وَلَا شَكَّ أَنَّ الاستماع إلى كَلَامِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ لَا يُشْبِهُهُ أيُّ استماع؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ يَجِدُ فِيهِ مِنْ لَذَّةِ المناجاة مَا لَا يَجِدُهُ في مناجاة أَيِّ أحد؛ لأنَّه أحب شَيْءٍ إِلَى الْإِنْسَانِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْإِنْسَانَ كُلَّمَا خاطَبَ محبوبَهُ صار أَشَدَّ تَلَذُّذًا بكلامه معه، مَعَ أَنَّ كَلَامَ اللهِ لَا يُشْبِهُهُ كلام.

يقول المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [لِسَمَاعِهِ كَلَامَ اللهِ فِيهَا]، وكلام الله سَمِعَهُ مِنَ اللهِ حِينَ تَكَلَّمَ بِهِ، وَهَذَا هُوَ مَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ والجماعة، وَخَالَفَ فِي ذَلِكَ الأشاعرة، فقالوا: إِنَّ كَلَامَ اللهِ هُوَ المَعْنَى القائمُ بالنفس، وَإِنَّ ما يُسمع مخلوقٌ خلَقه اللهُ عَزَّوَجَلَّ ليُعبرَ بِهِ عَمَّا فِي نَفْسِهِ.

وَعَلَى هَذَا يكون مُوسَى لَمْ يَسْمَعْ كَلَامَ اللهِ، وإنما سَمِعَ مَا هُوَ عِبَارَةٌ عَنْ كَلَامِ اللهِ تعالى.

وَخَالَفَ فِي ذَلِكَ أَيْضًا المعتـزلة والجَهميَّة، وقالوا: إنَّ كَلَامَ اللهِ مخلوقٌ، يَخْلُق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أصواتًا فِيمَا أَرَادَ؛ إِمَّا فِي جبريل، وَإِمَّا فِي الشَّجَرَةِ، وَإِمَّا فِي الْأَرْضِ، فتُسمَع هَذِهِ الأصواتُ، فيُنسب الْكَلَامُ إِلَى اللهِ مِنْ بَابِ التَّشبيه، والخَلق، والتكوين.

وعندما نُمَحِّص الأمر نجد أَنَّهُ لَا فَرْقَ بَيْنَ الأشاعرة والمعتزلة فِي هَذَا الْبَابِ؛ لِأَنَّ الْكُلَّ مُتَّفِقُونَ أَنَّ مَا يُسْمَع فهو مخلوق، وَلَيْسَ هُوَ كَلَامَ اللهِ، وفي الْحَقِيقَةِ لَا فَرْقَ بَيْنَهُمَ، لكن الأشاعرة تلطَّفوا فِي الْأَمْرِ، وقالوا: إِنَّ الْكَلَامَ معنًى قائمٌ بالنفس يُعَبَّرُ عَنْهُ بالأصواتِ، لا يُعبِّر المتكلم، يَخْلُقُ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ.

ولا ريب أَنَّ مَذْهَبَ أَهْلِ السُّنَّةِ والجماعة هو المذهب الصحيح الموافقُ للنقل والعقل، يقولون: إنَّ كَلَامَ اللهِ يُسْمَعُ مِنَ اللهِ، وإنَّ كَلَامَ اللهِ بحرفٍ وصوت، أما الحرف فَهُوَ مَا يَتَكَلَّمُ بِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، مما يستعمله النَّاسُ فِي نُطقهم.

وأما الصوت فَإِنَّهُ لَا يُشْبِهُ أصواتَ المخلوقين، وكيف يُشبه أصواتَ المخلوقين وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى «إِذَا تَكَلَّمَ اللهُ بِالوَحْيِ سَمِعَ أَهْلُ السَّمَـوَاتِ شَيْئًا، فَإِذَا فُـزِّعَ عَنْ قُلُـوبِهِمْ، وَسَكَنَ الصَّـوْتُ، عَـرَفُوا أَنَّهُ الحَقُّ وَنَادَوْا ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُواْ ٱلْحَقَّ﴾ [سبأ:٢٣]»[١].

يقول المُفَسِّرُ: [﴿مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ بَدَلٌ مِنْ شَاطِئِ؛ لِإِعَادَةِ الْجَارِّ لِنَبَاتِهَا فِيهِ].

---

(١) أخرجه البخاري تعليقًا: كتاب التوحيد، باب قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُواْ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ:٢٣]، موقوفًا على ابن مسعود.

قوله تعالى: ﴿نُودِيَ مِن شَاطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَارَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ هنا تخصيص بعد تخصيص، تخصيص بالنِّسبة لجانب الشاطئ أنه الأيمن، وَفِيهِ أَيْضًا تخصيصٌ ثانٍ بالنِّسبة للشاطئ، وَهُوَ أَنَّهُ مِنَ الشجرة: نُودِيَ مِنَ الشجرة، أي: مِن ناحيتها، وليس مَعْنَاهُ أَنَّ النِّدَاءَ مِنَ الشَّجَرَةِ.

والمعتزلة يقولون: إِنَّ النداء مِنَ الشَّجَرَةِ، وإِنَّ الشجرة خُلِق فيها صوتٌ سمعه مُوسَى عَلَى أَنَّهُ كَلَامُ اللهِ.

وَلَكِنَّ المُرَادَ مِنَ الشَّجَرَةِ، أي: مِن ناحيتها، وجِهَتِهَا، بِدَلِيلِ مَا يَأْتِي: ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وَهَذَا لَا يُمْكِنُ أَنْ تَقُولَه الشجرة، ولو قالته الشجرة لَقَالَ لَهَا موسى: كذبتِ. ولكن الَّذِي يَقُولُ ذَلِكَ هُوَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [لِنَبَاتِهَا فِيهِ، وَهِيَ شَجَرَةُ عُنَّابٍ، أَوْ عُلَّيْقٍ، أَوْ عَوْسَجٍ، (أَنْ) مُفَسِّرَةٌ لَا مُخَفَّفَةٌ ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾]: [أَوْ] هَذِهِ لتنويع الخلاف، وهذا أَمْر لَا يَهُمُّنا.

المهم: أنها شجرة نُودِي منها عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

و(أَنْ) مُفَسِّرة، والمُفَسِّرة هِيَ الَّتِي بمعنى (أَيْ)، وَهِيَ الَّتِي تأتي مُفَسِّرةً لِمَا فِيهِ مَعْنَى الْقَوْلِ دُونَ حُروفه، فالنداء -مثلًا- فِيهِ مَعْنَى القول، أما حروفُ القول فهي كلمة (قال) ومُشْتَقَّاتُها، قَالَ تعالى: ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ ﴾ [المؤمنون:٢٧]، (أَنْ) هَذِهِ مُفَسِّرة؛ لأَنَّها أتت لِمَا فِيهِ مَعْنَى القول، وهو الإيحاء دُون حروف القول، ولهذا سمَّيناها هنا مُفَسِّرة؛ لأَنَّها فَسَّرَت النداء بالقول؛ إِذْ إِنَّ مفعولها قوله: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وَهُوَ مَفْعُولُ قول، ولهذا يقول: إنها مُفَسِّرة؛ لأَنَّها فَسَّرَت مَعْنَى الْفِعْلِ المتضمِّن القولَ دون حروفِ القولِ.

وقوله: [لَا مُخَفَّفَةٌ] الصَّواب أنها ليست مُخَفَّفَةً مِن الثَّقِيلة، فَلَا تَصِحُّ أَنْ تكُونَ مُخَفَّفَةً؛ لأنَّه ينطبق عليها معنى التَّفسِيرِيَّة، هَذِهِ واحدة.

وأيضًا المُخفَّفة تَحْتَاجُ إِلَى تَقْدِيرٍ، وَهُوَ غَيْرُ مَوْجُودٍ.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [لَا مُخَفَّفَةٌ] إِشَارَةٌ إِلَى نَفْيِهِ؛ لِأَنَّ بَعْضَ المغرضين يقولون: إنها مُخَفَّفَة.

قوله تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، أي: الذي أُخاطِبُك.

قَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَنَا ٱللَّهُ﴾ بدأ بالألُوهيَّة؛ لِأَنَّهَا هِيَ المَقْصُودُ، ثُمَّ قَالَ: ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فَثَنَّى بالرُّبوبية؛ لأن الرُّبوبية فِي الحَقِيقَةِ وَسِيلَةٌ إِلَى الأُلوهية، ولهذا مَنْ أَقَرَّ بالرُّبوبية لَزِمَهُ أَنْ يُقِرَّ بالأُلوهية، وَإِلَّا كَانَ متناقضًا، وَاللهُ تعالى يحتجُّ عَلَى المُشْرِكِينَ بالأُلوهية دائمًا بإقرارهم بالرُّبوبية؛ لِأَنَّ مَنْ أَقَرَّ أَنَّ الله ربُّه؛ فَإِنَّهُ يُقَالُ لَهُ: إذن، يَجِبُ أَنْ تَعْبُدَ هَذَا الرَّبَّ، إذا عبدْتَ مَعَهُ غَيْرَهُ فَإِنَّك لَمْ تَصدُق في إقرارك بِرُبُوبِيَّتِه، فهُما مُتلازمان؛ وَلِهَذَا قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة:٢١]، فجَعَل الخَلْقَ الَّذِي هُوَ مِنْ مُقْتَضَى الرُّبوبية دليلًا مُلزِمًا لعبادته.

في قَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ الياءُ اسْمُ (إِنَّ)، و﴿أَنَا﴾ مبتدأٌ ثانٍ، ولفظ الجلالة خبرٌ للمبتدأ الثَّاني، والجُملة الاسمية مِن المبتدأ وَالخَبَرِ فِي مَحَلِّ رفعِ خبرُ (إِنَّ)، وقولُه: ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ خَبَرٌ ثانٍ لـ﴿أَنَا﴾.

قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الربُّ هُوَ المَالِكُ والمُدبِّر لجميع الأَشْياء، وقوله: ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ المُرَادُ بِهِمْ مَن سِوَى الله، وجَمعَهم باعتبار أصنافهم، وإلا فالعالَم هو كُلُّ مَا سِوَى اللهِ، والجَمع لوجود عالَم الإنس، وعالَم الجن، وعالَم البهائم، وعالَم

الملائكة، فجُمعوا باعتبار أجناسهم، وهذه الرُّبوبية عامَّة، وقد مَرَّ عَلَيْنَا أَنَّ الرُّبوبية تَنْقَسِمُ إِلَى عَامَّةٍ وَخَاصَّةٍ، كَمَا أَنَّ الْعِبَادَةَ، أو العُبودية تَنْقَسِمُ إِلَى عَامَّةٍ وَخَاصَّةٍ، وَقَدِ اجْتَمَعَا فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف:١٢١-١٢٢]، فقوله: ﴿بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ هَذِهِ عامَّة، و﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ خاصَّة.

فائدة: مَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ والجماعة أَنَّ اللهَ يتكلم بِحَرْفٍ وصوتٍ، والحرفُ مِنْ جِنْسِ الْحُرُوفِ الَّتِي يَتَكَلَّمُ بِهَا النَّاسُ، وَهَذَا لَا يَقْتَضِي التَّشبيه؛ لأن الحروف هَذِهِ لَيْسَتْ صِفَةً لله، بل صفةُ الله الصوتُ؛ أَمَّا الحروف، فإنها منطوقٌ بِهَا وَلَيْسَتْ نُطقًا، فلا يُوجد تشبيه.

فقوله: ﴿مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ يَعْنِي بِهِ: تحديد المكان؛ لأن شاطئ الوادي واسع وعامٌّ، فتخصيص المكان يكون أَبْيَنَ؛ إِذْ إِنَّ مُوسَى لو نُودِيَ مِنْ جَمِيعِ الشاطئ لَالْتَبس عَلَيْهِ الْأَمْرُ، لَكِنْ إِذَا حُدِّدَ النِّداء مِنْ جِهَةٍ مُعَيَّنَة خاصَّة، صَارَ هَذَا أَبْيَنَ له وأَوْضَحَ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: إثباتُ كلامِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأن المنادِيَ فِي قَوْلِهِ: ﴿نُودِيَ﴾، هُوَ اللهُ؛ لِقَوْلِهِ تعالى فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [النازعات:١٦].

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّ كَلَامَ اللهِ تعالى بالقول؛ لقوله: ﴿نُودِيَ﴾، والنداء يكون بِصَوتٍ للبَعيد، والمناجاةُ بصوتٍ للقريب.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: الرَّدُّ عَلَى الأشاعِرَة الَّذِينَ يَقُولُونَ: إِنَّ كَلَامَ اللهِ هُوَ المَعْنَى القائم بِنَفْسِه، وَلَا شَكَّ أَنَّ المَعْنَى القائِمَ بالنفس لَا يُسَمَّى كلامًا، وَلَا يُسْمَعُ، وكلام اللهِ تعالى يُسْمَع.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: الرَّدُّ عَلَى الجهمية والمعتزلة الَّذِينَ يَقُولُونَ: إِنَّ كَلَامَ اللهِ مخلوقٌ، وَوَجْهُ ذَلِكَ أَنَّهُ ثَبَتَ أَنَّ النِّدَاءَ مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والنداءُ قولٌ، والقولُ لَا يُؤْخَذُ إِلَّا بقائل، فَيَكُونُ الْقَوْلُ قَوْلَ اللهِ، وَكُلُّ صِفَةٍ مِنْ صِفَاتِ اللهِ فَإِنَّهَا غَيْرُ مخلوقة؛ لأَنَّها وصفٌ لمن اتَّصَفَ بها، فَإِذَا كَانَت وَصْفًا للخالِق، فَهِيَ غَيْرُ مخلوقة.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّ الْأَرْضَ تكون مُبارَكَة بَرَكَةً ظاهِرِيَّة، لَا بَرَكَةً مُطْلَقَةً؛ لقوله: ﴿فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَـٰرَكَةِ﴾ فالبَرَكَة هنا لِموسى، لا لِكُلِّ أَحَدٍ، كَما قَالَهُ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إثباتُ أَنَّ كَلَامَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِحَرْفٍ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿أَن يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾؛ لِأَنَّ هَذَا جُمَلٌ مُكَوَّنَة مِن حروف، وَيَكُونُ فِي هَذَا رَدٌّ عَلَى الأشاعرة؛ لِأَنَّهُمْ قَالُوا: الْكَلَامُ هُوَ المَعْنَى القائمُ، فأنا عندما يَكُونُ هَذَا الْمُضْمَر هُوَ الْفِعْل، وما سُمِع فَلَيْسَ هُوَ الكلام، بَلْ هُوَ عِبارَةٌ عَنِ الْكَلَامِ.

وَلَا شَكَّ أَنَّ هَذَا لَا يَجُوزُ، قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي عَمَّا وَسْوَسَتْ، أَوْ حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا، مَا لَمْ تَعْمَلْ بِهِ، أَوْ تَكَلَّمْ»[1].

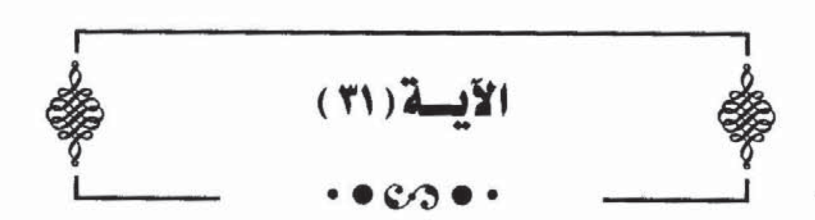
فَبَيَّنَ أَنَّ الْكَلَامَ غَيْرُ حَدِيثِ النَّفْسِ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إثباتُ رُبوبيةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لقوله: ﴿إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾، والرُّبوبية تَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ: عَامَّة وَخَاصَّة، كَمَا أَنَّ العُبودية أَيْضًا فِي الْأَصْلِ تَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ: عَامَّة وَخَاصَّة، كَمِثْلِ قَوْلِهِ تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الحجر:٤٢]، فهذه مِنَ الخَاصَّةِ، لَكِنْ مَنِ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأيمان والنذور، باب إذا حنث ناسيًا في الأيمان، رقم (٦٢٨٧)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر بالقلب، إذا لم تستقر، رقم (١١٦).

المقرَّر أن الأصل كَمَا قَالَ تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم:٩٣]، وهذه عامَّة، وقوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان:٦٣]، هَذِهِ خَاصَّةٌ.

• ● ❁ ● •



الآية (٣١)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ﴾ [القَصَص:٣١].

•●○●•

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ فَأَلْقَاهَا ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ﴾ تَتَحَرَّكُ ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ وَهِيَ الْحَيَّةُ الصَّغِيرَةُ مِنْ سُرْعَةِ حَرَكَتِهَا ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾ هَارِبًا مِنْهَا ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أَيْ يَرْجِعُ فَنُودِيَ ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ﴾].

قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ مَعْطُوفٌ عَلَى قَوْلِهِ تعالى: ﴿أَن يَٰمُوسَىٰٓ﴾، أي: ونودي أَيْضًا أَنْ أَلْقِ عَصَاك، و﴿أَلْقِ عَصَاكَ﴾ بمعنى: ضَعْ عصاك عَلَى الْأَرْضِ، وهذه العصا قَدْ ذُكِرَ فِي سُورَةِ طَه فائدتُها بالنِّسبة له، فقال: ﴿أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾ [طه:١٨]، وَقَدْ ذُكِرَ فِي التَّفْسِيرِ هَذِهِ المآربُ، فقيل: يَحْفِرُ بها، ويَدْفَع بها السِّباع، ويدفع بِهَا عَنْ نَفْسِه.

ونَجِدُ أنه فَصَّل فِي ذِكْرِ مَنَافِعِهَا، ثم أَجْمَلَ فِي ذِكْرِ فائدتها فِي دَفْعِ المفاسد، وَهَذَا فِي الْحَقِيقَةِ مِنَ الْأَدَبِ فِي الْحَدِيثِ، وتجدون أَنَّهُ فِي مَقَامِ الإثبات يُؤتى فيها بالتفصيل، وفي مَقَام النفي يُؤتى فيها بالإجمال غالبًا.

قَوْلُه تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ﴾، أي: تتحرك، لكن بِنَوْعٍ مِنَ الاضطراب، ومعروفٌ أَنَّ الحَيَّة تتحركُ يَمِينًا وَشِمَالًا، و﴿رَءَاهَا﴾ أي: أَبْصَرَها، وَعَلَى هَذَا تَكُونُ

جُملة ﴿تَهْتَزُّ﴾ فِي مَوْضِعِ نَصْب عَلَى الْحَالِ، وليست مفعولًا ثانيًا؛ لأن (رأى) البَصَرِيَّة لا تنصب إلا مفعولًا واحدًا.

قَوْلُهُ تعالى: ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ هي الحيَّة الصغيرة، وتشبيهُ العَصا بالجانِّ لسُرعة حركتها، ولكن المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ فَسَّر الجانَّ بأنها الحيَّة الصغيرة، وَاللهُ تعالى يَقُولُ فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف:١٠٧]، والثعبان هو الذَّكَرُ مِنَ الحيَّات الكبير، ويجمع بينهما بأنه أَوَّلَ مَا ألقاها صارت كالجانِّ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ تَضَخَّمَت، حَتَّى صَارَتْ ثُعبانًا مُبينًا عند السَّحَرة.

قوله تعالى: ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾ أي: هاربًا منها، وهذه الجُملة جوابُ ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ﴾، و﴿مُدْبِرًا﴾ حَالٌ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَلَّىٰ﴾، ويُسَمُّونها حالًا مُؤَكِّدة؛ لأن التَّوَلِّي معناه الإدبار، فهي حالٌ مُؤَكِّدَة لعامِلِها؛ إِذْ إِنَّ مَعْنَى الإدبار مَفْهُومٌ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَلَّىٰ﴾، ولكنها جاءت للتأكيد، وقوله: ﴿مُدْبِرًا﴾ يعني: ولَّاها دُبره، وَلِهَذَا قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [هَارِبًا]؛ لأن الهارب ينصرف عَكْسَ اتجاهِه، فأنت أولًا تنصرف عَنِ الشَّيْءِ فتُسمَّى مُوَلِّيًا، ثم تُسَمَّى هاربًا إذا انْصَرَفْتَ باتجاهٍ مُعَاكِس.

قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ يقول المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَيْ: يَرْجِعُ، فَنُودِيَ: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ﴾]، ولهذا يَنْبَغِي أَنْ نَقِفَ عَلَى قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾؛ لِأَنَّه لَوْ وَصَلْنَا ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ بقوله: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾ لظنَّ الظانُّ أَنَّ الْكَلَامَ واحدٌ، ولكن الكلام انفصل، فقال: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَقْبِلْ﴾ مُقابل التولي، و﴿لَا تَخَفْ﴾ مُقابل الهَرَب؛ لأن الهارب يكون خائفًا، ثم طمأنه بقوله: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ﴾؛ تأكيدًا لقوله: ﴿لَا تَخَفْ﴾؛ لأن الآمِن لَا يَخَافُ، وإنما يخاف مَنْ لَيْسَ عِنْدَهُ أمنٌ، وهنا قال: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ﴾

وَلَمْ يَقُلْ: إنك آمِنٌ. بَلْ قَالَ: ﴿مِنَ ٱلْآمِنِينَ﴾، وَهَذَا مِنْ مُرَاعَاةِ الفَواصِل، لكنَّ هَذِهِ المناسبة لفظيةٌ؛ لِيَعْلَمَ أَنَّ اللهَ آمَنَهُ، وليتذكَّر أَنَّ هُنَاكَ آمِنِين؛ فَإِذَا كَانَ هُنَاكَ آمنون، فَإِنَّهُ لَا غَرَابَةَ أَنْ تأْمَنَ، أي: لِأَنَّ الإِنْسَانَ إذا ذُكِّر بِمَا حَدَثَ لِغَيْرِهِ صَارَ أَشدَّ طُمَأْنِينَةً فِي حُصُولِ ذَلِكَ الشَّيْءِ، ونَظِيرُه بالعَكْس، هُوَ قَوْلُ فِرْعَون: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء:٢٩]، وَلَمْ يَقُلْ: لَأَسْجِنَنَّكَ؛ لِأَجْلِ أَنْ يُرْهِبَه بأَنَّ عِنْدَهُ مَنْ هُوَ مسجونٌ، وَأَنَّهُ لَيْسَ يُعْجِزُنا أن نَسْجِنَك.

والحاصِلُ: أَنَّ مِثْلَ هَذَا يُقَالُ مِنْ أَجْلِ أَنْ يتذكر مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّ هُنَاكَ أُناسًا آمِنِين، فيأمَنُ أكثرَ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: فِيهَا دَلِيلٌ أَنَّ مُوسَى كانَ من سُنَّتِـه حَمْل العَصَا؛ لقوله: ﴿أَلْقِ عَصَاكَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: فِيهَا دَلِيلٌ عَلَى قُدْرَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لأَنَّه بمجرد أن ألقاها صارت تهتز ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾، فبِمُجَرَّد الإلقاء هَذَا دَلِيلٌ عَلَى الْقُدْرَةِ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: فِيهَا دَلِيلٌ عَلَى حِكمة اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أيضًا، حيث إِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ مناسِبة لِمَن سيُقابِلُهم موسى، وهُمُ السَّحَرة، مُقابِل الآية هناك، وَهَذِهِ الْآيَةُ مُناسبة تمامًا لهم؛ لأنَّهم سوف يَعْجِزُون عن مُقابلتها، كما حَصَلَ مِنَ السَّحَرَةِ حين آمَنُوا لَمَّا رأوا دليل صِدق موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّ هَذِهِ العصا حركتُها سريعة؛ لأن الجانَّ مِن الحَيَّات هي التي عُرِفت بالحركة السريعة.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّهُ يَجُوزُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ مَا يَجُوزُ عَلَى غَيْرِهِمْ مِنَ الْخَوْفِ الطبيعي؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ مَعَ أَنَّ مُوسَى -كما تعلمون- كَانَ مِنَ الرجال الأقوياء، لكنَّه يَعْتَرِيه ما يَعْتَرِي غَيْرَهُ مِنَ الْبَشَرِ، وَقَدْ سَبَقَ أَنَّهُ خَرَجَ مِنَ المَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: عنايةُ اللهِ تعالى به، حيث ناداه وطَمْأَنَهُ بقوله: ﴿أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ﴾، وَلَمْ يَقْتَصِرْ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿لَا تَخَفْ﴾، بل طَلَبَ مِنْهُ الْإِقْبَالَ إِلَيْهِ ﴿أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ﴾، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى عناية الله بِهِ، وَمَحَبَّتِهِ لَهُ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أَنَّهُ يَنْبَغِي للمُستدعي لِغَيْرِهِ أَنْ يَذْكُرَ السَّبَبَ فِي ذَلِكَ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾؛ لِأَنَّهُ لَوْ قَالَ: لَا تَخَفْ. فإنه يَزُولُ عَنْهُ الْخَوْفُ، وَلَكِنَّهُ لَا يَكُونُ مُطْمَئِنًّا تمامًا، وَلَكِنَّهُ إِذَا قَالَ: ﴿إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾ ازداد بذلك طُمأنينةً.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أَنَّهُ يَنْبَغِي ذِكر النُّظراء، أو الإشارة إِلَيْهِم، لِيَكُونَ ذَلِكَ أَثْبَتَ للقَلب؛ لقوله: ﴿إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾.

• • ۞ • •



الآية (٣٢)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴾ [القَصَص:٣٢].

•••

قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ ٱسْلُكْ ﴾ أَدْخِلْ ﴿يَدَكَ﴾ الْيُمْنَى بِمَعْنَى الْكَفِّ ﴿فِي جَيْبِكَ﴾ هُوَ طَوْقُ الْقَمِيصِ وَأَخْرِجْهَا ﴿تَخْرُجْ﴾ خِلَافَ مَا كَانَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْأُدْمَةِ ﴿بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ أَيْ بَرَصٌ، فَأَدْخَلَهَا وَأَخْرَجَهَا تُضِيءُ كَشُعَاعِ الشَّمْسِ تَغْشَى الْبَصَرَ ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾ بِفَتْحِ الحَرْفَيْنِ، وَسُكُونِ الثَّانِي مَعَ فَتْحِ الْأَوَّلِ وَضَمِّهِ، أَيِ الْخَوْفُ الْحَاصِلُ مِنْ إِضَاءَةِ الْيَدِ بِأَنْ تُدْخِلَهَا فِي جَيْبِكَ فَتَعُودَ إِلَى حَالَتِهَا الْأُولَى، وَعَبَّرَ عَنْهَا بِالْجَنَاحِ لِأَنَّهَا لِلْإِنْسَانِ كَالْجَنَاحِ لِلطَّائِرِ ﴿فَذَٰنِكَ﴾ بِالتَّشْدِيدِ وَالتَّخْفِيفِ، أَيِ الْعَصَا وَالْيَدُ وَهُمَا مُؤَنَّثَانِ، وَإِنَّمَا ذَكَرَ الْمُشَارَ بِهِ إِلَيْهِمَا الْمُبْتَدَأُ لِتَذْكِيرِ خَبَرِهِ ﴿بُرْهَـٰنَانِ﴾ مُرْسَلَانِ ﴿مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ﴾].

قول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأنَّ اليَدَ بِمَعْنَى الْكَفِّ، لا داعِيَ له هنا، لِأَنَّ المُرَادَ باليَد عِنْدَ الْإِطْلَاقِ الكَفُّ، ولهذا لَمَّا قَالَ اللهُ تعالى: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا ﴾ [المائدة:٣٨]، فالمراد بالأيدي الأَكُفُّ، أَمَّا إِذَا أُرِيدَ باليَدِ غيرُ الكَفِّ فإنها تُقَيَّد، كَمَا فِي

قَوْلِهِ تعالى: ﴿فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾ [المائدة:٦]، وَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾ [المائدة:٦]، فالمراد مَسْحُ الكَفِّ فقط، وليس اليَدَ كُلَّها.

وقوله: [اليُمْنى] لَا نَعْلَمُ مِنْ أَيْنَ عَلِمَ ذلك، فالآية لَيْسَ فِيهَا دَلِيلٌ عَلَى هَذَا، ولهذا فإن الْأَوْلَى أَنْ نجعلَها مُبْهَمَةً كما أَبْهَمَهَا اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولا يَهُمُّنا أَنْ تكُونَ الْيَدَ الْيُمْنَى، أو اليسرى.

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فِى جَيْبِكَ﴾ هُوَ طَوْقُ الْقَمِيصِ وَأَخْرِجْهَا].

قوله: [وَأَخْرِجْهَا] الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ قَدَّر طلبًا مناسبًا للجَواب؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ مجرد إدخالٍ، بَلْ إِذَا أَخْرَجَها خَرَجَت بيضاء، لكن الحقيقة أَنَّهُ لَا داعيَ إِلَى ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ لَا مَانِعَ أَنْ يَكُونَ ﴿تَخْرُجْ﴾ جوابًا لقوله: ﴿ٱسْلُكْ﴾؛ فَإِنَّك إِذَا قُلْتَ: أَخْرِجْ، لَزِمَ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ أَخْرَجَها، وَالْأَصْلُ عَدَمُ الحَذْفِ، وعليه فـ﴿تَخْرُجْ﴾ هنا مجزومة جوابًا للطلب فِي قَوْلِهِ: ﴿ٱسْلُكْ﴾؛ لِأَنَّ جَوَابَ الطَّلَبِ إِذَا حُذِفت منه الفاءُ صار مجزومًا، وَإِنْ وَجَدْت مَعَهُ الفاء صار منصوبًا بـ(أَنْ) قَالَ ابْنُ مالك[1]:

وَبَعْدَ (فَا) جَوَابُ نَفْيٍ أَوْ طَلَبْ مَحْضَيْنِ (أَنْ) وَسَتْرُهَا حَتْمٌ نَصَبْ

يعني: مَعْنَاهُ أَنَّ (أَنْ) تَنْصِب بَعد (فاء) التي وقعت جوابًا لنَفْيٍ، أَوْ طَلَبٍ مَحْضَيْنِ، وَلَكِنَّهَا إِذَا فَقَدَتِ الفَاء؛ فإنه يُجزم.

وَشَرْطُ جَزْمٍ بَعْدَ نَهْيٍ أَنْ تَضَعْ (إِنْ) قَبْلَ (لَا) دُونَ تَخَالُفٍ يَقَعْ[2]

(١) ألفية ابن مالك (ص٥٨).
(٢) ألفية ابن مالك (ص٥٨).

بمعنى: طَلَب، طلب أمر.

قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿تَخْرُجْ﴾ خِلَافُ مَا كَانَتْ عَلَيْهِ مِنَ الأُدْمَةِ] والأُدمة: السُّمْرة، أي اللَّون الَّذِي يَكُونُ بَيْنَ البياض والسواد، يُسَمَّى أُدْمَة، وكان موسى ﷺ آدَمَ.

قوله تعالى: ﴿بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ أي: مِنْ غَيْرِ عيب؛ لأن العيب يَسُوء المرءَ، وَالْبَيَاضُ الَّذِي يَسُوء المرءَ هو البَرَصُ، وَلِهَذَا قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [أَيْ: بَرَص] وقوله: ﴿بَيْضَآءَ﴾ حَالٌ مِنْ فَاعِلِ ﴿تَخْرُجْ﴾.

﴿بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ قال: [فَأَدْخَلَهَا وَأَخْرَجَهَا تُضِيءُ كَشُعَاعِ الشَّمْسِ تُغْشِي الْبَصَرَ] وهي مبالَغة، يكفينا أَنْ نَقُولَ مَا قَالَهُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ يعني: ليس بَرَصًا، بل بياضًا، وَأَمَّا أَنْ تَكُونَ تُضيء لكان اللهُ يَقُول: تخرج مُضيئة؛ لأن الإضاءة أَبْلَغُ مِنْ مُجَرَّد البياض، كَذَلِكَ أَيْضًا أقوى للآية، وَنَحْنُ نَقُولُ كَمَا قَالَ اللهُ: ﴿بَيْضَآءَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾ قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [بِفَتْحِ الحَرْفَيْنِ، وَسُكُونِ الثَّانِي مَعَ فَتْحِ الأَوَّلِ وَضَمِّهِ، وَسُكُونِ الثَّانِي الَّذِي هُوَ الهَاءُ]. [مَعَ فَتْحِ الأَوَّلِ] الَّذِي هُوَ الراء، [وَضَمِّهِ] فتكون القِراءَة بثلاثة: «الرَّهَب»، و«الرَّهْب»، و«الرُّهْب»، «وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهَبِ» هِيَ الْقِرَاءَةُ التي بَدَأَ بِهَا المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ، «وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرُّهْبِ» صحيح، «وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهَبِ» أَيْضًا صحيح[1].

(١) شرح طيبة النشر، لابن الجزري (ص٢٩٢).

وَقَوْلُهُ: ﴿جَنَاحَكَ﴾ المراد بالجناح اليَد؛ لأنَّها للإنسان بمنزلة الجَناح للطائر، وقوله: ﴿مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾: ﴿مِنَ﴾ السَّبَبِيَّة، وهي حَرْفُ جَرٍّ.

قال: [أَي: الخَوْف]، هَذَا تَفْسِيرٌ للرَّهْب، فالرَّهْبُ هُوَ الْخَوْفُ، يقول المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [أَيِ الخَوْفُ الحَاصِلُ مِنْ إِضَاءَةِ اليَدِ بِأَنْ تُدْخِلَهَا فِي جَيْبِكَ، فَتَعُودُ إِلَى حَالَتِهَا الأُولَى] يعني: إذا أَدْخَلَهَا فِي جَيْبِه وأخرجها صارت بيضاء، وَإِذَا أَرَادَ أَنْ يُعِيدَها إلى حالتها ضَمَّها إليه فعادت إلى حالها. هذا معنى كلام المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ.

وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: إِنَّ هَذِهِ الْجُمْلَةَ مُنْفَصِلَةٌ عَنِ الأُولى، وَإِنَّ اللهَ تعالى أرشدَه إِذَا خَافَ أَنْ يضم يَدَهُ إِلَى صَدْرِهِ؛ حَتَّى يَزُولَ عَنْهُ الْخَوْفُ، وَهَذِهِ آيَةٌ خَاصَّةٌ لموسى فقط، أَنَّهُ إِذَا خَافَ مِنْ شَيْءٍ، فإنه يَضُمُّ يَدَهُ إِلَى نَفْسِهِ، وليست عَامَّةً لِكُلِّ أَحَدٍ، لكن رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ: «لَيْسَ مِنْ أَحَدٍ يَدْخُلُهُ رُعْبٌ بَعْدَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثُمَّ يُدْخِلُ يَدَهُ فَيَضَعُهَا عَلَى صَدْرِهِ إِلَّا ذَهَبَ عَنْهُ الرُّعْبُ»[1].

والآن لدينا قولَانِ لأهل الْعِلْمِ فِي مَسْأَلَةِ اليَد:

الْقَوْلُ الْأَوَّلُ: أَنَّ هَذِهِ معالجة اليد. وهذا يُضَعِّفه أَنَّ اللهَ قَالَ: ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾، وموسى لم يَرْهَبْ؛ لِأَنَّ اللهَ مَا دَامَ قَالَ لَهُ: ﴿بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾؛ فإنه لن يَرْهَبَ.

وَالْقَوْلُ الثَّانِي: أنه عندما يحصل لموسى كَمَا فِي الْآيَةِ ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾ خائفًا، فأرشده اللهُ أَنَّهُ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُزِيلَ الْخَوْفَ مِن شيء؛ فإنه يَضُمُّ يَدَهُ إِلَى نَفْسِهِ، ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾، وعَبَّر عنها بالجَناح؛ لأنَّها للإنسان كالجَناح للطائر،

---

(١) تفسير القرطبي (١٣/ ٢٨٤).

وَهَذَا صَحِيحٌ، وهي جناحُ أَيْضًا، يتضح ذلك في الْإِنْسَانِ عِنْدَ السعي، وَهِيَ -لَا شَكَّ- تُزَيِّنُ الْإِنْسَانَ كَمَا أَنَّ جَناح الطائر يُزَيِّنُه.

قوله تعالى: ﴿فَذَانِكَ﴾ بالتَّشديد والتَّخفيف، أي: العَصا واليَد، وهما مؤنَّثتان، وإنما ذُكِّرَ المشارُ به إِلَيْهِما المبتدأ لتذكير خَبَرِه؛ لِأَنَّ الْيَدَ الواحدة جَناح، والأُخْرَى جناح، فإذا أَدْخَلَهَا فِي جيبه انضمت إليه اليدان كما ينضم الجناحان.

وقوله: ﴿فَذَانِكَ﴾ يقول: [بِالتَّشْدِيدِ وَالتَّخْفِيفِ]، بالتشديد «فَذَانِّكَ»، وبالتخفيف ﴿فَذَانِكَ﴾، والشاهد لهذين الْوَجْهَيْنِ مِنْ كَلَام ابن مالك[1]:

وَالنُّونُ مِنْ (ذَيْنِ) وَ(تَيْنِ) شُدِّدَا أَيْضًا وَتَعْوِيضٌ بِذَاكَ قُصِدَا

مثل النُّونِ مِنَ (اللَّذان) و(اللَّتان).

﴿فَذَانِكَ﴾ أي: العصا واليد، والعصا مؤنث، قَالَ تعالى: ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا﴾ [طه:١٨]، وَلَمْ يَقُلْ: هو عَصَايَ أَتوكَّأُ عَلَيْهِ، واليد كذلك مؤنثة، قَالَ تعالى: ﴿يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ﴾ وَلَمْ يَقُلْ: يخرج أبيض، وَقَالَ تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة:٦٤]، وَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة:٦٤]، فهما مؤنثتان، واسم الإشارة ﴿فَذَانِكَ﴾ مُذَكَّر، وَلَوْ كَانَ بالتأنيث لقال: فتَانِك برهانان. فلماذا جعله مُذَكَّرًا؟ يقول الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [وَإِنَّمَا ذُكِّرَ الْمُشَارُ بِهِ إِلَيْهِمَا الْمُبْتَدَأُ]؛ لأن (ذَانِ) المبتدأ، والخَبر ﴿بُرْهَانَانِ﴾، وهو مُذَكَّر، فرُوعِي الخَبر هنا فذُكِّر المبتدأ.

وقوله: ﴿بُرْهَانَانِ﴾، البرهان هُوَ الدَّلِيلُ، وقول الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [مُرْسَلَانِ مِنْ رَبِّكَ]، كلمة [مُرْسَلانِ] ليست تفسيرًا لـ﴿بُرْهَانَانِ﴾، ولكنَّها بيانٌ لِمُتَعَلَّق قوله:

---

(١) شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك (١/ ١٣٨).

﴿مِن رَّبِّكَ﴾؛ لأن كلمة (بُـرهان) اسمٌ جامِـدٌ لَا يَصِحُّ أَنْ يَكُـونَ مُتَعَلِّقًا للجَارِّ والمجرور.

والبرهان ليس معناه المُرسَل، البرهان معناه الدَّليل، والدَّلِيل الْوَاضِحُ يُسَمَّى برهانًا، والمتكلمون يقولون: إِنَّ البُـرهان هُوَ الدَّلِيلُ الْقَاطِعُ، لكن المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أدخل (مُرْسَلَانِ) لِيُبَيِّنَ أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ مُتَعَلِّقٌ بـ(مُرْسلان) المُقدَّر، وَلَمْ يَجْعَلْهُ مُتَعلِّقًا بـ﴿بُرْهَـٰنَانِ﴾؛ لِأَنَّهُ اسْمٌ جامِد، والجارُّ والمجرور لَا يَتَعَلَّقُ إلا بِفِعْلٍ أَوْ مُشتَقٍّ، كَمَا قَالَ الناظم هنا[1]:

لَا بُـدَّ لِلجَـارِّ مِـنَ التَّعَلُّـقِ بِفِعْـلٍ اوْ مَعْنَـاهُ نَحْـوُ مُرْتَقِـي
وَاسْـتَثْنِ كُـلَّ زَائِـدٍ لَـهُ عَمَـلْ كَـ(الْبَا) وَ(مِنْ) وَ(الكَافِ) أَيْضًا وَ(لَعَلْ)

لكن غير المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: لَا حَاجَـةَ إِلَى أَنْ نُقَدِّر (مُرسلان)، بَلْ نَقُولُ: بُرهانان كائنان مِنْ رَبِّكَ، فالجارُّ والمجرور متعلقان بمحذوفٍ، وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ مَنْ خالَفُوه أَصَحُّ مِمَّا قاله المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ لِأَنَّ مَا قَالَهُ المُفَسِّر خاصٌّ، وما قدَّره غيره عامٌّ، ومُتَعَلِّق الجارِّ والمجرور إِذَا كَانَ خَاصًّا، فلَا يَجُوزُ تَرْكُهُ، بَلْ لَا بُدَّ مِنْ ذِكْرِهِ، فلا يُحذف مُتَعَلَّق الجارِّ والمجرور، إِلَّا إِذَا كَانَ عَامًّا، مِثل كائِن، أو مَوْجُودٍ، أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

فالصَّواب إذن: أن نُبقِيَ الْآيَةَ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ، ونقول: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ مُتعلق بمحذوف تقديره: كائنان.

قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ﴾، وَهَذَا الَّذِي أَوْجَـبَ للمُفَسِّـر أَنْ يُقَدِّرَ (مُرْسَلان) لِأَجْلِ قَوْلِه: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾، وَلَكِنَّهُ لَيْسَ مُرْسَلًا، المُرسل فِي الحَقِيقَةِ هو

---

(١) فتح رب البرية في شرح نظم الآجُرُّومية، لأحمد بن عمر بن مساعد الحازمي (ص٧).

موسى، لكنْ معه دليلان ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ﴾ أي: قومه، وفِرْعَونُ هو حاكِمُ مِصرَ، وَقَدْ قِيلَ: إِنَّهُ عَلَمُ جِنس لِكُلِّ مَنْ حَكَمَ مصر كافِرًا، فإنه يُسَمى فِرعون، وَكُلُّ مَنْ مَلَكَ الفُرْسَ كافرًا، فإنه يُسَمى كِسْرَى، وَكُلُّ مَنْ مَلَكَ الرُّوم كافرًا، فإنه يُسَمَّى قَيْصَر.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ الجملة تعليلٌ لِمَا قَبْلَهَا، يعني: إننا أرسلناك بهاتين الآيتين إِلَى هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ؛ لأنَّهم ﴿كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾، والفِعل: ﴿كَانُواْ﴾ مفصولُ الزَّمَن، مفصولة الدَّلالة عَنِ الزَّمَنِ؛ لِأَنَّهُ مَا دَلَّ عَلَى ماضٍ، وَلَا عَلَى غَيْرِهِ، فمعنى ﴿كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾، أي: مُتَّصِفِين بالفِسْق، فَاللهُ تعالى يَقُولُ عَنْ نَفْسِهِ دائمًا: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٠]، ويقول: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء:٩٦]، إِلَى آخِرِهِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَيْسَ المُرَادُ الزَّمَنَ الماضِيَ، بَلِ المُرَادُ أنه مُتَّصِفٌ بهذه الصفاتِ، لكنَّها قد تَدُلُّ عَلَى الزَّمَن الماضي بِقَرِينَةٍ غَيْرِ لَفْظِ الفِعل.

وقوله تعالى: ﴿فَٰسِقِينَ﴾ قَدْ مَرَّ عَلَيْنَا أَنَّ الفِسق يَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ:

الْأَوَّلُ: قِسمٌ مُخْرِجٌ عَنِ المِلَّةِ، وهو فِسق الكُفر، ومثاله: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:١٨-١٩].

الثَّاني: فِسقٌ مُخْرِجٌ عَنِ الاِسْتِقَامَةِ، وَلَا يُخْرِجُ عَنِ الإِيمان، وهو فِسق المعصية، ومثالُه قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ﴾ [الحجرات:٦].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أَنَّ اللهَ تعالى يُعطِي الْأَنْبِيَاءَ مِنَ الْآيَاتِ مَا يُناسِب الوقتَ وحالَ الْمُرْسَلِ إِلَيْهِمْ؛ لِأَنَّ هَذَا مِنَ الْحِكْمَةِ أَنْ تَأْتِيَ الآياتُ مُطابِقةً للواقع.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: هَذِهِ الْآيَةُ الَّتِي أُعْطِيَت لِموسى، وَهِيَ أَنَّهُ إِذَا أَدْخَلَ يَدَهُ فِي جَيْبِهِ يُخْرِجُها بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إرشاد اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لِموسى إِذَا خَافَ مِنْ شَيْءٍ أَنْ يَضُمَّ إِلَيْهِ يَدَهُ؛ حتى يطمئنَّ، ويَسْكُنَ قلبُه.

والظاهِرُ أَنَّهُ خَاصٌّ بموسى؛ لأن الْإِنْسَانَ قَدْ يستعمل هذا الشَّيْءَ، وَلَا يُغْنِي عَنْهُ شَيْئًا.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: تأييدُ الأنبياء بالآيات الدَّالَّةِ عَلَى صِدْقِهِمْ؛ لقوله: ﴿فَذَانِكَ بُرْهَـٰنَانِ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّ الْآيَاتِ الَّتِي تأتي للأنبياء حُجَجٌ عَلَى قَوْمِهِمْ؛ لأن البُرهان معناه الحُجَّة والدَّليل، وَالْآيَاتُ الَّتِي تأتي بها الرُّسل حُجَجًا عَلَى قَوْمِهِمْ يُلزمهم بالتطبيق.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أَنَّهُ مَا مِنْ رَسُولٍ يُرسَل إلا أُوتِيَ آيَةً تَدُلُّ عَلَى صِدْقِهِ؛ لِأَنَّهُ لَوْ لَمْ يُؤْتَ آيَةً لَكَان لِلناس عُذرٌ يُرَدُّ بِهِ؛ لِأَنَّهُ لَوْ جَاءَ وَقَالَ: أنا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَعَلَيْكُمْ أَنْ تفعلوا كذا. لَا يُصَدَّقُ إِلَّا بِبَيِّنَةٍ، والبَيِّنَةُ هي الآيات.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: لُطْفُ اللهِ تعالى بعباده، حيث يُرسِل إِلَيْهِم الرُّسُل لمصلحتِهم، لا لِمصلحتِه؛ إِذْ إِنَّ اللهَ تعالى يَقُول: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [آل عمران:٩٧]،

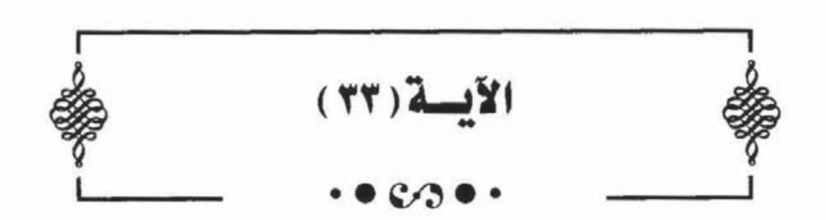
لكن لمصلحة الخَلْق يُرسِل إِلَيْهِم الرُّسُلَ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أَنَّ الرِّسالَة حيث يحتاج النَّاسُ إِلَيْهَا للخُروج عَنْ طَاعَةِ الله؛ لقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ يُجَدِّد لِهَذِهِ الْأُمَّةِ دِينها كُلَّما خرجوا عنه، فالله عَزَّوَجَلَّ يُرسِل الرُّسُلَ عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَيْهِم، وعندما لَا يَكُونُ هناك رسولٌ -كَحَالِ أُمَّتِنَا- يَبعث دُعاة صالحين مُصلِحين للخلق.

الْفَائِدَةُ العَاشِرَةُ: أَنَّ الْغَالِبَ أَنَّ أتباعَ رؤساء الكُفر هُمُ الأشراف، وَإِنْ كَانَتْ تُطْلَقُ عَلَى الْقَوْمِ كَمَا ذَكَرْت فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [القَصَص:٣٢]؛ لأن الملأ هُم الأشراف، وَإِنْ كَانَتْ تُطْلَقُ عَلَى الْقَوْمِ؛ لِأَنَّ اللهَ ذَكَرَ فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [النمل:١٢]، لكن الغالب أن الملأ هُم الأشراف، وَهُمُ الَّذِينَ غالبًا يستكبرون عَلَى مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُل، أَمَّا الضعفاء والفقراء، فإنهم يَتْبَعُونَهم.

• • ۞ • •



الآيـة (٣٣)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ [القَصَص:٣٣].

• • ✥ • •

قال المُفَسِّـرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا﴾ هُوَ الْقِبْطِـيّ السَّـابِق ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ بِهِ].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: جَواز الأخذ بالعُذر عِنْـدَ الْأَمْرِ بِهِ، حَتَّى فِي طَاعَةِ وَلِيِّ الْأَمْرِ، فمَثلًا لو أَمَرَك بشيء؛ لأن طاعته وَاجِبَةٌ فِي غَيْرِ المعصية؛ فَإِنَّهُ لَا بَأْسَ أَنْ تَذْكُرَ العُذر لِأَجْلِ أَنْ تتخلَّص مِنْ هَذَا الْأَمْرِ، كَمَـا كَانَ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يُقَدِّمُون للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْعُذْرَ إِذَا أَمَرَهُم بالشَّيْء؛ ليعذُرَهم.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّ الخَـوْفَ الطبيعي لَا يُنَافِي مقامَ الرِّسالَة؛ لقوله: ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ [القَصَص:٣٣].

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّ الْقِصَاصَ مَوْجُـودٌ فِيمَـا سَبَقَ فِي الْأُمَمِ السَّابِقَـةِ؛ لقوله: ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ بَدَلًا مِنَ الَّذِي قتَلَهُ مُوسَى، وَقَدْ يَكُونُ رغبتهم فِي قَتْلِهِ مِنْ بَابِ الْقِصَاصِ، وَكَانَ معروفًا عندهم، أَوْ مِنْ بَابِ العُدوان مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ بِحَقٍّ، ولا ننسى أَنَّهُ لَا يُقْتَلُ مُسْلِمٌ بِكَافِرٍ فِي شَرِيعَةِ الإِسْلام.



۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ [القَصص:٣٤].

•••

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا﴾ أَبْيَنُ ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا﴾ مُعِينًا وَفِي قِرَاءَةٍ بِفَتْحِ الدَّالِ بِلَا هَمْزَةٍ ﴿يُصَدِّقُنِىٓ﴾ بِالْجَزْمِ جَوَابُ الدُّعَاءِ، وَفِي قِرَاءَةٍ بِالرَّفْعِ، وَجُمْلَتُهُ صِفَةُ رِدْءًا ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾].

قوله تعالى: ﴿وَأَخِى﴾ مبتدأ، وقوله: ﴿هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا﴾ يجُوزُ أَنْ يَكُونَ الضَّمِيرُ لِلْفَصْلِ بَيْنَ رُكني الجملة الاسمية، وَيَكُونُ قَوْلُهُ ﴿أَفْصَحُ﴾ هُوَ الْخَبَرَ، ويجوز أَنَّ الضَّمِيرَ مبتدأ ثانٍ، وقوله: ﴿أَفْصَحُ﴾ خَبَره، والجملة الاسمية خبر ﴿وَأَخِى﴾، والأخير هو الأوجه؛ لأن ضمير الفصل لَا يَكُونُ إِلَّا إِذَا كَانَ المبتدأ والخبر مَعرِفتين؛ لِأَنَّهُ فِي هَذِهِ الْحَالَ يَلتبس الخبرُ بالصِّفَةِ، أَمَّا إِذَا كَانَ الْخَبَرُ نكرةً -كَمَا فِي الْآيَةِ هنا- فَإِنَّهُ يَكُونُ مُبْتَدأً.

وقوله تعالى: ﴿وَأَخِى هَـٰرُونُ﴾ هارون أخو موسى مِنْ أُمِّهِ وأبيه، وَأَمَّا قَوْلُهُ تعالى: ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ﴾ [طه:٩٤]، ذَكَرُوا أَنَّ هارون نَسَبَهُ لأُمِّه؛ لِأَنَّهَا أَقْرَبُ مِنَ الْأَبِ، فذكَّر موسى بها لِيُشفِق عليه.

قوله تعالى: ﴿هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا﴾: ﴿أَفْصَحُ﴾ بمعنى: أَبينُ مِني، وقوله:

﴿لِسَانًا﴾ أي: كلامًا، وعبَّر باللسان عَنِ الْكَلَامِ؛ لأنَّه آلة الكلام، قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ [إبراهيم:٤]، أي: بِنطْقِهم ولُغتهم.

وسبب قوله: ﴿أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا﴾ قِيلَ فِي الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ: إِنَّ مُوسَى ﷺ كَانَتْ فِي لسانِه لُثْغَةٌ مِن جَمْرةٍ أخذَها ووضعها في فَمِه، وَذَلِكَ أَنَّ فِرْعَون أَرَادَ أَنْ يَقْتُلَهُ، فَقَالَتِ امْرَأَتُهُ: إنَّه طفل لَا يَدْرِي، وَلَا يَعْرِفُ، وَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ تختَبِره فأَعْطِه تمرًا وجمرًا.

فقَدَّم التمرة والجَمرة، والجمرةُ تتلألأ، وهيئتها أَجْمَلُ مِنَ التمر، فأخذ الجَمْرَة، وَوَضَعَهَا فِي فَمِهِ، فانعقد لسانُه.

وهذه الْقُصَّةُ مِنَ الإسرائيليات؛ وَهَذَا غَيْرُ مُمْكِنٍ، لِأَنَّهُ إِذَا أَرَادَ الجمرة وأخذَها، لَمَا استطاع أن يضعَها فِي يَدِهِ، وَلَكِنْ مَا يعاني منه مُوسَى هُوَ أَمْرٌ خِلْقي، خَلَقَ اللهُ بَعْضَ النَّاسِ عَلَيْهِ، ولهذا طلب مُوسَى مِنَ اللهِ أَنْ يَحُلَّ هَذِهِ العُقدة، قال: ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى﴾ [طه:٢٧-٢٨].

هناك بعضُ النَّاس لديه مُشْكِلَةٌ فِي نُطق الحروف، وبعضُهم لَدَيْه مُشْكِلَةٌ فِي الْإِتْيَانِ بِصِفَة الحرف المعروفة، ولذلك فإن الصَّواب أَنَّ هَذِهِ الْعِلَّةَ الَّتِي لموسى ﷺ مِنْ أَصْلِ الْخِلْقَةِ، وليست هناك تمرة وجمرة.

قوله تعالى: ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا﴾ قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَيْ: مُعِينًا، وَفِي قِرَاءَةٍ بِفَتْحِ الدَّالِ بِلَا هَمْزَةٍ]. أي: (رَدًا)[1].

فَهِمَ مُوسَى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أَنَّ اللهَ أَرْسَلَهُ إِلَى فِرْعَوْنَ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ [القصص:٣٢]، وَلِهَـذَا قَالَ: ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ﴾، وهنا عَرَفَ أَنَّهُ

---

(١) حجة القراءات، لابن زنجلة (ص٥٤٥).

رَسُولُ، وقولُه: ﴿مَعِىَ﴾ المَعِيَّة بمعنى: المُصاحبَة والمُقارَنة، وَهِيَ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ بِحَسَبِ مَا تُضاف إليه، وتقتضي فِي كُلِّ مَوْضِعٍ غَيْرَ مَا تَقْتَضِيهِ فِي المَوْضِعِ الآخر. فالرجل إِذَا قِيلَ: معه زوجته، فَلَيْسَ هَذَا كَقَوْلِهِم: القائد معه جنودُه. فبينهما فرقٌ.

وَكَذَلِكَ إِذَا قِيلَ: اللبن مَعَ المَاءِ يعني: ممتزجًا مختلطًا به، وهنا ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا﴾ غير مَعِيَّة الزوج لِزوجته، ومَعِيَّة اللَّبَن للماء، ولكنها مصاحَبة يُرَادُ بِهَا التأييد والإعانة، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿رِدْءًا﴾ والرِّدْء: المُعِين الظهيرُ للشخص.

قوله تعالى: ﴿يُصَدِّقُنِىٓ﴾، أي: يكون مُصَدِّقًا لي أمامَهم حتى يقوَى قولِي به، ويكونَ صِدقًا.

وَلَيْسَ المَعْنَى أَنْ يَكُونَ هارون مَعَ مُوسَى يخبر فِرْعَون أَنَّهُ صَادِقٌ فقط، بَلْ يَكُونُ كلامُه مُقوِّيًا لكلامي، فَيَكُونُ ذَلِكَ مُوجِبًا لتصديقِه.

قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بِالجَزْمِ جَوابُ الدُّعَاءِ، وَفِي قِرَاءَةٍ بِالرَّفْعِ، وَجُمْلَتُهُ صِفَةُ ﴿رِدْءًا﴾]، قوله: [بِالجَزْمِ] أَيْ إِنَّ الفعل «يُصَدِّقْنِي» مجزومٌ جوابًا للدعاء، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ﴾، يعني: إنْ أرسلْتَهُ صدَّقَني.

أَمَّا قَوْلُه: [فِي قِرَاءَةٍ أُخْرَى] فهو يَعْنِي فِي قِرَاءَةٍ سَبْعِيَّة، أَمَّا إِذَا قَالَ قُرِئَ بكذا، فهي قِرَاءَةٌ شَاذَّةٌ، وهو منهج المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وقد تَعرَّضْنَا له سابقًا.

ثُمَّ قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وَجُمْلَتُهُ صِفَةُ ﴿رِدْءًا﴾]، يعني: رِدءًا مُصَدِّقًا لي؛ لِأَنَّ هَذَا هُوَ التَّفْسِيرُ.

فَائِدَةٌ: القراءتان الواردتان فِي الْآيَةِ تعطي مَعَانِيَ مُخْتَلِفَةً، فَإِنْ كَانَ قَوْلُه: «يُصَدِّقْنِي» جوابًا للطلب، فَإِنَّ مَعْنَاهُ أَنَّهُ يَحْصُلُ بِهِ الصِّدْقُ، وَإِذَا كَانَ صِفة، فَالمَعْنَى

أَنَّهُ يُحاوِل أَنْ يُبَيِّنَ لِلنَّاسِ أَنَّهُ صَادِقٌ، فتكون قِرَاءَةُ الرَّفْعِ عَلَى سَبِيلِ السبب، وقراءة الجَزْم عَلَى سَبِيلِ النتيجة، فيكون هارون فاعلًا مُؤَثِّرًا.

قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾، الضَّمِيرُ فِي ﴿يُكَذِّبُونِ﴾، وهو الواو، يَعُودُ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ﴾، وقوله: ﴿أَخَافُ﴾ أي: أتوقَّع وأخشى، وليس خوفَ الرُّعب، ولكنَّه يتوقع ذلك ويخشاه، وقوله: ﴿أَن يُكَذِّبُونِ﴾ هَـٰذِهِ النُّون الموجودة ليست نُون الأفعال الخمسة، وإلا لَحُذِفَت بَعْدَ (أَنْ)، ولكنها نونُ الوِقاية، فأصل الفعل: يكذبونني. فحُذفت النون الأُولى للنصب، وبقيت النون الثَّانية المكسورة، وهي نون الوقاية، وحُذِفَت الياء تخفيفًا، ونظيره ذَلِكَ قَوْلُهُ تعالى فِي سُورَةِ الذَّارِيَاتِ: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾ [الذاريات:٥٩]، فإذا وقفتَ عليها سكَّنْتَ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: بيان المِنَّة الكبرى مِنْ مُوسَى لِأَخِيهِ، حيث جعله اللهُ تعالى مرسلًا معه، ولهذا يقال: أعظمُ هَدِيةٍ أهداها خليلٌ لخليله هي التي كَانَتْ مِنْ مُوسَى لهارونَ؛ لِأَنَّهُ سَأَلَ اللهَ أَنْ يُرسله معه، والرِّسالَة مَقَامٌ عَظِيمٌ لَا يناله إلا الْخِيَرَةُ مِنْ بَنِي آدَمَ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّهُ يَجُوزُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَسْتَعِينَ بِغَيْرِهِ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لقوله: ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: اتخاذُ الأعوانِ مِنْ أَسْبَابِ النجاة، وهـذا أمرٌ مَعْلُومٌ مِنْ قديم الزَّمانِ وحديثِه، أَنَّهُ كُلَّمَا كَانَ الإِنْسَان مَعَهُ مَنْ يُعِينه ويساعِده، كَانَ ذَلِكَ أَقْرَبَ إِلَى نجاحِه مِن انفراده، والعوامُّ يقولون: (يَدٌ وَاحِدَةٌ لَا تُصَفِّق).

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: فصاحةُ اللسان لَهَا تَأْثِيرٌ قَوِيٌّ فِي الْقَبُولِ، أو الرفض، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا»[1]، لقوله: ﴿هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: فَضِيلَة مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ لإقراره بالفضل لأخيه ﴿هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾؛ لِأَنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَكُونُ ناقصًا، وَلَكِنْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُعَبِّرَ بالكمال لغيره، والنقص لنفسه.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أَنَّهُ يَنْبَغِي للدَّاعي أَنْ يَذْكُرَ مُبَرِّراتِ دعوتِه؛ لِأَنَّ قَوْلَه: ﴿هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ﴾، هَذَا مِن مُبَرِّرَات دعوته، وسؤاله الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْ يُرْسِلَهُ معه، وَهُوَ أَنَّهُ أفصحُ منه لسانًا، وهذا معروف، ومِن آداب الدعاة أَنْ يَذْكُرُوا مُبَرِّرَات الدعوة.

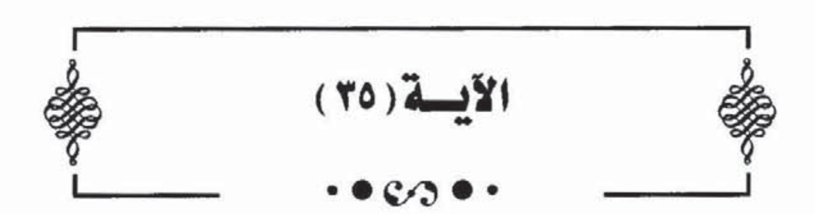
الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ خَافَ أَنْ يُكذِّبوه إِذَا كَانَ وحدَه، فطلب مزيدًا مِنَ الْعَوْنِ؛ لأن الواحد مَعَ الْوَاحِدِ يكون أقربَ للتصديقِ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أَنَّ الْخَبَرَ يزداد ثُبوتًا وتَبيينًا بتعدُّد مُخبريه؛ ليزداد قُوة ووضوحًا عند آلِ فِرْعَوْنَ؛ لأن الرِّسالَة خبرٌ، فَإِذَا كَانَ مَعَهُ مَنْ يُقَوِّيه عَلَى هَذَا الْخَبَرِ ويُثَبِّته ويُصَدِّقُه؛ فَإِنَّهُ يَكُونُ أقوى، والآية شاهدٌ له.

• • ۞ • •

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب النكاح، باب الخطبة، رقم (٤٨٥١)، ومسلم: كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، رقم (٨٦٩).



الآية (٣٥)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ [القَصَص:٣٥].

•••

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ﴾ نُقَوِّيك ﴿بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا﴾ غَلَبَةً ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ بِسُوءٍ اذْهَبَا ﴿بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ لَهُمْ].

قوله تعالى: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ﴾ أي: نُقَوِّيك، والشدُّ بمعنى: التقوية، والعَضُد: هُوَ الْعَظْمُ الكامل فِي عَظْمِ الذراع والمَنْكِب، وشدُّ العَضُدِ كِنَايَةٌ عَنِ التقوية؛ لِأَنَّ الْيَدَ هي آلة العَمَل، فإذا شُدَّ عَضُدُها وقُوِّيَ صارت قويَّة، والمعنى: أَنَّنا سنُقَوِّيك، ونُؤَيِّدك بأخيك.

قوله تعالى: ﴿بِأَخِيكَ﴾ هو هارون، فقد أَجابَ اللهُ طَلَبَ موسى، والسين فِي قَوْلِهِ: ﴿سَنَشُدُّ﴾ تُفيد التنفيس، وتُفيد تأكيد الشَّيْء وتقريبه، أي: إِنَّهُ سَيَكُونُ قريبًا، وَلَا شَكَّ أَنَّهُ إِذَا قَالَ اللهُ لَهُ ذَلِكَ فمَعْنَاهُ أَنَّهُ يتقوَّى الآن؛ لِأَنَّ اللهَ وَعَده أَنْ يُرْسِلَ هارون معه، إضافةً إِلَى أَنَّهُ سَيَكُونُ مُعِينًا لَهُ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ.

قوله تعالى: ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا﴾ أي: غَلَبَة، وهذه بُشرى ثانية لَهُمَا جَمِيعًا، ﴿وَنَجْعَلُ﴾ أي: نُقيِّض لكما سلطانًا، والمراد بالسلطان هنا يقول المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

[غَلَبَة]، والسلطان فِي الْقُرْآنِ يَأْتِي بِمَعْنَى الغَلَبة والقُدرة، ويأتي بمعنى الدَّليل؛ لِأَنَّ الدَّلِيلَ يَتقوَّى بِهِ الْإِنْسَانُ، وَيَكُونُ لَهُ بِهِ قُوَّةٌ، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍ بِهَٰذَآ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يونس:٦٨]، ومعنى ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍ بِهَٰذَآ﴾ أي: مَا عِنْدَكُمْ دليلٌ بهذا، وقوله تعالى: ﴿فَٱنفُذُواْ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ [الرَّحمن:٣٣]، أي: بقُوة وغَلَبة، وقوله: ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ﴾ [النحل:١٠٠]، أي: سيطرته وغَلَبته.

قوله تعالى: ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ أي: بسوء، والمعنى: لا ينتهون إليكما بالسوء، فما خِفْتَ مِنْهُ فَإِنَّهُ سوف ينتفي بِمَا جَعَلَ اللهُ لَك مِنْ تأييدٍ بأخيك، وهذه بُشرى لهما، وتُفيد التقويةَ، وهي نظيرُ قَوْلِهِ تعالى: ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه:٤٦].

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [اذْهَبَا ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾...] وكأنَّه يَرى أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ منفصل عَنْ قَوْلِهِ: ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا﴾، ولهذا قدَّر لها فِعلًا يَتعَلَّقُ بِهِ، وَيَكُونُ عَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ الْوُقُوفُ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾، ثم نبدأ فنقول: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾، وَلَا يَصِحُّ أَنْ نَجْعَلَ قوله: ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ تابعًا لتقدير الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿ٱذْهَبَآ﴾، لأن التابعين لَمْ يَذْهَبُوا بالآيات. هَذَا وَجْهٌ.

وَالْوَجْهُ الْآخَرُ هُوَ أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِقَوْلِهِ: ﴿وَنَجْعَلُ﴾، أي: ونجعل لكما سلطانًا بآياتنا، أي: بسبب آياتنا نجعل لكما السلطان، فلا يستطيعون الوصول إليكما، ولا إبطالَ دعوتِكما، وَعَلَى هَذَا لَا يُحْتَاجُ إِلَى تَقْدِيرٍ فِي الْآيَةِ.

وَيَتْبَعُ ذَلِكَ أَنْ نَصِل قَوْلَهُ تعالى: ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ بقوله: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ أي:

بسبب ما معكما مِنَ الْآيَاتِ، وَهَذَا الْمَعْنَى هُوَ الصَّحِيحُ لأسباب؛ أولًا: لِأَنَّهُ لَا يَحْتَاجُ إِلَى تَقْدِيرٍ؛ ولأنَّ التَّقْدِيرَ لَا بُدَّ أَنْ تسبِقَه مرتبَتَان:

المرتبة الأولى: إثبات أَنَّ فِي الْكَلَامِ حَذفًا، وهو يُعْرَفُ بكون الْمَعْنَى لَا يَسْتَقِيمُ بِدُونِ تَقْدِيرِ مَحْذُوفٍ.

المرتبة الثَّانية: إثبات أَنَّ تَقْدِيرَ المحذوف هو ذاك، وهذا يُعيِّنه السِّياق؛ لأن السِّياق هُوَ الَّذِي يُعيِّن نوعَ المحذوفِ.

فَإِذَا كَانَ الْكَلَامُ لَا يَحْتَاجُ إِلَى هَذَا التَّقْدِيرِ، فالأفضل عدمُ التقدير، وَهَذِهِ الْآيَةُ معناها واضحٌ جدًّا عَلَى الْقَوْلِ بعدم التقدير، والمعنى هو: نجعل لكما سلطانًا بسبب آياتِنا التي معكما، ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾.

وَهَذَا الْمَعْنَى أَيْضًا أوضحُ مما قَدَّره الْمُفَسِّر وغيرُه؛ لِأَنَّهُ فِي الْحَقِيقَةِ يَقُولُ تعالى: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ والآيات هنا جمعٌ، وَقَبْلَ ذَلِكَ يَقُولُ: ﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ﴾ [القَصص:٣٢]، فالله عَزَّوَجَلَّ قد أرسلهما بآيتين، ولذلك فالصَّواب هُوَ أَنَّ الْآيَةَ موصولٌ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ، فَيَكُونُ تَقْدِيرُ قَوْلِهِ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَاۚ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾: ونجعل لكما سلطانًا بآياتنا، فلا يَصِلُون إليكما.

وَزَعَمَ بَعْضُ الْمُعْرِبِين أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِقَوْلِهِ: ﴿ٱلْغَٰلِبُونَ﴾، وَهَذَا فِي الْمَعْنَى قَرِيبٌ مِمَّا ذَكَرْنَا، أي: أنتما ومَن اتَّبَعَكما الغالبون بآياتنا.

والغالب فِي الْآيَاتِ هُوَ الَّذِي جُعِلَ لَهُ بِهَا سلطان، ويقول عَلَى هَذَا: فلا يصلون إليكما أنتما، ومَن اتَّبَعَكُما الغالبون بآياتنا.

وَهَذَا لَا شَكَّ أنه أَحْسَنُ مِن تقدير الْمُفَسِّر رَحِمَهُٱللَّهُ؛ لِأَنَّهُ لَا يَحْتَاجُ إِلَى حَذْفٍ؛

وَلِأَنَّهُ يُوجِبُ أَنْ يَكُونَ الْكَلَامُ بَعْضُهُ مُتَّصِلٌ بِبَعْضٍ.

لَكِنْ قَدْ يَقُولُ قَائِلٌ: فِي الْآيَةِ محذوف حسب قواعد النحو، لِأَنَّ قَوْلَه: ﴿ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ اسمُ فاعِل، وَقَدْ دَخَلَتْ عَلَيْهِ (ال)، وهي بِمَعْنَى الِاسْمِ الموصول، والمعروف أَنَّ الِاسْمَ الموصولَ لَا يَعْمَلُ مَا بَعْدَهُ فِيمَا قَبْلَهُ، فَلَا تَعْمَلُ صلتُه.

ونُجيب فنقول: (ال) هنا ليست بموصولة، بَلْ هِيَ كـ(أل) الداخلة عَلَى الِاسْمِ الجامِد، كالداخلة عَلَى الرَّجُلِ والأسد، وما أشبههما.

وخلاصة الْقَوْلِ: هُوَ أَنَّ الصَّواب أَنْ نَجْعَلَ قوله: ﴿بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ متعلقًا بقوله: ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا﴾، ونَسْلَم مِنْ كُلِّ تلك المخالفات، ومِن التقديرات، التي نعتمد عليها، ومِن تعيين المقدر.

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ لَهُمْ]، وحقيقة المعنى الغالبون لهم؛ لَكِنْ عَلَى سَبِيلِ العُموم نقول: أنتما ومَن اتَّبَعَكُما الغالبون لِلمخالفين.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: قوله: ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ اللهَ تعالى أعطى مُوسَى وَهَارُونَ آياتٍ، وَقَدْ ذُكِرَ فِي سُورَةٍ أُخْرَى أَنَّهُ أعطاه تِسْعَ آيَاتٍ، قَالَ تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ﴾ [الإسراء:١٠١].

وقوله: ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا﴾ التابعون هُنَا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، ومِن آلِ فِرْعَوْنَ كذلك، كَمَا قَالَ اللهُ تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ [غافر:٢٨].

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: قوله: ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا﴾ فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ يُنْصر ويَغلِب باتِّباع الرُّسُل، وَأَنَّهُ لَا طَرِيقَ إلى النصر والغَلَبة إِلَّا بِالدُّخُولِ فِي طَرِيقِ الرُّسل واتِّباعِهم.

وعليه فتكون مِنْ هَذِهِ قاعدة: (كُلُّ مَنْ كَانَ للرسول أتبعَ كَانَ إِلَى النصر أقربَ، وكلُّ مَنْ كَانَ مِنَ اتِّبَاعِ الرَّسُـول أبعدَ كَانَ عَنِ النصـر أبعدَ)؛ لِأَنَّهُ مِنَ المَعْلُـوم فِي القَواعِد المُقَرَّرَة أَنَّ الحُكْمَ إِذَا عُلِّقَ بوصفٍ كَانَ ثُبُوتُهُ قوةً وضَعفًا ووجودًا وعَدَمًا، بِحَسَبِ ذَلِكَ الْوَصْفِ.

فمثلًا يَقُولُ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [البقرة:١٥٣]، فمَعِيَّتُه للصابريـن تتغير قُوَّتُها وضعفُها حَسَـبَ مَا مَعَهُمْ مِنَ الصَّبْرِ، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ ﴾ [النحل:١٢٨]، وجود المَعِيَّة للمتقين قُوَّةً وضَعْفًا بِحسَب تَقْوَاهُم، وهكذا.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: قوله: ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾، يستفاد مِنْهُ أَنَّ أَتباعَ الرُّسُلِ غالبون لِمن خالَفُوا الرُّسل دائمًا وأبدًا، قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «نُصِرتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ»[1].

اللهُ أَكْبَرُ! ما أعظمَ هَذِهِ الْفَائِدَةَ لو أَنَّنا كُنَّا عَلَى المستوى الَّذِي يَنْبَغِي، فلو كُنَّا مُتَّبعين لِهَذَا النَّبِيِّ الْكَرِيم ﷺ عَلَى وَجْهِ الحقيقة، لكان عدوُّنا مَرْعُوبًا مِنَّا مَسِيـرَةَ شَهْرٍ، لكنَّنا -مع الأسف الشديد- لَمْ نكن مُتَّبِعِين للرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حقيقة، وَلِذَلِكَ صَارَ بأسُنا بيننا، لَا مَنْ يَدَّعِي الإِسْـلام مِنَّا، وَلَا مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنزَوِيَ تحت قاعدة الجَاهِلية، وهي القوميةُ العربيةُ، فَإِنَّ هَذِهِ القومية ما انتصرت مُنْذ نشأت إِلَى الْيَوْمِ، ولن تنتصرَ أبدًا، بَلْ لَا تَزْدَادُ إِلَّا فشلًا وتفرُّقًا وتصدُّعًا وقتالًا فِيمَا بَيْنَهَا.

وَكَذَلِكَ أَيْضًا فِي الحَقِيقَةِ ما اجتمعْنا على قوميَّةٍ إسلاميةٍ، فيبقى المُسْلِمُونَ لَا عَلَى هَذَا، وَلَا عَلَى هَذَا، ولهذا مَا كَانَ لَنَا النصرُ الَّذِي وَعَدَ اللهُ بِهِ نَبِيَّهُ ﷺ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التيمم، بابٌ، رقم (٣٣٥)، مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب جعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، رقم (٥٢١).

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: فِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى فَضْلِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى عَبْدِهِ، حيث إِنَّ اللهَ أجاب دعوةَ موسى، فقال: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّ اللهَ أَعْطَى مُوسَى أَكْثَرَ مِمَّا سَأَلَ؛ لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾، فَأَعْطَاهُ اللهُ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ؛ بأن يقويَه أيضًا؛ لأن التصديق مَعْنَاهُ الْخَبَرُ بأنه صادق، لكن التقوية أبلغُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قد يَمُنُّ عَلَى الْعَبْدِ، فَيَجْعَلُ لَهُ سُلْطَانًا بِمَا آتَاهُ مِنَ الْعِلْمِ؛ لقوله: ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا﴾ بآياتنا.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أَنَّ الْعِلْمَ سلاحٌ؛ لأن السلطان معناه: القوةُ والغَلَبَةُ، وَإِذَا كَانَ سَبَبُهُ العلم كَانَ ذَلِكَ دَلِيلًا عَلَى أَنَّ الْعِلْمَ سِلَاحٌ مِنْ أَعْظَمِ ما يُدَافِعُ بِهِ الْإِنْسَانُ ويُحاجِجُ أيضًا.

وقد مرَّ علينا قصة ابْنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، فإنه لولا عِلْمُ ابْنِ عُمَرَ لَكَان لهذا سلطان؛ لِأَنَّ عُمَرَ كَانَ عِنْدَهُ مِنَ الْعِلْمِ مَا جَعَلَ لَهُ السُّلطة وَالْغَلَبَةَ عَلَى ذَلِكَ.

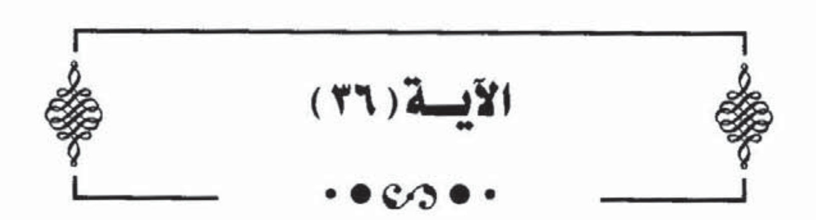
الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: حماية اللهِ عَزَّوَجَلَّ لِمُوسَى وَهَارُونَ؛ لقوله: ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾، وَهَذَا نَظِيرُ قَوْلِهِ: ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه:٤٦].

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أَنَّ التمسُّك بشريعة الله سببٌ للغَلَبة، قال: ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾، أي: كُلُّ مَنِ اتبعكُم.

الْفَائِدَةُ العَاشِرَةُ: أَنَّهُ إِذَا كَانَ هَـذَا فِي بَنِي إِسْـرَائِيلَ أَنَّهُ مَنِ اتبع مُوسَى هُـوَ الْغَالِبُ، فمِن باب أَوْلَى مَنِ اتبعَ النبيَّ ﷺ فإنه غالِب، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة:٣٣]، ومعنى

﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾ يُعَلِّيه؛ لأن الظَهَر والظُهورَ كُلَّه يَدُلُّ عَلَى الغَلَبة، قال: ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾.

••❁••



الآية (٣٦)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [القَصَص:٣٦].

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ وَاضِحَاتٍ حَالٌ ﴿قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى﴾ مُخْتَلَقٌ ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾ كَـائِنًا ﴿فِيٓ﴾ أَيَّـامِ ﴿ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾].

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم﴾ أي: آلُ فِرْعَوْن، ﴿مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ ولَمْ يَقُل: وهارون؛ لأنَّ الرِّسالَة في الأَصل لموسى، وقوله: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ الباء للمصاحبة: يعني: مصحوبًا بالآيات، وآيات جَمْعُ آية، وهي العلامات، وأُضِيفَت إِلَى الله إضافةَ العطيَّة إلى مُعطيها؛ لأَنَّ هَذِهِ الآيَات ليست آيات عَلَى الله، لكنها آياتٌ منه على رسالة موسى، وإثبات أَنَّ اللهَ وَحدَه هُوَ الحَقُّ.

قوله تعالى: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ قَالَ المفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وَاضِحَاتٍ حَالٌ] حَالٌ مِن قَولِه: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾، وَلَا تَصحّ أَن تكونَ نَعْتًا؛ لأَنَّهَا نكِرَة، وَمَا قبلَهَا مَعْرِفَة.

وَفي قَوله: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ إقامة للحُجة؛ لأَنَّ الآيَةَ هي علامة، وكُلَّما كانت أظهرَ كانَت الحُجَّة أقوى، والآيات بَيِّنَة، جاءهم بالآيات البَيِّنات، فكان جوابهم: ﴿قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى﴾.

وقوله تعالى: ﴿مَا هَٰذَآ﴾ أي: الذي جئتَ به يَا موسَى ﴿إِلَّا سِحۡرٌ﴾، وهنا مَا لَم تَعمَل عَمَل ليس -عَلَى لُغَة أهل الحِجَاز- كَمَا قَالَ ابن مالك(١):

إعمَالَ (لَيْسَ) أُعْمِلَتَ (مَا) دُونَ (إِنْ) مَــعَ بَقَــا النَّفْــيِ وَتَرْتِيــبٍ زُكِــنْ

لأَنَّه يُشتَرَط في عملها بقاءُ النفي، وهنا النفي قد انتقض بالاستثناء.

قوله تعالى: ﴿سِحۡرٌ مُّفۡتَرًى﴾ السِّحر المُفْتَرَى: العَصا واليد، هَذَا إِذَا قلنَا: إنه يَعود عَلَى الآيَات الحِسِّيَّة؛ فَإِن قُلنَا: إنه يَعود إِلَى الآيَات المعنوية وَهيَ مِثل الإِسْلام؛ فَإِنَّ النَّبيَّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يقول: «إِنَّ مِنَ الْبَيَان لَسِحْرًا»(٢).

وقوله: ﴿مُّفۡتَرًى﴾: مُختَلَق، فمِنَ المَعروف أَنَّه يَصحُّ وَصفُ القول بالمُفْتَـرَى، ولكن الافتراء هنا جاء وصفًا للعصا واليد؛ لأن السِّحْرَ لَا يَقلـب الأَشْياء حقيقة، ولكنه يَقْلِبُها تَخيُّلا بحَسَب مَا يتخيَّلُه المرء، فَيكون هَذَا التَّخييل مخالفًا للواقع، وَكلُّ مَا يُخَالف الواقع فهو مُفْتَرًى، فيكون ظهورُه بغير الحَال الَّتي عَلَيهَا مِن باب الكذب والفِرية، وَلهَذَا قَالُوا: ﴿سِحۡرٌ مُّفۡتَرًى﴾.

قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا﴾ كَائِنًا ﴿فِيٓ﴾ أَيَّامِ ﴿ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾].

قوله: ﴿وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا﴾، المشَـار إلَيه مَا جَـاءَ به مِنَ الرِّسـالَة؛ لأَنَّهَا هيَ المسموعة، وأما آيةُ اليد والعصا فهي مُشاهَدة مرئية.

قَالَ المُفَسِّـرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [كَائِنًا] إشَارَة منه إِلَى أَنَّ متعَلَّق الجارِّ والمجـرور بقوله: ﴿ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ محذوف تقديرُه (كَائِنًا)، وهو هُنَا عَلَى تَقدير المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ حَالٌ

(١) ألفية ابن مالك (ص٢٠).

(٢) تقدم تخريجه.

مِن اسمِ الإشارة.

وقوله: ﴿فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أي: في وقتهم، وَلهَـذَا قَالَ سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، أي: السابقين، وَهَذَا كَذِبٌ منهم، فَقَد أَخبَرَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ عنهم أيام يوسفَ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗا﴾ [غافر:٣٤].

إذن: قولُهم: ﴿مَّا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ خبرٌ كَذِبٌ، فهُم كاذبون في هَذِهِ الدعوة.

ثم عَلَى فَرض أن الدعوةَ صحيحة، وأنهم ما سمعوا مِثله مِن قَبل، وَلَم يوجَد في الأولين، فَهَذَا لَا يَقتَضي أَنْ يَكونَ باطلا؛ لأَنَّ الحَقَّ إذَا جَاءَ وَجَبَ قَبولُهُ، سَوَاء كَانَ مَوجودًا في الأولين، أَمْ غَير مَوجود، فهذه الحُجة إذن مُركَّبة مِن كَذِبٍ وباطِلٍ:

أمَّا الكَـذِبُ: فَإِنَّ قَـوْلَهم: ﴿مَّا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ كـذب؛ لأنَّ مؤمنَهم أَقَامَ عَلَيهم الحُجَّةَ بوجود نظير لَمِا جَاءَ به موسَى في قَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ [غافر:٣٤].

وأما الباطِلُ: فَعَلَى تَقدير أنها صحيحةٌ قولًا؛ فلأن عدم وجودِ ذَلكَ في الأَوَّلِين لَا يقتضي بُطلان وُجودِه في الآخِرينَ؛ فإن الله تعالى فَعَّال لَمِا يُريد، مَا دَامَت الآياتُ بَيِّنَات، فليس هناك حُجَّةٌ لهُم بأَنَّه لَم يُوجَد في الأولين كذا.

قوله تعالى: ﴿فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ قال: ﴿ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ وهُم آباء؛ لأَنَّ الأَبَ يُطلَق عَلَى الأَب المباشِـر، وعلى الجَـدِّ وَإنْ عَلَا، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ﴾ [الحج:٧٨]، وقال يوسف: ﴿وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ﴾ [يوسف:٣٨]، فيعقوبُ أبوه المباشر، وإسحاقُ جَدُّه، وإبراهيمُ جَدُّ أبيه، سمَّاهم آباء،

وَهَذَا وَإن كَانَ فيه التغليب، لَكن قَوله: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ لَيسَ فيه تَغليبٌ، أي: لَيسَ هناكَ أبٌ مُباشِر، وَلهَذَا كَانَ القَول الراجح في مَسأَلَة الجَدِّ والإخوة أَنَّ الجَدَّ يَحْجُب الإخوةَ؛ لأَنَّه أَبٌ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أَنَّ موسَى ﷺ نَفَّذ مَا أَرسَلَه الله به.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّ الآيَات الَّتي يرسل اللهُ بها الأنبياءَ تكون بَيِّنَة واضحة؛ لِئَلَّا يَكونَ للمَدعُوِّين حُجَّة في خفاء الحُجة، فيجعل الله تعالى الآياتِ بَيِّنَةً واضحة.

وَفي الحَديث الصَّحيح عَن النَّبيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**مَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا قَدِ أُعْطِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ**»[1].

فَلَا بدَّ أَن تَكونَ الآيَات الَّتي يُرسَل بها الرُّسل بَيِّنَة واضحةً؛ لئلا تبقَى للنَّاسِ حُجة.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّ الآيَاتِ الَّتي أعطاها اللهُ موسَى ليست وَاحدَة، وَلَا اثنتين، بَل هيَ آياتٌ متعددة يؤمِن عَلَى مِثلهَا البَشر، لكن هَؤلَاء قَومٌ عُتاة.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّ دعوى المكذّبين للرُّسل لَا تَكون إلَّا مِن نَوع المكابَرة؛ فَإنَّ قَولهم: ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون:٢٤]، لَا يَقتَضي رَدَّ الحق، لَكن إذَا كَانَ حَقًّا فاقبلوه، وليس للإنسان حُجة إذَا قَالَ: والله هَذَا مَا سَمعنَا به.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن أعداء الرُّسُل يُلَقِّبُون الرُّسل بألقابِ السُّوء والعَيب؛

(١) أخرجه البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزل الوحي، وأول ما نزل، رقم (٤٩٨١)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ، رقم (١٥٢).

لقوله: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى﴾، فليس عند أعداء الرُّسُل إِلَّا أَنَّهم يُلَقِّبُونهم بألقاب: هذا ساحر، هذا مجنون، هذا شاعر، وَمَا أَشبَهَ ذَلكَ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: هي فائدةٌ مُتفَرِّعة، وَهيَ أَنَّ أعداء الرُّسل سوف يُلَقِّبُون مَن يَدْعون بدعوة الرُّسُل بِمِثْل هَـذِهِ الألقاب، فيقولون عنهم: رجعيُّون، متأخرون، مُتَزَمِّتُون، متشددون، متعصبون، وَمَا أَشبَهَ ذَلكَ، أو ربما يكون أَبلَغ مِن هَذَا فيقولون: ضالُّون، ﴿وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ [المطففين:٣٢].

فدعوة الحَقّ لَها أعداء، هؤُلاءِ الأعداء الذين قابلوا الرُّسلَ بما قابلوهم، والرُّسل هُم الأَقوَى في القيادة، سيُقابلون مَن بَعدَهم بِمِثْل مَا قابلوهم به، أَو أَكثَر.

إذن: فلنُطَمْئِنْ أنفُسَنا على أَنَّنَا إذَا دعونا إلى الله عَلَى حَقٍّ، وعلى بَصيرة، فسيكون أمامنا مَن يَقول لنا مِثلما قالوا للرُّسل، فَما دَامَت الدعوة واحدة فَعَدُوُّها واحد، وَمَا قيلَ في الأَوَّل يُقَالُ في الثَّاني.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أَنَّه لَا يَنبَغي للمَرء أَنْ يُثْنِيَه عَن قَول الحَقّ رَدُّه، أو وَصْفُه هو بالعيوب؛ لأن موسَى لَم يتوقف عن الدعوة حينما قَالوا لَهُ هَذَا، بل استمر في الدَّعوَة، وبه قَامَت الحُجَّة، مَعَ أَنَّه هُدِّد بالسَّجْن، ولكنه عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لَم يُبَالِ بها.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: يَنْبغي للدَّاعي إلى الله أَنْ يصبر مَا دَامَ يَعلَم أَنَّه عَلَى الحَق.

• • ۞ • •



الآية (٣٧)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [القَصَص:٣٧].

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَقَالَ﴾ بِوَاوٍ وَبِدُونِهَا ﴿مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعْلَمُ﴾ عَالِمٌ ﴿بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ﴾ الضَّمِيرُ لِلرَّبِّ ﴿وَمَن﴾ عَطْفٌ عَلَى مَنْ قَبْلَهَا ﴿تَكُونُ﴾ بِالْفَوْقَانِيَّةِ وَالتَّحْتَانِيَّةِ ﴿لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ أَيِ الْعَاقِبَةُ المَحْمُودَةُ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ أَيْ هُوَ أَنَا فِي الشِّقَّيْنِ فَأَنَا مُحِقٌّ فِيمَا جِئْتُ بِهِ ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ الْكَافِرُونَ].

قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَقَالَ﴾ بِوَاوٍ وَبِدُونِهَا]، أي فيها قراءتان سبعيتان، فَيَجوز أَنْ تَقولَ: ﴿وَقَالَ﴾، وَيجوز أَن تَقولَ: «قَالَ»[١]، وَهَذه مِنَ القرَاءَات النادرة جِدًّا؛ لأن القراءات المتواترة لَا يَكون فيهَا تَغيير كلمة بزيَادَةٍ أَو نقصٍ، وقد ذَكَرْنَا مِن قَبْلُ بيتين في القرَاءَة، هما[٢]:

فَكُلُّ مَا وَافَقَ وَجْهَ نَحْوِ ... وَكَانَ للرَّسْمِ احْتِمالًا يَحْوِي

وَصَحَّ نَقْلًا فَهُوَ القُرْآنُ ... فَهَذِهِ الثَّلَاثَةُ الأَرْكَانُ

ولكن الرسم هنَا لَا يَحتَمل الزّيَادَةَ، أَو النّقصَان، ولكن القِراءَة ثابتة، كَذَلكَ

---

(١) السبعة في القراءات، لابن مجاهد (ص٤٩٤).

(٢) متن طيبة النشر في القراءات العشر، لابن الجزري، البيتان (١٤، ١٥).

في سُورَة البَقَرَة ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٤٧]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ﴾ [البقرة:١١٦]، ففيها قراءتان: بإثبات الواو وبحذفها، وهناك شواهدُ أُخرَى في القُرْآن، لَكن هَذَا يعتبر منَ الأَشيَاء النادرة.

قوله تعالى: ﴿رَبِّيٓ أَعْلَمُ﴾: ﴿أَعْلَمُ﴾ هَذَا اسمُ تفضيلٍ، واسمُ التفضيل يَدُلُّ عَلَى اتِّفَاق شخصين اشتَرَكَا في صِفَةٍ واحدة.

فَإِذَا قيلَ: فلانٌ أَفضَلُ مِن فُلَان. فقد اشترك الرَّجُلان في الفَضل، وزاد المفَضَّل على المفَضَّل عليه. هنا يقول: ﴿رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ﴾.

قَالَ المفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَيْ: عَالِمٌ]، فَحوَّل اسمَ التفضيل إِلَى اسمِ فاعِل، وهذه جناية عظيمة؛ لأن (عَالِم) أدنى بكَثِير مِن ﴿أَعْلَمُ﴾، فَإِذَا قلنَا: ﴿رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ﴾ و(وربي عالِمٌ بمَن جاء)، فالأول أَبْيَنُ، ولذلك يُعتبر نقصًا مِنَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

والصَّواب أنَّ ﴿أَعْلَمُ﴾ أي: مَن عَلِمَ بالهدى مِن عند الله، فَاللهُ أَعلَم منه.

والمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ومَن حَذَا حَذوَه، أَو سَبقه إِلَى ذَلكَ إِنَّمَا فَرُّوا مِن أَنْ يَكونَ الإنسَان مشتركًا مَعَ الله في العِلم، لكن اسم التفضيل لَيسَ فيه دَليل عَلَى المُشارَكَة، فقولنا: أَعْلَم. ينفي المُشارَكَة؛ لأن الأعلم في دَرَجَةٍ لَا يَصل إِلَيهَا المفضَّل عليه، لَكن إِذَا قلتم (عالم) فهذا فيه المُشارَكَة؛ لأَنَّ اللهَ عالِمٌ، والإِنْسَان عالِمٌ، قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ [النحل:٧٨]، أي: فعلِموا، وكَذَلكَ قَوله تعالى: ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ﴾ [المائدة:٤].

فالشاهد أَنَّ كَلمَةَ ﴿أَعْلَمُ﴾ هيَ الَّتي تَقتَضي التفريق، بخلاف عالِم، ثُمَّ إنَّ فيهَا

دليلًا واضحًا عَلَى أَنَّ كلَّ صِفة كمـال، فَاللهُ تعالى لَهُ منهَا أعـلاها، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل:٦٠]، فكلُّ صِفة كمالِ مُطْلَق فلله تعالى منها أَكْمَلُها، كَمَا قَالَ تعالى: ﴿رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ﴾.

فهناكَ مَن عَلِمَ مَن جَاءَ بالهـدى مِن عند الله مِنَ المُؤمِنيـنَ الَّذينَ أُرسل لهم، فعلموا ذلك، اللهُ تعالى أَعلَمُ بهم.

قوله تعالى: ﴿بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ﴾ الضَّميـر في قَوْلِهِ: ﴿عِندِهِۦ﴾ يعود للرَّب، أي: مِن عند الله، وَإِنَّمَا أَشَارَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ إِلَى هَذَا؛ لئلا يُظَنَّ أَنَّه عَائد إِلَى ﴿مَن﴾ في قَوْلِـهِ: ﴿بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ﴾، وَلَا يمكن أَنْ يَعـود إِلَى ﴿مَن﴾؛ لأَنَّه يَختلف المَعنَى.

وقوله تعالى: ﴿بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ﴾ وَلَم يَقُـل: أَعلَمُ أَنِّي قَد جئـت بالهدى مِن عِنْدِه، بَل قَالَ: ﴿بِمَن جَآءَ﴾؛ لئَلَّا يَكونَ مُدَّعيًا، وليبقَى الأمر مَوْكُولًا بالحُكم عَلَيه مِن جهَة العقل.

قَالَ المُفَسِّـرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وَمَنْ عَطْـفٌ عَلَى ﴿مَن﴾ قَبْلَهَا]، أي: وبِمَن تكـون لَهُ عاقبة الدَّار، فَهُوَ أَعلَمُ بمَن جاءَ بالهُدى مِن عِنْدِه، وهذا سببٌ لِحُكم العاقِبة، و﴿أَعْلَمُ﴾ كذلك بـ﴿وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَـٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ فهوَ أعلَم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالمبتدأ والمنتهى.

وقوله تعالى: ﴿بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ﴾ سَمَّى الكتَابَ، أَو الوحيَ هُدًى؛ لأَنَّه يهدي، كَمَا قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة:١٨٥]، وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ﴾ [الصف:٩]، فالهُدى هُوَ العِلم؛ لأَنَّه هُوَ سبيلُ النجاة.

وقوله: ﴿مِنْ عِندِهِۦ﴾ أَضَافَه إِلَى الله؛ لأن الوحيَ مِنَ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، وَلَيسَ مِن غَيره، ولا أحدَ يأخذ هُدًى إِلَّا مِن عند الله.

قوله تعالى: ﴿وَمَن تَكُونُ﴾ قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [بِالفَوْقَانِيَّةِ وَالتَّحْتَانِيَّةِ][1] فهُما قراءتان؛ أَمَّا القِراءَة بالتاء ﴿تَكُونُ﴾ فالأمر فيهَا ظَاهر؛ لأن عاقبة الدَّار مؤنث، والفاعل إِذَا كَانَ مؤنثًا يُؤَنَّث له الفِعل، وأَمَّا بالياء «يَكُونُ» إِنَّمَا جَازَ التذكير مع تأنيث الفاعل؛ لأن التأنيث مَجَازِيٌّ؛ والمؤنث المجازي كُلُّ مَا لَيسَ لَهُ فَرْجٌ فهو مؤنثٌ مَجازي.

قوله تعالى: ﴿تَكُونُ﴾ كان هنا ناقصة، وخبرُها مُقَدَّم، وَهُوَ قَوله: ﴿لَهُۥ﴾ واسمُها مُؤَخَّر، وهو: ﴿عَـٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾.

قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [أَي: العَاقِبَةُ المَحْمُودَةُ فِي الدَّارِ الآخِرَةِ]، ﴿عَـٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ أي: مَن يَعْقُب غَيرَه في الدَّار، والمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ حَمَلَهَا عَلَى أَنَّ المرَادَ بالدَّار هنا الدَّارُ الآخِرَة، وَلَكن يَنبَغي أَن نَقولَ: إنها عَامَّة في الدَّار الآخِرَة، والدَّار الدُّنيا؛ لأن عِبَادَ الله الصَّالحينَ هُم الَّذينَ لَهم العاقبةُ في الدّنيَا وَالآخرَة، وَقَد كَانَت العاقبة لموسى وقومه حَتَّى في الدَّار الدُّنيا بالنِّسبة لِفرْعَون، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَـٰهُم مِّن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الشعراء:٥٧]، وَقَالَ تعالى: ﴿وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَـٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَـٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ [الدخان:٢٦-٢٨]، وَفي سورَة الشّعَرَاء ﴿وَأَوْرَثْنَـٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء:٥٩].

فالأَولى إذن أَن نَجعَلَ الدَّارَ هنا عَامَّة في الدَّار الدُّنيا، ودار الآخرة.

---

(١) السبعة في القراءات، لابن مجاهد (ص٤٩٤).

﴿وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَـٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ العُقبى في الدّنيَا واضحة؛ إذا فتح المسلمون البلاد صاروا هُم الَّذينَ وَرِثُوها، وهُم كَذَلكَ في الآخرَة في الجَنَّة؛ لأَنَّ المسلمَ يَكون في الجَنَّة وارثًا لمكان الكافِر منه؛ فَإنَّ الكَافِرَ يرى مقعدَه في الجَنَّة، وفي قبره لَو آمَن، ولكن المؤمنون يرثون مقاعِدَ الكافرين في الجَنَّة، وتكون عُقبى لهم أَيْضًا بالدَّار الآخرة.

قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَيْ: هُوَ أَنَا فِي الشِّقَّيْنِ]، والشِّقَّان هما قوله: ﴿أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ﴾، والشِّقُّ الثَّاني: ﴿وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَـٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾، وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَيْ: هُوَ أَنا]، هَذَا هُوَ الحَقّ، أَنَّ الَّذي جَاءَ بالهدى مِن عند الله موسى، وأنه ستكون له العاقبة، ولكنَّ موسى خاطَبَ فِرعونَ بهَذَا الخطَاب المتردد بَينَ كَون الهدى عندَه، أَو عند فِرْعونَ، والعاقبة لَهُ دونَ فِرْعَونَ عَلَى سَبيل التَّنَزُّل، كَمَا في قَوْلِهِ تعالى: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل:٥٩]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ:٢٤].

لكنه هنا لَم يُصَرّح بأَنْ قَالَ: أَنَا قَد جئتُ بالهدى، وأنا العاقبة؛ لأَنَّ هَذِهِ هيَ الدعوة التي جَاءَ بهَا، وأقامَها على فِرْعَون، لكنه ساق الكلام مَساقَ الأمر المتردد بَينَه وَبَينَ فرعَون مِن بَاب التَّنَزّل معه.

قال: [فَأَنَا مُحِقٌّ فِيمَا جِئْتُ بِهِ]، هذا مُفرَّع عَلَى قَوله: [هُوَ أَنا].

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ الكافِرُون، ﴿إِنَّهُۥ﴾ الضَّمير هنا ضمير الشأن؛ لأَنَّه لَم يَسبق له مرجع، ولم يَلحَقه مَا يَصلح أَنْ يَكونَ مرجعًا له، وَعَلَى هَذَا فيكون ضميرَ الشأن، أي: إنَّ الشأن والحال ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ أي: إن كنت أنا ظالمًا بدعوى الرِّسالَة فَأَنَا لَا أُفلح، وإن كنتَ ظالمًا بِرَدِّك الحقَّ فَأَنتَ لَا تُفلح؛ لأَنَّه مفرَّع عَلَى مَا قبلَه ﴿رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ

عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾، وعاقبة الدَّار تكون لغير الظَّالِم؛ لأنَّ الظَّالِمَ لَا يُفلح، ونحن نعلم عِلم اليَقِين أَنَّ الظَّالِمَ في هَذِهِ الحَالِ هو فِرْعَون؛ لأَنَّه رَدَّ الحق.

وقوله: ﴿لَا يُفۡلِحُ﴾ الفَلَاح هُوَ حصول المطلوب، وَالنَّجاة منَ المهروب، وسُمِّي فلاحا؛ لأَنَّه بقاء، وَأَصله في اللّغَة البقاء، كَمَا قَالَ الشَّاعر[1]:

لكُلِّ هَمٍّ مِنَ الهُمُومِ سَعَهْ وَالمُسْيُ والصُّبْحُ لَا فَلَاحَ مَعَهْ

يَعني: لَا بَقَاءَ معه، فتعدَّى الأَمرُ إِلَى أَنْ يَقولَوا: إِنَّ الفلاح هُوَ حصول المطلوب وَالنَّجاة مِنَ المهروب.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مَعنَى ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾: [الكافِرُون] فيه نَظَر، لأن عدمَ فلاح الظَّالِمِين بحسَب ظُلمهم؛ إن كَانَ ظُلمًا أكبرَ، فَهُم لَا يُفلحونَ أبدًا، وهم الكافِرُون، وَإن كَانَ ظُلمًا دونَ ذَلكَ، نَقصَ منَ الفَلَاح بحَسَب مَا نَقَصَ منَ العدل، فالضابط لهذا أَيْضًا إبقاء الآيَة عَلَى ظَاهرهَا، وأنَّ الظَّالِمَ لَا يُفلح، لكن انتفاء الفلاح عنه بحسَب وجود الظُّلم فيهِ؛ فالظلم الأكبر يفوت به الفَلَاح كله، وَمَا دونَ ذَلكَ يَفوت منه منَ الفَلَاح بقَدْر مَا حَصَلَ منَ الظُّلمِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: في قَوْلِهِ: ﴿أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ﴾ التَّنزل مَعَ الخَصم عَلَى وَجهٍ لَا يَكون فيه تقويضٌ لدعوَى المدَّعي.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: فيهَا دَليل عَلَى أَنَّ الهُدَى مِن الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، فَهُوَ الَّذي يَأتي بمَا يَحسُن الاهتداء به، وَيوَفِّق مَن شَاءَ مِن عِباده له، فالهدى مِن عند الله، ﴿أَعۡلَمُ بِمَن

(١) البيت للأَضْبَطِ بْنِ قُرَيْعِ السَّعْدِيّ، كما في اللسان، مادة: فلح.

جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ﴾ فهو ضلال، وَالهدَى مِن عند الله، فما خَالَفَه فَهوَ ضلال.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ العاقبة لمن اتبع هُدَى الله؛ لقوله: ﴿أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ أي: وَهُوَ كَذَلكَ أَعلَمُ بمَن تكون لَهُ عاقبة الدَّار.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّ الظَّالمَ لَا يفلح، ومفهومه أَنَّ صَاحبَ العدل يفلح؛ لأَنَّه إذَا انتَفَى الفلاح عن الظَّالِمِ وجب ثبوته لصاحب العدل.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: التَّحذير منَ الظُّلم؛ لقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، والترغيب في العَدل؛ لأن التحذيرَ منَ الشَّيء تَرغيب في ضِدِّه.

• • ۞ • •



الآية (٣٨)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [القَصص:٣٨].

•••

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ﴾ فَاطْبُخْ لِي الْآجُرَّ ﴿فَاجْعَل لِّي صَرْحًا﴾ قَصْرًا عَالِيًا ﴿لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ أَنْظُرُ إِلَيْهِ، وَأَقِفُ عَلَيْهِ ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ فِي ادِّعَائِهِمْ إِلَهًا آخَرَ، وَأَنَّهُ رَسُولُهُ].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا﴾ يخاطب قومه، وَقد أَتى بصيغة الجمع المقدَّر بالنداء، وفيه منَ الأَمر والتعظيم له، ثُمَّ قَالَ: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ وَلَم يَقل: ما وجدت لكم؛ لأَنَّه لَو قَالَ: مَا وَجَدت لكم. لكَذَّبوه؛ إذ سيُحاجُّونه بأَنَّه لَم يَذهَب لأي مكان، ولم يُفارقهم، فَلَم يَذهَب ليطلب اللهَ، وَلَم يجده، فَنَفَى أَنْ يَكونَ عَالمًا بذَلكَ، فقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾، لأَجل أَنْ يُفَرِّعَ عليه، ثُمَّ قَالَ: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ﴾ فتتم له اللُّعبة، يقول: أَنَا لَا أَعلَم لَكم مِن إِلَهٍ غيري، لَكن لَا مَانعَ مِن أَن نبحث.

قَوله تعالى: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ﴾ أي: اجعَل لي صَرحًا طويلًا رفيعًا

كي أَنْظُرَ: هَل في السَّمَـاء إله لموسى أم لَا؟ وَهَذَا أَبلَغ في التمويه، فعبَّر بقوله: ﴿مَا عَلِمْتُ﴾؛ لأَجْل أَنْ يُتِمَّ لُعبته.

وقوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ المراد من رَبّ غيري؛ لأَنَّه قَالَ في سُورَة النازعات: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات:٢٣-٢٤]، أو يجوز أَنَّ المرَادَ بالإله ظاهرها، فيكون ﴿مِّنْ إِلَٰهٍ﴾ أي: مِن معبود، ولا يعبَد إلَّا الرَّبّ.

وَقوله: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ﴾ الفاء للسببية، وهي عاطفة، وهامان: هو وزيرُه، والظَّاهر أنه وزيرٌ مُطلَق، وَلَمْ يَكن مختصًّا بشأنٍ مُعَيَّن.

قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [فَاطْبُخْ لِيَ الآجُرَّ] أي: الطين، وَهُوَ التّراب المخلوط بالماء، فإذا أَوْقَدَ عليه انعقَد وتحَجَّر، وصار آجُرًّا، وَإِنَّمَا اختَارَ ذَلكَ؛ لأن الآجُرَّ أَقوَى مِن غيره، وَلأَنَّه إذَا أوقد عليه يوقد على مِصفاة، فيشتهر بَينَ النَّاس إذَا سألوا أَنَّ هَذَا هُوَ وقُود الصرح الذي سيَبْنِيه ربُّهم، وَيَكون أَيضًا مُرعِبا أكثر.

قوله تعالى: ﴿فَاجْعَل لِّي صَرْحًا﴾ يقول المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [قَصْرًا عَالِيًا] أي: يبني لَهُ مثلَ المنارة، لكنه بناءٌ عالٍ، وَلَو قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: بناءً عاليًا، لَكَانَ أَولَى.

قوله تعالى: ﴿لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾: ﴿لَّعَلِّي﴾ هَـذِهِ للتَّعليل، يعني: اجعله لي؛ لأطلع إلى إله موسى أَنظر إليه، وأقف عليه، وقوله: ﴿إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ قالها فِرْعَون عَلَى سَبيل التحقير؛ لأن موسى عنده حقير، فإلهه يَكون مثله -حَاشَا لله- حقيرًا لحقارة عابده.

قَولُه تعالى: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [لِادِّعَائِهِ إِلَهًا آخَرَ، وَأَنَّهُ رَسُولُهُ].

وقولُه: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ﴾ أَكَّدَها بـ(إنَّ) واللام، ثُمَّ قَالَ: ﴿مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ ليفتح الباب لكذبه؛ لأَنَّه لَيسَ هَذَا أَوَّل مَن كَذَبَ، فليس بغريب أَنْ يَكذب؛ لأَنَّه قَد سَبَقَه مَن سَبَقَه، فَيَكون هَذَا أَكثَرَ قَبُولا لقوله عندهم، وليُذَكِّرَهم أَنَّ موسَى مِثل غَيره مِنَ الكَاذبينَ، فليس أَوَّل مَن كَذَبَ.

فَائدَة: قَولُه تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ هَـذِهِ الدَّعوَى كَذَب فيها فِرْعَونُ؛ لأنَّ موسَى قَالَ لَه: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الإسراء:١٠٢]، لكنه يُمَوِّهُ به عَلَى قَومِه، ولهذا أمر بهذه الفَعْلَة.

وَكَذَلكَ في قَوْلِهِ: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ كـذب أَيْضًا في قَوْلِهِ، بَل هُوَ مُتيَقِّن أَنَّ موسَى صادق، ولكنه زاغ وتنكَّر للحق.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أن فِرْعَون قد سيطر على قلوب قومه، ووَجْهُ ذَلكَ أَنَّ مِثلَ هَذَا الكَلَام لَا يُقبَل إِلَّا مِن شَخص قد سَلَب عُقولَهم، وإِلَّا خرج أيُّ وَاحِد منهم ليقول: أريد أَنْ أُصْبِحَ إلها.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: تَمْوِيهُ فِـرْعَونَ عَلَى قَومِه، وَأَنَّه مِن أَشَـدّ النَّاس مَكرًا وحِيلَـةً؛ لقوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثبات عُلُـوِّ الله، ونأخذه مِن قَولِه: ﴿فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾، وَهَذَا دَليل عَلَى أَنَّ موسَى قَالَ لَه: إنَّ اللهَ في السَّماء.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن فرعَونَ كَانَ عظيمَ المُلْكِ في مملكته، وَكَانَ لَهُ وزراء يأمرُهم.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إسنَاد الفعل إِلَى الآمر به إِذَا كَانَ لَهُ سلطَان، لقوله: ﴿فَٱجْعَل

لِي صَرْحًا ﴾، وَمَعلوم أَنَّ هامان لَمْ يُبَاشر البناء، بل باشَرَهُ العُمال، ولكنه نسبَ الفعل إلَيه؛ لأنَّه الآمِر به، ففيه إسنَاد الفعل إلَى الآمر به لمَن كَانَت لَهُ سُلطة الأمر.

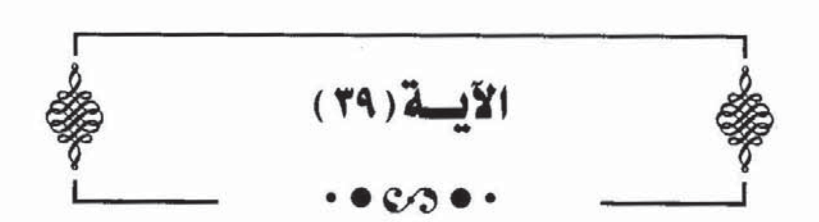
والفقهاء رَحِمَهُمُ اللَّهُ اعتبروا هذا، فقالوا: لَو أَمَرَ بالقَتل غيرَ مكلَّف، فَقَتَل، فالقَوَد عَلَى الآمِـر؛ لأَنَّه لَو قَالَ رَجُل مَا لشاب لَم يَبلُغ بَعْدُ: اقتُل فلانًا. فذَهَب فقتلَه؛ فَإِنَّ الَّذي يُقْتَلُ هو الآمِر؛ لأَنَّه هُوَ السَّبَب، وَالحُكم إلَيهِ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ الفَخَّار أَقوَى مِنَ الطِّين غير الموقَد عليه، يؤخَذ مِن قوله: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾ وَقَد يَكون فِـرْعَون أَوَّل مَن اخترع هذا الطين، وَقَد يَكون الأَمر مَعلوما مِن قَبل.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: طغيان فِـرْعَون، واستِكْباره، حَيـث ذَكَرَ الربَّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بصيغة الإذلال في قَوْلِهِ: ﴿لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ﴾ فنسبه إليه؛ احتقارًا له، لأنَّه يحتقر موسى.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ فـرعَون مِن أَكْذَبِ النَّاس؛ لقوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى﴾، ولقوله: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾.

• ● ۞ ● •



الآيــة (٣٩)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴾ [القَصَص:٣٩].

•●ღ●•

قال المُفَسِّـرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أَرْضِ مِصْـرَ ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴾ بِالْبِنَاءِ لِلْفَاعِلِ وَلِلْمَفْعُولِ].

قوله تعالى: ﴿ وَٱسْتَكْبَرَ﴾، من الكِبرياء، وهي العَظَمَة، والمعنى أنه تَرقَّى وتعاظَم هو وجنودُه، وزيادةُ الهَمْزة والسِّين والتَّاء للمُبالَغة، وليْسَت للاستِدْعاء؛ لأَنَّ الغَالبَ أنَّ الهمـزَة تكُونُ للاستِدْعاء، مثل: استغفرَ له، يعني: طلب مغفرَته، واسْتَـرْحمه: طلـب رحمته، لكن تأتي أحيانًا للمُبالغـة، مِثل ﴿ٱسْتَكْبَرَ﴾ يعني: بَالَغَ في الكبـرياء والعظمة هُوَ وجنوده.

قَولُه تعالى: ﴿وَجُنُودُهُۥ﴾ الجند في الأَصل هُم حاشية الإِنْسَان وأنصارُه، ويُطلَق عَلَى كلِّ مَن اتَّبعه، فَهوَ مِن جُنده.

وقوله: ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ متعلِّق بـ﴿ٱسْتَكْبَرَ﴾، و(ال) في قَوْلِهِ: ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ للعهد الذهني، قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَرْضِ مِصْرَ]، أي: ليست الأَرضَ كلَّهَا؛ لأَنَّه لَا سُلطَانَ لَهُ عَلَى بَقيَّة الأراضي، وَلَكنَّ المرَادَ أَرض مِصرَ.

فَعَلَى هَذَا تكون (ال) هنا للعهد الذهني لا للعموم.

وقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ بيانٌ للواقِع؛ لأن الاستِكْبارَ كُلَّه مُخالف للحق، وَزِيَادَة في تقبيحِه، فالاستِكْبار قبيحٌ، فإذا وُصِف بغَير الحَقّ صار أقبحَ وأقبحَ، ونظير هَذَا قَوله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [البقرة:٦١].

وَمنَ المَعروف أن قتلَ الأَنبيَاء لَا يمكن أَنْ يَكونَ بِحَقٍّ، لكن ذَكَرَ ذَلكَ للمبَالَغَة في تقبيحه، فالواقع أَنَّه لَيسَ بحَقٍّ، يَقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ والحق في الأَصل هُوَ الشَّيْء الثابت، فَإِذَا أُضيفَ إِلَى الكَلَام، فَالمرَاد به الصَّدَقُ، وإذا أضيفَ إِلَى الأحكام، فالمرَادُ به العدل، كَقَوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام:١١٥].

إذن: انتفى عَن هَؤلَاء باستِكْبارِهم الحَقُّ مِن وَجهَين: حيث اتخذوا كذبًا وزُورا بما استكبروا به، وغير الحق.

قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ قَد يَكون المرَاد بالظن هنا الرُّجحان، أو اليَقِين، فهم مُتيَقِّنُون مما جحدوا به، أَمْ أنهم تَرَجَّح عندَهم أَنَّهم راجعون.

كلَاهمَا في الواقع يُنافي قَولَه تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل:١٤]؛ لأَنَّ مَن استيقن شَيئًا لَا يظن خلافَه، فمَن استقين أَنَّ مَا جَاءَ به موسى حقٌّ، فلا يَظنُّ أَنَّ خِلَافَه هُوَ الحَقُّ؛ لأَنَّ مَن استيقن الشَّيْء آمَنَ به، لكن يبدو لي أَنَّ الظنَّ هنا إمَّا بمعنى الدعوى، يعني: ادَّعَوا أَنَّهم إلَينَا لَا يُرْجَعُون، أَو أَن المرَاد بِهِ الظن، أَلَم يستفسر عَن الحَقّ الَّذي جيءَ به مِن عند الله، وَهُوَ فعله هنا فعلَ الظانّ.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ فيها قراءتان، بالبناء للفاعِل «لَا يَرجعونَ»، وبالبناء للمَفعول ﴿لَا يُرْجَعُونَ﴾[1]، وأركانُ القِراءَة موجودة هنا،

(١) السبعة في القراءات، لابن مجاهد (ص٤٩٤).

وَقَد ذَكَرنَاه سابقا في بَيتَين[1]:

فَكُلُّ مَا وَافَقَ وَجْهَ نَحْوِ ... وَكَانَ للرَّسْمِ احْتِمالًا يَحْوِي

وَصَحَّ نَقْلًا فَهُوَ القُرْآنُ ... فَهَذِهِ الثَّلَاثَةُ الأَرْكَانُ

وَمَعنَى قَوله: ﴿يَرْجِعُونَ﴾ أي: يعودون، ويُرَدُّون إلَى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ إذ إنَّ الكلَّ سوف يَرجع إلَى الله، والإِنْسَان رَاجع إلَى الله في مَحْيَاه ومَمَاتِه، فهو بَعدَ المَوت يَرجع إلَى الله، وَكَذَلكَ في الدّنيَا أمرُه رَاجع إلَى الله، فَهوَ الَّذي يُدَبِّره.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: بَيَان حَال فِرْعَونَ وجُنوده أَنَّهم قَومٌ مستكبرون عَن الحَقِّ، متَعَالُون عليه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّ مَن استكبر عَن الحَقِّ فيه شَبه مِن فِرْعَونَ وجنوده.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: وُجوب الرُّضوخ للحَقِّ، فالإِنْسَان يَجب عَلَيه أَنْ يرضَخَ للحق، سواء وافقَ هَوَاهُ أَو خَالَفَه.

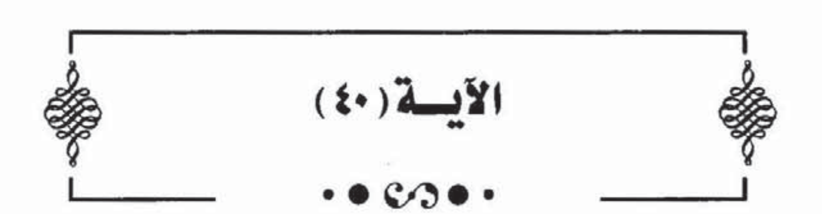
الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن المستكبر لَيسَ لَهُ حق؛ لقوله: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّ هَؤلَاء المستكبرين يَعمَلونَ عَمَلَ مَن لَا يَظُنُّ أَنَّه يَرجع إلَى الله؛ لأَنَّ مَن ظَنَّ أَنَّه يَرجِع إلَى الله لن يستكبر عنه؛ لأَنَّه يَخاف منه، لَكن مَن يستكبر هُوَ مَن ظَنَّ أَنَّه لَا يَرجع إلَى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إثباتُ البَعث؛ لأَنَّ قَوله: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ إثبات الظن، فيقتضي أنَّ الرّجوع إلَى الله أَمرٌ ثابت.

---

(١) متن طيبة النشر في القراءات العشر، لابن الجزري، البيتان (١٤، ١٥).



❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [القَصَص:٤٠].

• • ● • •

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ﴾ طَرَحْنَاهُمْ ﴿فِى ٱلْيَمِّ﴾ الْبَحْرِ المَالِحِ فَغَرِقُوا ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ حِينَ صَارُوا إِلَى الْهَلَاكِ].

قوله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَـٰهُ﴾ الفاء عاطفة، وَالمُرَادَ بها أيضًا السَّبَبِيَّة، أي: فبسبب استِكْباره هو وجنودِه ﴿فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ﴾، مُقابل الاستِكْبار ذَكَرَ الله تعالى عقوبتهم عَلَى وَجه الاستهجان والتحقير.

قوله تعالى: ﴿فَنَبَذْنَـٰهُمْ﴾ النَّبْذُ هو الطَّرح، أي: طرحناهم بِقُـوَّة، والمطروح بِقُوَّة حقيرٌ؛ لأن العظيم لا تستطيع أن تَنْبِذَهُ نَبْذًا، فهو خطير عظيم، إنما يُنبَذ نَبْذًا مَن كَانَ هَيِّنا حقيرًا، وَلهَذَا قَالَ: ﴿فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ﴾ والضَّمير (هُم) يَعود عَلَى فِـرْعَون والجنود، ولم يُغْنِه عنه هؤُلاءِ الجنود شيئا؛ لأَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لَا شَيءَ يُقَابله مِن قوة البشر.

قَوله تعالى: ﴿فِى ٱلْيَمِّ﴾، قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [الْبَحْرُ المَالِحُ] احترازًا مِنَ الأنْهار؛ لأن الأنْهار بِحارٌ، لكنَّها غيـرُ مالحة، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَـٰذَا عَذْبٌ

فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ [الفرقان:٥٣]، وقال تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ [الرَّحمن:١٩]. فسمَّى اللهُ تعالى الأنْهارَ والبحارَ المالحةَ بحارًا.

وقوله: [البَحْرُ المَالِحُ] هَذَا بيَانٌ للواقِع الَّذي وُجِدَ فيه فرعَونُ وجنودُه؛ لأنَّهم وُجِدُوا في بَحْر القُلْزُم، وَهُوَ البَحر الأحمر الَّذي بَينَ جَدَّة ومِصر، هَذَا الَّذي غَرق فيه فِرْعَونُ وقومُه.

انظر إلى الحكمَة في أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أغرقهم إغراقًا في اليَمِّ؛ لأنَّ فرعَونَ كَانَ يفتخر بأنهاره ويقول لقومه: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف:٥١-٥٢]، فأخرجه اللهُ مِن مُلك مصر، وأهلَكَه بمَا كَانَ يَفْخَرُ به منَ الأنْهار.

قوله تعالى: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: ﴿فَٱنظُرْ﴾ الخطاب لكلِّ مَن يَصِحُّ تَوجيه الخِطَاب إلَيه، أي: فانظر يَا مَن تسمع هَذَا الخطَابَ ويوجَّه إليك.

والمراد بالنَّظر هنا نظرُ الاعتبار، وهو النَّظر بالقَلب؛ لأن العاقبة لا تُنْظَر بالعَين، اللَّهمَّ إلَّا إذَا سار الإنسَان في آثَارِهم، فقد يَنظر بِعيْنه وبِقَلْبه و﴿كَيْفَ﴾ هنا للاستفهام، وَالمرَاد به التعظيم، يعني: عِظَم العاقبة، لَكن لَا تعظيمَ الرِّفعة، بل تعظيم العقوبة، فهو تفخيمٌ لها، وتعظيمٌ للعاقِبة الوَخِيمة السيِّئة للغاية، وَهُوَ اسم استفهام مَبنيٌّ عَلَى الفتح متعلق بخبر مقدَّم وجوبًا لـ﴿كَانَ﴾.

قوله تعالى: ﴿عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: ﴿عَٰقِبَةُ﴾ بمعنى عُقبى، وَهيَ عَلَى صيغة اسم الفاعل، والمراد العُقبى، و﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ هُم الَّذينَ نقصوا حُقوق أنفسهم، وحُقوق ربِّهم؛ لأنَّ الظُّلم في الأَصل النقص، قَالَ الله تعالى: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ [الكهف:٣٣]، أي: لَم تَنقص.

وقوله: ﴿ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ المراد بالظَّالِمِين هنا الكافِرُون؛ لأنَّه يُشير إِلَى مَا جَرَى لِفِرْعَون وقومِه، وهم ظالمون ظُلْمَ كُفر؛ لأن الظُّلم يَنقَسم إِلَى قسمَين: ظُلم كُفر، وظُلم معصية، وهو دونَ الكفر.

ففي قَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٧٩]، المراد هنا ظُلم المعصية، وفي قَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱلْكَـٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ [البقرة:٢٥٤]، المرادُ ظُلم الكفر، وفي قوله: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة:٥٧]، شامل للأمرين: الكفر وَمَا دونَه.

قوله تعالى: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ في مَصيرِهم إِلَى الهَلَاك بأَتْفهِ الأُمور، وَهُوَ المَاء، وَهَذه مِن حِكمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ أَنْ يَأْخُذَ كُلَّ إنسانٍ بِذَنْبِه، كَمَا قَالَ اللهُ تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾ [العنكبوت:٤٠]، أي: بمَا يَقتَضيه ذَنْبُه منَ العقوبَة.

وكذلك عادٌ استكبروا في الأَرض وتحَدَّوْا، ﴿وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت:١٥]، فَرَدَّ الله عَلَيهم: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت:١٥]؛ لأن الخالِق بلا رَيْبٍ أَقوَى مِنَ المَخلوق، وقد أخذوا بأَلْطَف الأَشْياء، وهي الرِّيح أَرسَلَ اللهُ عَلَيهم الرِّيح، قَالَ تعالى: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَـٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة:٧]، كل أيام الدَّهر، وَلَو شَاءَ الله لَأَرْسَلَها عليهم بِلَيْلَةٍ واحدةٍ، ودَمَّرَتْهُم تدميرًا، لكن لِحِكْمَةٍ أرادها أَنْ يعَذَّبوا أصلًا لأخذتهم جميعًا، وابتدأت بالأطراف، ثم يصعد إِلَى أَعلَى السماء، ثُمَّ يَنزل عَلَى رَأسه، ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة:٧]، وهذا أشد عقوبة؛ لأَنَّهَا لَو جاءتهم مَرَّة وَاحدَة ودَمَّرَتْهُم، ما عُذِّبُوا وماتوا وهلكوا، وانتهى الأمر، لَكن هَذَا أشدُّ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أن الذُّنوب سببٌ للعُقوبة.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: بيان عَظَمَة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ حيث أخذ هَؤُلَاء الكفَّار بما لَهم مِنَ القُوَّة، ونَبَذَهُم نَبْذًا كما يَنْبِذُ الإِنْسَان، فَلَم يُبَالِ بهم، ولم يُعْجِزُوا اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: حِكمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ حَيث كَانَ إهلاك فِرْعَونَ وقومِه بالمَاء الَّذي كَانَ يفتخر به بقَوله: ﴿يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الزخرف:٥١]، فَإِنَّ هَذَا الَّذي كَانَ يفتخر به كَانَ مَحَلَّ هلاكِه.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّ فِرْعَون قَد هَلَكَ فيمَن هَلَكَ، وأَنَّ قَولَه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ [يونس:٩٢]، وليس مَعناه أَنَّه حَيٌّ باقٍ، وَإِنَّمَا الَّذي أُنْجِيَ، وظَهَر للنَّاسِ هو بَدَنُه فقط ليكون لَمِن خَلْفَه آيةً؛ لأَنَّ بَني إسرَائيلَ -كَمَا قَالَ أَهلُ العِلم- قَدْ أَرْعَبَهُم فِرْعَونُ، فَلَولَا أَنَّه خَرَجَ حتى شاهدوه ببَدنه لَشَكُّوا في هلاكِه، فإذا شاهدوه تيَقَّنُوا، وزال عنهم الشك، فإذن هو هالك فيمَن هَلَكَ؛ لقوله تعالى: ﴿فَنَبَذْنَٰهُمْ﴾.

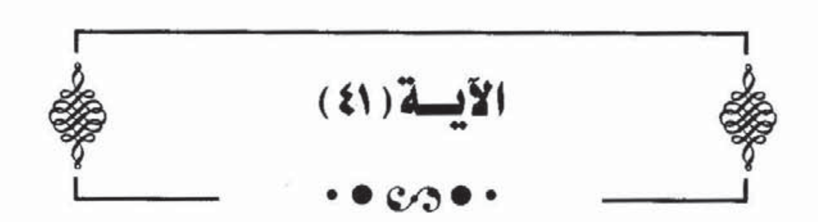
الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّه يُطلَب مِن المرء إمَّا وجوبًا، أو استحبابًا، أن يتأمَّل في عَاقبَة الظَّالِين، لقوله: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وَأَنَّه يَنبَغي لَنَا أَن نَتَّعظ بعاقبة هؤُلاءِ، فلا نَظْلِمَ مِثلَهم؛ لأَنَّه مَا دَامَ عاقبةُ الظَّالِمِ الهلاكَ؛ فإِنَّ الإِنْسَان يخشَى أن يهلِك إذا ظلَمَ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أَنَّ الظُّلمَ مُحرَّم؛ لأَنَّه سَبَب في العُقوبَة، وَمَا كَانَ سَبَبا لعُقوبة، فَإِنَّه مُحرَّم، وَسَوَاء كَانَ الظُّلم للنفس، أو للغير؛ لأَنَّه مُحرَّم بجميع أنواعه، قَالَ اللهُ

تعالى في الحديث القدسي: «يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا»[1].

• • ۞ • •

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٧٧).



۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ [القَصَص:٤١].

• • ◦ • •

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَجَعَلْنَاهُمْ﴾ فِي الدُّنْيَا ﴿أَئِمَّةً﴾ بِتَحْقِيقِ الْهَمْزَتَيْنِ وَإِبْدَالِ الثَّانِيَةِ يَاءً: رُؤَسَاءَ فِي الشِّرْكِ ﴿يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ بِدُعَائِهِمْ إِلَى الشِّرْكِ ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ بِدَفْعِ الْعَذَابِ عَنْهُمْ].

أَي: إِنَّ في كَلِمَة ﴿أَئِمَّةً﴾ قراءتين: الأُولى الواردة بالهَمْز، والثَّانية بالياء بَدَلَ الهمز هكذا «أَيِمَّة»[1]، والقراءتان سبعيتان.

ثمَّ قَال: [رُؤَسَاءَ فِي الشِّرْكِ]؛ لأَنَّ الإمَامَ هُوَ القائد الذي يُتبع، فَهوَ ذو أَثَر في الشِّرْكِ، وليسوا رؤساءَ في الشِّرك فقط، بل رؤساء متبوعين، فالإمامُ هو المتبوع، والمعنى: أَنَّهم كَانوا قادةً إِلَى الكفر وَالشِّرك.

لكن المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ هنا يقول: [وَجَعَلْنَاهُمْ فِي الدُّنيَا أَئِمَّةً]، وَلَو أَنَّه أَخَّرَ الدُّنيا لكان أحسن.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ في الدّنيَا؛ لأن حَقيقَة الأَمْر أَنَّ إمَامَتَهم بالكفر كَانَت في الدُّنيَا، فهُم جُعِلُوا في هَـذِهِ الدُّنيَا أئمةً، يعني:

---

(١) شرح طيبة النشر في القراءات العشر، للنويري (١/ ٤٣٧).

متبوعين يُقْتَدَى بهم في الكفر، فكلُّ مَن أَتَى بَعْدَهُم، وكان كُفره كُبَّارًا؛ فإنه مُقْتَدٍ بهم.

وقوله: ﴿يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ بالقَول وَبالفعل جميعًا، فهم قَبلَ أَنْ يَهلكوا يدعون بالقَول وَبالفعل، وَبَعدَ أَن هلكوا يَدعون بالفعل؛ لأَنَّ مَن اقتدى النَّاس بفعله فَهوَ في الحَقيقَة قد دَعَاهم إلَيه.

وهم هنَا لَا يدعونهم بالقول: هيا ادخلوا النار، ولكن يَدعونَ إلَى العَمَل المَوَصّلَ إلَيهَا، وَهُوَ الشّرك والكفر، وبئس مَا كَانوا أئمة فيه، وهو الدعوة إلَى الكُفر بالله تَبَارَكَ وَتَعَالَى والإشراك.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾: ﴿وَيَوْمَ﴾ هذا ظرفٌ متعلق بـ﴿يُنصَرُونَ﴾، يعني: وَهُم لَا يُنصَرونَ يَومَ القيَامَة، هُم في الدّنيَا أئمة متبوعون، لَكِن في الآخِرَة ﴿لَا يُنصَرُونَ﴾، لَا يَستَطيعونَ أَنْ ينتصروا لأنفسهم، فَلَا يمكن أَنْ يَكونوا أَئمَّة يُقتَدَى بهم.

وقوله: ﴿لَا يُنصَرُونَ﴾ أي: لَا يَجِدُونَ مَن ينصرهم بِدَفع العَذَاب عنهم، لَا هُم، وَلَا غَيرُهم، حتى غَيرهم لَا يمكن أَنْ يَدفَعَ عنهم العذاب.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: حِكمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في مِثل فِرْعَونَ وقومِه؛ لأن إيجادَهم حِكمة، فَإِنَّ اللهَ قَادر عَلَى أَنْ يَجعَلَ النَّاس عَلَى الهدَى، لكنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى له الحكمَة في أَنْ يُوجِد مثلَ هَؤلَاء القَوم الَّذينَ يَدعونَ إلَى النَّار.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: حِكْمَةُ اللهِ تعالى فيمَا خَلَقَ مِن أَمْره، وأنه بلاءٌ وفتنة.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثبات الإمَامَة في الشَّرِّ، فَانظر إِلَى هَذِهِ في آل فرعونَ، وَانظُر إِلَى هَذِهِ فِي بَنِي إِسرَائيلَ ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة:٢٤]، ففَرق بَينَ مَن يَقُودُ النَّاسَ بأَمر الله، أَو مَن يقودونهم بشريعته، وَبَينَ مَن يَدعونَ إِلَى النَّار.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّ الدّعَاءَ إِلَى النَّار وإلى الخير أيضًا، كَمَا يَكون بالقَول يَكون بالفعل، وَقَد يَكون مَا هُوَ بالقول أقوى، وَقَد يَكون مَا هُوَ بالفعل أَقوَى، إنما عَلَى كلّ حَال الدعاء بهذا وبهذا ثابت؛ فَإِنَّه كَانَ يَدعو النَّاسَ بمقاله وبحاله.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إثبات يَوم القيَامَة في قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾، وقد سُمي يَومَ القيَامَة؛ لأُمُور ثلاثة:

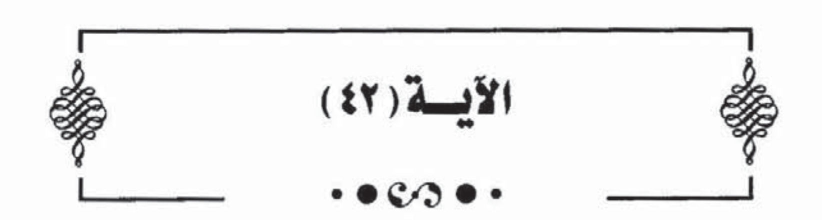
الأَوَّل: أَنَّه يَقُوم النَّاس فيه مِن قُبورهم لرَبّ العَالَمِينَ.

الثَّاني: أنه يقَام فيه العَدل كَمَا قَالَ تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [الأنبياء:٤٧].

الثالث: أنه يَقُوم فيه الأشهاد ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ﴾ [غافر:٥١]، فلهذا سُمّيَ يَومَ القيَامَة.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: بَيَان أَنَّ آل فرعَونَ لَا نَاصِرَ لَهم في الآخرَة، ومِثلهم مَن كَانَ عَلَى شاكلتهم مِن المستكبرين عَن الحَقّ؛ فَإِنَّهم لَا يَجدونَ مَن يَنصرهم مِن عَذاب الله إِذَا نَزَلَ بهم في ذَلكَ اليَوم.

• • ۞ • •



الآية (٤٢)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ [القَصَص:٤٢].

• • • •

قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ خِزْيًا، ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ المُبْعَدِينَ].

قَولُه تعالى: ﴿وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ الضَّمير يَعود عَلَى فِرْعَون وجنوده، أي: وجَعَلْنَا اللعنة تتبعهم بعد إهلاكهم، واللعنة في الأَصل: الطرد والإبعاد، وفسرها المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بلازمها، وهو الخِزي، أي: إِنَّ كُلَّ مَن ذَكَرَهُم يلعنهم ويطرُدهم، ويبتعد عنهم، وَلَكن لَا مُنافاةَ بَينَ مَا هنَا، وَبين قَولِه في الآيَة السَّابقَة: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾؛ لأَنَّ الَّذي يأتَمُّ بهم هُوَ المُوافق لَهم عَلَى كُفرهم، أَمَّا مَن لَم يهتَمَّ بهم؛ فإنه يلعنهم.

واللعنةُ مِنَ الله، وَمِن غَيره، قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أُولَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ [البقرة:١٥٩]، فمَن لَعَنَه اللهُ لَعَنَهُ المؤمنون بالله، قَالَ ابن مَسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في لَعْنِ النَّامِصَة والمُتَنَمِّصة، قال: «مَا لِي لَا أَلْعَنُ مَنْ لَعَنَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَهُوَ فِي كِتَابِ اللهِ»[1].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب اللباس، باب المتنمصات، رقم (٥٩٣٩)، ومسلم: كتاب اللباس والزينة، باب تحريم فعل الواصلة والمستوصلة، رقم (٢١٢٥).

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾: ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ أَيْضًا ظرفٌ متعلق بمحذوف حالٌ مِن ﴿هُم﴾، يعني: وهُم حال كونهم يَومَ القيَامَة منَ المقبوحين، أو متعلق بـ﴿ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾، ولكن (ال) اسمُ موصول، والاسم الموصول لَا يَعمَل مَا بَعدَه فيمَا قبلَه، فإمَّا أن تجَرَّد (ال) مِن المصدرية، أو ذَلكَ عَلَى سَبيل التوسّع؛ لأنَّهم يتوسّعون في الجَارِّ والمجرور والظرف مَا لَا يتوسعون في غَيرِه.

وقوله تعالى: ﴿هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ الجملة اسمية، دَالَّة عَلَى أَنَّهم هُم في ذَلكَ الوَقتِ لَا يمكن أَبَدا أن يستحسن مَا فَعَلوه، أو يُقَرَّبوا، بل إنهم في ذَلكَ الوَقتِ مِن المقبوحين المُبْعَدِين الذين يفضحُهم كُلُّ مَن ذَكَرَهُم، فَلَا يمكن لأَحَد أَنْ يُقَرِّبَهم.

إذن: عوقب هَؤلَاء الَّذينَ كَانوا يَدعونَ إِلَى النَّار بثلاثة أُمُور:

الأمر الأول: الإغراق بالماء، وَأَنَّهم إذَا حَلَّ بهم العذاب يَومَ القيَامَة، فلن يجدوا مَن ينصُرهم؛ لأَنَّه قَالَ: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾.

الأمر الثَّاني: العارُ الَّذي لَحِقَ بِمَن لَعَنَهُم، تلك اللعنة التي لَحِقَتْهُم إلى يَومِ القيَامَة؛ لقوله: ﴿وَأَتْبَعْنَـٰهُمْ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً﴾.

الأمر الثالث: أنهم يَومَ القيَامَة لَا يمكن أَبَدا أَنْ يَكونوا مِنَ المحمودين المقَرَّبين، بَل هُم مِنَ المقبوحين المطرودين المبعدين.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أنَّ عُقوبة آل فرعَونَ كانت ممتَدَّة إلى يَومَ القيَامَة بالذكرى السيِّئة لهم، لقوله تعالى: ﴿وَأَتْبَعْنَـٰهُمْ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً﴾؛ فإن كُلَّ مَن ذَكَرَ آل فرعَونَ يذكُرهم بالسُّوء، والبغض، والكراهية.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: تحقير الدُّنيا؛ فَإِنَّ قَوله: ﴿فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا﴾ تُقَال للقريب؛ لدُنُوِّ مرتبته، وأنها دنيا، والدُّنيا مُؤَنث أَدْنَى، وَهيَ مِنَ الدُّنُوِّ الحِسِّي والمعنوي؛ أما الدُّنو الحِسِّي فَلِسَبْقِها عَلَى الآخِرَة، فهي أدنى إِلَى المَخلوقينَ مِنَ الآخرَة، وأما الدُّنُوُّ المعنوي فلِمَا تتضمَّنُه مِن النَّقص في جَميع كمالاتها، فَما مِن كمالٍ في الدّنيَا إلَّا وَهُوَ ناقص، والآن لو تأمَّلْتَ جميع المَضارِّ والمنافع الدنيوية، تجدها مَشُوبَةً بالضَّرر والخَطر، حتى الزَّمان، كَمَا قَالَ الشَّاعر[1]:

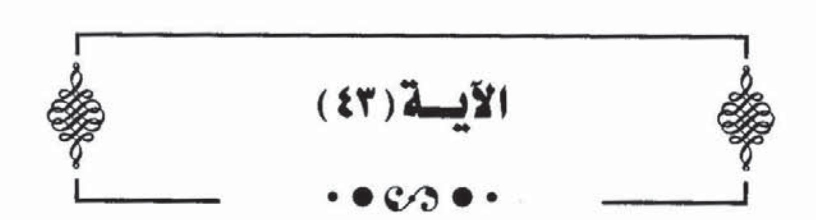
فَيَوْمٌ عَلَيْنَا وَيَوْمٌ لَنَا ... وَيَوْمٌ نُسَاءُ وَيَوْمٌ نُسَرُّ

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ اللعنة التي وُزِّعَت عَلَى هَؤلَاء الفِرْعَونيين تكون عَلَيهم في الآخرَة؛ لقوله: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾؛ لأن المَقبوح معناه: المُبْعَد، واللَّعْن: هو الطَّرْدُ والإبعاد.

• • ۞ • •

---

(١) البيت للنمر بن تولب، كما في زهر الأكم، لنور الدين اليوسي (٣/ ١٣٥).



قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص:٤٣].

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ التَّوْرَاةَ].

قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ في قَوْلِهِ تعالى: ﴿الْكِتَابَ﴾: [التَّوراة]، وَهيَ كتَاب بمعنى: مكتوب، والجملة مؤكَّدة بثلاثة مؤكّدات، وَهيَ القَسَم واللام الوَاقعَة في جَوَابه، وقد.

وهنا قد يَقول قَائل: لماذا تؤكد بهذه المؤكّدات الثَّلاثَة مع أَنَّهَا لَيسَت مخاطَبة لمنكر لها؟

فالجواب: هو أَنَّنا سَبَقَ أَنْ قُلنَا: إنَّ التأكيد ليس سببه إنكارَ المخاطَب فقط، بَل قَد يَكون سببه أهميةَ المخبَر عَنه، فيُؤكَّد بالقَسم وباللام وقَدْ، وَغيرهَا منَ المؤكدات.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أَنَّ إتيَانَ التَّورَاة كَانَ بَعدَ إهلاك الأُمَم السَّابقَة، ومنهم فِرْعَون، واستنبط منهَا بَعضُ العلَماء مِن قَوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى﴾ أَنَّه لَم تهلك أُمَّة عَلَى العموم بَعدَ نزول التَّوراة؛ لأَنَّه قَالَ تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا

﴿ٱلْقُرُونَ﴾ وكأنه بَعدَ نُزول التَّوراة ما أُهْلِك أَحَدٌ مِنَ القُرون، وهذا الاستنباط ليس ببعيد؛ لأن الواقع يُصَدِّقُه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ الكُتب النازلة مِنَ السَّماء أنَّها أنوارٌ للنَّاسِ يَهتَدونَ بهَا؛ لقوله: ﴿بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن التمسُّك بشرائع الله تَكُون به الرَّحْمة؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن الكُتب النازلة مِنَ السَّماء هيَ الَّتي بهَا الهدى مِنَ الضَّلَال؛ لقوله: ﴿وَهُدًى﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّ الحِكمَةَ مِن إنزال هَذِهِ الكتب تذكُّر الناس بمَا فيهَا مِن المواعظ؛ لقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إثبات الحكمَة في أَفعَال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَكَذَلكَ في شَرَائعه؛ لأن (لَعَلَّ) معناها: التَّعلِيل، والذي أنكر الحِكمة هُم الجهمية، حيث يقولون: إِنَّ الله تعالى لَيسَت لَهُ حِكمة فيمَا يَفعَل وما يشاء، وإنما هو لمجرد مشيئة.

قوله تعالى: ﴿ءَاتَيْنَا﴾ بمعنى: أعطينا.

واعلَم أَنَّ إيتاءَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ينقسم إلى قسمين:

إيتاءٌ شرعي: وَهُوَ مَا تعلَّق بالشرع، قَالَ تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التوبة:٥٩]، فهذا إيتاءٌ شرعيٌّ، والمراد به: الصدقات.

وإيتاءٌ قَدَري: وهو ما تَعلَّق بالكونِ والخَلق، قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾، فهذا إتيانٌ قَدَرِيٌّ؛ لأن إنزال القُرْآن مِن الأُمور الَّتي تتعلق بمشيئة الله،

لا بِشَرْعِه؛ فأصلُ الإنزال قَدَرِيٌّ يتعلق بمَشيئَة الله وقَدَرِه، لكن العَمَل به شرعي.

وقوله تعالى: ﴿ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾: ﴿مُوسَى﴾ مفعولٌ أَوَّل لـ﴿ءَاتَيْنَا﴾، و﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ مفعولٌ ثانٍ، وهو مِن باب (كَسَا)؛ فكُلُّ مفعولَين لا يصح أَنْ يَكونَ أحدُهما مبتدأ والثَّاني خبرًا، فهُما مِن بَاب (كسا)، وما صَحَّ أن يكونا مبتدأ وخبرًا، فهُمَا مِن بَاب (ظن)، وقوله: ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ يقول المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [التَّوْرَاةَ]، وهو فِعَال بمعنى: مَفعول؛ لأنَّ التَّوراةَ مَكتوبَة، كتبها اللهُ تعالى في ألواح وأعطاها موسى.

وقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ متعلق بـ﴿ءَاتَيْنَا﴾، أي: أعطيناه إِيَّاه مِن بَعد ما أهلكنا القرون الأُولى، والقُرون جمعُ: قَرْن، والمراد بهم الأمم، وقد يُرَادُ به الفترة مِن الزَّمَن، ومقدارها مائة سَنة، فالقُرون تارَةً يُراد بها الأمم، وتارَةً يُرادُ بها أحقابُ الزَّمَن، وهنا المراد الأمم؛ لأن أحقابَ الزَّمَن لا تُهْلَكُ، الذي يُهْلَكُ هو الأمم.

وقوله تعالى: ﴿ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودُ وَغَيْرُهُمْ]، هؤُلاءِ هُم القُرون الأُولى، وَإِنَّمَا قَالَ اللهُ تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾؛ إِشَارَة إِلَى أَنَّ النَّاس كانوا في حاجة إلى مِثل هَذَا الكتاب الذي نَزَل عَلَى موسَى؛ لأن القُرون أُهلِكَت، وتطاول الزَّمَن فاحتاج النَّاس إلى رسالة، فأرسل اللهُ تعالى موسى بهذا الكتاب، الَّذي هُوَ التَّوراة.

وقيل: إنَّ القُرون الأُولى تشمل حتَّى آل فرعَونَ؛ لأن التَّوراة ما نزلت عَلَى موسَى إلَّا بَعدَ أَن أهلك اللهُ القرن -فرعَونَ وَقَومه- وأنه يشمل حتى هؤُلاءِ، حَتَّى إنَّ بَعض العلَماء استنبط منها أَنَّه لَم تُهْلَكْ أُمَّةٌ بَعدَ نزول التَّوراة، وأنَّ هذا مِن فوائد

قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ ٱلۡأُولَىٰ﴾؛ لأنَّ إهلاكَ الأُمَم السَّابقَة مضَى وانقضَى، ولا إهلاكَ بَعدَ نُزول التَّوراة.

والحقيقة أنَّ مَن تأمَّل التاريخَ وجَدَ أنَّه لم تُهْلَك أُمة بَعدَ نزول التَّوراة، ما هلكت أُمة، لكن هل قَولُه تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ ٱلۡأُولَىٰ﴾ يشير إلَى هَذَا؟ هَذَا هُوَ محل النظر والمناقشة.

قوله تعالى: ﴿بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ﴾ حالٌ مِن قَولِه تعالى: ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾، والبصائر: جمع بَصِيرة، وهي نُور القلب، كما أنَّ بَصر وأبصار نُور العَين، فنُور القَلب يسمى بَصِيرة وبَصَائِرَ، ونُور العَيْن يُسَمَّى بَصَرًا وأبصَارًا، قَالَ تعالى: ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ﴾ [الأحقاف:٢٦].

وقوله: ﴿لِلنَّاسِ﴾: (ال) هنا للعَهد الذهني، وليست للعُموم؛ لأن التَّوراة لم تنزل إلا لقوم موسى فقط، كَما قَالَ النَّبيّ ﷺ: «وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً»(١).

وقوله: ﴿لِلنَّاسِ﴾ يُخرج الجنَّ مِن حيث التكليفُ والإلزامُ؛ لأنَّه لَم يُكَلَّفْ أحدٌ برسالة أَحدٍ مِن الرُّسل مِن الجن، لكن مِن حيث العَمَلُ يمكن أن يستبصر بها الجن، كما قالوا: ﴿يَٰقَوۡمَنَآ إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الأحقاف:٣٠]؛ فإن الظَّاهر أَنَّهم كَانوا قد انتفعوا بما أُنزل عَلَى موسَى كما انتفعوا بالقُرْآن.

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [جَمْعُ بَصِيرَةٍ، وَهُوَ نُورُ القَلْبِ، أَيْ: أَنْوَارًا لِلْقُلُوبِ].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التيمم، رقم (٣٣٥)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب جعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، رقم (٥٢١).

وهكذا جميع الكُتب التي يُنزلها اللهُ عَزَّوَجَلَّ تكون أنوارًا للقلوب، ويكون بها الاهتداء، وَهَذَا قَالَ: [﴿وَهُدًى﴾ مِنَ الضَّلَالَةِ لِمَنْ عَمِلَ بِهِ].

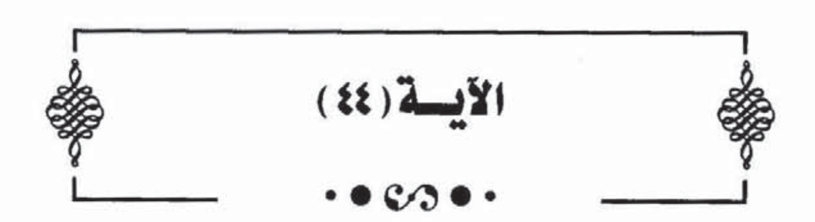
قولُ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [لِمَنْ عَمِلَ بِهِ] تفسيرٌ غير وَفِيٍّ، والأَولَى إبقاء الآية على ظاهرها، وهو أنَّ التَّوراة هُدًى، لَكن هَذَا الهدى لا يَنتفع به إلَّا مَن وُفِّق، فهي هدى من الضلالة بلا شك، وَلَكن لَا ينتفع بها، ويهتدي بها كلّ أحد، كَمَا قَالَ اللهُ تعالى في القُرْآن: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة:١٨٥]، وَقَالَ تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:٢]، ففي الأول هُدَى دَلَالَة، وفي الثَّاني هدى تَوْفِيق التَّوراة، إذَا قلنَا: هدى، لمن عَمِلَ بهَا، قيَّدنا الآية بهُدَى التوفيق، مع أنَّها مُطْلَقَة، ولهذا فالأَوْلَى أَن نَقولَ: هدى مِن الضلالة في كلّ أمر كما قال: ﴿بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ﴾، نقول: وهُدًى أَيْضًا للنَّاسِ، ولكن الهدى الذي بمعنى الدلالة عامٌّ، والهدى الذي بمعنى الاهتداء، يعني: يهتدي بها الإِنْسَان، هذا لمن وُفِّق لَهُ.

قوله تعالى: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [لَمنْ آمَنَ بِهِ]، فالمقام يقتضي التصديقَ أنه رحمة، لكن لَا لكلّ أَحَد، إلا أن يُقال: رحمة، أي: وسيلة للرحمة، فإذا قلنا: إنَّ قوله: ﴿وَرَحْمَةً﴾ أي: وسيلة صار عامًّا، نقول: هُدًى باعتبار العِلم، ورحمة باعتبار العَمَل؛ لأنَّ مَن عمل به فهو مرحوم، وأما هُدًى، فهو باعتبار العِلم، كَمَا قَالَ اللهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ [التوبة:٣٣]، الهدى هو العِلم النافِعُ، ودِينُ الحقِّ هو العَمَل الصَّالِح.

قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾: (لعل) هنا معناها: التَّعلِيل، أمَّا عَمَلُها فهي تَنْصِبُ المبتدأ، وترفع الخبر، وخبرُها جملة ﴿يَتَذَكَّرُونَ﴾.

قَالَ الْمُفَسِّـرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [يَتَّعِظُونَ بِمَـا فِيهِ مِنَ الْمَوَاعِظِ]، يعني: بمـا في الكتاب -الَّذي هُوَ التَّوراة- مِن المواعظ، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾، والضَّمير في كلمة ﴿يَتَذَكَّرُونَ﴾ يَعود عَلَى مَن أُنْزِلَت عليهم التَّوراة، وهُم بنو إسرائيل.

• ● ۞ ● •



الآية (٤٤)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [القَصَص:٤٤].

•●●•

قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَمَا كُنتَ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿بِجَانِبِ﴾ الجَبَلِ، أَوِ الوَادِي، أَوِ المَكَانِ، ﴿ٱلْغَرْبِيِّ﴾ مِنْ مُوسَى حِينَ المُنَاجَاةِ ﴿إِذْ قَضَيْنَآ﴾ أَوْحَيْنَا ﴿إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾ بِالرِّسَالَةِ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ لِذَلِكَ فَتَعْلَمَهُ فَتُخْبِرَ بِهِ].

قَولُه تعالى: ﴿بِجَانِبِ﴾ بمعنى: جِهة، فجانِبُ الشَّيْء: جهتُه أو طَرَفُه، وقوله تعالى: ﴿ٱلْغَرْبِيِّ﴾ صِفة لموصوف، وهو كَما قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [الجَبَلِ، أَوِ الوَادِي، أَوِ المَكَانِ]، و(أو) هنا ليست للتخيير، ولكنها للتمييز؛ لأنَّ بَعضَهم يَقول: المَراد بِهِ الجبل، وبعضهم يقول: المُراد بِهِ الوادي، وبعضهم يقول: المُرادُ به المكان. وكلمة المكان أعمُّ؛ لأنَّها تَشمَلُ أَنْ يَكونَ واديًا أو جبلًا.

وموسى نوديَ مِن جانب الطُّور وهو في الوادي المقدَّس.

وقوله تعالى: ﴿بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ﴾ معناه: بالجانب الغربيّ مِن الجبل، فَيَكون مِن بَاب إضافة الموصوف إلى صفته، كما يقال: مسجدُ الجامِعِ، أي: المسجد الجامع.

وعَلَى هَذَا التَّقدير الأخير يكون المراد الغربي مِن الجانب نفسه، أمَّا على رأي المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ، فَهوَ يَقُول: ﴿بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ﴾ بجانب المكان الغربي مِن موسَى، وهو

يُكَلِّم اللهَ، فَإِذَا كَانَ موسى وجهه إلى السماء، والجانب الغربي منه عُرف الغَرب، وَإِذَا كَانَ وجهه إلى الشرق، فالجانِبُ الغَربيُّ منه يكون وراءَه؛ لأن المُتَّجِهَ إلى الشرق يكون الجانب الغربي منه خلفَه، ولا نستطيع أن نعرف: هل كان موسى بجانب الجبل مِن الغرب، أَوْ مِنَ الشمال.

المهم: أنك ما كنتَ بذلك الجانب حين المناجاة.

قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قَوْلِهِ تعالى: [﴿إِذْ قَضَيْنَآ﴾: أَوْحَيْنَا ﴿إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾ بِالرِّسَالَةِ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ].

على قول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَوْحَيْنَا] يكون القضاء هنا شرعيًّا؛ لأَنَّه قَالَ: [قَضَيْنَا الأَمْرَ بِالرِّسَالَةِ]، ولكن القضاء هنا قد يبدو كونيًّا؛ لأَنَّه يَتَعَلَّق بالمشيئة، فَإِن كَانَ الأمر هنا واحدَ الأوامر، فالقضاءُ شرعيٌّ، وَإِن كَانَ واحدَ الأُمـور، أي: قضينا إليه ذلك الشأن العظيم، وهو الرِّسالَة، كَمَا قَالَ اللهُ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى:٥٢]، فهنا الأمر واحد الأُمُور، فيكون القضاء كونيًّا.

والقضاء يَنقَسم إِلَى قِسمين: قضاء كوني، وقضاء شرعي، فالقضاءُ الكوني لا بُدَّ فيه مِن وُجود المَقضِيِّ، والقضاء الشرعيُّ قد يُوجَد، وَقَد لَا يوجد.

والقضاء الكوني يكون محبوبًا إلى الله، ويكون مكروهًا إليه، والقضاء الشرعي لَا يَكونُ إِلَّا محبوبًا إليه؛ لأَنَّه بمعنى الأمر.

فمثلا قَوْلُه تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء:٤]، هذا قضاءٌ كونيٌّ، يكرهه الله.

وَقَالَ تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٢٣]، فهذا قضاء شرعيٌّ؛

لأنَّه لَو كَانَ قضاءً كونيًّا لَلَزِمَ أنَّ النَّاسَ كُلَّهم يعبدون اللهَ، وليس الأمر كذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ﴾ لَا يمكن إلا في أمرٍ وقَعَ، فمثلًا لَو قُلنَا: قضَى الله تعالى لأَبِي بَكر أن يُسْلِمَ، فهذا قضاءٌ قَدَرِيٌّ شرعي؛ لأنَّه أمره بالإِيمَان، فآمَن، ونقول: قضى الله لأبي لَهَبٍ أن يكفُرَ. هَذَا قَضَاءٌ كوني.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ﴾ قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [لِذَلِكَ فَتَعْلَمُهُ فَتُخْبِرَ بِهِ].

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ﴾، وقوله: ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ﴾ ليس فيها تكرار؛ لأن مَن كَانَ في الجانب قد يرى، وَقَد لَا يرى، وَلَهَذَا قَالَ: ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ﴾.

فإذا قَالَ قَائل: لماذا لم يقتصر عَلَى قَوله: ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ﴾؟

قلنا: لأن الإنسَانَ قَد يُشاهد مِن بُعد، ولكن قليل، فهنا تضمن أنَّه قريب وأنه شَاهَد، ففرقٌ بين أَن نَقولَ: ما كنتَ شاهدًا، أي: ما كنتَ حاضرًا مشاهدًا بِعَيْنِك، ولو كنت بعيدًا، ولهذا لَيسَ في الآيَة الكَرِيمَة تَكرار، ولكن فيها شَيْءٌ مِنَ التوكيد، يعني: لا حَضَرَ، ولا نَظَر، فيكون ما أَخبَرَ به عن ذلك مِن بَاب الوحي، لا مِن بَاب المشاهدة، ولا مِن بَاب السماع، ولكنَّه وحيٌ أُوحِيَ إليه.

من فوائد الآية الكريمة:

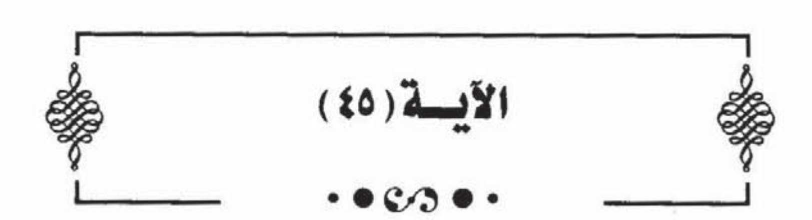
الْفَائِدَةُ الأُولَى: تقرير رسالة النَّبيِّ ﷺ وذلك بما أخبر به عن هَذِهِ الوقائع الَّتي لَيسَ حاضرًا فيها، ولا شاهدًا.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ الوحي يُسَمَّى قضاء؛ لقوله: ﴿إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّ الوَحيَ ذو شأنٍ عظيم؛ لأَنَّ اللهَ سَمَّاه ﴿ٱلْأَمْرَ﴾ بـ(ال) الدالة على العَظَمة والكمال، ولا ريب أنَّ أعظمَ الأُمور ما جاءت به الرُّسل مِن وحي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لَمَا فيه مِن مصلحة البلاد والعِباد.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ الإنسَانَ لَا يُقْبَل خبرُه إلَّا إذَا كَانَ حاضرًا يَسْمَع، أو شاهدًا يرى؛ لقوله: ﴿وَمَا كُنتَ﴾، وقولِه أيضًا: ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾؛ فَإِنَّ الَّذي يمكن أَنْ يُخبِر هُوَ مَن حضر فسمع، أو مَن قرُب فشَاهد، أما إنسانٌ يُخبِر دون شهادة، أو دون شهود، أو حضور؛ فإنّه لا يُقْبَل خبرُه، وَهَذَا أَمرٌ معلوم مِن الشرع مِن جهَة أخرى، مِن آياتٍ أخرى، وأدلة أُخرى، أَنَّ الإنسَانَ لا يشهد إلا بما عَلِم برؤية، أو سماع، أو غيرهما مِن أَسبَاب العِلم.

• • ۞ • •



الآية (٤٥)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأۡنَا قُرُونٗا فَتَطَاوَلَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيٗا فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ تَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ﴾ [القَصَص:٤٥].

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأۡنَا قُرُونٗا﴾ أُمَمًا مِنْ بَعْدِ مُوسَى ﴿فَتَطَاوَلَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُ﴾ طَالَتْ أَعْمَارُهُمْ، فَنَسُوا الْعُهُودَ، وَانْدَرَسَتِ الْعُلُومُ، وَانْقَطَعَ الْوَحْيُ، فَجِئْنَا بِكَ رَسُولًا، وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ خَبَرَ مُوسَى وَغَيْرِهِ ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيٗا﴾ مُقِيمًا ﴿فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ تَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَا﴾ خَبَرٌ ثَانٍ، فَتَعْرِفَ قِصَّتَهُمْ، فَتُخْبِرَ بِهَا ﴿وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ﴾ لَكَ وَإِلَيْكَ بِأَخْبَارِ الْمُتَقَدِّمِينَ].

قوله تعالى: ﴿أَنشَأۡنَا﴾ أي: وأَوْجَدْنا وخَلَقْنا أُممًا.

وقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَتَطَاوَلَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُ﴾ أي: زاد في الطُّول، والتاء والأَلِفُ للمُبالَغة، وقوله تعالى: ﴿ٱلۡعُمُرُ﴾: الزَّمَن؛ لأنَّ الأعمار هي الأزمان، قال: أي طالت أعمارُهم فنسُوا العُهود، واندرست العُلوم، وانقطع الوحي، فجئنا بك رسولًا، وأوحينا إليك خبرَ موسى وغيره.

قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأۡنَا﴾ الاستدراك هنَا لَا يقتضي إبطالَ ما سبق، فليس المعنى: وما كنتَ مِن الشاهدين، ولكنا أنشأنا قُرونا فَشَهِدَت، وَلَكن هذا مِن الاستدراك لتقرير مَا سَبَقَ، والمعنى: أن العُهود طالت، وأنت لَستَ بشاهد،

ولا بحاضِرٍ، ولما طالت العُهود صار النَّاس يَحتَاجونَ إلَى الرِّسالَة، فأوحينا إليك بما جرى، وأرسلناك إلى النَّاس.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا﴾ أي: مُقيمًا.

وقَولُه تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ المراد بأهل مَدْيَنَ القومُ الذين أتى إلَيْهِم موسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وجرى معه ما ذُكر مِن استئجاره وتزويجه، وسَيْرِه بأهله، وَلَم يَكن الرَّسول ﷺ مُقيما في أهل مَدْيَن حتى يُخْبِرَ عما حصل منه، وإنما جَاءَ به عَن طَريق الوحي.

وقوله تعالى: ﴿فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا﴾ خبرٌ ثانٍ، والخبر الأول جملة ﴿تَتْلُوا عَلَيْهِمْ﴾ يعني: وَمَا كنتَ تتلو عليهم آياتنا فتعرف قصتهم فتُخبر بها، وَالضَّمير في قَوْلِهِ: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ ظاهر كلام المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ، وَهُوَ أيضًا ظاهر سياق الآية أَنَّه يَعود إلَى أهل مَدْيَنَ، ﴿تَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا﴾ فتعرف قصتهم، وتخبر بها.

وَقَالَ بَعضُ المفَسِّرينَ: إنَّ الضَّمير يَعُود عَلَى قريش، أي: مَا كنت ثاوِيًا في أهل مَدْيَن، فتتلو عليهم القصةَ التي قصصتها بآياتنا.

وهذا أَقرَبُ إلَى المعنى، وإن كان الأولُ أَقربَ إلَى اللفظ؛ لأن الضَّمير يَعود عَلَى أقربِ مَذْكُور، لَكنَّه لَا يَعُود عَلَى أَهل مَدْيَنَ إلا بِتَعَسُّف شديد، فالصَّواب أنه يَعود عَلَى قرَيش، يعني: مَا كنت ثاويًا في أَهْل مَدْيَنَ فتتلُو عليهم القصة التي جاءت في آياتنا.

إذن: فأنت رسولٌ؛ لأنك أتيتَ بما لَم تكن شاهدًا فيه، وَلهَذا قَالَ: ﴿وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ لك وإليك بأخبار المتقدمين، ﴿وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾:

مُرسِلين لك إلَى النَّاس، وإليك بالوحي، فالرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مرسَل للنَّاسِ، ومرسَل إليه.

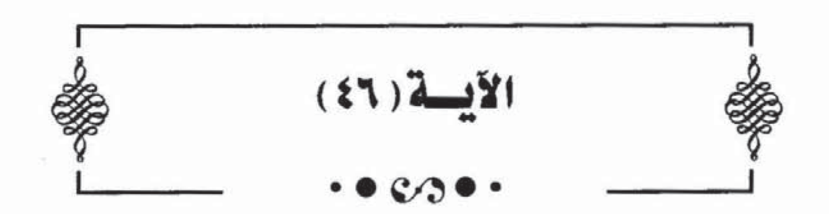
وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾، كان: فعلٌ ماضٍ، وهي مسلوبة الزَّمَن، والمقصود بها اتصافُ اسمِها بخبرها، ونلاحظ استخدام الجمع في الكلمات الثَّلاثَة مَعَ أَنَّ اللهَ واحِدٌ، ولكن الضَّمير (نا) يُستخدم للدَّلالَة على الجمع، ويُستخدم في حق المفرد للدَّلالَة عَلَى التعظيم، وهنا في حَقّ الله يُستخدم للتعظيم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾، وَلَمْ يَقُل: ولكن أرسلناه، كَمَا قَالَ في الآيَة الَّتي قَبلها: ﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا﴾؛ لأنَّ الرِّسالَة ما زالت في الخَلق منذ اختلفوا إلى آخِر الرُّسل محمد ﷺ، فَقَدِ اختَلَفُوا بَعد آدم بَعْدَ أن مضت قُرون؛ إمَّا عَشَرة، أو أَقلّ، أو أكثر.

قَالَ اللهُ تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة:٢١٣]، فتقول الآية ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ فاختلفوا، فأنزل الله الرسالات.

والْفَائِدَةُ مِن ذِكر أخبار المتقدمين للرسول ﷺ لِيَتْلُوَهَا علينا هي التَّقرير بأنه نبيٌّ؛ لأَنَّه مَا كَانَ يتلو مِن قَبْلِه مِن كتاب، ولا يَخطُّه بيمينه، إذن يكون ما أخبر به عمَّن سَبَق مِن بَاب الوحي المجرد.

• • ۞ • •



الآيــة (٤٦)

• • • •

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَـٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص:٤٦].

• • • •

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ﴾: الجَبَلِ، ﴿إِذْ﴾ حِينَ ﴿نَادَيْنَا﴾ مُوسَى: أَنْ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ﴿وَلَـٰكِن﴾ أَرْسَلْنَاكَ ﴿رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ يَتَّعِظُونَ].

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ﴾، هذا خبرٌ آخَرُ غيرُ الخبر الأول الذي فيه ابتداءُ الوحي؛ لأَنَّ اللهَ تعالى بعدما أهلك القرونَ الأُولى وَعَد موسى ثلاثين ليلة، وأتمَّها بِعَشْرٍ، واختار مَن اختار مِن قومه، ثم ذهب إِلَى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لمُناجاتِه، وإنزال التَّوراة عليه، يَقُول الله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ﴾، ﴿بِجَانِبِ﴾ أي: جهة الطور، أو قُرب الطُّور، والطُّور: هو الجَبَل المعروف في سيناء، ﴿إِذْ﴾ حين، أفاد المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأن ﴿إِذْ﴾ هنا ليست تعليلية، ولكنَّها ظرفية، وهي ظرفٌ لِمَا مضى مِن الزَّمان، و(إذا) ظرف لما يُستقبَل، و(إذن) ظرفٌ للحاضر، وبهذا استكملت الظروف الثَّلاثَة.

قوله تعالى: ﴿إِذْ نَادَيْنَا﴾ موسى أَنْ خُذِ الكتابَ بقوَّة، هذا وَهَمٌ مِنَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ لأَنَّ اللهَ تعالى قال لبَني إسرائيلَ: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ [البقرة:٦٣]، ودَعْنا نتأملُ بَعْدُ في قَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً

وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ﴾ [الأعراف:١٤٥]، إذن قول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَنْ خُذِ الكِتَابَ بِقُوَّةٍ] بمعنى أتى بها، وإلَّا فالله يقول: ﴿فَخُذۡهَا﴾ أي: الألواح التي فيها التَّوراة ﴿بِقُوَّةٖ﴾، يقول: إذن، أمر موسى أن يأخذ الألواح بِقُوَّة.

قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن﴾ أرسلناك ﴿رَّحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ﴾، اعتدنا أَنَّ قَولَه تعالى: ﴿رَّحۡمَةٗ﴾ مفعولُ لِأَجْلِه عامِلُها محذوفٌ، والتقدير: أرسلناك رحمةً، وقوله تعالى: ﴿رَّحۡمَةٗ﴾ ليس المعنى أَنَّه هو الرَّحْمة، ولكن المعنى: أنه أرسل بالرَّحْمة ليَرحَمَ الله به، فالرَّحْمة مِنَ الله سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأرسله الله رحمةً، كَمَا قَالَ تعالى في آية أخرَى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧]، وليس المعنى: وما أرسلناك إلا حالَ كونِك رحمة، ولكن: إلَّا مِن أَجْلِ الرَّحْمة، فبينَ المعنيين فرقٌ.

قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن رَّحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ﴾ أضاف الرُّبوبية إلى الرَّسول ﷺ عَلَى سَبيل التَّخصيص والتشهير، وهذه هي الرَّحْمة الخاصة، وهناك رحمة عامَّة، وفيها دليل، أي في قَوْلِهِ: ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾، عَلَى أَنَّ إرسال النَّبيّ ﷺ إلى الخَلق؛ ليرحموا به أَنَّه مِن الرُّبوبية الخاصة؛ لأنَّ مِن نعمَةِ الله عَلَى العَبد أن يُلْهِمَه الهدى ليَهْدِيَ النَّاسَ به؛ فإنَّ هَذَا في الحَقِيقَة مِن أكبر النعم، فالنَّبيّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أُوحِيَ إليه ليرحَم الخَلق بما أُوحِيَ إليه، وهذا مِن مقتضى الرُّبوبية الخاصة، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ وَلَم يَقُل: مِن رَبِّهِم، فمعنى ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾: الذي ربَّاك تربية خاصة.

قوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ﴾ اللام هنا حَرفُ جَرٍّ؛ لأنَّها داخلةٌ على (أَنْ) المقَدَّرة، أي: لأَن تُنْذِرَ، ثم تحوَّل إلى مَصدر، فيكون لإنذارك ﴿قَوۡمٗا﴾، فعلى مذهب البصريين تكون اللام حَرف جَرٍّ، وتُنْذِر: فعلٌ مُضارع منصوب بـ(أَنْ) مُضْمَرَة جَوازًا بعد اللام.

وعلى مذهب الكوفيين تكون اللَّام هي الناصبة، لكنَّ البصريين أَدَقُّ منهم في هَذِهِ الناحية، بل حَقيقَة الأَمر أَنَّ اللام حَرف جَرٍّ، وأنَّ (أَنْ) هي الناصبة مُقَدَّرة، ومُتعلق ﴿لِتُنذِرَ﴾ هو المحذوف الذي قدَّره المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ [أَرْسَلْنَاكَ].

قوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا﴾ الإنذار هو الإعلام بما يخاف، والإعلام بما يرغب يسَمى بِشارة، أو تبشيرًا، وقوله: ﴿قَوْمًا﴾ المراد بهم قريش، وَلَا يَعني ذَلكَ أَنَّ الرَّسُول ﷺ مبعوث إلَيْهم خاصَّة، ولكن لأنَّ أوَّلَ مَن أَنْذَرَهُم كانت قريش، وإلَّا فَقَدْ بُعث لهم ولغيرهم، قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ﴾ [الفرقان:١]، مِن قريش وغيرهم.

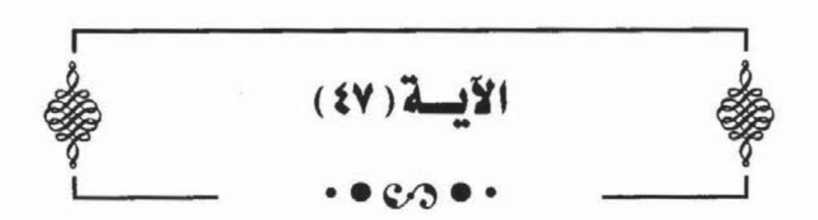
قوله تعالى: ﴿مَا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾: ﴿مَا﴾ نافِيَة، و﴿أَتَاهُم﴾ بمعنى: جاءهم، و﴿مِّن﴾ حَرف جَرٍّ زائدٌ؛ إعرابًا لا مَعْنًى، و﴿نَّذِيرٍ﴾ فاعلُ (أتى)، يعني: ما جاءهم نذيرٌ، وفائدة زيادة ﴿مِّن﴾ أنَّ التنصيص على العُموم، في كل الأزمان الماضية ما أتاهم أَحَدٌ يُنذرهم قَبْلَ الرَّسول ﷺ، وقوله: ﴿مَا أَتَاهُم﴾، والجملة في محل نَصْبٍ صِفَةٌ لـ﴿قَوْمًا﴾.

وقوله: ﴿مَا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [وَهُمْ أَهْلُ مَكَّةَ]، هَذَا تَفسير القوم، وَهَذَا لَا يُنافِيه أن إسماعيلَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قد أتاهم قَبْلَ النَّبيِّ ﷺ، فَقَد يَكون قد طال العهد، حتى انْمَحَتْ رسالة إسماعيل، فصاروا محتاجين إلى نذير، ولم يأتهم نذير، فأتاهم رَسولُ الله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بَعدَ أَنِ انقرضت مَعالِمُ رسالة إسماعيلَ، وإلَّا فلا ريب أنَّ إسماعيلَ مُرْسَل إلَيْهم؛ لأنَّهُ نبي، ولكنه انقرض، وَلهَذَا كَانَ مِن دعاء إسماعيل وإبراهيم أنهم قالوا: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [البقرة:١٢٩].

وأجمع المُفَسِّرون عَلَى أَنَّ المَرَادَ به محمد ﷺ، فمنذ إسماعيل إِلَى أَنْ بُعِثَ الرَّسُولُ ﷺ ما جاءهم نبي، وانقرضت معالِمُ النُّبُوَّة، وكان أَوَّلَ مَن غيَّرها عَمْرُو بنُ لَحْيٍ الخُزَاعِي؛ فإنه هُوَ الَّذي أدخل عبادةَ الأصنام، وأدخل السوائب على العرب، حتى انمحت به الحقيقة.

قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾: (لَعَلَّ) هَذِهِ للتَّعلِيل، وهي متعلقة بـ(تُنْذِر)، أي: تُنذرهم لأَجْل أَنْ يتذكروا، أي: يَتَّعِظُوا بما جئتَ به، وهذا التَّعلِيل سنذكُره في الفوائد إنْ شَاءَ اللهُ.

• • ❁ • •



الآيـة (٤٧)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [القَصَص:٤٧].

• • • •

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةُۢ﴾ عقوبةٌ، ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ مِن الكُفر وغيره، ﴿فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ﴾ هَلَّا ﴿أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾ المرسَلَ بها، ﴿وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وَجَوَابُ (لَوْلَا) مَحْذُوفٌ، وَمَا بَعْدَهُ مُبْتَدَأٌ، وَالمَعْنَى: لَوْلَا الْإِصَابَةُ المُسَبَّبُ عَنْهَا قَوْلُهُمْ، أَوْ لَوْلَا قَوْلُهُمُ المُسَبَّبُ عَنْهَا لَعَاجَلْنَاهُمْ بِالْعُقُوبَةِ، وَلَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَيْهِمْ رَسُولًا].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ﴾ هنا تكررت مرتين، وَفي كلّ مَوضع لها معنى يختلف عن المعنى في المَوضع الآخَر، الأول قال: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةُۢ﴾ الضَّمير يَعود عَلَى قَريش: أَهل مَكَّةَ، وإصابة الشَّيْء بمعنى نُزوله، أي: تنزل به مُصيبة، والمراد بالمُصيبة هنا العُقوبة؛ بسبب كُفرهم، و(لَوْلَا) حَرْفُ امتناعٍ لوُجُود، و(أَنْ) وما دَخَلَتْ عَلَيه في تأويل مَصْدَرٍ مبتدأ، وجواب (أَنْ) محذوف كما يُقَدِّرُه المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وقوله: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ﴾ أي: بسبب، و(مَا) اسمٌ موصول، أي: بسبب الذي قَدَّمَت أيديهم، والمراد بـ﴿أَيْدِيهِمْ﴾ أنفسُهم، أي: بما قَدَّمُوه، وعَبَّر باليد عن النفس؛ لأنَّ اليَدَ في الغالِب هي آلة العَمَل.

واعلم أَنَّ هناكَ فَرقًا بيـن إضافَة الفِعْل إلى اليد، وإضَافَةِ الفِعل إلى النَّفس بواسطة اليَدِ، فمثلًا: قَولُه تعالى: ﴿مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا﴾ [يس:٧١]، أي: مما عَمِلْناه، أي: مما خَلَقْناه، وَلَيسَ المرَادُ أَنَّ اللهَ خَلَق الأنعامَ بِيَدِهِ، وَأَمَّا قَوله: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص:٧٥]، فهنا أَضَافَ الفِعل إلَى نَفسه، ثم جَعَل اليدَ واسطةً، فيدُلُّ عَلَى أَنَّ آدم خُلِق بِيَد الله.

كذلك -مثلًا- لو قلـتَ: بما عَمِلْتَ بِيَـدِك، أو بما قَدَّمَت يداك. فهنا نقول: الإِنْسَان عَمِل الشَّيْء نَفْسَه، لكن بِيَدِه.

أَمَّا إذا قلتَ: بما عَمِلَتْ يَدَاك، أَو بمَا قَدَّمَت يداك، فالمراد بما عَمِلْتَ، سواء عَمِلْتَه بواسطة اليَد، أو بالعَين، أو بالرِّجل، أو باللسان، المهم أنه يضاف إليك.

فقولُه: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ ليس كقولِه: بمـا قَدَّمُوا بأيديهـم؛ لأنَّ الأول المراد، سَـوَاء كَانَ باليد، أو بالرِّجل، أو بالعَيْـنِ، أو بالأُذُن، أو باللسـان، وقوله: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ مِنَ الكُفر وغيره.

صحيح أَنَّ المصائِبَ ما تكونُ إلا بالمعاصِي، قَالَ تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى:٣٠]، وهنا قال: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ﴾ بسبب كُفرهم، ﴿فَيَقُولُوا۟﴾ الفاءُ حرفُ عطف، و(يقولوا) معطوف على ﴿تُصِيبَهُم﴾ أي: فأَنْ يقولوا متى: بعد المصيبـة، ﴿فَيَقُولُوا۟﴾ مُحْتَجِّيـنَ عَلَى الله: ﴿رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ﴾ يعني: هلَّا أرسلتَ إلينا رسولًا قَبْلَ أَنْ تُصِيبَنا بالعقوبة ﴿فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وهي حُجَّة لهم، لو أُصِيبوا بغير أَنْ يُرسَلَ إِلَيهِم رسـولٌ لكان ذلك حُجَّة؛ لأَنَّ اللهَ تعالى يَقـول: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥]، ويقول: ﴿وَمَا كُنَّا

مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء:١٥]، فلولا هَذَا الأمر أَنْ يُصابوا بكفرهم وذُنوبهم، ثم يحتجُّوا على ربهم بأنَّه لَم يُرسِل إِلَيْهِم رسولًا.

وجواب (لولا) - كَمَا قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ-: [وَجَوَابُ (لَوْلَا) مَحْذُوفٌ، وَمَا بَعْدَهَا مُبْتَدَأٌ]، يعني: والخبر محذوف معروف، [وَالمَعْنَى: لَوْلَا الإِصَابَةُ المُسَبَّبُ عَنْهَا قَوْلُهُمْ، أَوْ لَوْلَا قَوْلُهُمُ المُسَبَّبُ عَنْهَا لَعَاجَلْنَاهُمْ بِالعُقُوبَةِ، أَوْ وَلَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَيْهِمْ رَسُولًا].

وكأنَّ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ جعل الجوابَ مُرَكَّبًا مِن إثباتٍ ونَفْيٍ، فالإثبات قولُه: لَعاجَلْناهُم بالعُقوبة، والنفي: ولَمَا أرسلناك إلَيْهِم؛ لأَنَّ اللهَ ذَكَر أمرين: الإصابة، وقولهم: ﴿لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا ﴾، فكان الجواب أيضًا مُركَّبًا مِن أمرين، وَيَجوز أَنْ يَكونَ الجوابُ مُرَكَّبًا مِن أحد الأمرين، أي: لَعَاقَبْناهُم، أو لَمَا أرسلناك إلَيْهِم؛ لأن المعنى يَتِمُّ دُونَ تقدير الأمرين جميعًا.

وَعَلَى هَذَا، فتكون (الواو) هنا -في كَلَام المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ- بمعنى (أو).

وأظنّ أن الآيَةَ معناها واضحٌ مِن حَيْثُ الإجمالُ: أنَّه لَوْلَا أَنَّ هَؤلَاء الكفَّار المستحقّين للعُقوبة بسبب كُفرهم أن يحتجُّوا بأنَّه لَم يُرْسَل إلَيْهِم رسولٌ لَعَاقَبْنَاهُم دُونَ أَنْ نُرْسِلَك، أو لَمَا أرسلناك إلَيْهِم، فيكون إرسال النَّبيّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إقامةً للحُجَّة عليهم، ودفعًا لحُجَّتِهم، ودَحْضًا لها.

فكأن النَّبيّ ﷺ الآن أُرسل إلَيْهِم قَبلَ أَنْ يؤخَذوا بالعقوبة، وهذا يقتضي أنَّهم إذا كَذَّبوه كانوا مستحقين للعقوبة؛ لأن الحُجةَ التي يحتجّون بها قد زالت.

فما فهمناه مِن كلام المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن ﴿لَوْلَا﴾ الأولى شَرطية، وهي حرف

امتناع لِوُجُودٍ، و﴿لَوْلَا﴾ الثَّانية تَحْضِيضِيَّة، بمعنى: هَلَّا، وقوله: ﴿فَيَقُولُوا﴾ معطوف عَلَى قَوْلِه: ﴿أَن تُصِيبَهُم﴾، وقوله: ﴿فَنَتَّبِعَ﴾ منصوب بـ(أَنْ) مُضْمَرَة بَعْدَ فاء السَّبَبِيَّة الواقعة جوابا لـ﴿لَوْلَا﴾ التحضيضية.

يقول ابنُ مالك[1]:

وبَعْدَ (فَا) جَوَابِ نَفْيٍ أَوْ طَلَبْ مَحْضَيْنِ (أَنْ) وَسَتْرُهَا حَتْمٌ نَصَبْ

يعني: أنَّ (أَنْ) تَنْصِب بَعْدَ (الفاء) الوَاقِعَة في جواب طلبٍ، أو نَفْيٍ مَحْضَيْنِ، وسَتْرُها -أي: حذفُها وُجُوبًا- حَتْمٌ، و(الفاء) تَنْصِبُ بـ(أَنْ) وُجوبًا بَعْدَ تِسعة أساليبَ، مجموعة في قَول الناظم[2]:

مُرْ وَادْعُ وَانْهَ وَسَلْ وَاعْرِضْ لِحَضِّهِمُوا تَمَنَّ وَارْجُ كَذَاكَ النَّفْيُ قَدْ كَمُلَا

إذا وقعت الفاءُ جوابًا لواحِدٍ مما سَبَقَ، فإنه يُنْصَبُ الفِعْلُ بَعْدَهَا بـ(أَنْ) مُضْمَرَة.

ومعنى هَذَا البَيت هو:

(مُرْ): إشارة للأمر، كما تقول: انزل عندنا فنُكرمَك.

(وادْعُ) هذا دعاءُ الله، قَالَ الشَّاعر[3]:

رَبِّ وَفِّقْنِي فَلَا أَعْدِلَ عَنْ سَنَنِ السَّاعِينَ فِي خَيْرِ سَنَنْ

---

(١) توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك، لبدر الدين المرادي (٣/ ١٢٥٢).

(٢) فتح رب البرية في شرح نظم الآجُرُّومية، لأحمد بن عمر بن مساعد الحازمي (ص٢٧٧).

(٣) البيت في شرح تسهيل الفوائد، لابن مالك (٤/ ٢٩)، واللمحة في شرح الملحة، لابن الصائغ (٢/ ٨٣٢) بلا نسبة.

وتقول: رب وفّقني فأعملَ صالحًا.

(وانهَ) النهي، كَمَا قَالَ تعالى: ﴿وَلَا تَطْغَوْاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى﴾ [طه:٨١].

(وسَلْ) الاستفهام، قَالَ تعالى: ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ﴾ [الأعراف:٥٣].

(واعْرِضْ) أي: العَرض، كَمَا في قَول القائل: ألا تنزل عندي فتُصيبَ خيرًا.

(لِحَضِّهِمُو) هذا التحضيض منه هَـذِهِ الآيَة ﴿لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾ [طه:١٣٤].

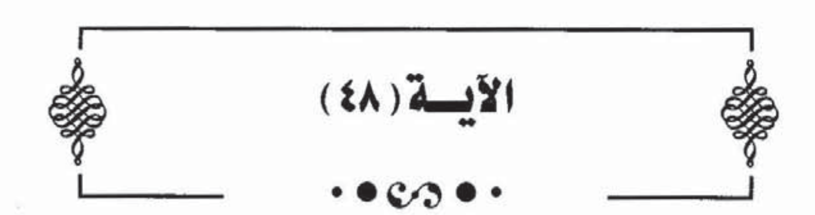
(تَمَنَّ) المُرَاد بِهِ التمني، تقول: ليت لي مالا فأتصدَّقَ منه.

(وارْجُ) أي الترجِّي، قَالَ تعالى: ﴿لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ۝٣٦ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ [غافر:٣٦-٣٧].

(كذاك النفي) تقول: ما تَعَلَّم زيد فيُعَلِّمَك. فهذه تسعة مواضعَ إذَا وَقَعَت الفاء بعدها؛ فإنه يُنصَب الفعل بـ(أَنْ) مُضمَرة.

قوله تعالى: ﴿فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾ قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [المُرْسَلُ بِهَا، ﴿وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وَجَوَابُ (لَوْلَا) مَحْذُوفٌ]. والمعنى: أَنَّنا أرسلناك يَا مُحَمَّد؛ إقامةً للحُجة عليهم، ورحمةً بهم أن يُصيبَهم العذابُ بِدُونِ أن يَصِلَ إِلَيْهِم رسول.

• • ۞ • •



الآية (٤٨)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ﴾ [القصص:٤٨].

•●◌●•

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ﴾ مُحَمَّدٌ ﴿مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلَا﴾ هَلَّا ﴿أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ﴾ مِنَ الْآيَاتِ، كَالْيَدِ الْبَيْضَاءِ وَالْعَصَا وَغَيْرِهِمَا، أَوِ الْكِتَابُ جُمْلَةً وَاحِدَةً، قَالَ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ حَيْثُ ﴿قَالُوا﴾ فِيهِ وَفِي مُحَمَّدٍ «سَاحِرَانِ»، وَفِي قِرَاءَةٍ ﴿سِحْرَانِ﴾ أَيِ الْقُرْآنُ وَالتَّوْرَاةُ ﴿تَظَاهَرَا﴾ تعَاوَنَا ﴿وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ﴾ مِنَ النَّبِيَّيْنِ وَالْكِتَابَيْنِ ﴿كَافِرُونَ﴾].

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ﴾، والحق -كما ذكرنا- هو الشَّيْء الثابت، وأنّه فيما يُقابِل الأوامِرَ هُو العَدْل، وفيما يُقابِل الأخبارَ هُو الصِّدق، والمرادُ بالحق هنا -كَما قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ-: محمد ﷺ، وكأنَّه عدَلَ به عَن المعنى الظَّاهر مِن أَجْل قوله: ﴿لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ﴾.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ﴾ هَذَا الحَقّ ﴿مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ﴾، فكأنَّ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ عَدَل عن معنى الحق الظَّاهر إِلَى أَنْ يكون محمد ﷺ في هَذَا، ولكن الصَّواب أنَّ المرادَ بالحق الوحيُ الذي نَزل على محمد ﷺ، وَلهَذَا قَالَ:

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا﴾، والعِنْدِيَّة تقتضي القُرب، وأن يكون ذَلكَ مِنَ الله، وَهَذَا لَا يُتصور أنه محمد ﷺ، بَل هُوَ الحَقّ الذي جاء به، كَمَا أَنَّ مِثل هَذِهِ الآيَة ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا﴾ في جَمِيع مواضع القُرْآن هي مطَّردة أَنَّ المُرَادَ به الوحي الذي نزل عَلَى مُحَمَّد ﷺ.

ولهـذا يكون قوله: ﴿لَوۡلَآ أُوتِيَ﴾ أي: محمـدٌ الَّذي جَاءَ بهذا الحق، فمعنى الآية هنا ظاهر جدًّا، ولا تَكَلُّفَ فيه.

وقد يحتجُّ علينا مَن يقول: إِنَّ الضَّميـر في قَوْلِهِ ﴿لَوۡلَآ أُوتِيَ﴾ يؤيد أَنَّ المُرَادَ بالحق هو محمد.

ولكننا نُجيبه قائلين: لَا حَاجَةَ إِلَى ذَلكَ مَا دَامَ أن الحَقَّ جاء، والذي جَاءَ به هُوَ محَمَّد، فيكون معلـومًا أنَّ قولَه: ﴿لَوۡلَآ أُوتِيَ﴾ يعني: محمدًا ﷺ هُوَ الَّذي جَاءَ بالحَقّ، وليس محمد هُوَ الحَقَّ، ولهذا ليس (الحَقُّ) مِن أَسماء الرَّسُول عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فهو ﷺ صادق فيما جَاءَ به مِنَ النبوة، ولكنَّه جاء بالحق.

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَوۡلَآ أُوتِيَ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓ﴾، الضَّمير في ﴿قَالُواْ﴾ يَعود عَلَى قرَيش، و﴿لَوۡلَآ﴾ هنا تحريضيَّةٌ، وليست شَرطيَّةً، وهي بمعنى: هلَّا.

وقَولُه تعالى: ﴿أُوتِيَ﴾ أي: أُعطي، ﴿مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓ﴾ يعني: مِن الآيات، مِثلَ ما أُعطي موسى مِنَ الآيات.

وهذا الجواب فيه إشكالٌ إذا جعلْنَاه عائدًا إلى قُرَيْشٍ؛ لأن قريشًا -كَمَـا هُوَ معلوم- قوم أُمِّيُّون، لَا يَعلَمونَ عن الرُّسُل شيئًا، فكيف يعارضون بقصة موسى؟ وقد أجاب المُفَسِّرون عن ذلك، بأَنَّ قريشًا كانت عندَما بُعث الرَّسُول عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ

تراسل اليهودَ، وتقول: جاءنا رَجُل يقول إنه نبيٌّ، فما علامات الأنبياء عندكم؟ فتخبرهم اليهود بعلامات الأنبياء، ولهذا عارضت قريش النَّبيَّ ﷺ بالآيات الَّتي جَاءَت لموسى.

ويحتمل أَنَّ قولَه: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ﴾ عائدٌ إلى اليَهُود؛ لأن الرَّسُول ﷺ مبعوث إلَيْهِم، ويؤَيد هذا الاحتمالَ قولُه بَعدَ ذَلكَ: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾.

قوله: ﴿قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ﴾، قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: المراد هنَا هُوَ محمد ﷺ، وَقَد يَكون المرَاد هو القُرْآن، و﴿مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ﴾ أي: أتيَ بوحيٍ مِثل التَّوراة، وغيرها مِنَ الآيَات كالعَصا واليَد.

قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ الضَّمير يَعود عَلَى جنس البَشر، أي: إنَّ آيات موسَى لَم تنفع أيضًا، فقد كفرَ بها مَن كَفر مِن النَّاس، فاقتراحكم أَن تَكونَ آياتُ محمد ﷺ كآيات موسى ليس ذلك بِمُوجِبٍ للإيمان؛ لأن آياتِ موسى كُفِرَ بها.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ سِحْرَانِ﴾ فيها قراءة ثانية، «قَالُوا سَاحِرَانِ»[1]، وعلى القِراءَة التي بين أيدينا، فالمراد محمد وموسى، وعلى القِراءَة الثَّانية يَكونُ المُرَاد التَّوراة والقُرْآن.

قوله: ﴿تَظَٰهَرَا﴾ أي: تعاوَنَا.

---

(١) السبعة في القراءات، لابن مجاهد (ص٤٩٥).

من فوائد الآيتين الكريمتين:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: فيها تكذيب دعوى هؤُلاءِ فِي قَوْلِهِم: ﴿لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾؛ فإنَّه قد جاءهم الحق مع الرَّسُول، ومعَ ذلك كذَّبوا: ﴿قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِيَ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّ مَا جَاءَ به النَّبيّ ﷺ هُوَ الحَقُّ، والحق بمعنى: الشَّيْء الثابت، وهو بالنِّسبة للأخبار الصدق، وبالنِّسبة للأحكام العدل.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ ما خالف ما جَاءَ به النَّبيُّ ﷺ فهو باطل؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس:٣٢]، فكلُّ خبر يتضَمَّن تكذيبَ خَبَرِ الله ورسولِه، فهو الكَذِب، فمثلا: إذَا قَالَ قَائل: أصلُ الإِنْسَان قِرْدٌ، ثم تطوَّر فصار إنسانًا!! نقول له: هذا كذِبٌ؛ لأَنَّهُ يخالف مَا جَاءَ به النَّبيُّ ﷺ.

وإذا شَرَّع الإِنْسَان قوانين مخالفةً للشرع، قلنا: هذا باطِلٌ وضلالٌ؛ لأنَّ الحق فيمَا جَاءَ به الشرع فقط.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: بيانُ عُتُوّ المكَذِّبين للرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وعنادهم، وهو أنَّهم كذَّبوا بالحق بَعدَ أَن قَالُوا: ﴿لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن قريشًا كانَ عندَهم بعضُ المعْلوماتِ عن الرُّسل السَّابِقين، حَيث قَالُوا: ﴿لَوْلَآ أُوتِيَ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓ﴾، وقد حصلوا عَلَى هَذَا العِلم عَن طَرِيق اليهود؛ لأَنَّهُم لما جاء الرَّسول ﷺ وبُعث، أَرْسَلُوا إِلَى اليَهود يسألون عن أخبار هَذَا الرَّجل، فكتبوا لهم بما يعرفون مِن أخباره، وبما جَاءَ به موسى.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إثباتُ رِسالَة مُوسَى ﷺ لقولهم: ﴿مِثْلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أَنَّ موسَى ﷺ أعطاه الله تعالى آيات يُؤمِن على مثلها البَشر، وَهَذَا لَيسَ خاصًّا به، بَل هُوَ لكل رسول بَعَثَهُ الله فـ«**مَا مِنْ نَبِيٍّ مِنَ الأَنْبِيَاءِ إِلَّا وَقَدْ أُعْطِيَ مِنَ الآيَاتِ مَا آمَنَ عَلَى مِثْلِهِ الْبَشَرُ**»[1]؛ لأن البَشَر لا تُصَدِّق رَجُلًا قال: أنا رَسول الله إليكم آمُركم بكذا، وأنهاكم عن كذا، واتركوا مَا كَانَ عليه آباؤكم مِن عِبادة الأصنام، واترُكُوا مَا كَانَ عَلَيه آباؤكم مِن تحريم الحلال، وَمَا أَشبَهَ ذَلكَ، لا يَقبلون إلا بآيات تدل على صِدقه، وتؤيده.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: إبطال حُجَّة هؤُلاءِ المكذبين، بقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أَنَّه يَنبَغي في مقام المنَاظَرَة والمجادَلَةِ أن يُفْحَمَ الخَصم بإبطال قوله بقوله، أو بفعله، أنه يُبطَل قولُه بِمَا جَرَى منه هو؛ لأنَّ ما جرى منه لَا يمكن أَنْ يُنْكِرَهُ، ولو أَنْكَرَهُ ما قُبِلَ، فكونُنا نُقيم الحُجَّةَ على الخَصم مِن فِعله وقوله هذا أبلغ في إفحامِه.

الْفَائِدَةُ العَاشِرَةُ: أَنَّ طبيعة البَشر واحدة؛ بناء عَلَى أَنَّ قولَه: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا﴾ الضَّمير يَعود عَلَى جِنس الإِنْسَان؛ لأن الطبيعة البشريةَ واحدة.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أَنَّه يَنْبَغي أَيْضًا عند المناظرة إبطالُ قول الخَصم بالأمر الواقع؛ فإن الآيَات الَّتي جَاءَ بِهَا موسى، وأبطَلَها هؤُلاءِ كُذِّبَت، وما آمَن بها البَشَر.

إذن: فالمدار ليس على جنس الآيات، ولكن المدار على حال المخَاطَب، وإلا فالآيات قائمة بيِّنَة، لكن: ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس:١٠١].

---

(١) أخرجه البغوي في شرح السنة (١٣/ ١٩٥، رقم ٣٦١٥)، وابن عساكر في معجمه (١/ ٣٧، رقم ٣٠).

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: أَنَّ أهلَ الباطل يُلَقِّبُون أهلَ الحقِّ بألقابِ السُّوء؛ تنفيرًا للنَّاسِ عن قَبُولهم، يُؤخذ هذا مِن قَولِه تعالى: ﴿قَالُوا سِحْرَانِ﴾ أو «سَاحِرَانِ» على القِراءَة الأُخْرَى، فسواء وَصَفُوا مَا جَاءَت به الرُّسل بالسِّحر، أو وَصَفُوا الرُّسْلَ أنفسَهم بالسِّحر؛ فإنَّ المقصود بذلك تنفير النَّاس عن قَبُول مَا جَاءَت به الرُّسل.

وهذه القاعدة ثابتة لِأَتْبَاع الرُّسُل؛ بدليل قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ﴾ [المطففين:٢٩-٣٢]، وَاللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قد جعل لكل نبيٍّ عَدُوًّا مِن المجرمين، والعدُوُّ مِن المجرمين عَدُوٌّ للنبي بوصفِه، بدليل أن محمدًا ﷺ قبْلَ أن تأتيَه الرِّسالَة وهو عند العَرب الصادق الأمين، ويرون أنَّه مِن أفضل بني هاشم، وأقوَمِهم بالعدل، فلمّا جاءَ بالحَقّ صار عندهم الخائنَ الكذوبَ.

إذا كان هؤُلاءِ المجرمون يُعادون الرُّسُلَ بوصفِهم، فمعنى ذلك أَنَّ هَذِهِ المعاداةَ ستنتقل إلى مَن تابَعَ هؤُلاءِ الرُّسُل؛ لأنَّ المعنَى الذي حصلت به العداوة موجود أيضًا في أتباع الرُّسُل، وَعَلَى هَذَا:

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: طَمْأَنة أتباع الرُّسل، وتثبيتهم على أنّهم سينالهم مِن ألقاب السُّوء، ومِن المعاداة مِثل ما نالَ الرُّسُلَ، فعليهم أن يُقابلوا ذلك بالصَّبْر والثبات والقُوَّة، لا أن يُخْذَلُوا، بل عليهم أن يكونوا كَمَا كَانَ متبوعُهم الذي أمره الله قائلًا: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ [الأحقاف:٣٥].

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: أَنَّ التَّعاوُن حتَّى على الباطِل له تأثيرٌ وتقويَة، يُؤخَذ مِن قَوْلِه: ﴿تَظَاهَرَا﴾ فَإِذَا كَانَ التَّعاوُن في الباطل له تأثير، فما بالُك بالتَّعاوُن في الحق؟

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةَ عَشْرَةَ: يَجب أَنْ نكونَ متعاونين فيما نحن عليه مِن دعوة الحق، وألَّا يخذل بعضُنا بعضًا، خلافًا لما كان عليه حال النَّاس اليوم؛ فإنهم في هَذَا البَاب ليسوا بمتعاونين، حتى أهل الحق، وأهل الدعوة تجدهم غيرَ متعاونين؛ لأَنَّهُم:

أولًا: كلُّ وَاحد لَا يَهُمُّه إلا نَفْسُه.

ثانيًا: أنهم ربَّما يختلفون في أَمْر بسيـط جزئي مِن أُمُور الدِّين، ويتعادَوْن عَلَى ذَلكَ، فقد يختلفون في كيفية رفع اليدين عند تكبيرة الإحرام، فهذا يقول: ترفع يديك إلى الأذنين. وهذا يقول: إلى المنكبَيْن. ثُمَّ يَقول: أنت على ضلال! وهو يقول: أَنت عَلَى ضلال! فما تُثْمِرُ هَذِهِ الكلمة إلا الحِقد والبغضاء والعداوة.

وسبق أن قصصت عليكم قصَّة طائفتين، كلُّ طائفة تُكَفِّر الأُخْرَى في مَسأَلَةٍ بسيطة مِن مَسائِل الدِّين، طائفة تقول: إِنَّ السُّنـة أن يضع الإِنْسَان يده اليمنى على اليسرى فوق صدره. وطائفة أخرى تقول: إنَّ السُّنَّةَ أن يُرْسِلَ الإِنْسَان يديه إلى جنبه.

فاختلفا حتى كَفَّرت كُلُّ طائفة الأُخْرَى، وجعلتها ملعونة؛ لأَنَّها تركت السُّنة عن عَمد وقَصد، والإِنْسَان الذي يكره ما أَنزَلَ اللهُ يكون كافرًا، وفيه خصومة عظيمة.

وفي أيام الحـجِّ اجتمع معهُم ناسٌ مِن التَّوعيَـة، وأراحُوهم، وبَيَّنـوا أَنَّ هَذَا لَا يَجوز؛ لأَنَّ هَذَا فيه ضرر عليكم أنتم يا أهل الحق؛ لأنكم إذا كفَّر بعضكم بعضًا، فما تفعلون مع أهل الخرافات، وأهل البدع.

وتعرفون قصَّة نقض الصحيفة التي كَتَبَتها قريشٌ في مقاطعة بني هاشم، لم يأتِ واحدٌ مِنَ النَّاس فنَقَضَها، فهو لا يستطيع، لكنَّه ذهب إلى فلانٍ ووَبَّخه، وقال: بنو هاشم قومٌ منكم، كيف تَرْضَوْنَ أن تقاطعـوهم حتى يموتوا مِن الجوع؟! وَذَهَـبَ

إِلَى آخَرَ وإلى ثالـثٍ ورابعٍ، حتى إنهم كوَّنوا جماعة، فذهبوا إِلَى هَـذِهِ الصحيفة مِن الكعبة ومَزَّقوها.

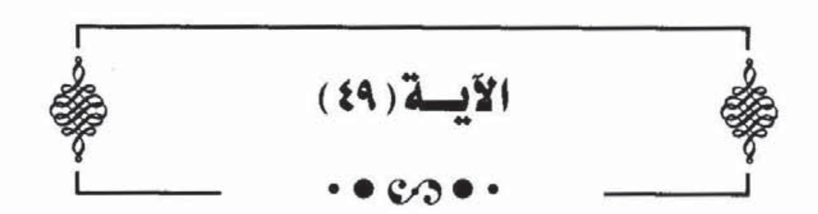
إذن: فالتَّعاوُنُ أساس النجاح، مِثل مَا قَالَ العامَّة.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةَ عَشْرَةَ: بيانُ عُتُوِّ هـؤُلاءِ مِن جهة أنهم لم يُؤمِنوا بالأمـرين، وقالوا: ﴿إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةَ عَشْرَةَ: تقديم المعمُولِ في قَوْلِهِ: ﴿بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ﴾ يُفيد الحَصر، مَعَ أَنَّهم كفروا بهما وبغيرهما، وهذا الحَصـر المقصود به إغاظةُ الخَصْمِ، كأنهم يقولون: لَوْ آمَنَّا بكل شَيْءٍ مَا كفرنا إلا بهما، وإلَّا فمعلوم أنهم يكفرون بهما وبغيرهما.

وهذه فائـدة قليلٌ مَن ينتبه لها، وهو أَنَّهُ إِذَا كَانَ الشَّيْء غيـرَ محصور في هَـذَا الشَّيْء، ولكنَّه حُصر فيه؛ فَلَا بدَّ أَنَّ هناك غَرَضًا، والغَرَضُ هنا هُوَ الإغاظة.

• • ۞ • •



الآية (٤٩)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [القَصَص:٤٩].

•• • ••

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿قُلْ﴾ لَهُمْ ﴿فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا﴾ مِنْ الْكِتَابَيْنِ ﴿أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ فِي قَوْلِكُمْ].

قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ هنا الأمر للتعجيز والتحدي.

قوله: ﴿أَهْدَىٰ مِنْهُمَا﴾ هنا الضَّمير يَعُود عَلَى التَّوراة والقُرْآن، ومعنَى ﴿أَهْدَىٰ﴾ أكملُ هدايةً.

وقوله ﴿أَتَّبِعْهُ﴾ مجزومٌ في جواب الطَّلب ﴿فَأْتُوا﴾، فإذا جعلوا الغايةَ جوابًا للأمر السابق صار مجزومًا.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أَنَّهُ مِن العدل التنزُّل مع الخَصم إلى حالٍ يُقِرُّ بها؛ فإنه مِن المعلوم أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يعلم أَنَّهُ لَا يمكن أَنْ يأتوا بما طُلب منهم، وذلك حين طَلب منهم أَنْ يأتوا بكتابٍ أهدى مِن التَّوراة والقُرْآن، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا﴾، مَعَ أَنَّه يَعلَم أَنَّه يستحيل ذلك، وَلَكِنَّ هَذَا مِن باب التنزُّل مَعَ الخَصم إلى غاية مَا يَكونُ مِن العدل، كأنه جعلَه مع خَصمه شيئًا واحدًا، فيقول: أنتم ائتوا بكتابٍ أهدى مِن

التَّوراة والقُرْآن، وأنا ألتزم باتباعه، فإذا لم يأتـوا، فمعناه أَلْزِمْهُم أن يتبعـوا التَّوراة والقُرْآن.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إفحام الخَصم بالتحدِّي، ولو أنَّنا قرأنا آخِرَ سُورة الطور لوجدنا فيها شيئًا غريبًا مِن المناظرة، مِن قَوْلِه تعالى: ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ [الطور:٢٩]، إلى قوله: ﴿يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ [الطور:٤٥]، تجدون آدابًا كثيرة مِن المناظرة، فقَدْ تَدَرَّجَ الله معهم في الحُجَج، فقال: ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ [الطور:٣٨]، إن كَانَ الأمر كذلك ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ [الطور:٣٨]، ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [الطور:٣٣]، فَإن كَانَ الأمر كذلك ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾ [الطور:٣٤]، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في ختام المناظرة يجعل الخصم مُفْحَمًا بتحدِّيه بما لَا يستطيع.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ التَّوراةَ والقُرْآنَ مِن عند الله، لكن القُرْآن نَزَل وَحْيًا، والتَّوراة نزلت كتَابَةً، كَتَبَها الله في ألواحٍ ألقاها إلى موسى.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّه لَا يَلزَم الإِنْسَان الانتقال عَمَّا كَانَ عَلَيه إِلَى غَيرِهِ إِلَّا إِذَا كَانَ أهدَى منه.

فأنا -مثلًا- لا يلزمُني الانتقالُ مِن مذْهَب الحنابِلَة إلى مذْهَب الشَّافعيَّة، حتى أرى أنه أَصْوَبُ؛ لأَنَّه قَالَ: ما يجب الاتباع إِلَّا إِذَا كَانَ ما جاءوا به أهدى منه، أَمَّا إِذَا كَانَ مساويًا، فأنتم لا تُلزمونني، وأنا لا أُلْزِمُكم، إِذَا كَانَ مساويًا، إنما الإلزام حينما يَكونُ مَا جاء به الخَصم أهدى مما أنا عليه، وأما إِذَا كَانَ مَا في غَيْـرِهِ أدنى؛ فإنه مِن بَاب أَوْلَى لا يلزم.

فالمراتبُ ثلاث:

١ - إمَّا أَنْ يَكونَ ما تُدعَى إليه أدنى مما أنت عليه.

٢ - أو أهدى.

٣ - أو مُساويًا.

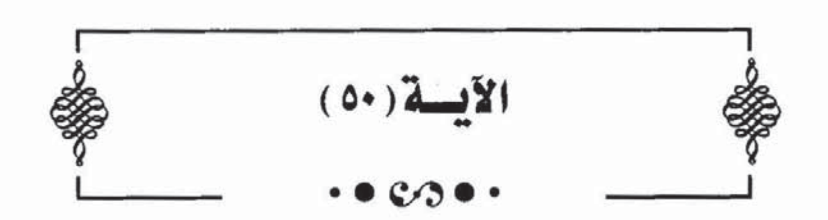
فإن كان أهدى، فالواجبُ الاتباع، وَإن كَانَ أدنى حَرُم الاتباع.

أما في حَال المُسَاوَاة، فالعلماء يقولون: في مِثل هَذِهِ الحَالِ يُخَيَّرُ الإِنْسَان، فإذا أفتاه عالمان، وَلَمَ يَكُن قولُ أحدهما أرجحَ؛ فإنه يُخيَّر في اتِّباع أيِّ القولين شاء، وربما يؤخذ حُكم هَذِهِ المَسأَلَة مِن هَذِهِ الآية؛ لأَنَّه مَا أوجب الله الاتباعَ إلا إذَا كَانَ أهدى.

ومعلومٌ أَنَّهُ إذَا كَانَ أَدنَى، فالاتباع مُحَرَّمٌ، فيبقى المساوي ليس إلى جانب التحريم، وليس إِلَى جَانِب الوجوب، وهذه مرتبة التخيير.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: التحدِّي يكُون بالوَصْف، كَمَا يَكون بالفِعل، في قَوْلِهِ تعالى: ﴿فَأْتُوا﴾ تَحَدٍّ بِفِعْل ما هُمْ بِآتِينَ به، وقوله: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ تَحَدٍّ بالوصف، أَنَّ مَا أنتم عليه حَقٌّ فأتوا بهذا، وإلَّا فأنتم مِن الكاذبين، وَلهَذَا قَالَ: ﴿أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

• • ۞ • •



الآية (٥٠)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القَصَص:٥٠].

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ﴾ دُعَاءَكَ بِالْإِتْيَانِ بِكِتَابٍ ﴿فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ فِي كُفْرِهِمْ ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ أَيْ لَا أَضَلَّ مِنْهُ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ الْكَافِرِينَ].

قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ﴾ أي: فيما يجيئهم الكتاب مِن عند الله هو أهدى منهما.

قوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ أي: لا أَحَدَ أَضَلُّ، وهو استفهامٌ مَنْفِيٌّ.

وهناك آيةٌ أخرى يَقُول الله تعالى فيها: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [الأحقاف:٦]، فنَجْمَع بينها، وبين الآية الَّتي بَينَ أيدينا بأنَّ آية الأحقاف في مَقَام الدعاء، وآيتَنا هَذِهِ في مَقَام الاتِّباع.

فقد تكون كل آية لَهَا مَعنًى لَا يَتعَلَّق بالثَّاني، فضلالُ الغاية باعتبار مَا هُوَ مِن جِنْسِها، هَذَا وَجْهٌ.

وهناك وجهٌ آخَرُ، وهو أنهما في مرتبةٍ واحدة في الضلال، فقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ﴾ لَا يَمنَع أن يوجد شيء يُساويه في ذلك، فيكون كُلٌّ مِنَ الأمرين قد بلغ الغايةَ في الضَّلَال.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، القَدَرِيَّةُ يَرَوْنَ أَنَّ الإنسَانَ يُمكن أن يهتدِيَ بنفسِه، وليس لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عليه أَيُّ سُلطة؛ لأَنَّهُم يقولون عن قَدَرِ الله: إِنَّ الأمر أُنُف، بمعنى: أَنَّ اللهَ لم يُقَدِّر أفعالَ العِباد، وأنا أفعل هذا، وأترُك هذا باختياري المجرد المحض، وليس لله فيه أيُّ مشيئة، ولا خَلْق، وَلَا شَيْءَ.

لكن قَوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يرد عليهم، كما أنه أَيْضًا يرد على الجهمية الجبرية، الذي يقولون بالجبر، بأن الله تعالى نَسَب هؤُلاءِ بِفِعْلِهم إلى الظُّلم، ولو كانوا مُجْبَرِين عليه لكانت نِسبة الظلم إِلَيْهِم ظُلمًا، وَاللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لا يَظلم أحدًا.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: جَواز التعليق بالشرط فيما هو مُحَقَّق الوُقوع، وَهَذَا في قَوْلِهِ تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ﴾ هذا مُحَقَّقُ الوقوع، فليس فيه احتمال أَنْ يستجيبوا، فيجوزُ تعليق الشَّيْء المحقق بالشرط، وَلَو كَانَ مُحَقَّقًا أنه لن يكون، وكذلك لَو كَانَ محققًا أنه كائِنٌ، فإن الانتفاءَ هنا كائن لا مَحَالَةَ، ومع ذلك عُلِّقَ بالشرط، وفي الحَدِيث عن النَّبِيِّ عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال: «**وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ بِكُمْ لَاحِقُونَ**»[1]، في قَوْلِهِ لأهل المقابر، وَمَعْلُوم أَنَّ هَذَا الأمر مُحَقَّق.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجنائز، باب ما يقال عند دخول القبور والدعاء لأهلها، رقم (٩٧٤، ٩٧٥).

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنّ هؤُلاءِ المكذبين للرسول ﷺ ليست عندهم حُجة سوى اتباع أهواءهم؛ لقوله: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: عَدَمُ مُجادَلة المُتَّبِعِ هَواهُ المُكَابِرِ، فليس هناك سبيلٌ لإقناعه، فهو يريد أَنْ ينتصر لنفسه فقط، ويَتَّبع هَواه، فما دام الرَّجُل صاحِبَ هَوًى، فالجِدال معه لا فائدة منه، قَالَ تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ﴾، فإذا بَيَّنْتَ للإنسان الحَقَّ، وَوَضَّحْتَه بأَدِلَّتِه النَّقلية والعقلية والحِسية حَسَب مَا هُوَ موجود مِن الأدلة، ولكنه أصرَّ على أَنْ يَبقَى عَلَى مَا كَانَ عليه؛ فاعلَم أنه يَتَّبِعُ الهوى، والمُتَّبع الهوى مُشْكِل، فما هو بالذي يطلب الهدى، ولا بالذي يريد أَنْ ينتفع.

ولهذا نقول في هَذَا الحال: لا يجِبُ على المرْءِ مُجادلتُه، وإنما ينتقل إلى شيْءٍ آخَرَ، وهو معاقبتُه، قَالَ تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت:٤٦]، فالمُعانِد غَيْرُ مَن يريد اتّبَاعَ الحَقِّ، ولم يظهر له، والمُعانِد لَهُ حَالٌ، وَقَد قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ [الأعلى:٩]، يعني: وإن لم تنفع فلا تُذَكِّر، وهذه تقدم الكلام عليها، وهذا الشرط لَيسَ لَهُ مفهوم.

فالأصل أَنَّك إذَا جادلته أمامَ النَّاس اتضح الحقُّ، وَلَكن إذَا تكلم بالباطل أمامَ النَّاس، وَجَبَ عليك إظهارُ الحق مُقابِلَ باطِلِه الذي يَنْشُرُه، فإن لم يقتنع بالحق الذي معك، فاعلم أَنّه لَا فائدة مِن جداله.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: اختلاف النَّاس في الضَّلال، فليسوا على حَدٍّ سَواء في الضَّلَال، كما أنهم لَيسُوا عَلَى حدٍّ سواء في الهدى، وليسوا على حَدٍّ سَوَاءٍ في الغَيِّ، وليسوا عَلَى حَدٍّ سَوَاء في الرُّشد، وَلهَذَا قَالَ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ الهـوَى قَد يَكونُ موافقًا للهُـدى، نأخُذه مِن قَولِه تعالى:

﴿اتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ أمَّا مَن اتَّبع هـواه بِنَاء عَلَى هـدًى مِن الله، فهذا طَيِّب، أَنْ يَكونَ هـواه تَبَعًا لِمَا جَاءَ به الحَقُّ، وَقَد ذَكَرنَا لكم حديثًا مَرْوِيًّا عَن النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ»[1].

فالحاصِلُ: أن الهوى المذموم هُوَ الَّذي لَيسَ عَلَى هُدًى.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ الظَّالِمَ قد عَرَّض نفسه لحرمانه مِن الهُـدى، أو إِنْ شئتَ فقل: إِنَّ الظُّلمَ سبب لحرمان الظَّالِمِ مِن الهُدى؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: فيها رَدٌّ على القَدَرِيَّة الذين يُنكرون قَدَرَ اللهِ بالنِّسبة للأفعال، ورَدٌّ على الجَبْرِيَّة الجَهْمِيَّة الَّذينَ يَقولُونَ بعكس ذلك، والجهميةُ مِن مذهبهم الجَبْرُ، وفيهم ثلاثُ جِيمَاتٍ، كَمَا قَالَ ابن القيم في النُونِيَّة[2]:

جَـبْرٌ وَإِرْجَـاءٌ وَجِـيمُ تَجَهُّـمٍ فَتَأَمَّـلِ المَجْمُـوعَ فِي المِيـزَانِ

فهم جَبْرِيَّةٌ مُرجِئَةٌ جَهْمِيَّة.

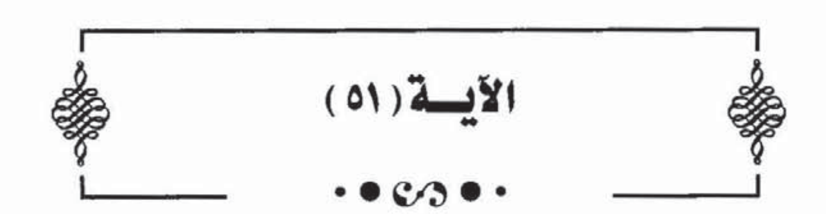
الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ مَن تَحَرَّى العَدْلَ فَإِنَّهُ قَد تَعَرَّض للهداية؛ لأنَّ الظُّلم ضِدُّه العدل، وانتفاء الهداية بِوَصْفِ الظُّلم يقتضي ثُبوتَ الهداية بوصف العدل، فمن تحرّى العَدْلَ، فإنه يُوَفَّق للهداية، فالعدلُ سببٌ للهداية، وهكذا كُلُّ مَن تَحَرَّى الخيرَ -لكن عسى الله أن يُوَفِّقَهُ لِتَحَرِّيه- فإنه يُوَفَّق له إذَا كَانَت النية صادقة، والعزم أكيدًا.

• • ۞ • •

---

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (١/ ١٢، رقم ١٥).

(٢) نونية ابن القيم (ص١٦٦).



۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [القَصَص:٥١].

•••

قال المُفَسِّرُ: [﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا﴾ بيَّنَّا ﴿لَهُمُ ٱلْقَوْلَ﴾ القُرْآنَ ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ يَتَّعِظُونَ فَيُؤْمِنُونَ].

قوله تعالى: ﴿وَصَّلْنَا﴾ مِن التَّوصيل، وحُروفُه الأصلية: وَصَلَ، والوصول إلى الشَّيْء: بُلوغُ غايَتِه، والمعنى أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُؤَكِّد في هَذِهِ الجُملَة -وذلك بحُروف ثلاثة، وهي: القَسم، واللَّام، وقَدْ- أَنَّهُ وَصَّلَ لهم القول.

وقوله تعالى: ﴿وَصَّلْنَا لَهُمُ﴾ المَعروف أَنَّ الفِعل (وَصَلَ) يتعدَّى بـ(إلى)، فيقال: وصَلَ إليه، ويقال: وصَّل إليه، وأوصَل إليه. ولكنه هنا عُدِّيَ باللام؛ وذلك لأَنَّهُ تَضَمَّنَ معنى الوُصول والبَيان، وَلهَذَا قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ في تَفسيرها: [بَيَّنَّا لَهُمْ]، وقَدْ مَرَّ عَلَينَا أَنَّ اللُّغة العربية قد تُعَدِّي الفِعلَ أو -بعبارةٍ أَعَمَّ- قَد تُعَدِّي العامِلَ بغير ما يَتَعَدَّى به.

وذكرنا أَنَّ لِعُلَماء النَّحْو في ذَلكَ طريقين:

الطريق الأول: التَّجوُّز في الحرف.

والطريق الثَّاني: التَّجوُّز في الفِعل.

وهذا مِثال أُوَضِّحُ به الأمر، قَالَ تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان:٦]، فالعَين يُشرب منها، أما الذي يُشْرَبُ به فهو الإناء.

قال بعضُ النَّحويين في هَذَا الأَمر: يمكن التجوُّزُ بالحرف، وإنَّ (الباء) بمعنى (مِنْ)، فتكون (مِنْ) تَبْعِيضِيَّة.

وَقَالَ بَعض النحويين: بل التَّجَوُّز في الفعل يَشْرَبُ، وإنه ضُمِّنَ معنى: رَوِيَ يَرْوَى، فَيَكون المَعنَى: يَرْوَى بها إذا شرب منها.

وَهَذَا في الحَقيقَة أصحُّها، وهو مذهب البصريين.

فيكون قَولُه تعالى: ﴿وَصَّلْنَا﴾ أي: إلَيْهِم ببيان.

قوله تعالى: ﴿ٱلْقَوْلَ﴾ يقول المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [هُوَ القُرْآنُ]، ولعله أَعَمُّ مما قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فالمراد بـ﴿ٱلْقَوْلَ﴾ أي: قولنا، فَاللهُ تعالى مَا يزال يُنَزِّل لعباده مِن قَولِه وَوَحْيِه ما تَصْلُح به أُمُورُهم، حتى وَصَلَت الغايةُ إلى محمد ﷺ بالقُرْآن.

فَيَكون المَعنَى: أنَّ اللهَ تعالى مَا تَرَكَهُم هكذا، بل ما زالت أقوالُه تصل إِلَى الخَلق، وتُبَيِّنُ لهم.

قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾: (لَعَلَّ) هنا للتَّعليل، أي: لأجْلِ أَنْ يتذَكَّروا، والتذكُّر بمعنى ذِكْرِ الشَّيْء، لَكن لَا لمجرد الذِّكر، ولكن للاتِّعَاظِ به.

ولهذا فالمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ دائما يُفَسِّر ﴿يَتَذَكَّرُونَ﴾ بلازمِهِ، وهو الاتِّعاظ، وإلا فأصلُ التَّذَكُّر: تَذَكَّرْتُ الشَّيْءَ، أي: كنتُ منه على ذِكْرٍ، لكن هناك لازم، وهو الاتعاظ.

أَمَّا مُجَرَّدُ الذِّكر بِدُونِ اتِّعَاظٍ، فَهَذَا لَا يَنفع، والمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: [يَتَّعِظُونَ] أي: تُؤَثِّر فيهم الموعظةُ والقول، (فَيُؤْمِنُونَ).

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: إِنَّ الله عَزَّوَجَلَّ لم يُخْلِ الأرضَ مِن الوَحْيِ؛ لأن التوصيل معناه وَصْلُ الآخر بالثَّاني.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّ الوَحيَ مُشتمل على غايَةِ البيان؛ لأَنَّنا قلنا: إِنَّ وَصَّل مُضَمَّن معنى بَيَّن.

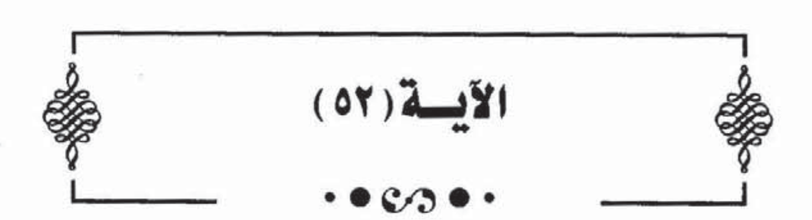
الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بيانُ نِعْمَةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى هَذِهِ الأُمَّةِ؛ بإيصال القول إِلَيْهِم، مِن قَولِه: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّ الحِكمة مِن الوحي التذكُّر والاتعاظ؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إثباتُ العِلَّة في أحكام الله الكَوْنِيَّة والشرعية، وأنه لا يفعل شيئًا، ولا يُشَرِّعُه إلا لِحِكْمَةٍ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: تعليلُ أفعالِ الله، وأحكامِ الله الشرعية والكَوْنِيَّة، والذي خالَفَ في ذَلِكَ هُمُ الأشاعِرَة، والجَهْمِيَّة هُم الأصل، قالوا: أَفعَالُ اللهِ لا تُعَلَّل وأحكامُه لا تُعَلَّل.

• • ۞ • •



الآية (٥٢)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴾ [القَصَص:٥٢].

• • • •

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ ﴾ أَيِ الْقُرْآنُ ﴿هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ أَيْضًا، نَزَلَتْ فِي جَمَاعَةٍ أَسْلَمُوا مِنَ الْيَهُودِ، كَعَبْدِ اللهِ بْنِ سَلَامٍ وَغَيْرِهِ، وَمِنَ النَّصَارَى قَدِمُوا مِنَ الْحَبَشَةِ، وَمِنَ الشَّامِ].

قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ﴾ بمعنى: أعطيناهم، والإيتاء هنا شرعي، وَيَحْتَمِل أَنْ يكونَ إيتاءً قَدَرِيًّا، أي: قَدَّرنا أن يأتيَهم الكتاب، وهو الوحي، فآتاهم.

وقوله تعالى: ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ بمعنى المكتوب، وَالمرَاد به التَّوراةُ، وكذلك الإنجيل، كُلُّها تُسمى كتابًا.

وقوله تعالى: ﴿مِن قَبْلِهِۦ﴾ الضَّمير يَعود عَلَى القُرْآن، أي: مِن قَبْلِ القُرْآن.

وقوله تعالى: ﴿هُم﴾ أي: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ﴾، وقوله تعالى: ﴿بِهِۦ﴾ أي: بالقُرْآن، ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ أي: يُصَدِّقُون، وينقادون له.

إعراب الآيـة: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مبتـدأ، وجُملة ﴿ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ صِلـة الموصول، و﴿هُم﴾ مبتدأٌ ثانٍ، وقوله: ﴿بِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ خَبَرُ المبتدأ الثَّاني، والجُملة مِن المبتدأ الثَّاني وخَبَرِهِ خَبَرُ المبتدأ الأوَّل.

والْفَائِدَةُ مِن تكرار المبتدأ كأَنَّه أَسْنَدَ الإِيمان إِلَيْهِم مرتين؛ مَرَّة بالضَّمير ﴿هُم﴾، ومَرَّةً بالمبتدأ الأول ﴿ٱلَّذِينَ﴾.

وأتى في قَوْلِهِ: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ بالفعل المضارِع الدالِّ على الاستمرار، إشَارَةً إلَى أنهم تلَقَّوْه عن قَبُولٍ وإذعانٍ، وأنهم ما زالوا عَلَى هَذَا الأَمر.

وهذه الجُملة بالنِّسبة لمَا قَبلَهَا في المَعنَى كأنّها إقامةُ دَليل عَلَى الذين كَذَّبوا بالقُرْآن، كَأَنَّه يَقول: الذين أُوتوا الكتابَ مِن قبلكم آمنوا بالقُرْآن، ممَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّه حق؛ لأَنَّهُم مَعَ أَنَّهم أهلُ كتاب ترَكوا كتابهم، وآمَنُوا بالقُرْآن، وأنتم أهلُ جهل، وليس لديكم كتابٌ؛ فكان حَقًّا عليكم أن تكونوا قَبلهم في الإِيمان؛ لأَنَّه مِنَ الصعب أن ينتقل الإنسَان مِن كتابه، أو مِن دِينِه إلى دِينٍ آخَرَ، لكن ليس مِن الصعب أَنَّ الإنسَانَ ينتقل مِن جهل إلى حقٍّ وعِلم.

ثم إِنَّ فيه أَيْضًا تَأْنِيبًا لهؤُلاءِ، وَفِيه أَيْضًا دَليل عَلَى أَنَّه حَقٌّ؛ لأن الَّذينَ أُوتوا الكتابَ ما آمنوا به إلا عن عِلم، وَهُوَ كَذَلِكَ؛ فإنه لَا شَكَّ أَنَّ النَّبيّ ﷺ كان مكتوبًا عند بَني إسرَائيلَ في التَّوراة والإنجيل، كَما قَالَ تعالى: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة:١٤٦]، حتى أوصافه الخِلْقِيَّة موجودة عندهم، بِقَطْعِ النَّظر عن مِنهاجه وسِيرته، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف:١٥٧].

هذا كله موجودٌ في التَّوراة والإنجيلِ ومعروفٌ، ولهذا تجمَّع اليهود في المدينة مِنْ أَجْلِ أَنْ يستقبلوا هذا النَّبيَّ ﷺ، الذي وَجَدُوا صِفَتَه عندهم، ويُؤمنون به، وكانوا كَمَا قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾

[البقرة:٨٩]، أي: يستنصرون عليهم بهذا النَّبيّ، ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾ [البقرة:٨٩].

فالحاصِل في هَذِهِ الآيَة أَنَّ وجه تَعَلُّقِها بما قَبلها مِن وَجْهَين:

الوجه الأول: تأنيب الجاهِليّين على الكُفر بمحمدٍ ﷺ، مَعَ أَنَّ أهلَ الكتاب -وهُم على دِينٍ- انتقلوا مِن دِينهم إلى دِينه، فكنتم أَوْلى باتباعه.

الوجه الثَّاني: إقامةُ دَليلٍ عَلَى صِحَّـة مَا جَاءَ به الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ لأَنَّ هَؤلَاء الذين عندهم عِلم مِن الكتَابِ مَا انتقلـوا إلَّا عَن عِلم بأَنَّه حق، والمناسبـة واضحة جدًّا بَيْنَ هذه، وبين النُّصوص التي قَبلها، ولا ريب أَيْضًا أَنَّ في هَذِهِ الآيَة ثَنَاءً على الذين آمنوا بالرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِن الَّذينَ أُوتُوا الكتابَ، ولهذا عَطَفَ بـ﴿هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ ولم يستكبروا عنه، بالرغم مِن وجود كتابهم معهم.

فالمشركون لم يَأْتِهِمْ كتابٌ مِن قَبْلُ، ولا نبيٌّ، قَالَ تعالى: ﴿مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ [القَصَص:٤٦]، لَكن هَذَا مِن باب الجِنس، ومعناه: أَنَّنا لم نتركْهُم هكذا، بَل إِنَّ القول وَصَل إِلَيْهم كما وَصَلَ إِلَى غَيرِهِم، فإنَّ اللهَ مَا زال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُنزِلُ الكُتُبَ على مَن سَبَق.

قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ أَيْضًا]، ويعني بقوله: [أَيْضًا] كما آمنوا بكُتُبهم، و(أَيْضًا) مِن الأسماء الملازمة للنَّصب على المصدرية؛ لأن فِعْلَها: آضَ، يَئِيضُ، أَيْضًا، مِثل: باعَ، يَبيعُ، بَيْعًا، لأنَّ معناها: رَجَعَ.

فالمعنى: أنهم هُم أَيضًا يُؤمِنون بالقُرآن.

قَالَ المُفَسِّـرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [نَزلَتْ فِي جَمَاعَةٍ أَسْلَمُوا مِنَ الْيَهُودِ، كَعَبْدِ اللهِ بْنِ سَلَامٍ

وَغَيْرِهِ، وَمِنَ النَّصَارَى قَدِمُوا مِنَ الْحَبَشَةِ، وَمِنَ الشَّامِ].

وكذلك مِن غَيْرِ الشام، أسلمَ مِن اليهود مِثل عبد اللهِ بنِ سلام، واشتُهر عَبدُ الله بنُ سَلَام بالإِسْلام وَهُوَ مِنَ اليهود؛ لأَنَّه كان حَبْرًا مِن أحبار اليهود، وكان كَمَا قَالَ اليهود عَنْهُ فِي حَضرة النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَالُوا: أَعْلَمُنَا، وَابْنُ أَعْلَمِنَا، وَأَخْيَرُنَا، وَابْنُ أَخْيَرِنَا[1].

قالوا ذلك مُعترفين له بالفضل، والعِلم، والسِّيادَة، ولهذا كانوا يضربون به المثَل؛ لأنَّ مَن يَكُون مِثله سَيِّدًا في قومِه قد تَحْمِلُه السِّيادَةُ عَلَى أَنْ يُنافِق، وقد يحمله أَيْضًا حُبُّ الرِّئاسَة على عدم الاتباع لِغَيْرِه؛ لأَنَّه إِذَا تَبِعَ غيرَه صار مرءوسًا لا رئيسًا، لكنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تواضعَ للحَقِّ، فكان مؤمنًا بالرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وقصة إيمانه معروفة، فإن الرَّسول ﷺ خَبَّأَه، ودَعَا اليهود وسألهم عنه، فأَثْنَوْا عليه، وسألهم عن رسالة الرَّسول ﷺ، فكَذَّبُوا الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَقَالَ لَهم: «أَفَرَأَيْتُمْ إِنْ أَسْلَمَ عَبْدُ اللهِ» قَالُوا: أَعَاذَهُ اللهُ مِنْ ذَلِكَ، فَخَرَجَ عَبْدُ اللهِ إِلَيْهِمْ فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، فَقَالُوا: شَرُّنَا، وَابْنُ شَرِّنَا، وَوَقَعُوا فِيهِ. فما خرجوا إلا وهُم يُثْنُون عَلَيْه شَرًّا؛ لأَنَّهُ أسلَم.

قول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [كَذَلِكَ نَزَلَتْ فِي جَمَاعَةٍ مِنَ النَّصَارَى قَدِمُوا مِنَ الحَبَشَةِ]، قَالَ عَطَاءٌ: «كَانُوا ثَمانِينَ رَجُلًا: أَرْبَعُونَ مِنْ أَهْلِ نَجْرَانَ مِن بني الحارث بْنِ كَعْبٍ، وَاثْنَانِ وَثَلَاثُونَ مِنَ الحَبَشة، وثمانية رُومِيُّون مِنْ أَهْلِ الشَّامِ»[2].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب خلق آدم -صلوات الله عليه- وذريته، رقم (٣٣٢٩).

(٢) تفسير البغوي (٢/ ٧٥).

وفيهم نزلت: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾ [المائدة:٨٣]، والحبشة قد أسلم فيها نَصارَى، مِثل النجاشي؛ فإنه أسلَمَ، ودخل دِينَ الإِسْلام، وكان قَبْلَ ذلك عَلَى دِينِ النصرانية، ووصفه النَّبيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بأنَّه أخٌ للصحابة، وأنَّه رجُل صالح[1].

فالمهم: أنَّ مِنَ الَّذينَ أُوتُوا الكتَابَ مِنَ اليَهود والنصارى قومٌ آمنُوا بالقُرْآن أيضًا.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أنَّ اليهـودَ والنصارى فيهم مَن آمَـنَ بالقُرْآن؛ لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّ حُكم الفَرْدِ قد يتناول جِنْسَه، ومعناه: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ﴾، لو نظرنا إليها وجدنا أَنَّهَا عَامَّة تشمل كُلَّ الَّذينَ أُوتوا الكتَابَ، وليس كُلُّ الَّذينَ أُوتوا الكتَابَ مِن قَبْلُ آمَنُـوا بالقُرْآن، فهناك نصارى ظَلُّوا على نَصْـرَانِيَّتِهم، ويَهُودٌ ظَلُّوا على يَهُودِيَّتِهم، ولكن مِن هؤُلاءِ مَن آمَنَ، كَعَبْدِ الله بنِ سَلامٍ والنَّجَاشي.

فسببُ إيمانِ عَبْدِ الله بنِ سَلَام عِلمُه بما في التَّـورَاة مِن صفات الرَّسُول ﷺ، وهذا العِلْمُ يَشمل جميعَ اليهود.

إذن: فهُنا أعطينا الجِنس حُكْمَ الفَرد؛ للعِلَّة التي تَشْمَلُه وغيرَه.

فقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ لا يعني أنهم كُلَّهُم

---

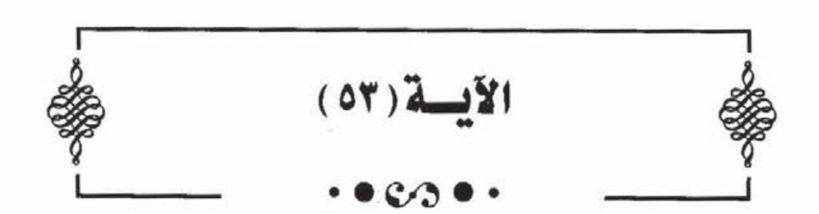
(١) كما في حديث جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ حِينَ مَاتَ النَّجَاشِيُّ: «مَاتَ اليَوْمَ رَجُلٌ صَالِحٌ، فَقُومُوا فَصَلُّوا عَلَى أَخِيكُمْ أَصْحَمَةَ». أخرجه البخاري: كتاب مناقب الأنصار، باب موت النجاشي، رقم (٣٨٧٧).

آمنوا، وَلَكن مَا آمن إلا بعضُهم، لَكن هَذَا الإِيمَان مِن بعضهم حمَلَه عليه العِلَّة الشاملة لجميع الجنس.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: الثناء البالِغ عَلَى الَّذينَ آمَنوا بالقُرْآن، وبالكتب السَّابِقة؛ لقوله: ﴿هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّ صِفَةَ النَّبيّ ﷺ موجودة في التَّوراة وَالإنجيل، وهذا صَريحٌ في آيَة الأعراف: ﴿ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ [الأعراف:١٥٧]، إِلَى آخِره.

• ● ۞ ● •



الآية (٥٣)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾ [القَصَص:٥٣].

• • • •

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ الْقُرْآنُ ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾ مُوَحِّدِينَ].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ﴾: (إذا) شَرطية، وجواب الشرط مُتصل بِفِعْلِه مباشرة بمعنى: أنه متى وُجد فِعل الشرطِ وُجِدَ جوابُه، فهو مِن الاتصالِ الوُقُوعِي: إذا وُجِد الشرطُ وُجِدَ المشروط.

فقولُه تعالى: ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾، لَم يَقُل: إذا تُلِيَ، وإنما جاء بالمضارع، أي: إنَّ أَيَّ آيةٍ تُتلى عليهم يقولون: آمنا بها. فهُم لَمْ يُؤمِنوا بالقُرْآن جُملةً، بل آمنوا بالقُرْآن تفصيلًا؛ لأنَّ الفعلَ المضارع يَدُلُّ على الاستمرار، فكُلَّما تُلِيَت عليهم آيةٌ آمَنوا بها، فزادتهم إيمانًا.

﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ أي: يُقرأ عليهم، ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ﴾ أي مُباشَرة، بلا تَرَدُّد، أو نَظَر، أو تفكير؛ لأنَّنا قلنا: إنَّ جَوَاب الشَّرط ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ﴾ يلي فِعل الشرط ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ﴾ مباشرة، أي: بالذي تُلِيَ عليهم مِن القُرْآن؛ قليلًا كان، أو كثيرًا، ثم بَيَّنوا أنَّ إيمانَهم هذا عن اقتناع، وعلى أساس.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ﴾: ﴿إِنَّهُ﴾ أي: ما تُلِيَ عليهم مِن القُرْآن، ﴿ٱلْحَقُّ﴾ بمعنى: الشَّيْء الثابت الواقع، الصادق خَبَرًا، العادِلُ حُكمًا.

ونرى أَنَّهم قَالوا: ﴿مِن رَّبِّنَآ﴾، ولم يقولوا: مِن الله؛ لأن الرَّبَّ هُوَ الَّذي له التصرُّف المطلَق، فهو يتصرف بعِبَادِه شَرْعًا وقَدَرًا، فكأنهم يقولون: إنَّ رَبَّنَا لن يُخْلِيَنا مِن أَنْ يُنَزِّلَ القُرْآن، وله الحُكم والتصرف المطلَق؛ كونًا وشرعًا.

وقولهم: ﴿مِن رَّبِّنَآ﴾ هذا إشَارَة إلَى أنهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يفتخرون بانتسابهم إلَى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وقوله: ﴿إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ﴾ الجُملة مِن حيثُ المعنى تَعليليَّة لمَا قَبلَهَا، يعني: آمنا به، لا لأَنَّهُ أَعْجَبَنا حُسنُه وبيانُه وبلاغتُه، ولكنَّا آمَنَّا به لأنّه ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ﴾.

فَإذَا قَالَ قَائل: إذَا كَانَتِ الجُملة تعليلية، فلماذا لا تُفتح الهمزة، فيُقَال: (أَنَّهُ الحقُّ مِن رَبِّنا)؛ لأَنَّ الجُملة التَّعليلِيَّة على تقدير (اللام)، و(اللامُ) إذا اتصلت بـ(إنَّ) وَجَبَ فتحُ همزتها، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون:٦٠]، وَلَم يَقُل: (إنهم إلى ربهم)؟

قلنا: الجُملة التَّعليلِيَّة قد تكون تعليليَّة مِن حيثُ المعنى فقط، وَقَد تكون تعليلية مِن حيث اللفظِ مع المعنى؛ فإن لُوحِظ مَعَهَا اللفظُ مع المعنى، فإنها الهمزة تُفتح؛ لأنَّها عَلَى تَقدير اللام، وإنْ لُوحظ المعنى فقط؛ فإنها تُكسَرُ الهمزة، وهنا لوحظ المعنى فقط.

ونقول: لكُلِّ مَقام مَقَالٌ، فمُلاحظة المعنى فائدتُها أَنَّ الجُملة تكون مِن حيثُ اللفظُ منقطعة عما قَبْلَها، فكأنها جُملةٌ خَبَرِيَّةٌ مستقلة، وكأنها منقطعة عن اللفظ،

لكن إفادةُ التَّعلِيل مِن السياق.

وأمَّا التَّعليلِيَّة اللفظية فإنَّهَا تكون مرتبطةً بما قَبْلَها، قال ابن مالك[1]:

فَاكْسِرْ فِي الِابْتِدَا وَفِي بَدْءِ صِلَهْ وَحَيْثُ إِنَّ لِيَمِينٍ مُكْمِلَهْ

فَهَذَا هُوَ الفَرق بين الجملة التَّعليلِيَّة التي قُصِد بها اللفظ والمعنى، والتي قُصِد بها المعنى فقط.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾ أي مِن قَبْل القُرْآن.

قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مُوَحِّدِينَ]، وَلَو أَنَّه فسَّر الإِسْلام بظاهِرِه لَكَان أَولى؛ لأن الإِسْلام معناه الاستسلام والانقِياد، وأصلُه مِن عَدَمِ المعارضة والمُحَارَبَة، ولهذا يُقالُ: السِّلْم والإِسْلام، معناه عدمُ المعارضة والمحاربة، فكلمة ﴿مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾ أي: مُنْقَادِين مُذْعِنِين للحَقِّ.

وقولهم: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾ لَيسَ المَرَادُ بذلك الفَخْرَ والإعجابَ بالعَمَل قطعًا؛ لأن السياق سياقُ ثَناء، وَلَكنَّ المَرَادَ بذلك الثَّناءُ عَلَى الله بما كانوا عَلَيه في الحالَين: في الحالِ السَّابِقة، وفي الحال الثَّانية، في الحَال الثَّانية ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ﴾، والحال الأُولى: كانوا ﴿مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾: مُنْقَادِين مُتَّبِعِين للرسول ﷺ الَّذي جَاءَ إِلَيْهِم.

وقوله: ﴿مُسْلِمِينَ﴾ خَبَرُ ﴿كُنَّا﴾، ولو تَقَدَّم عليه قوله ﴿مِن قَبْلِهِۦ﴾؛ لأَنَّ الخَبَرَ هو ما تَحْصُلُ به الفَائِدَة، سواءٌ تَقدَّمَ، أو تَأَخَّرَ.

---

(١) ألفية ابن مالك (ص٢١).

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: زيادةُ الثَّنَاء عَلَى هَؤلَاء بأنهم يُؤمنون بِكُلِّ مَا يتلَى عَلَيهم، فَهُم قَد آمَنوا بالقُرْآن جُملة وتفصيلًا، وأخذنا ذَلكَ مِن قَولِه: ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ﴾، و﴿يُتْلَىٰ﴾ فِعْلٌ مُضارِعٌ يَدُلُّ عَلَى الحُدوث والاستمرار، وَيَدُلُّ عَلَى التَّجَدُّدِ والحُدوث، وَأَنَّ هَذَا شأنُهم كُلَّما تُلِيَ عليهم.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّهم آمَنوا لَا لمجرد الهوى، ولكن آمَنوا إيمَانًا مَبنيًّا عَلَى اقتناعٍ، يُؤخَذ مِن قَولِهِم: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ﴾، فما آمنوا هكـذا تبعًا للنَّاسِ، ولكن آمنوا عن اقتناعٍ بأنه الحقُّ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّ القُرْآنَ مِن عند الله؛ لقوله: ﴿مِن رَّبِّنَآ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: كمـالُ عقل هَؤلَاء الَّذينَ آمَنـوا، حيث عَبَّـرُوا هنا بالرُّبوبية بقولهم: ﴿مِن رَّبِّنَآ﴾ دُونَ الأُلوهيَّة؛ لأن المقام يَقتَضي ذَلكَ، فإن الرَّبَّ لَهُ الحُكمُ يَحكُم بِمَا يَشَاء كونًا وشرعًا.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّ هَـؤلَاء كَانوا مؤمنينَ مسلمين مُنْقَادِينَ للكُتب السَّابِقة؛ لقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: جَواز ثناء المَرء عَلَى نَفسـه بِالصِّفات المحمودة، بِشَـرط أَن تَكونَ فِي ذَلكَ مَصلَحَةٌ، وَأَلَّا يَكونَ فيه افتخارٌ، وعُلُوٌّ عَلَى غَيرِه؛ لقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾، وَهَـذَا أَمْرٌ واقعٌ مِنَ الرَّسول ﷺ وَمِنَ الصَّحَابَة، ومِن أَهـلِ العِلم، قَالَ النَّبيُّ ﷺ: **«أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبْ، أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ»**[1].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب من قاد دابة غيره في الحرب، رقم (٢٨٦٤)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب في غزوة حنين، رقم (١٧٧٦).

وَقَالَ ابنُ مَسعود: «وَاللهِ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مِنْ كِتَابِ اللهِ إِلَّا أَنَا أَعْلَمُ أَيْنَ أُنْزِلَتْ، وَلَا أُنْزِلَتْ آيَةٌ مِنْ كِتَابِ اللهِ إِلَّا أَنَا أَعْلَمُ فِيمَ أُنْزِلَتْ، وَلَوْ أَعْلَمُ أَحَدًا أَعْلَمَ مِنِّي بِكِتَابِ اللهِ، تُبَلِّغُهُ الإِبِلُ لَرَكِبْتُ إِلَيْهِ»(١).

وهذا ثَنَاء عَلَى نَفسه لَكن لمصلحةٍ، والعُلماء كثيرًا إذا كَتبوا كتَابًا يُثنون عَلَيه بمَا يَقتَضي هَذَا الكتَاب مِن أوصاف الثناء، وَمَعلُوم أَنَّ الثَّنَاء عَلَى الكتَاب ثَنَاءٌ عَلَى مُصَنِّفِه، فلو أنك أثنيتَ عَلَى هَذَا البناء فَأَنتَ في الواقع قد أثنيتَ على الباني، فَهَذه المَسأَلَة يجوز للإنسَان أَنْ يُثْنِيَ عَلَى نَفسه بصفَات الحَمد بشرطين:

الشرط الأول: أَلَّا يُريدَ بذَلكَ الافْتِخَارَ عَلَى غيره، ووجهُه ظاهِر؛ لأَنَّه إِذَا قَصَدَ بذَلكَ الافْتِخَارَ، والعُلُوَّ عَلَى النَّاس، فَهَذَا قصدٌ مُحَرَّم، وَلهَذَا قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **«أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ»**(٢).

والشرط الثَّاني: أَن تَكونَ في ذَلكَ مَصلَحَةٌ؛ لأَنَّه إذَا لَم تَكن فيه مصلحة، كَانَ لَغوًا مِنَ القول؛ لأَنَّ الإنسَانَ يَمْدَحُ نَفسَه دُونَ مصلحة، إِلَّا أَنَّه لَولَا أَنَّه يريد أَنْ يُبْرِزَ صفاتِهِ لِيَفْتَخِرَ بهَا عَلَى غَيرِه، مَا فَعَلَ ذَلكَ، حَتَّى لَو قَالَ: أَنَا لَا أريد الفَخْرَ.

فالأصلُ أَنَّ هَذَا لَغوٌ مِنَ القَولِ؛ إذ لَا فَائدَةَ منه، والرَّسُول ﷺ يقول: **«مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ، وَاليَوْمِ الآخِرِ؛ فَلْيَقُلْ خَيْرًا، أَوْ لِيَصْمُتْ»**(٣).

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب القراء من أصحاب النبي ﷺ، رقم (٤٧١٦)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عبد الله بن مسعود وأمه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، رقم (٢٤٦٣).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الفضائل، باب تفضيل نبينا ﷺ على جميع الخلائق، رقم (٢٢٧٨).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، رقم (٦٠١٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار والضيف، رقم (٤٧).

فَطالما أنها ليس فيهَا خَيْـرٌ، ثم إِنَّها تُـؤَدِّي إِلَى مَفْسَـدَةٍ؛ فلا داعيَ لها، لأَنَّنا إذا فَرَضْنا أَنَّ هَذَا الرَّجل لَا يَقصـدُ الافْتِخَار أبدًا، فإنه بِفِعْلِـه هذا يفتح بابًا لآخَـرِين ليفتخروا.

• ● ۞ ● •



الآية (٥٤)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [القَصَص:٥٤].

•••

قال المُفَسِّـرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ بِإِيمَـانِهِمْ بِالْكِتَابَيْـنِ ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾ بِصَبْـرِهِمْ عَلَى الْعَمَلِ بِهِمَا ﴿وَيَدْرَءُونَ﴾ يَدْفَعُـونَ ﴿بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ مِنْهُمْ ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ يَتَصَدَّقُونَ].

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشَارَة إلَى الَّذينَ أُوتوا الكتَابَ مِن قَبلُ فآمَنـوا به، ثم آمَنوا بالرَّسُول ﷺ.

قَوله تعالى: ﴿يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم﴾ أي: يُعْطَون أجرَهم، والفِعل مبنيٌّ للمفعول، وهو الواو في قَوْلِهِ: ﴿يُؤْتَوْنَ﴾ وتُعرب نائِبَ فاعل، والمفعول الثَّاني ﴿أَجْرَهُم﴾.

وأما قولُه تعالى: ﴿مَّرَّتَيْنِ﴾؛ فإنه مفعولٌ مُطلَق، فهو دالٌّ على المصدر، لكنه بغير لفظِه، وكُلُّ مَا دَلَّ عَلَى المصدر بِغَيـر لَفظِه فهو مفعـولٌ مطلق، ﴿مَّرَّتَيْنِ﴾ بإيمـانهم بالكتابين؛ فهم ﴿يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم﴾ مرتيـن: المَرَّة الأُولى: على الإِيمان بالكتاب السابق، والمَرَّة الثَّانية: عَلَى الإِيمان بالقُرْآن.

وأما أَهل الجَاهليَّة الذي آمنـوا بالقُرْآن فيُعطَون أجرهم مـرة واحدة؛ لأَنَّهم آمَنُوا به فقط، وقد ثبت بهذا الحديث عَنِ النَّبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كما في حديث هِرَقْلَ:

«أَسْلِمْ تَسْلَمْ، يُؤْتِكَ اللهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ»[١].

إضافة لهذه الآية ذَكَر الذين ﴿يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾، فقال: «ثَلَاثَةٌ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ: الرَّجُلُ تَكُونُ لَهُ الأَمَةُ، فَيُعَلِّمُهَا فَيُحْسِنُ تَعْلِيمَهَا، وَيُؤَدِّبُهَا فَيُحْسِنُ أَدَبَهَا، ثُمَّ يُعْتِقُهَا فَيَتَزَوَّجُهَا، فَلَهُ أَجْرَانِ، وَمُؤْمِنُ أَهْلِ الكِتَابِ، الَّذِي كَانَ مُؤْمِنًا، ثُمَّ آمَنَ بِالنَّبِيِّ ﷺ، فَلَهُ أَجْرَانِ، وَالعَبْدُ الَّذِي يُؤَدِّي حَقَّ اللهِ، وَيَنْصَحُ لِسَيِّدِهِ»[٢].

قَوله تعالى: ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ الباء للسَّببية، و(ما) مَصْدَرِيَّة، وعلامة المَصْدَرِيَّة أنها تُحوِّل ما بَعْدَها إلى مَصْدَر، فتكون -كَمَا قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ- لِصَبْرِهِم.

وَلَا يَصحُّ أَنْ تَكونَ (ما) هنا موصولةً، فلو كانت موصولَةً لَكَانَتْ عَلَى تَقدير الضَّمير: بالذي صَبَرُوه، وَهَذَا لَا يستقيم.

فإذن: يَتَعَيَّنُ هنا كونُها مَصْدَرِيَّة، أي: بِصَبْرِهِم، وَهُوَ أَحَدُ مَحَامِلِ (ما) العَشَرَة، نَذْكُرُها هنا للفائدة، جُمِعَتْ في بَيْتٍ واحدٍ مِنَ الشِّعْر:

سَتَفْهَمُ شَرْطَ الوَصْلِ فَاعْجَبْ لِنُكْرِهَا ... بِكَفٍّ وَنَفْيٍ زِيدَ تَعْظِيمُ مَصْدَرِ

وقوله: ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ أي: بِصَبْرِهم على العَمَل بها، وهذا الصَّبْر عَلَى العَمَل بها هو مِن بَاب الصَّبْر على طاعة الله، ومِن باب الصَّبْر عن معصية الله، ومِن باب الصَّبر عَلَى أقدار الله؛ فهُم صَبروا عَلَى طَاعَة الله؛ فإن الشرع فيه أوامرُ شاقَّةٌ على

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الوحي، باب بدء الوحي، رقم (٧)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل، رقم (١٧٧٣).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب فضل من أسلم من أهل الكتابين، رقم (٣٠١١)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس، ونسخ الملل بملته، رقم (١٥٤).

النُّفُوس تَحتَاج إلَى المعالجة، فهذا صبر عَلَى طَاعَة الله، وفي الشَّرائِع نَوَاهٍ نُهِيَ عنها، قد يَشُقُّ على النفس تركُها، ففيها صبرٌ عن مَعصيَة الله.

كذلك أَيْضًا في الشَّرائِع إيذاء؛ فإنَّ المجرمين يُؤذُون المُؤمنِينَ، وربما يَضْرِبُونَهم، وربما يقتلونهم، وهذا صَبْرٌ عَلَى أقدار الله المؤلمة.

فعلى هَذَا يكون الصَّبر عَلَى الشَّرائِع يتضمن الصَّبْر بأنواعه الثَّلاثَة: الصَّبر عَلَى طَاعَة الله، وعن معصيته، وعلى أقدارِه المؤلمة.

وأصلُ الصَّبْر في اللُّغَةِ الحبسُ، ومنه قَولُهم: قُتِل فلانٌ صَبْرًا، أي: محبوسًا على القتل، أُمْسِكَ وقُتِل، فمعنى الصَّبْر: حبسُ النَّفْسِ، والنَّفْسُ تَحتَاج إلَى حَبْسٍ عَلَى طَاعَة اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأَنَّهُ كَمْ مِن إنسانٍ يَقولُ لَهَ ضميرُه: افعل كَذَا مِنَ الطاعة، وربما يفعل بعضَها، ثم يَعْجِزُ، فلا يَصْبِرُ نَفْسَهُ، وكذلك بالنِّسبة للمعاصي؛ فإنَّ النفس المطمئنةَ تَزْجُرُ المرءَ عن المعصية، ولكن تأتيه النفسُ الأَمَّارةُ بالسُّوء فتأمُرُه بالمعصية، وحينئذ تتصارع النَّفْسان، والتوفيقُ بيَدِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

كذلك بالنِّسبة للأقدار؛ مِنَ النَّاس مَن لَا يَصْبِرُ على الأَقْدَار، بَل إذَا نَزَلَ به القَدَر يُمكن أَنْ يَكْفُرَ، كَمَا قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الحج:١١].

فإنَّ بَعضَ النَّاس قَد لَا يصبر على الأَقْدَار المؤلمة ويَقْنَطُ، وهناك مِنَ النَّاس مَن إذا ابتُلِي بمصائبَ انْتَحَرَ، فهؤُلاءِ لم يصبروا على الأَقْدَار، فَقَتلُوا أنفُسَهم، ليعَذَّبوا بما قَتلُوا به أنفسهم في نار جَهَنَّم، ويُخَلَّدون فيها، كما جاء في الحديث: «مَنْ تَرَدَّى مِنْ جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَهُوَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ يَتَرَدَّى فِيهِ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ تَحَسَّى

سُمًّا فقتَلَ نَفْسَهُ، فَسُمُّهُ فِي يَدِهِ يَتَحَسَّاهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ، فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ يَجَأُ بِهَا فِي بَطْنِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا»(١).

لكن الصَّبر عَلَى الأَقْدَار المؤلمة أمرٌ يُمكن للإنسَان أَنْ يصبرَ عليه، ويُحاسب نَفْسَهُ حتى يستقيم.

والصَّبْر عَلَى طَاعَة الله أفضلُ وأعلى وأَكْمَلُ مِن الصَّبرِ عَنِ المعصية؛ لأَنَّ فيه جهادَين: جهادًا على العَمَل، وجهادًا على تحَمُّل العَمَل، ثم الصَّبر عَنِ المعصية؛ لأَنَّهُ جهادٌ واحِدٌ، عَلَى تحَمُّل تَرْكِه، فَلَيسَ فيه عَمَلٌ، يقال: لا تَزْنِ، لَا تَزْنِ. ما أُمِرْتَ وكُلِّفْتَ بفعل شيء.

والصَّبْر على الأَقْدَار المُؤْذِيَة، أو المؤلمة هو أدناهُ؛ لأَنَّهُ صَبْرٌ على مَا لَا اختيارَ للمرء فيه، كَمَا قَالَ بعضُ السَّلَف: «العاقِلُ يَفعل في أول يومٍ مِن المُصيبة ما يَفْعَلُه الجاهِلُ بَعْدَ أيامٍ، ومَنْ لَمْ يَصْبِرْ صَبْرَ الكِرَام سَلا سَلْوَ البهائم»(٢).

كُلُّ إنسَانٍ إذا أُصِيب بمُصِيبة، وطال عليها الزَّمَن، فإنه ينسى.

ولهذا كان صبرُ يُوسُفَ على تَرْكِ الزنا بامرأةِ العَزيز أَكْمَلَ مِن صَبْرِهِ عَلَى مَا حَصَلَ مِن قَضِيَّة إخوانِه له بلا رَيْبٍ، وَلهَذَا قَالَ اللهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف:٢٤]، وَلَم يَقُلْ مِثْلَ هَذَا حِين أَلْقَوْه في غَيَابَةِ الجُبِّ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الطب، باب شرب السم والدواء به وبما يُخاف منه والخبيث، رقم (٥٧٧٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه، وأن من قتل نفسه بشيء عُذِّبَ به في النار، وأنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة، رقم (١٠٩).

(٢) تسلية أهل المصائب، لمحمد بن محمد بن محمد، شمس الدين المنبجي (ص٢٩).

فالصَّبْر على الأَقْدَار أعظمُ، فقد يُصِيبك ما يؤلمك، لكنه شيء بغير اختيارك، أما المعاصي فَقَدْ تَرَكْتَها باختيارك، تستطيع أن تفعَلَها، ولكنك ما فَعَلْتَ، أَمَّا البلاءُ، فلا تستطيع له دفعًا، فالصَّبْر والاستسلام للشرع أفضلُ مِنَ الاستسلام للقَدَر، الاستسلام للشرع هُوَ الَّذي يُمْدَح عليه الإِنْسَانُ، ويُثنَى عليه، لكن الاستسلام للقَدَرِ يتساوى فيه كُلُّ النَّاس، أَمَا تسمعُ قَوْلَ الشاعر الجَاهِلي[1]:

وَتَجَلُّدِي لِلشَّامِتِينَ أُرِيهِمُ أَنِّي لِرَيْبِ الدَّهْرِ لَا أَتَضَعْضَعُ

وحتى الكُفَّار، فإنَّ أفعالَهم تُنْزِلُ بهم المصائبَ، وَلَكن لَا يَهْتَمُّ بها ويصبر، وهو كافِرٌ، ولا يَرْجُو بذلك الأجرَ والثوابَ.

وقد يَقولُ قَائِلٌ: الإنسَانُ قَدْ يَكون تَمَرَّنَ على الطاعة، فصارت عليه سهلةً، ولكن المصائب لم يَتَمَرَّنْ عليها، فيجزع لذلك.

فنقول: لا، قد يَتَمَرَّنُ عليه إذَا أصيبَ في ابنٍ أَوْ في غيره، حتى العِبادة، مِثل الحَجِّ، لا يأتي إلا مَرَّةً وَاحدَةً في العُمر، وَمَعَ ذَلكَ يُعْتَبَر صَبْرًا عَلَى الطَّاعَة مع مَشَقَّتِه البَدَنِيَّة، والمالية، والأمنية.

أما مسألةُ الوقوع، وعدمُ الوُقوع، فهذا شَيءٌ آخَرُ.

وهناك فَرقٌ بَينَ مَن يُكابِد الطاعة، ويجد في نَفْسِه مَشَقَّةً في مُعالجتها، وآخَرَ قد تَمَرَّنَ عليها، فصارت سهلةً عليه، فالأولُ أَشَقُّ عَمَلًا، والثَّاني أكملُ حالًا؛ لأن الطاعةَ صارت غَرِيزَةً مِن مَحَبَّتِه لها، وسُهولَتِها عليه، لكن الأول أَشَقُّ عملًا، فيُعطَى هذا أجرَ الكُمَّل، وذاك يُعطَى أجرَ الصابرين.

---

(١) البيت لأبي ذؤيب الهذلي، كما في جمهرة أشعار العرب (ص٥٣٦).

والعلماء مختلفون في هَذِهِ المسألةِ، أَيُّهم أفضلُ؟ ولكنِ الصَّوابُ هذا التفصيلُ، فيُقال: الذي يَفْعَلُ الطاعةَ، وهي سَهْلَةٌ عليه، ويَنْقادُ لها دُونَ مُكَابَدَةٍ، هذا -لَا شَكَّ- أنه أَكْمَلُ حالًا مِن الأول، والثَّاني أَشَقُّ عليه، فيُعْطَى الأجْرَ على قَدْرِ المَشَقَّةِ النَّفْسِيَّة.

قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ أي: يَدفعون ﴿بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾، و﴿ٱلسَّيِّئَةَ﴾ مفعول به، والباء في قَوْلِهِ تعالى: ﴿بِٱلْحَسَنَةِ﴾ باء الآلَة، كَقَوْلِك: ذبحتُ بالسِّكِّين، وضربتُ بالعَصَا.

فهنا: دارئ، ومَدْرُوء، ومَدْروءٌ به، والدَّارئ في الآيَة: العامِلُون، والمَدْرُوءُ: السيئةُ، والمَدْرُوءُ به: الحَسَنَة، فالحَسَنَةُ لهم بِمَنْزِلَة الآلَةِ التي يَتَوَصَّلُون بهَا إِلَى غَرَضِهم.

يقول المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [بالسَّيِّئَةِ مِنهُمْ]، فإذا فعلوا سَيِّئة أَتَوْا بَعْدَهَا بِحَسَنَةٍ، فاندفعتِ السيئةُ.

والحسنةُ التي تَدْرَأُ السيئةَ تَنقَسِم إِلَى قِسمَين: قِسم يُزيل السيئة مِن بَاب المقابلة، وقِسم آخر يُزيل السيئة مِن بَاب المَحْوِ والإزالة، فإن كانت الحسنةُ المدروءُ بها السيئةَ مِن بَابِ التوبة، فهو مِن بَاب المَحْوِ والإزالة، وَإِن كَانَت حسنةً أخرى، كَمَا لَو دَفَع السيئاتِ بالصلاة، كما في قَولِه تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود:١١٤]، فهذا الدَّرْءُ مِن بَاب المقابلة، أَيْ: إِنَّ ثواب الحَسَنَة يُقابَل بعُقُوبة السيئة مِن بَابِ الموازَنَة؛ فإذا رَجَحَ ثوابُ الحَسَنَةِ انْمَحَتِ السيئةُ، وإِلَّا فلا.

والأَوَّلُ أكملُ؛ لأَنَّه إِذَا حَصَل صارتِ الحسنةُ الثَّانيةُ زيادةَ رِفْعَةٍ في الدرجات، وليست بمقابَلة بالسيئة.

ثُمَّ إنه إذَا كَانَ الدَّرْءُ مِن بَاب المقابَلة، فَقَدْ تَضْعُفُ الحسنةُ الثَّانيةُ عن مُقَابَلَةِ السيئة، فصار الدَّرْءُ بالتوبة أكملَ مِنَ الدَّرْءِ بِفِعْلِ حَسَنَةٍ أُخْرَى تُقابِل السيئةَ، وكلا الأمرين يَحْصُلُ به الدَّرْءُ.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مِنْهُمْ] كلامُه هَذَا -حَقِيقَةً- وَجِيهٌ، لَكِن لَو قلنا: إنها أَعَمُّ، وإنهم يَدْرَؤُونَ بالحَسنةِ السيئةَ، منهم ومِن غَيْرِهِم، أي: إذا أُسِيءَ إِلَيْهِم دَفَعُوا الإساءَةَ بالإِحْسَانِ، فيكونُ هنا ثَنَاءٌ عليهم مِنْ حيثُ معاملتهم مع الخَلْقِ، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت:٣٤-٣٥].

وَعَلَى هَذَا، فنَحْمِلُ الآيَة عَلَى المَعْنيَيْنِ: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ بالنِّسبة لِمَا يَقعُ منهم في عِبادَة الله، ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ بالنِّسبة لَمَا يَقعُ مِن غَيْرِهِم في المعَامَلَة.

قال الرَّسُول ﷺ لما سأله الرَّجُل عن إنسان يأتي ليأْخُذَ ماله قال: «**فَلَا تُعْطِهِ مَالَكَ**». قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ قَاتَلَنِي؟ قَالَ: «**قَاتِلْهُ**». قَالَ: أَرَأَيْت إِنْ قَتَلَنِي؟ قَالَ: «**فَأَنْتَ شَهِيدٌ**»، قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ قَتَلْتُهُ؟ قَالَ: «**هُوَ فِي النَّارِ**»[1].

فلذلك فإنَّ قَوْلَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قَولِه تعالى: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾: [مِنْهُمْ] مِنَ الصَّوابِ أَنْ نَجْعَلَهُ أَعَمَّ، أي: مِنهم في مُعَامَلَتِهم مع الله، ومِن غَيرهم في مُعَامَلَتِهم مَعَ الخَلق.

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من قصد أخذ مال غيره بغير حق، كان القاصد مهدر الدم في حقه، وإن قتل كان في النار، وأن من قتل دون ماله فهو شهيد، رقم (١٤٠).

قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [يَتَصَدَّقُونَ]، ويُهدون أيضًا، وليس لازمًا أَنْ يتصدَّقُوا فقط؛ لأن الهَدِيَّة قَد تَكون محمودةً إذَا كَانَ الغرضُ منها جَلْبَ المَوَدَّةِ، قال رَسولُ اللهِ ﷺ: «تَهَادُوا تَحَابُّوا»[1].

الشاهد أَنَّ قَولَه: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ بمعنى: أعطيناهم، فالرِّزق بمعنى العَطاء، ومنه قَولُه تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾ [النساء:٨]، أي: أَعْطُوهم، فالرزق بمَعنَى العَطَاء.

قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾: (مِنْ) هنا لِبيانِ الجِنْسِ؛ لأنَّ إنفاقَ المالِ كُلِّهِ مِن الأُمُور المحمـودة، فَقَدْ حَـثَّ النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَمَرَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمًا أَنْ نَتَصَدَّقَ، فَوَافَقَ ذَلِكَ مَالًا عِنْدِي، فَقُلْتُ: الْيَوْمَ أَسْبِقُ أَبَا بَكْرٍ إِنْ سَبَقْتُهُ يَوْمًا، فَجِئْتُ بِنِصْفِ مَالِي، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟» قُلْتُ: مِثْلَهُ، قَالَ: وَأَتَى أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِكُلِّ مَا عِنْدَهُ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟» قَالَ: أَبْقَيْتُ لَهُمُ اللهَ وَرَسُولَهُ، قُلْتُ: لَا أُسَابِقُكَ إِلَى شَيْءٍ أَبَدًا[2].

فإذا جعلنا (مِن) لِبَيَانِ الجِنس، فيَشْـمَلُ بَذْلَ المال كُلِّه، أو بَعْضِه، يعني: قـد يَكونُ مِنَ الخير بَذْلَهُ كُلَّه.

وقد يَكونُ مِنَ الخَيرِ بَذْلُ بَعْضِه حسَب الحال الذي أُنْفِقَ فيها.

وقوله تعالى: ﴿يُنفِقُونَ﴾ الإنفاق بمعنى البَذْلِ، لا بمعنى الصَّدَقة، لكن

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (١/ ٢٠٨، رقم ٥٩٤)، والبيهقي (٦/ ١٦٩، رقم ١١٧٢٦).

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب الزكاة، باب في الرخصة في ذلك، رقم (١٦٧٨)، والترمذي: كتاب المناقب، بعد باب مناقب أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ واسمه عبد الله بن عثمان ولقبه عتيق، رقم (٣٦٧٥)، وقال: حديث حسن صحيح.

الذي أوجبَ للمؤلف أن يَخُصَّه بالصَّدَقَة أَنَّ المقامَ مَقامُ ثَناءٍ، ولكن الأَولَى أَنْ نَجْعَلَه على عُمومه، ونَجْعَل معنى قوله: ﴿يُنفِقُونَ﴾ أي: يَبْذُلُون ويُعطون؛ لأن البَذْلَ قَد يَكونُ تَصَدُّقًا خيرًا، وَقَد يَكونُ البَذْلُ تَوَدُّدًا خيرًا أيضًا، وَقَد يَكون أفضلَ مِن الصدقة في بَعض الأحيان.

ويجب أن نُفَرِّقَ بين الهِبَة، والهَدِيَّة، والصَّدَقة:

الصَّدَقة: هي ما أُرِيدَ بها وجهُ الله، ويُتَقَرَّبُ بها إِلَى اللهِ، ولا يَهُمُّه تَقَرَّب إليها بمُعطًى أَم لَا.

والهَدِيَّة: ما قُصِد به التَّوَدُّد للمُعْطَى، أي يريد أَنْ يتقرب إلى المُعْطَى، ويَتَقَرَّب منه المعطَى.

والهِبَة: مَا قُصِدَ به نفعُ الموهوب فقط، لَا أَنْ يتقرب إِلَى الله بذلك، فهذه تُسمَّى هِبَةً.

وكُلُّها محمودة في الواقع، وَقَد يَكونُ بعضُها أَفضَلَ مِن بعضٍ، هذا عَلَى حَسَب الحال.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أَنَّ المُؤمِنينَ مِنْ أَهْلِ الكتاب لهم أَجْرَانِ: الأجرُ الأول الإيمان بكتابهم، والثَّاني: الإِيمان بالقُرْآن.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثباتُ عَدْلِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ حَيث لَم يُضَيِّع أجرَهم الأول بالأجر الثَّاني، ولا الأجْرَ الثَّانيَ بالأجر الأول.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّ الثَّوابَ عَلَى قَدْرِ العَمَل، قَالَ تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ

ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:٧-٨].

فهؤُلاءِ كان ثوابُهم مَرَّتَيْنِ؛ لأَنَّهم عَمِلُوا مَرَّتَيْنِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إثبات الأَسْباب والعِلل؛ لقوله: ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: فَضِيلَةُ الصَّبْر، طالما أَنَّ الصَّبرَ سببٌ للأجر؛ فَلَا شَكَّ أَنَّه صِفَة حميدة، وفاضلة.

وَقَد ذَكَرنا قبلَ ذَلكَ أَنَّ الصَّبرَ يَنقَسم إلَى ثَلَاثَةِ أَقسَام:

صَبْرٌ عَلَى طَاعَةِ الله، وصَبْرٌ عن مَعصيَةِ الله، وصَبْرٌ على أقدار الله، وأَنَّ أَفْضَلَهَا أَوَّلُها، ثم الثَّاني، ثم الثالث.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أَنَّ الحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَات؛ لقوله: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أَنَّه يَنبَغي مقابَلةُ المسيءِ بالإِحْسَان، فالحسناتُ يُذْهِبْنَ السيئاتِ، فالآية -كَما قُلنَا- عامَّة لِدَرْئِه سيئاتِهم بحَسَنَاتِهم، ودَرْئِهم سيئاتِ غَيْرِهم بالإحسَان إلَيهِمْ، وَأَتَيْنَا لذلك بشاهِدٍ مِنَ القُرْآن، لكن دَرْءُ سيئات الآخرين بالإِحْسَان إلَيْهِم ثقيلٌ عَلَى المَرْءِ جِدًّا، وَلهَذَا قَالَ اللهُ تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت:٣٥].

وأكثرُ النَّاسِ يَقُول: واللهِ لَأَكِيلَنَّ له الصَّاعَ بالصَّاعين، والصَّفْعَةَ بالصَّفْعَتَيْنِ، لكن الأمر لَيسَ كَذَلكَ، قَالَ تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، فكانت النتيجة: ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت:٣٤]، وأتى بـ(إذَا) الفُجَائِيَّة؛ للدَّلَالَة عَلَى أَنَّ هَذَا الأَمرَ يتحول بسرعة، فهذا العَدُوُّ يتحول بسرعة ﴿كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾،

يعني: صديق قريب لك.

وهـذا يَنبغي أَلَّا يَكونَ مَظْهرَ عَجْـزٍ في المرء؛ فَإن كَانَ مَظْهَرَ عَجْـزٍ في المـرء فَلَا يَنبغي؛ لأنَّ الله تعالى يَقول: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ [الشورى:٤١]، وَلَو كَانَ فَاسقًا، هذا بالنِّسبة لِحَقِّكَ الخاصِّ، أَمَّا بالنِّسبة لحَقِّ الله فلَا، بل يُعَامَلُ بِمَا يَقتَضِيه الشرعُ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: فَضيلَةُ الإنفَاق مِن رِزق الله لقَوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أَنَّ الْمُنفِقَ لَمْ يُنفق مِمَّا صَنَعَه، أو اكتسبَه بنفسِه، ولكن يُنفق مِن رزق الله، فاللهُ هُوَ الَّذي رَزَقَك، وَهُوَ الَّذي أَمَرَكَ، فَأَنـتَ في الحَقيقَة خادِمٌ، عَبْـدٌ مُتَصرِّفٌ حَسَبَ أَمْرِ سَيِّدِكَ، قَالَ لَك: اكْتَسِبْ. فَاكْتَسَبْتَ، قَالَ لَك: أَنْفِقْ. فَأَنْفَقْتَ.

الْفَائِدَةُ العَاشِرَةُ: قولُه: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾، وقولُه في وَصْفِ عِبادِ الرَّحمَن: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان:٦٧]، وَبَيـنَ قَولِه: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء:٢٩]، نَجمَع بينَهما بأَنَّ غالِبَ أَحوالِ النَّاس أَلَّا يُنْفِقُوا جَميعَ أَموالهم؛ لأن إنفَاق جَميع المَال قَد يَكون مُضِرًّا بهم، لَكِن في بَعضِ الأحيان يكون إنفَاقُ جَميعِ المَالِ محمودًا، فلهذا قال: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ فلا تُنْفِق، ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ فَتُنْفِق كُلَّ مَا عندَك.

لكن النُّصـوص الأُخْرَى تَدُلُّ عَلَى أَنَّ المَسأَلَةَ مَبنيَّةٌ عَلَى تَغيُّـرِ الحُكم بِتَغيُّـرِ الأحوالِ، فَقَد يَكونُ الأفضلُ إنفَاقَ جَميع المَال، وَقَد يَكون مِنَ الأفضل إنفاقُ بَعْضِه.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أَنَّ الإنفَاقَ مِن رِزْقِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ محمودٌ، في قَوْلِهِ: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

والرزق -كما عَرَفْنَا في بَابِ العقيدة- لَا يَجتَمِع مِن حلالٍ وَضِدِّه.

يقول السَّفَارِينِيُّ[(١)]:

وَالـرِّزْقُ مَـا يَنْفَـعُ مِـنْ حَـلَالِ أَوْ ضِـدِّهِ فَحُـلْ عَـنِ المُحَـالِ

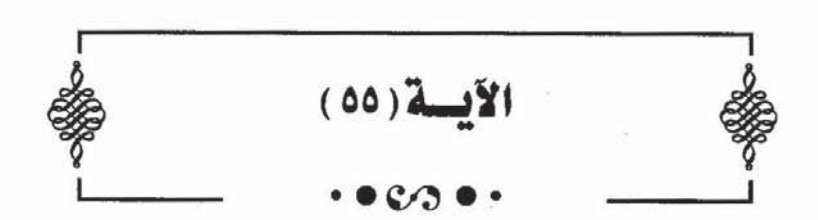
وضِدُّ الحلال هو الحرامُ، فلا يُحمد الإنسَان إذَا أَنفَقَ مِن حَرَام؛ لأَنّه مَا يُثاب عليه، والواجب عَلَيه أَنْ يَرُدَّ الشَّيْء، ويتخلص منه، لَكنَّ المرَادَ هنا بالرّزق الَّذي يُحمد عَلَى الإنفَاق منه إذَا كَانَ رزقًا حلالًا، أَمَّا مَن اكتسب شيئًا حرامًا؛ فَإِنَّ النَّبيَّ عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال: «إِنَّ اللهَ قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَخْلَاقَكُمْ، كَمَا قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَرْزَاقَكُمْ، وَإِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يُعْطِي الدُّنْيَا مَنْ يُحِبُّ، وَمَنْ لَا يُحِبُّ، وَلَا يُعْطِي الدِّينَ إِلَّا لِمَنْ أَحَبَّ، فَمَنْ أَعْطَاهُ اللهُ الدِّينَ، فَقَدْ أَحَبَّهُ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يُسْلِمُ عَبْدٌ حَتَّى يَسْلَمَ قَلْبُهُ وَلِسَانُهُ، وَلَا يُؤْمِنُ حَتَّى يَأْمَنَ جَارُهُ بَوَائِقَهُ»، قَالُوا: وَمَا بَوَائِقُهُ يَا نَبِيَّ اللهِ؟ قَالَ: «غَشْمُهُ وَظُلْمُهُ، وَلَا يَكْسِبُ عَبْدٌ مَالًا مِنْ حَرَامٍ، فَيُنْفِقَ مِنْهُ فَيُبَارَكَ لَهُ فِيهِ، وَلَا يَتَصَدَّقُ بِهِ فَيُقْبَلَ مِنْهُ، وَلَا يَتْرُكُ خَلْفَ ظَهْرِهِ إِلَّا كَانَ زَادَهُ إِلَى النَّارِ، إِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ لَا يَمْحُو السَّيِّئَ بِالسَّيِّئِ، وَلَكِنْ يَمْحُو السَّيِّئَ بِالحَسَنِ، إِنَّ الخَبِيثَ لَا يَمْحُو الخَبِيثَ»[(٢)].

وَهَذَا يَدلُّ عَلَى أَنَّ الإنفَاقَ مِنَ المُحَرَّمِ لَا يَنفَعُ المرءَ، لكن ينفعه إذا أنفقه يُريد التخلُّص منه، بمَعنَى أَنَّه لَا يَلحَقُه شَيء مِن جَرَّائه، وينفعه؛ لأن إنفاقه للتَّخَلُّص منه تَوْبَةٌ، والتوبةُ تنفع العبد.

•••

(١) لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية، لشمس الدين محمد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبلي (١/ ٣٤٣).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٣٨٧، رقم ٣٦٧٢).



الآية (٥٥)

• • ◦ • •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [القَصَص:٥٥].

• • ◦ • •

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ ﴾ الشَّتْمَ وَالْأَذَى مِنَ الْكُفَّارِ ﴿أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ سَلَامُ مُتَارَكَةٍ، أَيْ سَلِمْتُمْ مِنَّا مِنَ الشَّتْمِ وَغَيْرِهِ ﴿لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ لَا نَصْحَبُهُمْ].

قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ﴾ يجب بدايةً أَنْ نَعْرِفَ الفرقَ بينَ (سَمِعَ)، و(اسْتَمِعَ)، فالسامِع: هُوَ الَّذي أَدركَ الصوتَ دُونَ قَصْد. والمستمع: هُوَ الَّذي أدركَهُ بِقَصْدٍ.

ولهذا نقول: يُسَنُّ سُجود التِّلَاوَة للمُستمع دُون السَّامع.

فقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ ﴾ دَلَّ عَلَى أَنَّ هَؤُلَاء لَا يستمعون إِلَى القَول، ولكن يسمعونَه، كَقَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴾ [الفرقان:٧٢]، مَرُّوا به، وَمَا جلسوا عنده.

هَؤُلَاء أَيْضًا ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ ﴾ يقول المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [الشَّتْمَ وَالْأَذَى مِنَ الْكُفَّارِ].

أَيضًا هَذَا تَخصِيصٌ لمَا هُوَ أَعَمُّ؛ فإنَّ اللَّغْوَ يشمل مَا قَالَهُ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ، ويشمل أَيْضًا كُلَّ كَلَام لَا خَيرَ فيه، سَوَاءٌ كَانَ فيه شَرٌّ أَمْ لَم يَكُن.

فهؤُلاءِ في غَايَة ما يَكونُ مِنَ الجِدِّ، وحِفظ الوقت، لا يستمعون إِلَى كَلَام لَغْوٍ، وَاللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مَدَح الَّذينَ لَا يستمعون اللَّغْو، والنَّبيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يقول: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا، أَوْ لِيَصْمُتْ»[1].

والمقابلُ للخَيْرِ الشَّرُّ، وَمَا لَا خَيرَ فيه، وَلَا شَرَّ، وهو اللغو، فالأصح أنه يشمل كُلَّ كَلَامٍ لَا خَيرَ فيه، سَوَاءٌ كَانَ فيه أَذًى وشَرٌّ، أَمْ لَم يَكن، ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾ بأبدانهم، أو بأبدانهم وقلوبهم، أو بقلوبهم فَقَط حَسَب الحال، وَلَكنَّ الأَصلَ هو القُلوب، لَكن قَدْ تَشمل الأبدان أيضًا، بحيث إِذَا سَمعوا كلامًا لَا خَيرَ فيه قامُوا، وتركوا المكان، حَتَّى لَو لَم يَكن حَرَامًا.

أما إعراضُ البَدَنِ مع إقبالِ القلْبِ، فَهَذَا لَا يَنفَعُ، فالمقام عند اللَّغو أربعةُ أنواع: تارَةً يُقبِل عليه بجسمه وقَلْبِه، فَحينَئذ يَكون مشارِكًا لأهله، وتارَةً يُعرض عَنْهُ بجسمه وقلبه، بحَيث لَا يستمع إِلَيه، وَلَا يجلس، وتارة يُعْرِضُ بقلبه دُونَ جسمه، وتارَةً يُعْرِضُ بجسمه دُونَ قلبه، والتَّركيزُ هنا عَلَى الإعراض بالقلب.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾، كَأَنَّه يَقول: إِذَا قيلَ لَهم: لماذا تقومون؟ لماذا لا تَردُّون؟ لماذا لا تنصَاعُون لأذاهم، يقولون: ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾، فَنحن لَا نُسْأَلُ عَمَّا تعملون، وَأَنْتُم لَا تُسأَلونَ عَمَّا نعمل،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب حفظ اللسان، رقم (٦٤٧٥)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار والضيف، ولزوم الصمت إلا عن الخير وكون ذلك كله من الإيمان، رقم (٤٧).

ولا نوافقكم عَلَى هَذَا العَمَل، وليس يعني ذَلكَ أَنَّهم لَا يَأمرونَ بالمَعروف وَلَا يَنهَوْنَ عَنِ المنكَر؛ لأَنَّ الكَلَامَ هنَا عَنِ اللَّغْو، وهو الكلامُ المنافي للخيـر، أَمَّا المنكَر، فإنَّهم لَا شَكَّ أنهم يَنهَوْنَ عَنْهُ، وَيَأمُرونَ بالمَعروف.

قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ يقول المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [سَلَامُ مُفَارَقَةٍ]، أي: سَلِمْتُم مِنَّا مِنَ الشَّتْمِ وغيره، ولا يُسَلِّمُون سلامَ تحية، فَهُم إذَا سَمِعوا اللَّغوَ أَعْرَضُوا وقاموا، وقالوا لهؤُلاءِ: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾، يعني: سَلَامٌ عَلَيكم منَّا وَلَيسَ مِنَ الله، فأنتم سالمون لا، نُقابلكم بما تفعلون بنا، وَهَذَا مِنَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بنَاءً عَلَى أَنَّ المرَادَ بِقَولِه: ﴿اللَّغْوَ﴾ يعني: الأذى والشتم منَ الكفَّار.

أَمَّا إذَا قُلنَا بالعُموم؛ فَإِنَّه يحتَمل أَنْ يَكونَ المرَاد بالسَّلام هنا سلامٌ مِنَ الله، أي: سلامُ تَحِيَّـة؛ لأَنَّهُ يُشـرَع لَمن قَامَ مِن مجلس أَنْ يُسَلِّم، وَيحتَمِـل أَنْ يَكونَ سلامَ مُفارَقَة، وإن شئنا جعلناه مُوَزَّعًا، فقلنا: إنْ قُلنَا باللَّغو إنه الشتمُ والأذى، فالسَّلام هنا سلامُ مُفارَقَةٍ، بمعنى أنكم سالمون منا، ونحن سالمون منكم، وَإذَا قلنَا: إنَّ المرَادَ باللَّغو الكَلَامُ الَّذي لَا خَيـرَ فيه، وَإنْ لَم يَكن سَبًّا، ولا شَتْمًـا، فهو سلامُ تَحِيَّة؛ لأَنَّ هَؤلَاء لَمْ يُسِيئوا إلى المُعْرِضين حَتَّى يَقولوا لهم: سَلَامٌ عَلَيكم مِنَّا.

قوله تعالى: ﴿لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [لَا نَصْحَبُهُمْ]، وَهَذَا التَّفسير مِن المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أَظُنُّه قاصـرًا؛ فَلَو كَانَ الأَمرُ كَذَلكَ لَقَالَ: لا نَصْحَـبُ الجَاهِلين، لكن ﴿لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾، والابتِغاءُ بمعْنى الطَّلب، قَالَ تعالى: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ [الفتح:٢٩]، أي: يطلبون، وَإذَا انتَفَى طلبُ الجَاهِلين، فانتِفَاءُ صُحبَتِهِم مِن بَاب أَوْلى؛ لأَنَّهم مَا يطلبون الجَاهِلين، فَضلًا عَن كونهم إذا وَجَدُوهُم صَحِبُوهُم، فظاهِرُ الآية أَولَى، وَأَبلَغُ مِن تَفسيرِ المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فالإِنْسَان ذو العِلم

والبَصيرة لَا يَطْلُب الجَاهِلين، فيكون معهم، بَل لَا يَصْحَبُ إِلَّا الأَخيَارَ ذوي العِلم والمروءة، والشَّرف والدِّين.

والجَاهِـلُ هنا المَرَادُ بِهِ السَّفِيـه، حَتَّى لَو كَانَ عَالِمًا؛ لأَنَّـه إِذَا أساء التصـرفَ -وَلَو كَانَ عَالِمًا- فَهوَ بمَنزلَة الجَاهِل، بَل أَشَدُّ مِنَ الجَاهل؛ لأَنَّ مَن خَالَفَ عَن عِلم أَشَدُّ ممن خالَـفَ عَن جَهل، ويُسمى مَن خَالَـفَ عَن عِلم سَفِيهًا، ويُسمى جـاهلًا مُرَكَّبًا إِذَا ادَّعَى أَنَّه يَعْلَمُ، بخلافِ الإِنْسَان الجَاهِل الَّذي لَم يَأته العِلم أصلًا؛ فَإِنَّ هَذَا قَد يستقيم إِذَا عَلِمَ.

إذن: الجَاهِلون هنا لَيْسُوا مَن لَا يَعلَمونَ، بل هم السفهاء.

وَإِذَا قَالَ قَائل: مَا الَّذي يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الجهل يَأتي بمَعنَى السَّفَه؟

قلنا: قَولُه تعالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ﴾ [النساء:١٧]، فَإِنَّ قَولَه: ﴿بِجَهَٰلَةٖ﴾ بلا شَكَّ أَنَّ المَرَادَ: بِسَفَهٍ؛ لأَنَّ مَن يَعمَل السُّوء جاهلًا بِغَيْرِ عِلم هَذَا لَا ذنبَ عَلَيه حَتَّى نَقولَ: إنه يتوب، فالجهل هنَا بمَعنَى السَّفَه.

قوله تعالَى: ﴿لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ أي: السُّفَهَاء الَّذينَ يَعمَلونَ بجهالة.

والجَاهِل غَيرُ عَالِم، ربما يَبْتَغِيه المرءُ لِيُعَلِّمَه مَا دَامَ جاهلًا، ولهذا فإِنَّ الرَّسُولَ ﷺ كان يَعْرِضُ نَفْسَـهُ عَلَى القَبَائل في موسم الحج، يَأتي إِلَى قَبيلة، ويأخـذ عليهم، ويدعوهم إِلَى الله، فهو يطلـب هؤُلاءِ الجُهَّال لِيُعَلِّمَهُم، لَكنَّ المَرادَ بالجهل هنَا هُـوَ السَّفَه؛ لأن السفيـه فِعْلُه -في الحَقيقَـةِ- كَفِعْلِ الجَاهِل تمامًا؛ إذ إنه يُخالف الحـقَّ، وَلَا يَعمَل بِهِ، لكنه أَشَدُّ مِنَ الجَاهِل؛ لأَنَّه غَيرُ مَعذور.

وِمثل هَـذِهِ الصِّفَات تُفيدنا في العِلم وَالعَمَل؛ لأن دَأْبَ الصَّحابَـة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم فعن أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيِّ قَالَ: إِنَّا أَخَذْنَا الْقُرْآنَ عَنْ قَوْمٍ، فَأَخْبَرُونَا أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا تَعَلَّمُوا عَشْرَ آيَاتٍ، لَمْ يُجَاوِزُوهُنَّ إِلَى الْعَشْرِ الْأُخَرِ حَتَّى يَعْمَلُوا مَا فِيهِنَّ مِنَ الْعِلْمِ، فَتَعَلَّمْنَا الْعِلْمَ وَالْعَمَلَ جَمِيعًا[1].

وأكثرُ النَّاس إذَا قَرَأَ مِثل هَذِهِ الآيَاتِ قال: يَا الله، مَا أَحسَنَ صفاتِهم! وما أجملَ أفعالَهم! وَهَذَا غَايَةُ مَا يَسْتَفِيد مِنَ الآيَة، وَلَكِنَّ هَذَا مَا يَكفي، المَقصود مِن ذِكر هَذِهِ الأَوصَافَ الحميدة، سَوَاءٌ كَانَت عَلى سَبيل الإخبَار عَنِ الحَال، أَو عَلى سَبيل القَصص، فالغَرَضُ منهَا هُوَ أَنْ يَعتبـرَ الإِنْسَان بما حَصَل، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف:١١١].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: الثَّناء عَلَى مَن أَعرَضَ عَنِ اللَّغو؛ لقوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّه يَنبَغِي الإعرَاضُ عَنِ اللَّغو، وهو الكَلَامُ الَّذي لَا فَائدَةَ فيه، وَلَا خَيْرَ منه، والفِعل يُقَاس عَلَيه، فَلَا يَنبَغِي للإنسَان أَنْ يُمْضِيَ وقتَهُ في أفعالٍ لَا خيرَ فيهَا.

واعلَمْ أَنَّ الخيريَّة ذاتِيَّةٌ وعَرَضِيَّة، بمَعنَى أَنَّه قَد يَكون الشَّيء خَيرًا في ذَاتِه، وَقَد يَكون خَيرًا لِغَيْرِه؛ لِعَارِضٍ يَعْرِض لَهُ.

فمَثَلًا: الصلاة خيرُها ذاتي، والسعيُ إليها خَيْرُه عَرَضِي؛ لأن مُجَرَّدَ المشي لَيسَ

(١) أخرجه ابن وضاح في البدع والنهي عنها، رقم (٢٥٥).

بِقُرْبَة، حَتَّى يَكونَ وَسيلَة إِلَى قُربةٍ أُخرى، فَعَلَى هَذَا لَو أَنَّ الإنسَانَ تحدَّث بحديث لَيسَ مِنَ الذِّكْر، وَلَا مِنَ العِلم، وَلَا مِنَ الأَمـر بالمَعروف، وَالنَّهي عَن المنكَر، لكنه حديثٌ يَقْصِدُ به إدخالَ السُّرور على مُجَالِسِيه، فَهَذَا خَيْرٌ، لكنه ليس خيرًا ذاتيًّا بهَذَا الكَلَام، بَل هُوَ خَيْرٌ عَرَضِيٌّ، أي: عَرَضَ لَهُ بسبب القصد الحَسَن فيه، وَهَذَا في الحَقيقَة عَلَى هَذَا التَّقدير.

ولا يتساوى الخير العرَضي، والخيرُ الذاتي؛ لأَنَّ الخَيرَ العَرَضي يفقد خيره إذَا زَالَ السَّبَبُ، والخيرُ الذاتي خَيْرُه ثابتٌ دائم.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّه يَنبَغي التبرؤ مِن أَصحَاب اللَّغو، وعدم مجالستهم؛ لقوله: ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: مشرُوعيَّة السَّلام عِنْدَ الانصراف؛ لقوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾، وَهَذَا لَا يَتوَجَّه عَلَى تفسير المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ إذ إنه يَرَى أَنَّ السَّلَامَ هنا سلام مُفارَقة، لا سلام تَحِيَّة.

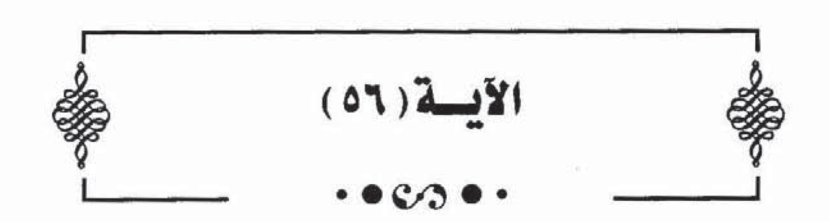
وَعَلَى هَذَا، فَلَا تُؤخَذ هَذِهِ الْفَائدَةُ، وَهُوَ إِنَّمَا حَمَلَه عَلَى سلام المفارقـة بِنَاء عَلَى تفسيره اللَّغْوَ بالشَّتْمِ والسَّبِّ.

والحقيقةُ أَنَّ هَذَا التَّفسير ناقص؛ لأن السَّبَّ والشتم قَد لَا يُقَال: إنَّه لُغْوٌ فقط، بل لَغْوٌ وعُدوان، فهو أَخَصُّ مِن كونه لَغْوًا.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّه لَا يَنبَغي للعاقِل طلـبُ السُّفهاء، فَضلًا عَنِ الجلـوس معهم؛ لقوله: ﴿لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾؛ لأنَّ طلبهم في الحَقيقَة يؤدِّي إِلَى الجلوس معهم، والجلـوس مَعَ الجَاهِلين إثمٌ، كَمَـا قَالَ اللهُ تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا

فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنعام:٦٨]، فَلَا يَنبَغي للإنسَان أَنْ يتطلب أهل السَّفه، ويجلس إِلَيْهِم، أَو عَلَى الأَقَلِّ يَأْنَسُ بما يفعلون؛ فَإِنَّ هَـذَا مِنَ الصِّفَات الَّتي لَيسَ عَلَيهَا أَهْلُ الخير والإِيمَان.

• • ۞ • •



الآيــة (٥٦)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص:٥٦].

قَالَ الْمُفَسِّـرُ: [وَنَزَلَ فِي حِرْصِهِ ﷺ عَلَى إِيمَانِ عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ هِدَايَتَهُ ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ﴾ عَالِمٌ ﴿بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾].

أَبو طَالِبٍ هُوَ أَبو عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهذا العَمُّ آوَى رَسُولَ الله ﷺ ودافع عنه، وناصَرَهُ، ولكن حِيلَ بَينَه وَبَينَ الإِيمان؛ بسبب مَا كَتَبَ اللهُ لَهُ مِنَ الشَّقاوة.

وَفي عَدَم إِيمانه حِكمة عظيمة؛ لأَنَّه لَو آمَنَ مَا تَمَكَّنَ مِنَ الدِّفاع الَّذي حَصَلَ منه للرسول ﷺ، إذ لَوْ آمَنَ لَكَانَ هُوَ مَحَلَّ إِيذاءٍ للمشركين، لَكن لَمَّا بَقيَ عَلَى مِلَّتِهم كانوا يحترمونه بعضَ الاحترام، فَكَانَ في بَقَائه عَلَى الكفر مِن حِكمَةِ الله مَا هُوَ ظَاهر، وَإِلَّا مَا استطاع أَنْ يَحمِيَ الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ تلك الحمايةَ.

وهذا الرجل لَهُ فَضل عَلَى الإِسلَام؛ بسبب دفاعه عنه، ولهذا أَذِنَ اللهُ لِنَبيِّه ﷺ أَنْ يَشفَعَ له، مَعَ أَنَّه لَا يمكن أَنْ يَشْفَعَ لغَيـره مِنَ الكفَّار، إِلَّا هَذَا الرَّجُلَ؛ لِمَا لَهُ مِنَ الفَضل على الإِسلَام مِن حماية الرَّسول ﷺ، وَالدِّفَاع عَنه.

ولكن هَذِهِ الشفاعةُ ما نفعته نفعًا كَامِلا، وَهُوَ غَيرُ مؤمن، إنما نَفَعَتْهُ أَنَّه كَانَ

في «ضَحْضَاحٍ[1] مِنْ نَارٍ عَلَيْهِ نَعْلَانِ يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ»[2]، وَهُوَ يَرَى أَنَّهُ أَشَدُّ أَهلِ النَّار عذابا، وهو أهونُهم.

قال النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «وَلَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ».

يعني: شَفَعْتُ له، أَو أَنَّه أَيْضًا عَمِلَ مَا عَمِلَ في حمَايَة الرَّسول ﷺ.

هذا العَمُّ حَرَصَ النَّبيُّ ﷺ غايةَ الحِرص عَلَى أَنْ يُؤمنَ، حَتَّى إِنَّه في سِيَاق الموت قال لَهُ: «أَيْ عَمِّ، قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ»[3]. فَكَانَ آخِرُ مَا قَالَ: إِنَّه عَلَى مِلَّة عَبد المطَّلب، وإنه لن يدع طريقة الأشياخ الكبار أَهْلِ الجاهليَّة.

وَكَانَ عنده رَجُلَان مِنَ المشركينَ يُلَقِّنَانِه: أَتَرغَب عَن مِلَّة عَبد المطَّلب؟ فكان أنْ خُتِمَ له بخاتمة الشَّقاء، فلم تنفعه هَذِهِ المحاولة مِن الرَّسول ﷺ، ونَدِمَ النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى هَـذَا الأَمـر، وقال: «أَمَا وَاللهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ»[4]. فَنُهِيَ عَنهُ، وَقِيلَ لَه: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ [التوبة:١١٣].

أما بالنِّسبة لنَدَمِـه عَلَى عَدَم إيمانه فَسَلَّاه اللهُ تعالى بهَذَا الأَمر: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ هدايتَه.

---

(١) الضَّحْضَاح فِي الأَصْل: ما رَقَّ مِنَ المَاءِ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ مَا يبلُغ الكَعْبين، فاستَعارَه لِلنَّارِ. النهاية: ضحضح.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب مناقب الأنصار، باب قصة أبي طالب، رقم (٣٨٨٣)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب، رقم (٢٠٩).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب قصة أبي طالب، رقم (٣٨٨٤)، ومسلم كتاب الإيمان، باب أول الإيمان قول لا إله إلا الله، رقم (٢٤).

(٤) تقدم تخريجه، وهو بقية الحديث السابق.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ﴾ أي: يَا محمَّد، فالنداء له ولغير الرَّسول ﷺ مِن بَابِ أَوْلَى، فَإِذَا كَانَ الرَّسولُ ﷺ، وَهُوَ أَشرَفُ الخَلق عند الله، وأعظمُهم جاهًا، لَا يَستَطيع أَنْ يَهْدِيَ أَحَدًا، فكيف يستطيع غيرُه؟

وقوله تعالى: ﴿لَا تَهْدِى﴾ المُراد بالهداية هنا هدايةُ التَّوْفِيقِ، بمعنى: لَا تَضَعوا الهدايةَ في قُلوب النَّاس، وليست هدايةَ الدَّلَالَة والإرشاد؛ فإنَّ هِدايةَ الدَّلَالة والإرشاد ثابتةٌ للرسول ﷺ؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى:٥٢]، ولكن هداية التوفيق -وهي إلقاءُ الهُدى في القلوب- إنَّما هِيَ لله عَزَّوَجَلَّ وحدَه.

وَقَولُه تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ قَدَّرَهُ بقوله: [هِدَايَتَهُ]. والصَّواب: مَنْ أَحْبَبْتَهُ.

وقد عَدَل المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ إِلَى تَقدير: [أَحْبَبْتَ هِدَايَتَهُ]؛ لأن الرَّسول ﷺ لَا يُمكن أَنْ يُحِبَّ أَبَا طَالِبٍ وَهُوَ كَافر؛ فإن المؤمنَ لَا يُحِبُّ الكافرين.

ولكننا نقول: الحُبُّ الطَّبِيعِيُّ لَا يُنَافِي الإيمان، فالإِنْسَان يُحب -مثلًا- قريبَه، وَلَو كَانَ كَافرًا، لكنَّها محبةٌ طبيعية، كما تُحِبُّ الأُم ولَدَها.

فالمحبَّة الدينيَّة لَا تجوز بَينَ المؤمن وَالكَافر، قَالَ تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ﴾ [المجادلة:٢٢].

أَيْضًا المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: [مَنْ أَحْبَبْتَ هِدَايَتَهُ]، ولو أَنَّنا حَمَلنَاهَا عَلَى مَا قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ لَكَانَت هَـٰذِهِ تَعُمُّ كُلَّ النَّاس، لأن الرَّسول ﷺ يُحِبُّ أَنْ يَهدِيَ كُلَّ

النَّاس، وليس أَبَا طَالب فقط، لكن تقدير (مَنْ أَحْبَبْتَهُ) يَختَصُّ بأبي طالب، أَوْ غيرِه مِن أقاربه.

أَيْضًا لَوْ أَنَّنا قلنا -كَما قَالَ المفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ- لَكَانَ في الآية إضمارٌ، وهو إضمارُ الهداية؛ لأَنَّ الأَصلَ في ضَمير الصِّلَة أَنْ يَعُود إِلَى الصلة نفسها، و﴿مَنْ﴾ اسمٌ موصولٌ يَعُود عَلَى أَبي طَالب، وعائدُ الصِّلة يَعُود عَلَى الصِّلة نفسها، وبهذا تَبَيَّنَ أَنَّ الراجح (مَنْ أَحْبَبْتَهُ) مِن وُجُوهٍ ثلاثة: وجهٍ معنويٍّ، ووجهين لَفْظِيَّين.

الوجهُ المعنويُّ: أَنَّ الآيَةَ نَزَلَت في أَبي طَالب، ولو قلنا: (مَنْ أَحْبَبْتَ هِدَايَتَهُ) لكانت عامَّة.

والوجهان اللفظيان: الأول: أَنَّنا إذَا قَدَّرْنا (هِدَايَتَهُ) لَزِمَ أَنْ يكونَ في الآية شَيْءٌ محذوفٌ، وَالأَصلُ عَدَمُ الحذفِ.

والثَّاني: أَنَّ عائد الصِّلة يَعُود إِلَى الموصول، فَإِذَا عَادَ إِلَى ﴿مَنْ﴾ في قَوْلِهِ: ﴿مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ صار المراد: مَن أحببتَهُ هو.

وَأَمَّا مَا لاحَظَهُ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ مِن أَنَّ الرَّسولَ ﷺ لَا يمكن أَنْ يُحِبَّ أَبَا طَالب، فالجوابُ عَلَيه أَنَّ المَحَبَّةَ نوعان: محبةٌ طبيعية، ومحبةٌ شرعية، فالمحبةُ الطبيعية لَا تُنَافي المحبة الشرعية، فقد تجتمع مَعَهَا، وَقَد تنفرد، فَإِذَا كَانَ المؤمن قريبًا لك اجتَمَعَ فيه المحبَّتَان، وَإِذَا كَانَ بعيدًا منك، وُجِدَت فيه محبةٌ واحدةٌ، وهي الشرعية، وَإِذَا كَانَ قريبًا وَهُوَ غَيرُ مُؤمن، ففيه محبة واحدة، وهي المحبة الطبيعية.

قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾، أي: يهدي هِدايـةَ توفيق، وقوله تعالى: ﴿مَن يَشَآءُ﴾ أي: مَن يَشاء أَنْ يَهديَه، وهنا نستطيع أَنْ نُقَدِّرَ: مَن يَشاء هدايته؛ لقوله: ﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾.

وقوله: ﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ عَلَّق الفِعلَ بالمشيئة، وَكُلُّ فِعل يُعَلِّقُه الله بالمشيئة مِن أَفعَالِه، فإنه مَقْرُونٌ بالحِكمة؛ إذ إِنَّ أفعالَ اللهِ كُلَّهَا مَبنيَّة عَلَى الحِكْمَة.

إذن: ﴿مَن يَشَآءُ﴾ هدايته، لَيسَ الأَمرُ اعتباطيًّا، وَلَكنَّ الأَمرَ عَلَى حِكمة، قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود:٥٦]، لَا يَهدي مَن يَهدي إِلَّا وَهُوَ أهلٌ للهداية، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام:١٢٤].

وكذلك هُوَ أَعلَم حيث تكونُ هَذِهِ الرِّسالَة، فَمَن كَانَ أهلًا للرسالة أُرْسِلَ، وَمَن كَانَ أهلا للقِيام بواجبِ الرِّسالَة، هُدِيَ لذلك.

فإذن الإطلَاقُ في قَوْلِهِ: ﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ عَلَى وَجه الحِكْمَة.

قَولُه تعالى: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَيْ: عَالِمٌ بِالْمُهْتَدِينَ].

وهنا أخطأ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فنحن ننتقده مِن وَجهَين:

الوجه الأول: أَنَّ هَذَا تحريفٌ للقُرآن؛ حيث حَوَّل ﴿أَعْلَمُ﴾ الدالَّ عَلَى الكَمال في العِلم والأفضلية فيه إِلَى (عالِم)، الَّذي لَا يَمنَع مشاركةَ غَيـرِه لَهُ في هَذِهِ الصِّفَة، فأنا أقول: محمدٌ عالِم، وزَيْدٌ عالِم، وبَكْرٌ عالِم، إِلَى آخِره، لكن لَو قلت مثلًا: زَيْدٌ أَعْلَمُ. فمَعنَاه أَنَّه مَا ساواه أَحَدٌ في عِلْمِه.

فالمُفَسِّـرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ الآن حَرَّف القُرْآن، حيـث فَسَّر ﴿أَعْلَمُ﴾ بـ(عالم)، وفَسَّر مَا يَدُلُّ عَلَى الكَمال بمَا يدلُّ عَلَى المُشارَكَة.

الوجه الثَّاني: أَنَّنا نقول: إِنَّ وَصفَ الله بأَنَّه ﴿أَعْلَمُ﴾ أكملُ مِن وَصْفِه بأَنَّه (عالِم)، أكمل بلا رَيْبٍ، فَمَا الَّذي يمنَع أَن نَقولَ (أَكْمَلُ)، وكأنه يُريد أَنْ يَقُولَ: لَا يمكن أَنْ نَقولَ: إِنَّ اللهَ أعلَمُ، فنَجْعَل لله مُشارِكًا في العِلْم، فنقـول: مَا جَعَلـتَ لله مشاركًا

مُساويًا، بل جعلتَ لله مشاركًا نازِلا عَنْ عِلم الله، فَاللهُ أَعلَم.

لَكن إِذَا قلت: إِنَّ اللهَ عالم، جعلتَ لله عِلْمًا قد يُساويه غَيرُه فيهِ.

فالصَّواب أَنَّ ﴿أَعْلَمُ﴾ اسمُ تفضيلٍ، وأنها عَلَى بَابِهَا.

وقوله: ﴿بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ فِعْلًا، أو بِمَنْ يَستَحِقُّ أَنْ يَكونَ مِنَ المهتَدينَ، إِذَا قلنَا: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ أو بِمَن هُـوَ قابِلٌ للهدايـة؛ لأَنَّ الكَلَامَ الآنَ عَلَى إنشاء الهداية في قَلب المَرْءِ.

وقوله: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ ليس معناه: الَّذينَ اهتَدَوا، بَل مَعنَاه: أَعلَم بمَن يَستَحقُّ أَنْ يَقْبَلَ الهُدى، ولهذا فَسَّرَهُ بعضُهم بالمهتدين في عِلم الله، أي: مَن عَلِمَ اللهُ أنهم سيكونون مهتدين.

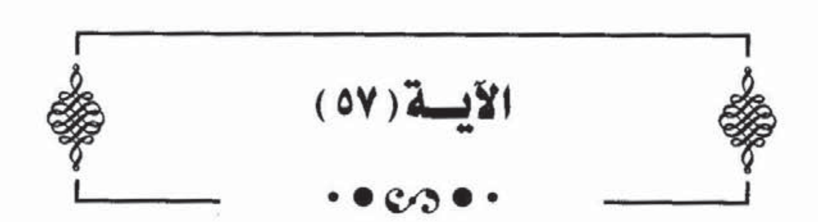
فعلى كُلّ حَالٍ: المهتـدي معناه: مَن كَانَ قابِلًا للهِدايـة، ومعناه: مَن اهتـدى بالفِعل، وَالمرَاد بالآية الأول، يعني: أَعلَم بِمَن يَقْبَل الهداية، فيهديه.

والجمع بَينَ هَذِهِ الآيَةِ، وَبَينَ الآيَة الَّتي أَشَـرنَا إِلَيهَا قَبلَ قليل، ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أَنَّ المُثْبَـتَ غيرُ المنفي، فالمراد مِن قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ هداية الدَّلَالة، كَقَولِه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت:١٧]، هديناهم معناه: دَلَلْنَاهم عَلَى الهُدَى، ولكنهم استَحَبُّوا العمى عَليه، فَلَم يَهْتَدُوا، وأَمَّا الهداية هنا، فهي هدايةُ التوفيق، وهذه لَيسَت لأَحَد، مَا هيَ إِلَّا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

من فوائد الآية الكريمة:

أنَّ الإنسَان إذَا جَدَّ واجتَهَد في دَعوَة النَّاس إلَى الهُدَى، فَلَمْ يَهْتَدُوا، فَإنَّ عَلَيه أَنْ يَتْلُوَ هَذِهِ الآيَةَ، وهي: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾، وإلا فكَثِيرٌ مِنَ النَّاس الآن عندهم أقاربُ؛ إمَّا مَعَهم في البيوت، أو خارِجَ البيوت، يَدْعُونَهم إلَى الهدَى فلا يهتدون، فنقول: الحمد لله أنْ بَيَّن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنَّ هَذَا الأَمرَ ليس إلينا، إنَّمَا هُوَ إليه، إنِ اهْتَدَوْا، فلَهُم ولنا ثوابُ دَلَالَتِهم، وَإِنْ لَمْ يَهْتَدُوا، فلنا ثوابُ الدَّلَالَةِ والدعوة، وعليهم وِزْرُ الغَيِّ.

• • ۞ • •



الآية (٥٧)

• • ❊ • •

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [القَصَص:٥٧].

• • ❊ • •

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ وَقَالُوٓاْ ﴾ قَوْمُهُ ﴿إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ﴾ نُنْتَزَعُ مِنْهَا بِسُرْعَةٍ، قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا ﴾ يَأْمَنُونَ فِيهِ مِنَ الْإِغَارَةِ وَالْقَتْلِ الْوَاقِعَيْنِ مِنْ بَعْضِ الْعَرَبِ عَلَى بَعْضٍ «تُجْبَى» بِالْفَوْقَانِيَّةِ وَالتَّحْتَانِيَّةِ ﴿إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ مِنْ كُلِّ أَوْبٍ ﴿رِّزْقًا ﴾ لَهُمْ ﴿مِّن لَّدُنَّا ﴾ عِنْدَنَا ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أَنَّ مَا نَقُولُهُ حَقٌّ].

قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوٓاْ ﴾ قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [قَوْمُهُ] أي: قوم الرَّسول ﷺ، وَهُم قُرَيش، ﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ﴾ وَهَذَا القَولُ كَذِبٌ منهم، سواء قَالوا ذَلكَ عَن عَقيدَة، أَو عَنِ غَيرِ عقيدَة.

قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ ﴾ المَعِيَّة هنا للمُصاحَبة والتَّبَعِيَّة، يعني: إِنْ نَتَّبع الهدى، ونَكُنْ مَعَك فيما تَدعو إِلَيْه.

والمراد بالهُدى مَا جَاءَ به الرَّسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

وفي قَولِه تعالى: ﴿إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ ﴾ إِقرارٌ بأَنَّ مَا مع الرَّسول ﷺ هُدًى،

وهذا غريبٌ منهم أَنْ يَقُولُوا: ﴿إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ﴾، فيعترفوا بأنه هُدًى، ثُمَّ بَعدَ ذَلكَ يكفروا.

قوله تعالى: ﴿نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾ قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَيْ نُنْتَزَعُ مِنْهَا بِسُرْعَةٍ]. والخطفُ: نَزْعُ الشَّيْءِ بسرعة: أي: يَتَخَطَّفُنا النَّاس، ويكونون علينا؛ لأَنَّنا خالفنا مَا كَانوا عَلَيه مِنَ الشِّرك والأوثان، فهُم يَقْضُون علينا بسرعة، وَهَذَا كَقَولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ [آل عمران:١٧٥].

فالشَّيْطانُ يُخَوِّف المُؤمنِينَ بالكُفَّارِ، يقول: ترى إِنْ آمَنْتُم حَصَل كَذَا وَكَذَا، إِنْ تَمَسَّكْتُم بِدِينِكم حَصَلَ كَذَا وَكَذَا، إِنْ أَلْزَمْتُمُ النَّاسَ باتِّبَاع الإِسْلام؛ ظَاهرًا وَبَاطنًا، ثار النَّاس عَلَيكم، فالنَّاسُ ثَلَاثَةُ أرباعِهم يريدون الفُسوق، وَأَنتُم إذا أَلْزَمْتُمُوهُم بالدِّين؛ فإنهم يَثُورُون عليكم.

وهَذَا لَا رَيبَ يُلْقِيه الشَّيطَان في قلوب النَّاس، قَالَ تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾.

ولكن الوَاجب عَلَينَا نَحوَ هَذَا المَقَام أَلَّا نخافَ ما دُمنا نرى أَنَّنا نَسِير عَلَى الحَقّ، بل نَعْلَمُ عِلم اليَقِين أَنَّنا لو صِرنا عَلَى الحَقّ لَخَافَنَا النَّاسُ، وَلَمْ نَخَفْ منهم، قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ﴾ [الأنعام:٨٢]، الأَمنُ مِنَ الخَوف، لَا مِنَ اللهِ، وَلَا مِن غيرِه، يعني: لَا يَخَافونَ عِقاب الله؛ لأَنَّهم آمَنوا إيمانًا صريحًا مَا لَهُ سَبَب، وَكَذَلكَ أَيْضًا يُؤَمِّنُهم اللهُ مِمَّا يخافون، وَهُوَ أَحَدُ التفسيرين في قَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ﴾ [الحشر:٢٣]، وَهُوَ أَنَّ المؤمنَ هُوَ الَّذي يُؤَمِّنُ عِبادَه الطائعين له مما يخافون.

لَكن هَذَا يتطلب في الواقع إيمانًا حقيقيًّا؛ فَإِذَا وُجِدَ الإِيمان الحقيقي، ثم نُفِّذَت

الشريعة؛ فأنا ضامِنٌ أَنْ يَحصُلَ الأمنُ التامُّ.

والدَّليلُ قولُه تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾، أي: نَجعل لهم مكانًا آمِنًا، وَمِثْلَ قَولِه تعالى: ﴿إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الحج:٤١]، أي: جعلنا لهم مكانًا يتمكنون فيه.

وقوله: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن﴾ الهَمْزَةُ هُنا معناها التَّقريرُ، أي: قَدْ مَكَنَّا، كَما في قَوْلِهِ تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح:١]، أي: قد شرحنا لك.

وقوله: ﴿أَوَلَمْ﴾ لِعُلَماء النحو في هَذَا الأسلوب مذهبان:

المذهب الأول: أَنَّ الهَمْزَة داخلة على شيء مُقَدَّر، والواو، أو الفَاءُ حَرْفُ عَطْفٍ عَلَى ذَلكَ المُقَدَّر.

والمذهب الثَّاني: أَنَّ الهَمزة بَعْدَ الواو مَحَلَّها، لكن قُدِّمت؛ لأَنَّها للاستفهام، وأصلها (وَألم).

وقوله: ﴿حَرَمًا﴾ على وزن: بَطَل، فهو صِفَةٌ مُشَبَّهَة، أي: مِن الحُرمة، يعني: مكانًا حَرَمًا ذا حُرمة، ولا رَيْبَ أَنَّ مَكَّةَ المكرمة لها حُرمة عظيمة في نفوس النَّاس، حَتَّى في الجَاهِلية.

وقوله: ﴿ءَامِنًا﴾ اسمُ فاعل، قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يَأْمَنُونَ فِيهِ مِنَ الإِغَارَةِ وَالقَتْلِ الوَاقِعَيْنِ مِنْ بَعْضِ العَرَبِ عَلَى بَعْضٍ] فَجَعَل معنى ﴿ءَامِنًا﴾ أي: آمِنًا أهلُه، وفَسَّرَهُ بقوله: [يَأْمَنُونَ]، فَيكون المَعنَى: آمِنًا أهلُه.

وعندي أَنَّ الوصفَ هنا للحَرَمِ؛ لأن المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَرَى أَنَّه وصفٌ سَبَبِيٌّ، وَأَنَا أَرَى أنه وصفٌ حقيقي.

والنَّعْتُ قَدْ يَكون نَعْتًا سببيًّا، أو نَعْتًا حقيقيًّا، فالنعتُ الحقيقي هو مَا كَانَ صِفة للمنعـوت، والسببيُّ هو مَا كَانَ صِفَةً لغيـره مما يتصل به، فإذا قلت: عنـدي رَجُلٌ صائم. فهذا نعتٌ حقيقي، وإذا قلت: عندي رَجُلٌ صائِمٌ أَبُوه. فهذا النعتُ سببيٌّ؛ لأن الوصف قائم، وهو يَعُود عَلَى مَن له صِلة به.

ولذلك فأنا أرى أَنَّ الحَـرَم هو الآمِن، وإذا أَمِنَ المكانُ -بلا رَيْـبٍ- فسوف يأمن مَن فيه، فلا يَعْتَـدِي أَحَدٌ عليه، حتَّى مَن أرادَهُ بِسُـوء أَتْلَفَه اللهُ، قَالَ تعالى: ﴿وَمَن يُـرِدْ فِيـهِ بِإِلْحَـادِۭ بِظُـلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج:٢٥].

فالعربُ أنفسُهم معَ كُفرهم، ومَهْما فَعَلَتْ قُريش لَا يُمكن أَنْ يَغْزُوا هَذَا البَيتَ أبدًا.

ثُمَّ إِنَّ أهلَ هَذَا البَيـت هُم سادةُ العَرب، حَتَّى في الجَاهليَّة، فكيف يقولون: ﴿نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾؟ هذا غَيرُ ممكن؛ لأن الحَرَمَ آمِنٌ، فَهُم آمنون فيه، لا يمكن أَنْ يُتَخَطَّفُوا فيه.

ثم مَعَ ذَلكَ هذا البلدُ مع كونه آمِنًا، هو أَيْضًا عَيْشٌ رَغْدٌ، ما يلحقُ أهلَه ضِيقٌ.

قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ قَالَ المُفَسِّـرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [بِالْفَوْقَانِيَّةِ وَالتَّحْتَانِيَّةِ]، فتكون ﴿يُجْبَىٰٓ﴾، و«تُجْبَى»[1]، وهُما قراءتان سَبْعِيَّتان، ومعنى ﴿يُجْبَىٰٓ﴾ أي: يُجمَع، وبمعنى يُؤتَى أيضًا، فالثمرات تُجمَع مِن كل أرض، ويُؤتَى بها إِلَى هَذَا البلد، وَهَذَا هُوَ الواقع، قال إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ

(١) السبعة في القراءات، لابن مجاهد (ص٤٩٥).

وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [إبراهيم:٣٧]، فكانت الثمرات تأتي إِلَى هَذَا البَلَد في كُلِّ أوانٍ مِن المكان القريب، كالطائف وغيره، ومِن المكان البعيد.

قوله تعالى: ﴿رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [رِزْقًا لَهُمْ].

ومعنى الرزق: العَطاء، وهو منصوبٌ لأَنَّهُ مفعولٌ مِن أَجْلِه، أو مَصدر، أو مفعولٌ مُطلَق؛ لقوله ﴿يُجْبَىٰٓ﴾، يجبى عطاء.

وقوله: ﴿مِّن لَّدُنَّا﴾ أي: مِن عِنْدِنا، وليس لهم به حَوْلٌ، ولا قُدرة، بل الأمر مِن الله عَزَّوَجَلَّ، هُوَ الَّذي جَعَل هَذِهِ الثمراتِ تُجبى إليه.

وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَنَّ مَا تَقُولُهُ حَقٌّ].

المعلوم هنا محذوف في الآيَة، فَلَمْ يَقُل: لَا يَعلَمونَ كَذَا وَكَذَا، ولكن المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ خَصَّه بقوله: [﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾: أَنَّ مَا تَقُولُهُ حَقٌّ]، وعندي أَنَّ الأمرَ أَعَمُّ وأَشْمَلُ؛ لأن حَذْفَ المفعول يَدُلُّ عَلَى العُموم.

فعليه نقول: لَا يَعلَمونَ أَنَّ مَا تَقُولُه حَقٌّ، ولا يعلَمُون العاقبةَ أيضًا؛ فإن العاقبةَ أَنَّه إذَا كَانَ هَذَا الحَرَمُ آمِنًا في حَالِ الكُفر، وتجبى إليه الثمرات في حَال الكفر؛ فما بالُك في حَال الإيمان، كيف وَقَد قَالَ إبراهيم: ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ [البقرة:١٢٦].

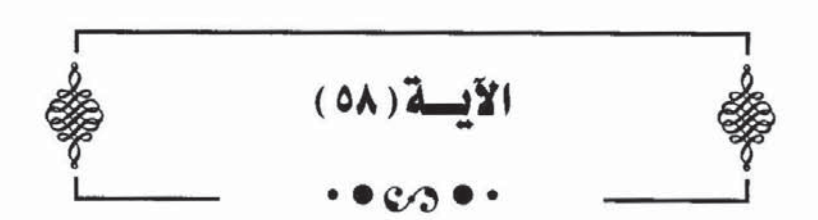
فَإذَا كَانَ أهلُ هَذَا البَلَدِ مؤمنين؛ فإنَّ أَمْنَهُ يكون أَشَدَّ مِن جِهة أَنَّ المكان نَفْسَهُ آمِن، ومِن جِهَة أَنَّ المؤمن الذي في هَذَا المكان آمِن أيضًا، فإذا كَانَ هَذَا الأمنُ، مع كون هَؤلَاء مِنَ المشركين؛ فإنهم إذا كانوا مؤمنين يكون أكثرَ، ولهذا لَمَّا حَصَل مِن المسلمين مَا حَصَلَ مِن انْتِهاكِ هَذَا البَلَدِ العظيم؛ سُلِّطَ عليهم مَنْ سُلِّطَ مِنَ الظَّلَمَة،

مِثل قضيةِ القَرامِطَة، ومِثل ما سيكون في آخِر الزَّمان، حيث يُسَلَّطُ على البيتِ رَجُلٌ مِنَ الحَبَشَة، قال النَّبيُّ ﷺ: «كَأَنِّي بِهِ أَسْوَدَ أَفْحَجَ، يَقْلَعُهَا حَجَرًا حَجَرًا»[1].

فقوله تعالى: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ ليس خاصًّا بأنَّ مَا جَاءَ به هُوَ الحَقُّ، بَل هُوَ عامٌّ حَتَّى في النهاية، وفي الغاية مما لَوْ آمَنوا.

• ● ۞ ● •

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحج، باب هدم الكعبة، رقم (١٥٩٥).



الآية (٥٨)

• ● ○ ● •

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴾ [القصص:٥٨].

• ● ○ ● •

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ﴾ عَيْشَهَا، وَأُرِيدَ بِالْقَرْيَةِ أَهْلُهَا ﴿فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ لِلْمَارَّةِ يَوْمًا، أَوْ بَعْضَهُ ﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴾ مِنْهُمْ].

هذه فائدةُ ذِكر إهلاك القُرى السَّابِقة لأَجل أَنْ يُقالَ لقريش: الكفر لا يمنع الخوف، ولا يَمنَع العقوبة، بل إِنَّهُ سبب العقوبة، فأنتم تقولون: إننا إذا آمنا تَخَطَّفَنا النَّاس. هذا ليس بالحقيقة، بل العكس هُوَ الحَقيقَة، وَلهَذَا قَالَ: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ﴾، فكأن الله يُدَلِّل لتكذيب هؤُلاءِ بأن الكفر أهلكَ الأُمَم السَّابقَة التي بَطِرَت معيشتَها.

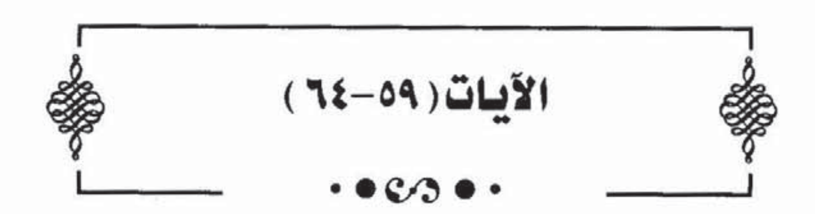
وقد أبطل اللهُ كلام هَؤُلَاء الكُفَّار للرسول ﷺ، لما قالوا: ﴿إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا ﴾ أبطله بالسلب والإيجاب:

أما الإيجاب: فقال: إننا مَكَّنَّا لهم حَرَما آمِنًا لَا يُمكن أَنْ يَكونَ هَذَا البَلَدُ خائفًا، فَإِذَا كَانَ آمِنًا في حَال الكُفر فَفِي حالِ الإِيمَان مِن بَاب أَوْلَى.

وأما السلب: فقوله تعالى: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ﴾،

فالكُفر لا يُؤَمِّن صاحبَه، بَل هُوَ السَّبَب في إهلاكه، فبقاؤكم عَلَى الكفر ليس هُوَ الَّذي يُنَجِّيكُم مِن أَنْ يَتَخَطَّفَكُم النَّاس، بَل هُوَ سبب هلاككم، وَهَذَا هُوَ الواقع؛ حيث خرَج صَنادِيدُ قريش وزعماؤهم إِلَى بَدْر لِيَهْلِكُوا، والحَرَمُ آمِنٌ، فما جاء شيء، لكنَّهم هُم الذين خرجوا لهلاكهم، فقُتِلُوا في بَدْرٍ.

• ● ۞ ● •



قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ﴾ [القصص:٥٩-٦٤].

• • ⊙ • •

قال المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ﴾ بِظُلْم مِنْهَا ﴿حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا﴾ أَيْ أَعْظَمها ﴿أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ بِتكْذِيبِ الرُّسُل، ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا﴾ تَتَمَتَّعُونَ وَتَتَزَيَّنُونَ بِهِ أَيَّام حَياتكُمْ ثُمَّ يَفْنَى ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾ أَيْ ثَوابه ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ بالتَّاءِ وَالْيَاء أَنَّ الْبَاقِي خَيْر مِنْ الْفَانِي، ﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ﴾ وَهُوَ مُصِيبه وَهُوَ الْجَنَّة ﴿لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فَيَزُول عَنْ قَرِيب ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ أَيْ إِلَى النَّار الْأَوَّل الْمُؤْمِن وَالثَّانِي الْكَافِر أَيْ لَا تَسَاوِي بَيْنهمَا، ﴿وَ﴾ اُذْكُرْ ﴿يَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ الله ﴿فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ تَزْعُمُونَهُمْ شُرَكَائِي، ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ بِدُخُولِ النَّار وَهُمْ

رُؤَسَاء الضَّلَالَة ﴿ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ﴾ مُبْتَدَأ وَصِفَة ﴿أَغْوَيْنَٰهُمْ﴾ خَبَره فَغَوَوْا ﴿كَمَا غَوَيْنَا﴾ لَمْ نُكْرِههُمْ عَلَى الْغَيّ ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ﴾ تَبَرَّأْنَا إِلَيْك مِنْهُمْ ﴿مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ مَا نَافِيَة وَقَدَّمَ الْمَفْعُول لِلْفَاصِلَةِ، ﴿وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ﴾ أَيْ الْأَصْنَام الَّذِينَ تَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ شُرَكَاء الله ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ﴾ أَيْ لِدُعَائِهِمْ ﴿وَرَأَوُاْ﴾ هُمْ ﴿ٱلْعَذَابَ﴾ أَبْصَرُوهُ ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ﴾ فِي الدُّنْيَا لَمَا رَأَوْهُ فِي الْآخِرَة].

من فوائد الآيات الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: بَيَانُ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ لا يَسْتَفِيدُونَ مِنْ شُركائهم شيئًا هُم أحوجُ ما يكونون إليه، وَذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إظهارُ عَدْلِ اللهِ.

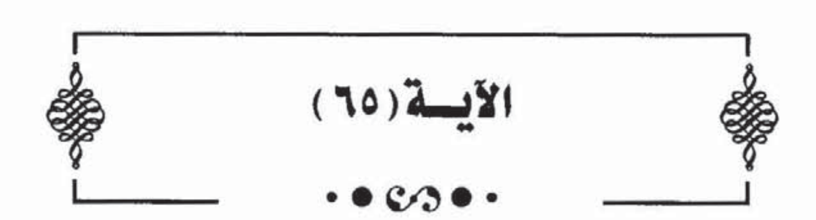
الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: التوبيخ لِهَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَدْعُونَ مَعَ اللهِ غَيْرَهُ؛ فَإِنَّ فِي هَذَا -لَا شَكَّ- توبيخًا وتقريعًا لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَمْرُ اللهِ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَدْعُوا شركاءهم فِي الْآخِرَةِ لَيْسَ مِنْ بَابِ التَّكْلِيفِ، وَإِنَّمَا الْغَرَضُ التحدِّي، وإظهارُ عَجْز هَذِهِ الْأَصْنَامِ، وَهَذَا هُوَ الظَّاهِرُ.

الْفَائِدَةُ الْخَامِسَةُ: إثباتُ الْعَذَابِ فِي الْآخِرَةِ؛ لقوله: ﴿وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أَنَّ الاهتداء هُوَ السَّبَبُ الْمَانِعُ مِنَ العذاب؛ لقوله: ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ﴾، فإذا أردتَ سببًا يُنجيك مِنْ عَذَابِ اللهِ، فعليك بالاهتداء بهَدْيِ اللهِ -أو بهُدى اللهِ- فَإِنَّهُ هُوَ السَّبَبُ الَّذِي يُنجي مِنْ عَذَابِ اللهِ.

• • ۞ • •



الآيــة (٦٥)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القَصَص:٦٥].

قال المُفَسِّــرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَ﴾ اذْكُــرْ ﴿يَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ إِلَيْكُمْ].

قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، قوله: ﴿مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ من ناحية الإعراب، (ما) استفهامية، و(ذا) اسمُ موصولٍ، أي: (مَا الَّذِي أَجَبْتُمْ)، و(أَجَابَ) فِعْلٌ ماضٍ، والتاءُ فاعِل، والميم علامةُ الجمع، و﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ مَفعُـول به، وجملة ﴿أَجَبْتُمُ﴾ صِلة الموصـول، والموصـولُ خَبَـرُ المبتدأ، وهو (ما) الاستفهامية.

والشاهدُ عَلَى هَذَا الإعراب مِن كَلَام ابن مالك(١):

وَمِثْلُ (مَاذَا) بَعْدَ (مَـا) اسْـتِفْهَامِ ... أَوْ (مَـنْ) إِذَا لَمْ تُلْـغَ فِي الْكَـلَامِ

قولُ الناظم: (إِذَا لَمْ تُلْغَ) معناه يُشير إلى وجهٍ آخَرَ، وهو إلغاؤها في الكَلَام، وعليه نَجْعَلُ ﴿مَاذَآ﴾ كُلَّها اسمَ استفهامٍ، وتكون هي المبتدأ.

قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ﴾ ذكرنا أنَّه في السؤال الأول:

---

(١) ألفية ابن مالك (ص١٥).

﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ﴾ سأل عن التوحيد، وهذا سَأَلَ عَنِ الرِّسالَة، فيكون المسئول عنه الآنَ شهادة أَن لَا إِلَهَ إِلَّا الله، وَأَنَّ مُحَمَّدا رَسُولُ اللهِ، أو عيسى أو موسى، حَسَب الأُمم التي تسأل.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: قَوْلُه تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ مَرَّ بنا في الآيات السَّابِقة عند قوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ﴾ إِثْبَاتُ كَلَامِ اللهِ، وأَنَّه بصوتٍ، وأنه يُسمَع، وأنه بِحَرْفٍ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أَنَّ النَّاسَ يُسألون عن إيمانهم بالرُّسُل، كما يُسألون عن التوحيد.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ السُّؤَالَ فِي الْآخِرَةِ عامٌّ لجميع الخَلق، فقوله: ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ يشمل: محمدًا ﷺ وغيره، أَمَّا السُّؤَالُ فِي الْقَبْرِ؛ فَإِنَّهُ قَدْ ذَهَبَ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ إلى أَنَّهُ خَاصٌّ بِهَذِهِ الْأُمَّةِ لِقَوْلِهِ ﷺ: «**إِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ تُبْتَلَى فِي قُبُورِهَا**»[1]، وقوله: «**أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّكُمْ تُفْتَنُونَ فِي قُبُورِكُمْ**»[2].

والمسألة خلافية، وسبق الكلام عَلَيْهَا فِي التَّوْحِيدِ، إِنَّما يَوْمَ الْقِيَامَةِ السؤال عامٌّ بِنَصِّ الْقُرْآنِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إظهار فضل الرُّسُل -عليهم الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-؛ حيث أثبتَ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه، وإثبات عذاب القبر والتعوذ منه، رقم (٢٨٦٧).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب من أجاب الفتيا بإشارة اليد والرأس، رقم (٨٦)، ومسلم: كتاب الكسوف، باب ما عُرض على النبي ﷺ في صلاة الكسوف، رقم (٩٠٥).

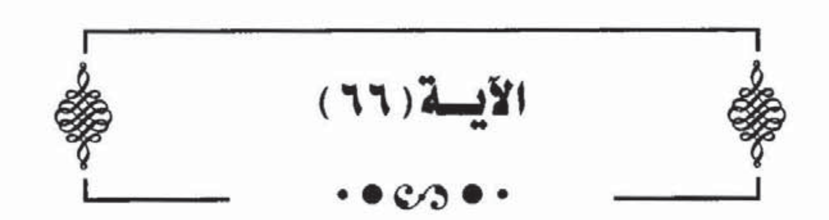
اللهُ تعالى أحقيَّةَ رسالتِه فِي هَذَا الموطن العظيم.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّ غَيْرَ الْمُؤْمِنِينَ تَعمَى عليهم الأنباء فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، وَلَوْ كَانُوا عَالِمِينَ، وَهَذَا كَمَا أَنَّ المَيِّتَ إِذَا سُئِلَ فِي قَبْرِهِ: مَن ربُّك؟ وما دِينُك؟ ومَن نبيُّك؟ وَلَوْ كَانَ عَالِمًا؛ فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ غَيْرَ مؤمن لا يجيب بالصَّواب.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أَنَّهُ لَا يُغْنِي أَحَدٌ عَنْ أَحَدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ لقوله تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾؛ فإِنَّ أَحَدًا لَا يُغْنِي عَنْ أَحَدٍ شَيْئًا فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، ولا يُنقذه مِمَّا وَقَعَ فِيهِ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ﴾ عامٌّ لكلِّ المشركين، وَلِهَذَا قَالَ بعدها: ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ﴾، أما المؤمنون، فإنهم مؤمنون لا يُسألون، بل يَكفِي سؤالهم فِي قُبُورِهِمْ.

• • ❁ • •



الآية (٦٦)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [القَصَص:٦٦].

•••

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ﴾ الْأَخْبَارُ الْمُنْجِيَةُ فِي الْجَوَابِ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ لَمْ يَجِدُوا خَبَرًا لَهُمْ فِيهِ نَجَاةٌ ﴿فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ عَنْهُ فَيَسْكُتُونَ].

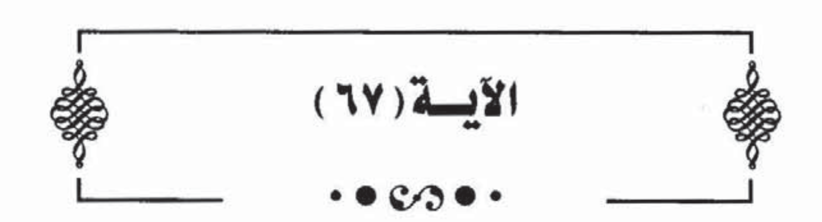
قوله تعالى: ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: انْطَمَسَتْ عليهم، فلم يَجِدُوا جوابًا، يعني: طلبوا شيئًا ما وجدوه.

وقوله تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ أي: عَن هَذِهِ الأخبار، وعن الجواب، إمَّا لِعَجْزِهِم، وعَدَمِ تَمَكُّنِهم، أو لأَنَّهم لَوْ سألوا ما وجدوا الخبر.

وقال بعضُهم: إنَّ معنى ﴿لَا يَتَسَاءَلُونَ﴾: لا يَتَنَادَوْنَ في القَرابـة، كما كانوا يفعلونه في الدُّنيَا، إذا ضاقت على الإِنْسَان الحِيَل صارَ يُنَادِي قرابَتَهُ واقَرَابَتَاه! وَمَا أَشبَهَ ذَلكَ، وهناك في الآخرة ما يطلبه.

وإعراب قَولِه تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾: (يوم) منصوب على الظرفية، و(إِذ) مُضافٌ إليه، والتنوينُ فيها عِوَضٌ عن جُملة.

•••



الآيــة (٦٧)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ﴾ [القَصَص:٦٧].

• • • •

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿فَأَمَّا مَن تَابَ﴾ مِنَ الشِّرْكِ ﴿وَءَامَنَ﴾ صَدَّقَ بِتَوْحِيدِ اللهِ ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أَدَّى الْفَرَائِضَ ﴿فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ﴾ النَّاجِينَ بِوَعْدِ اللهِ].

قَوْلُه تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ﴾: (أَمَّا) شرطية، وجوابُها قوله تعالى: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ﴾، وقوله: ﴿مَن تَابَ﴾ التوبة تَقدَّم لَنَا أَنَّهَا الرُّجُوعُ إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مِنْ معصيته إِلَى طَاعَتِهِ، وأن لها شروطًا خمسة: النَّدَم، والإقلاع، وَالْعَزْمُ عَلَى أَلَّا يعود، وَأَنْ تَكُونَ قَبْلَ المَوْتِ، وقبل طُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، ثم الإخلاص.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿فَأَمَّا مَن تَابَ﴾ مِنَ الشِّرْكِ] لعلَّه أَوْجَبَ لَهُ أَنْ يُقيِّد التوبة هنا بالتوبة مِنَ الشِّرْكِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَءَامَنَ﴾؛ لأن الإيمان بعد الشرك؛ فإن العاصيَ مؤمنٌ، وَلَوْ كَانَ عَاصِيًا، فَهَذَا هُوَ الَّذِي أَوْجَبَ للمؤلف أَنْ يقيِّد التَّوْبَةَ مِنَ الشِّرْكِ.

قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَءَامَنَ﴾ صدَّق بِتَوْحِيدِ اللهِ]، وهذا نقصٌ فِي تَفْسِيرِهِ للإيمان؛ لأن الْإِيمَانَ لَيْسَ هُوَ التَّصْدِيقَ فِي الشَّرْعِ فقط، صحيحٌ أَنَّ الإِيمَانَ فِي اللُّغَةِ يُرَادَ بِهِ التصديق، لكنه فِي الشَّرْعِ هو: التصديق بِشَرْطِ أَنْ يتضَمَّن القَبُول والإذعان،

فَلَا بُدَّ مِنْ قبولٍ وإذعانٍ، وإلَّا فليس بمؤمن لَا يُصَدِّقُ، فأبو طالب -مثلًا- مصدِّق برسالة الرَّسُولِ ﷺ، وَمَعَ ذَلِكَ فَهُوَ كَافِرٌ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَقْبَلْ، ولم يُذعِن.

وَفِي قَوْلِهِ هَذَا كَذَلِكَ سُقوط؛ لأن الْإِيمَانَ لَيْسَ أن تصدِّق بوحدانية الله، لكن أن تصدِّق بِكُلِّ مَا يَجِبُ الْإِيمَانُ بِهِ، وَقَدْ بَيَّنَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّ الْإِيمَانَ «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»[1]، فَلَا بُدَّ مِنْ هَذِهِ الْأَرْكَانِ الستة فِي الْإِيمَانِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [أَدَّى الفَرَائِضَ]، وَفِي هَذَا أَيْضًا قُصور، بل الْعَمَلُ الصَّالِحُ هنا يشمل الفرائض والنوافلَ، وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ هُوَ الَّذِي جَمَعَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ: الإخلاص والمتابعة؛ لِقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة:٥]، فقوله: ﴿مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ هذا الإخلاص، و﴿حُنَفَآءَ﴾ هذه المتابعة؛ لأنَّ الحَنِيف هُوَ الَّذِي لَيْسَ بمائل، فَمَنْ خَرَجَ عَنِ المتابعة فهو مائل.

فالعمل الصالح إذن هو كُلُّ عَمَلٍ تضمَّن الإخلاص والمتابعة، وضدُّه الفاسد، وَهُوَ الَّذِي اشْتَمَلَ عَلَى الشِّرْكِ أو على البدعة، فَهَذَا لَيْسَ بعملٍ صالحٍ، فمَن جمع هَذِهِ الْأَوْصَافَ الثَّلَاثَةَ ﴿فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلۡمُفۡلِحِينَ﴾: (عسى) مِن أفعال الترجِّي، لكنَّها بالنسبة لله عَزَّوَجَلَّ لَا تَكُونُ للترجِّي، بل تكون للتَّعلِيل، وَلِهَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «عَسَى مِنَ اللهِ وَاجِبَةٌ»[2]. لِأَنَّ الْعِلَّةَ ملازمة للمعلول، فَإِذَا وُجِدَتِ العلة ثبَتَ المعلول، فالعلة لِلفلاح هِيَ التَّوْبَةُ والإيمان، وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ، فإذا وُجِدت هذه وُجِد الفلاحُ ﴿فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ، رقم (٥٠)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الإيمان ما هو، رقم (٩).

(٢) تفسير القرطبي (٨/ ٩١).

قَوْلُه تعالى: ﴿أَن يَكُونَ﴾، أي: الَّذِي تَابَ وآمن وَعَمِلَ صَالحًا.

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [النَّاجِينَ بِوَعْدِ اللهِ] أي: الناجين بما وعدهم اللهُ بِهِ، ولكنَّ الفلاح لَيْسَ كَمَا قال الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، أنه النجاة فقط، بل النَّجَاةُ مِنَ المرهوب، والفوز بالمطلوب، أي: أَنْ يَنْجُوَ الْإِنْسَانُ مِمَّا يهرب، وأَنْ يَحْصُلَ لَهُ مَا يُحِبُّ.

وَقَوْلُهُ تعالى: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ﴾ لَوْ قُلْنَا إِنَّهَا للترجِّي -مثلًا- لتضمنت فائدة، وَهِيَ أَنَّ الْإِنْسَانَ، وإنْ عَمِلَ هذا العمل، فليكن راجيًا للفلاح لا قاطعًا به؛ لِأَنَّهُ لَا يَدْرِي: قَدْ تكُونُ هناك موانعُ، أو خَلل لَا يَحْصُلُ معه الفلاح، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون:٦٠]، فهنا المقام ليس مقامَ جزمٍ، بَلْ هُوَ مَقَامُ رجاء.

من فوائد الآية الكريمة:

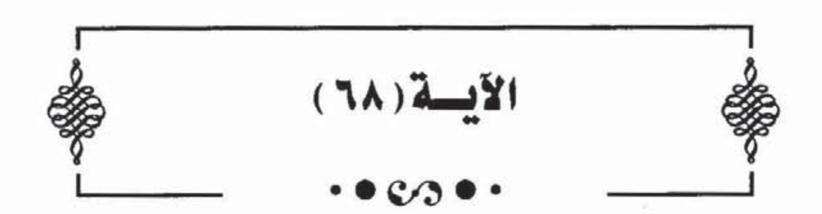
الْفَائِدَةُ الأُولَى: فِي هَذَا فضيلةُ هَذِهِ الْأَوْصَافِ الثَّلَاثَةِ: التوبة، والإيمان، وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّ هَذِهِ الْأَوْصَافَ الثَّلَاثَةَ سببٌ للفلاح؛ لقوله تعالى: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن الفلاحَ مَرْتَبَةٌ عَالِيَةٌ لَا يَنالُهَا إِلَّا ذَوُو الأوصاف الحميدة: التائبون المؤمنون العاملون صالحًا.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّ الْعَمَلَ لَا يَنْفَعُ إِلَّا إِذَا كَانَ صالحًا، وَهُوَ مَا جَمَعَ شرطين -كَمَا سَبَقَ- الإخلاص والمتابعة لِلرَّسُولِ ﷺ.

• • ۞ • •



❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [القصص:٦٨].

••○••

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ مَا يَشَاءُ ﴿مَا كَانَ لَهُمُ﴾ لِلْمُشْـرِكِينَ ﴿ٱلْخِيَرَةُ﴾ الِاخْتِيَار فِي شَيْءٍ ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ عَنْ إِشْرَاكِهِمْ].

هَذِهِ الْآيَةُ تعليل لبُطْلان آلهة المشركين، وإثبات الأُلُوهِيَّة لله، وذلك عَنْ طَرِيقِ إثبات الخَلق؛ فإنَّ الخالق هُوَ الَّذِي يَجِبُ أَنْ يُعْبَدَ؛ لِقَوْلِهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة:٢١]، فَإِنَّ هَذَا الْوَصْفَ تعليل للأمر، فإنَّ الخالق يَجِبُ أَنْ يَكُونَ هُوَ الْإِلَهَ المعبود، كَمَا قَالَ اللهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝٢٠ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النحل:٢٠-٢١]، فإذا كَانُوا لَا يَخْلُقون فكيـف يستحِقُّون أَنْ يُعْبَـدوا؟ وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيـهِ: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم:٤٢]، هنا قال: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ لإلزام هؤُلاءِ المشركين بعبادته وحده.

وقوله: ﴿يَخْلُقُ﴾ الخَلْق: هو الإبداع المَبْنِيُّ عَلَى التَّقْدِيرِ، فَإِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يُقَدِّر، ثم يَخْلُق، فخلقُه مَبْنِيٌّ عَلَى الحكمة.

قوله: ﴿مَا يَشَآءُ﴾ وَلَمْ يَقُلْ: مَنْ يَشَاءُ، مَعَ أَنَّ المخلـوقات فِيهَا مَا هُوَ عاقل، ولكنه تغليب لغير العاقل؛ لِأَنَّهُ أَكْثَرُ، ثُمَّ مِنْ أَجْلِ أَنْ يشمل الأعيان والأوصاف، والأوصاف لَيْسَتْ مِنَ الْعُقَلَاءِ، وإذا رويت الأوصاف أُتِي بـ(ما).

وانظروا إِلَى قَوْلِهِ تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء:٣]، وَلَمْ يَقُلْ: مَن طاب، مَعَ أَنَّ المنكوح عاقل، لَكِنَّهُ لَمَّا كَانَتِ المرأة تُنكح لِصِفَاتها قال: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ﴾ يعني: راعُوا الصفة.

فهنا قوله: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ عَبَّر بـ﴿مَا﴾ تعبيرًا لغير العاقل؛ لكثرته، ولِيشمل الأعيان والأوصاف، فَاللهُ تعالى خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ: الأعيان والأوصاف.

ولهذا فإن مِنْ مَذْهَبِ أَهْلِ السُّنَّةِ والجماعة أَنَّ اللهَ تعالى خالقٌ للعبد، ولأفعال العبد، الَّتِي هِيَ أوصافُه، فَاللهُ تعالى ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾، وقوله: ﴿مَا يَشَآءُ﴾ أي: مَا يَشَاءُ خَلْقَه، فالمفعول إذن محذوفٌ، وهذه المشيئة كُلُّ مَا ذَكَرَ اللهُ تعالى عَنِ فَعَلَ مَنْ أفعاله أنه تابعٌ للمشيئـة؛ فإنه مقرونٌ بالحكمـة؛ لِأَنَّ مِنْ أَسْمَـاءِ اللهِ تعالى الحكيم، فَلَا يَخْلُقُ شَيْئًا عَبَثًا، وَلَا يَحْكُمُ بشيء عبثًا، كُلُّ مَا شَاءَهُ فهو مقرون بحكمة.

وقوله: ﴿وَيَخْتَـارُ﴾ قَالَ الْمُفَسِّـرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿مَا يَشَآءُ﴾، أي: يَخْتَارُ مَا يَشَـاءُ، والاختيار الأخذُ بخيرِ الأمرين، فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أيضًا يأخذ بِمَا يَرَاهُ خَيْرًا مِنْ أَفْعَالِهِ وأحكامه، فَتَصْوير الخَلق عائدٌ لأصل التكوين، والاختيار عائد للتعيين المَبْنِيِّ عَلَى الْإِرَادَةِ التامَّة، فَهُوَ لَا مُعَقِّبَ لحُكمة، ولا رادَّ لقضائه، فيختار مَا يُرِيدُ عَزَّوَجَلَّ، يخلُق الآدميَّ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ، واختار أَنْ يَكُونَ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ، وخَلَق البهيمة المركوبة، وَاخْتَارَ أَنْ تَكُونَ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ، وَكَذَلِكَ أَيْضًا اخْتَارَ أَنْ يَكُونَ شـرعُه كذا -وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مخلوقًا- عَلَى هَذَا الْوَجْهِ.

فإذن: الاختيار أعمُّ مِن الْخَلْقِ مِنْ وجهٍ؛ حيث يشمل المخلوقَ، وغيرَ المخلوقِ، فهو يختار سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَا يُرِيدُهُ مِن شرع، أي: أَعَمُّ مِن هَذَا الْوَجْهِ، وأما الخَلقُ فإنه أَعَمُّ مِن حَيْثُ إِنَّهُ يشمل الأعيانَ والأوصافَ.

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿مَا كَانَ لَهُمُ﴾ للمشركين ﴿ٱلْخِيَرَةُ﴾ الاختيار].

قوله: ﴿مَا كَانَ﴾: ﴿مَا﴾ هُنَا قَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّهَا اسْمٌ موصول، أي: يَخْتَارَ مَا كَانَ لَهُمُ الخِيرة، وَمَا يَكُونُ فِيهِ خَيْرٌ لَهُمْ، وَعَلَى هَذَا فَقَوْلُهُ: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ موصول بقوله: ﴿وَيَخْتَارُ﴾؛ لِأَنَّهُ مَفْعُولٌ بِهِ، وَهَذَا الْقَوْلُ ذَهَبَ إِلَيْهِ المعتزلة الَّذِينَ يَقُولُونَ: إِنَّهُ يَجِبُ عَلَى اللهِ فِعْلُ الأفضل، أو الصلاح، فقالوا: إِنَّهُ تعالى مَا يَخْتَارُ إِلَّا مَا كَانَتْ فيه الخِيَرة، أَمَّا مَا لَمْ تَكُنْ فِيهِ خِيَرة، فلا يختاره، وَهَذَا مَعْنَاهُ أَنَّهُ عَزَّوَجَلَّ يَفْعَلُ مَا هُوَ أصلح، أَوْ مَا هُوَ صلاحٌ.

ولكنَّ أكثر الْمُفَسِّرين -وعلى رأسِهم ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- يقولون: إن (ما) نافية، وَكَمَا قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: لَا يَكُونُ الخِيَرة لهؤُلاءِ المشركين، ولا لأصنامهم أيضًا، فأصنامُهم لا تخلُق ولا تختار، وَكَذَلِكَ هُم لَيْسَ لَهُمْ حقُّ الاختيار فِيمَا أَرَادَ اللهُ، وَهَذَا الْقَوْلُ هُوَ الصَّوَابُ، وَعَلَى هَذَا فيكونُ الوقفُ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿وَيَخْتَارُ﴾، ثم الاستئناف بقوله: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾، وَهَذَا هُوَ الْقَوْلُ الصَّحِيحُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، أَنَّ اللهَ هُوَ الَّذِي لَهُ الِاخْتِيَارَ المطلق، وَلَيْسَ لِأَحدٍ خيَرةٌ، وَقَدْ قَالَ اللهُ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب:٣٦]، فلا يختارون مِنْ أَمرِهِمْ إِلَّا مَا اخْتَارَ اللهُ.

وهَلْ يَجِبُ عَلَى اللهِ فِعْلُ الأصلح والصلاح أَمْ لَا يَجِبُ؟

فنقولُ: أَنَّهُ وَاجِبٌ عَلَيْهِ بمقتضى الحكمة، وليس بُمقتضى عقولنا؛ فَإِنَّ اللهَ

تعالى بمقتضى كونه حكيمًا مَا يَفْعَلُ إِلَّا مَا هُوَ صالح، أو أصلحُ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَفْعَلَ مَا لَيْسَ بصالحٍ، ولا أصلح؛ لأنه حكيم، ولكن هل مَعْنَى ذَلِكَ أَنَّنا نحن نوجِب عَلَى اللهِ ونقول: هذا أَصْلَحُ مِنْ هَذَا، وَيَجِبُ أَنْ يَفْعَلَ كذا؟ لا، ولكنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَفْعَلُهُ وَقَدْ لَا نَعْلَمُ نحن بهذه الأصلحية، أو بوجه الصلاحية، فَلَا يَلْزَمُ أَنْ نَعْلَمَ.

وَكَمْ مِنْ أَشْيَاءَ نظن أَنَّ الحِكْمَةَ فِي مُخَالَفَةِ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ، أَوْ مَا يَقَعُ قَدَرًا، وتكون الحِكْمَةُ فِيمَا جَاءَ بِهِ الشَّرْعُ، وَقَضَى بِهِ اللهُ تعالى فِي قَدَرِهِ.

قَوْلُه تعالى: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ عَلَى قَوْلِ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأنه: [الِاخْتِيَارُ فِي شَيْءٍ]. فـ﴿ٱلْخِيَرَةُ﴾ اسْمُ مَصْدَرٍ؛ لِأَنَّ كُلَّ كلمة تضمنت معنى المصدر دُونَ حُروفه فهي اسْمُ مَصْدَرٍ، ونظير الخِيَرَة الطِّيَرَة؛ فإن الطِّيَرَة اسْمُ مَصْدَرٍ بمعنى: التَطَيُّر، وهكذا الخِيَرَة اسْمُ مَصْدَرٍ بمعنى الاختيار.

قَوْله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [عَنْ إِشْرَاكِهِمْ].

قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ اسْمُ مَصْدَرٍ بمعنى: التسبيح، والتسبيح: تنزيهُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا لَا يَلِيقُ بِهِ، وَمِمَّا لَا يَلِيقُ بِهِ:

- أن نُدخل عليه النقصَ: وَهُوَ مُنَزَّهٌ بِهَا عَنِ النَّقْصِ، وَلِهَذَا قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١].

- ومشابهةُ المخلوقين ممتنعة عَلَى اللهِ، والنقص ممتنعٌ عليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فعليه يكون ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ تنزيهًا لله عَنْ كُلِّ مَا لَا يَلِيقُ بِهِ مِنْ نقص، أو مشابهة المخلوقين؛ لِأَنَّهُ قَدْ تَكُونُ صفة كمال، فإذا شابه الله بِهَا صار نقصًا، وَقَدْ تَكُونُ المسألة لَيْس فِيهَا

مشابهة للمخلوقين إطلاقًا، وَلَا وَجْهُ شبه، أي: مِنَ الصِّفَاتِ الخاصة بالله.

فَنَصَّ عَلَى نَفْيِ المماثَلة، وقال: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق:٣٨]، فَنَصَّ عَلَى نَفْيِ النَّقْصِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ يقول المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [عن إشراكهم]، استفدنا مِنْ تَقْدِيرِ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن (مَا) مصدرية، فيكون التنزيهُ عَنْ فِعْلِهِمَ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ تكُونَ (ما) اسمًا موصولًا، ويكون العائدُ محذُوفًا، والتقدير: عما يشركونه به، فيكون مُنَزَّهًا عن الشركاء، الَّتِي هِيَ الأصنام.

وقوله: ﴿وَتَعَٰلَىٰ﴾ مَأْخُوذٌ مِنَ العُلُوِّ، لكنَّها تُفيد معنى التَّنَزُّهِ عَنِ العُلُوِّ، فَيَكُونُ مَعْنَاهُ: ترَفَّع وتنزَّه بعُلوٍّ، فهي أَبْلَغُ مِن قولك: عَلا؛ لأن عَلا تُفيد العُلُوَّ، لَكِنْ قَوْلُهُ: ﴿وَتَعَٰلَىٰ﴾ يفيد مع العُلُوِّ التَّنَزُّهَ والتحاشيَ عما يشركونه به، أَوْ عَنْ إشراكهم به.

ولما بَيَّنَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عموم خَلْقِه، وَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي لَهُ الاختيارُ المطلقُ، وَلَيْسَ لِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ اختيارٌ، فالاختيارُ لَهُ وَحْدَهُ، ذَكَرَ أَنَّهُ عَالِمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: إثباتُ أَنَّ اللهَ وَحْدَهُ هُوَ الَّذِي يَخْلُقُ؛ لقوله: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾؛ لِأَنَّ مَنْ لَا اخْتِيَارَ له طبعًا لا خَلْقَ لَهُ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّ اللهَ تعالى قَادِرٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ؛ لِأَنَّ مَنْ ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ مَعْنَاهُ أَنَّهُ قَادِرٌ، فكيف يريد يخلُقُه.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثباتُ الإرادة للهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لقوله: ﴿وَيَخْتَارُ﴾، والإرادةُ هُنَا إِنْ نَظَرْنَا إِلَى قَرنها بالخَلق، قلنا: هي الكونية، وإِنْ نَظَرْنَا إِلَى لفظها بقَطْع النظر

عن اقترانها بالخَلق، قلنا: إنها شاملة للكونية وللشرعية؛ لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يختار كونًا وشرعًا مَا يَشَاءُ، وَهَذَا أَوْلَى العموم.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا اخْتِيَارَ له، وقد تمسَّك بهذا الجَبْرِيَّة؛ لقوله: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾، فقالوا: هَذِهِ الْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ مَا لَهُ اختيار، وأنه مُجْبَرٌ عَلَى فِعْلِهِ.

والجواب عَلَى ذَلِكَ أَنْ يُقَالَ: مَا كَانَ لَهُمُ الخِيَرَةُ المطلَقة، يعني: الَّتِي تكُونُ بِدُونِ الله، فالله يختارُ وهُم يختارون، وَالدَّلِيلُ عَلَى هَذَا آياتٌ كثيرة، وأحاديثُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ لَهُ إِرَادَةٌ، مِنْهَا قَوْلُهُ تعالى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾ [آل عمران:١٥٢]، وقوله: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ [التكوير:٢٨].

فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أثبتَ للإنسان مشيئةً، وأثبتَ لَهُ إِرَادَةً، والواقع يَشْهَدُ بِذَلِكَ، والإنسان يُفَرِّقُ بَيْنَ الفعل الاختياري، والفعل غير الاختياري، فالإنسان إِذَا نَزَلَ مِنَ السطح بالدَّرَج فنزولُه اختياري، وَلَكِنْ إِذَا دَفَعَهُ أَحَدٌ مِن أعلى الدَّرَج فتدحرج، فنزولُه غير اختياري.

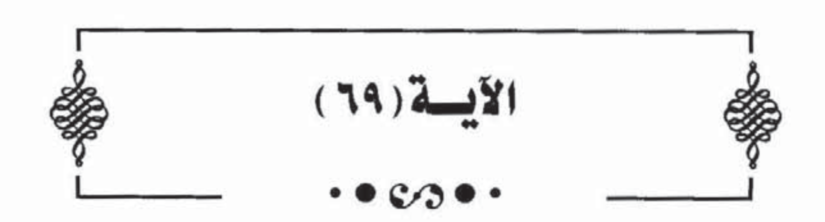
والنفيُ فِي قَوْلِهِ: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ مُسَلَّط هُنَا عَلَى الْخِيَرَةِ الْمُطْلَقَةِ الَّتِي لَا تُعَارَضُ، هَذِهِ لَيْسَتْ للإنسان، بَلِ الْإِنْسَانُ مُدَبِّر، وَلَهُ إِرَادَةٌ، وَأَمَّا أَنْ يَكُونَ نفيًا لمطلَق الخِيَرة، فَهَذَا لَا يُمْكِنُ؛ لِأَنَّ الْآيَاتِ والواقعَ يشهدان بأن للإنسان خِيَرة، والعلماء يقولون فِي كَثِيرٍ مِنَ الكفارات: يُخَيَّرُ بَيْنَ كَذَا وَكَذَا.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: انفراد اللهِ عَزَّوَجَلَّ بالإرادة المطلَقة، فلا مُعقِّبَ لحُكمة، ولا رادَّ لقضائه.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: تنزيه اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا لَا يَلِيقُ بِهِ؛ لقوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: تَعَالِيه وتنزُّهُه عَنْ هَؤُلَاءِ المشركين، سواءٌ قَدَّرْنا (ما) مَصدريَّة، أو قَدَّرْنَاها موصولةً، فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مُتعالٍ عَنِ الْمُشْرِكِينَ: عن أصنامهم، وعن شِركهم.

• • ۞ • •



الآية (٦٩)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [القَصَص:٦٩].

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ تُسِرُّ قُلُوبُهُمْ مِنَ الْكُفْرِ وَغَيْرِهِ ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ بِأَلْسِنَتِهِمْ مِنْ ذَلِكَ].

قَوْلُه تعالى: ﴿وَرَبُّكَ﴾ الخطاب فِيهَا، وَفِي الَّتِي قَبْلَهَا إِمَّا لِلرَّسُولِ ﷺ، وإما لِكُلِّ مَنْ يَصِحُّ تَوْجِيهُ الْخِطَابِ إِلَيْهِ.

قَوْلُه تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [تُسِرُّ قُلُوبُهُمْ مِنَ الكُفْرِ وَغَيْرِهِ].

قوله تعالى: ﴿تُكِنُّ﴾ بمعنى: تُسِرُّ وتُخفي، وقوله: ﴿صُدُورُهُمْ﴾ أي: قلوبهم، وإنما عبَّر بالصُّدور؛ لِأَنَّ الْقَلْبَ فيها، والقلب متصلٌ بالصَّدر، ولهذا فالصدرُ هو المُكِنُّ للقلبِ الساترُ له، وَمَا فِي الْقَلْبِ أَيْضًا مِنَ الأشياء المستورة، فَاللهُ تعالى يعلمه.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [مِنَ الكُفْرِ وَغَيْرِهِ] صحيح، فَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِمَّا فِي الْقَلْبِ، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق:١٦]، فقوله: ﴿تُوَسْوِسُ بِهِ﴾ أي: تُحدِّثُ بِهِ، فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ، بَلْ هُوَ يَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُ أنت أيضًا.

قَوْلُه تعالى: ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بِأَلْسِنَتِهِمْ مِنْ ذَلِكَ].

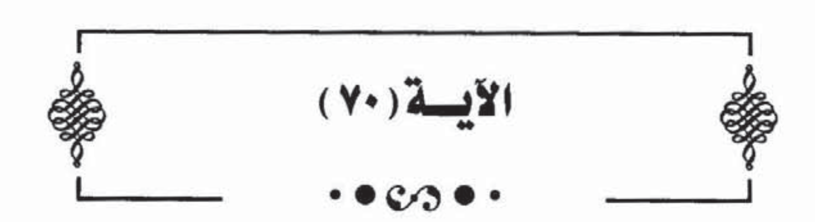
قوله: ﴿يُعْلِنُونَ﴾ أي: يُظهِرون، وتخصيص المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ الإظهارَ بالألسُن فيه قُصُور؛ لأنَّ الإعلام قَدْ يَكُونُ بِاللِّسَانِ، وَقَدْ يَكُونُ بِغَيْرِهِ مِنَ الجَوَارِحِ، فقَدْ يَكُونُ بِاللِّسَانِ فيتكلم، وَقَدْ يَكُونُ بِغَيْرِهِ مِنَ الجَوَارِحِ، فيفعل بيديه أو قدميه أو عينيه، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ، فهو أعمُّ مِمَّا قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: فِي هَذَا إثباتُ العِلم لله، وأنه شامِل لما يُسَرُّ، وَمَا يُعْلَنُ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: التَّحذير والتَّرغيب، تحذير الإِنْسَانِ أَنْ يُضْمِرَ، أَوْ يُعلن سُوءًا؛ لِأَنَّ اللهَ يَعْلَمُ بِهِ، وترغيبُه فِي أَنْ يُضْمِرَ، أَوْ يُعْلِنَ خيرًا؛ لِأَنَّ الله يعلمه، وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا أُضمِر مِنْ خَيْرٍ، أَوْ شَرٍّ، مَعْنَاهُ أَنَّهُ لَنْ يَضيع، فَهُوَ مَعْلُومٌ كَمَا قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي آيَاتٍ كثيرة أَنَّهُ يَعْلَمُ، ويُخبر يَوْمَ الْقِيَامَةِ عمَّا عَمِل هؤُلاءِ.

• • ۞ • •



الآيــة (٧٠)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القَصَص:٧٠].

•••

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ﴾ الدُّنْيَا ﴿وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ الْجَنَّةُ ﴿وَلَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ الْقَضَاءُ النَّافِذُ فِي كُلِّ شَيْءٍ ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ بِالنُّشُورِ].

قَوْله: ﴿وَهُوَ﴾ الضَّمِير يَعُودُ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿وَرَبُّكَ﴾ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ، أي: وذلك الرب الَّذِي يَخْلُقُ، وَالَّذِي يُعْلَمُ هُوَ اللهُ.

قوله: ﴿ٱللَّهُ﴾ أصلها (الإله)، حُذِفَت الهمزةُ تخفيفًا؛ لِكَثْرَةِ الِاسْتِعْمَالِ، كَمَا فِي (أُنَاسٍ)، خُفِّفت فصارت (ناس).

ومعنى الإله: المأْلُوه، وليست بمعنى آلِهٍ، مِثل غِراس، بمعنى: مَغروس، والبناء بمعنى: مَبني، وفِراش بمعنى: مفروش، وأمثلتها كثيرة.

ومألوه أي: معبودٌ، وسُمِّيَ المعبود مألوهًا؛ لِأَنَّ الْقَلْبَ يَأْلَهُهُ، أي: يَمِيلُ إِلَيْهِ، وتجدون أن (آلِه) مُوافقة فِي الِاشْتِقَاقِ الأصغر لأهل؛ إِذْ إِنَّ فِيهَا الْهَمْزَةَ وَالْهَاءِ واللام، ففي الأُلُوهِيَّة -وهي العبادة- نَوْعٌ مِنَ التَّأَهُّلِ والاطمئنان؛ لأن الآلِهَ له مطمئن إليه.

قال المتكلمون: إنَّ الإله بمعنى الآلِه، أي: الْقَادِرُ عَلَى الاختراع، يعني: الْقَادِرُ عَلَى الْخَلْقِ، لكنهم يستخدمون تعبيرات فلسفية: الْقَادِرُ عَلَى الْخَلْقِ، فلو فسَّرنا الإله

بمعنى: الْقَادِرِ عَلَى الْخَلْقِ، لكان المشركون الَّذِينَ قَاتَلَهُمُ النبي ﷺ مُوَحِّدين؛ لِأَنَّهُمْ يَقُولُونَ: لا خالقَ، ولا قادِرَ عَلَى الْخَلْقِ إِلَّا اللهُ، ولا رَيْبَ أَنَّ هَـذَا يُؤَدِّي إِلَى إِبْطَالِ الرِّسالَة والتوحيد.

ومِن ثَمَّ نعلم خطأ بعضِ المؤلفين الْآنَ فِي التَّوْحِيدِ، حيث يُرَكِّزون عَلَى تَوْحِيدِ الربوبية، ويتناسَوْن توحيد الأُلُوهِيَّة، وَهَذَا خَطَأٌ عَظِيمٌ؛ لأَنَّ التوحيد ليس الإقرارَ بالخالق، والاعترافَ بِهِ فَقَطْ؛ إِذْ إِنَّ هَذَا حاصِلٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ استباح النَّبِيُّ ﷺ دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ، لكن الإله بمعنى: المعبود، وَهُوَ أَمْرٌ فوق القادِر، أو الخالق.

وَقَوْلُهُ تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لما قَرَّر أُلُوهِيَّته بصيغة الجُملة الاسمية ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ﴾، وطرفاها مَعرِفتان، والمعـروف عند البلاغيين أن الجُملة الاسميـة إِذَا كَانَ طرفاها معرفة؛ فإِنَّهَا تُفِيدُ الحصر، وأَكَّد ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، فهـذا حصرٌ أيضًا للأُلُوهِيَّة فِي اللهِ وحدَهُ، فليس معه إلهٌ، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ﴾ [المؤمنون:٩١]، فَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ الإله هو المعبود الَّذِي يَخْلُقُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ﴾.

ولا تظُنَّ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ تُؤَيِّد تفسير المتكلمين لَمَّا قَالَ: ﴿لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ﴾، فَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بالإله الخالِقُ، وإِلَّا لَقَالَ: لذهب كل إله بمَن عبدَهُ. وَلَكِنْ لِأَنَّهُ لَمَّا كَانَ الإلهُ الْحَقُّ هُوَ الْإِلَهُ الخالق، قال: ﴿لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ﴾.

والحصـر فِي قَوْلِهِ: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ حقيقي، وقد يشتبـه عَلَى بَعْضِ الناس، فيقول: إنه إضافيٌّ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ هَذَا الحصرَ إذا جعلناه حقيقيًّا يُشْكِلُ عَلَيْهِ كثيرًا أَنَّ اللهَ أثبَتَ آلهةً سِواهُ؛ حَيْـثُ قَالَ: ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ [هود:١٠١]، وَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَنْ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ قَالَ لِقَوْمِـهِ: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ

﴿ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ [الصافات:٨٦]، وكذلك الكافِرُون، قالوا لِلرَّسُولِ ﷺ: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص:٥]، فيظن الظانُّ أنَّنا لَا يُمْكِنُ أَنْ نَجْمَع بَيْنَ هَـذِهِ الْآيَةِ، وَبَيْنَ إثبات الأُلُوهِيَّة للأصنام إِلَّا إِذَا جعلنا الحصرَ إضافيًّا، فنُثبت الأُلُوهِيَّة لَكِنْ عَلَى وَجْهٍ آخَرَ، ويكون النفي هُنَا عَلَى وَجْهٍ آخَرَ مُخَالِفٍ لِمَا أثبتناه.

فَنَقُولُ فِي ذَلِكَ: أصلُ الإله حقًّا هُوَ الْخَالِقُ، الإلهُ الحقُّ هُوَ الْخَالِقُ، وأما هَذِهِ الْآلِهَةُ التي عُبِدَت مِنْ دُونِ اللهِ فَهِيَ آلهةٌ باطلة كَذِب، وَلِهَذَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ ﷺ: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً﴾، فَجَعَلَ ذَلِكَ إفكًا، وَلَيْسَ بِحَقِيقَةٍ، فهي -وَإِنْ عُبِدَت وأُلِّهت- ليست بآلهة.

ولهذا تجدون أَنَّ الرُّسُلَ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِمْ وَسَلَّمَ- كُلٌّ مِنْهُمْ يقول لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [المؤمنون:٣٢]، أي: مِنْ إِلَهٍ يُعبد ويستحِقُّ أَنْ يُعْبَدَ بِحَقٍّ سِوى اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

وَقَالَ تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء:٩٨-٩٩]، وآلهة أي: معبودة بحق، وإلا أثبت اللهُ لَهَا العبادة.

وعلى هذا نقول: إنَّ الْجَمْعَ بَيْنَ هَذَا الحصر، وَبَيْنَ مَا ذُكِرَ مِن إثبات الأُلُوهِيَّة للأصنام هُوَ أَنَّ الإلهَ هو المعبودُ بحقٍّ، وَهَذَا لَا ينطبِقُ إِلَّا عَلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَأَمَّا مَا عُبِدَ بِغَيْرِ حَقٍّ، فَهُوَ وَإِنْ سُمِّيَ إِلَهًا، لَكِنَّهُ لَا يَسْتَحِقُّ أَنْ يَكُونَ إِلَهًا، وَكَمَا قَالَ اللهُ: ﴿لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء:٩٩].

وقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا بُدَّ للضمير مِن مَرْجِعٍ مَذكور، أو ملفوظ يَعُودُ إِلَيْهِ: مذكور مثل: اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، أو ملفوظ مثل: أَنْ تَأْتِيَ شَيْئًا مِن أَفْعَالِ اللهِ، فتقول: لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ.

وَأَمَّا قَوْلُكَ: لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ فيصح؛ لأنك تُخَاطِب اللهَ، فهو متعين، وَإِنَّمَا قُلْنَا لَا بُدَّ لقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ مِن مَرجع لمخالَفَة الصوفيـة، الَّذِينَ يَقُولُونَ: لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ. فهم يُعيدونه فيقولون: (هو، هو، هو، هو) إِلَى آخِرِهِ، فَيَعْبُدُونَ اللهَ بلفظٍ، ويذكرون اللهَ بلفظ الضَّمير فقط، ويحذفون ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فيقولون: (هو، هو، هو)، فإذا وَجَدْتَهُمْ فِي مجتمعاتهم وهُم يَهُزُّون الرءوس، ويَضْرِبون الطُّبول، ويُغَبِّرُون بالأصوات، ويقولون: (هو، هو).

قَوْلُه تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ﴾: ﴿لَهُ﴾ الجارُّ والمجرور خبرٌ مقدَّم، وتقديم ما حقُّه التأخير يُفيد الحَصر، فقوله: ﴿لَهُ﴾ أي: لَهُ وَحْدَهُ.

قَوْلُه تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾، أما غَيْرُهُ، فَلَيْسَ لَهُ الحمد الَّذِي يَسْتَحِقُّهُ اللهُ؛ لَا فِي الْأُولَى، وَلَا فِي الْآخِرَةِ، وقوله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾: (ال) هذه للاستغراق، أي: جَمِيع أَنْوَاعِ الحمد، وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهِ مِنْ خَيْرٍ، أَوْ شَرٍّ، فَاللهُ تعالى لَهُ الحمد كُلُّه، فَهُوَ الَّذِي لَا يُحْمَد عَلَى سُوءٍ سِواه، يُحمَد عَلَى كُلِّ حَالٍ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «الحَمْدُ للهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ»[1].

وقوله: ﴿لَهُ﴾ اللام هنا هي للاخْتِصاص وللاسْتِحقاق، فالحمدُ المطلَق مُخْتَصٌّ بِاللهِ، وَالْمُسْتَحِقُّ لِلْحَمْدِ حَقِيقَةً هُوَ اللهُ؛ لِأَنَّ غَيْرَهُ -وإِنِ اسْتَحَقَّ أَنْ يُحْمَدَ- فإنما أَتى بِهِ مِنْ أَسْبَابِ الْحَمْدِ هُوَ مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وغاية مَا يَكُونُ أَنْ يَكُونَ وسيلة، فالإنسان -مثلًا- يُحمد عَلَى مَا لَهُ مِنَ الصِّفَاتِ الكاملة، وَالْإِحْسَانِ إِلَى الْخَلْقِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، لَكِنْ هَذَا مِنَ اللهِ.

إذن: فالحمد حقيقةً لله، فالذي يَسْتَحِقُّ الْحَمْدَ هُوَ اللهُ، وَالَّذِي يَخْتَصُّ بالحمد

---

(١) أخرجه ابن ماجه: كتاب الأدب، باب فضل الحامدين، رقم (٣٨٠٣).

الْمُطْلَقِ عَلَى جَمِيعِ الْأَحْوَالِ هُوَ اللهُ سُبْحَانَهُ.

قوله: ﴿فِي ٱلْأُولَىٰ﴾ أي: الدُّنيا، يُحمد فِي الدُّنْيَا عَلَى مَا أجراه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ مِنْ أَحْكَامٍ كونية، وما شرَعه مِنْ أَحْكَامٍ شرعية؛ يُحمد عليها حمدًا كاملًا.

قَوْلُه تعالى: ﴿وَٱلْأَخِرَةِ﴾: قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [الجَنَّة]، وَلَيْسَ كَذَلِكَ، فالآخرة تشمل مُنذ أَنْ يُبْعَثَ النَّاسُ إِلَى أَنْ يَصِلُوا إلى منازلهم؛ فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يُحمد، بَلْ إِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يفتح عَلَى نَبِيِّهِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ مِنَ المَحَامِدِ مَا لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَيْهِ مِنْ قَبْلُ(١)، وَهُوَ عَزَّوَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يظهر حمدُه لِكُلِّ أَحَدٍ؛ فإنه يَظهَر عدلُه، ويظهر فضلُه وإحسانُه، وتَظهر حكمتُه، وتَظهر قُدرتُه، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الصِّفَاتِ العظيمةِ الَّتِي تَظْهَرُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، ويستحق عليها الحمدُ.

فليس المَعْنَى أَنَّهُ لَا يُحمَد إِلَّا فِي الجَنَّةِ، فهذا قُصور جِدًّا مِن المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ وَاللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يقول: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْأَخِرَةِ﴾.

وَقَدْ ثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ يَسْتَأْذِنُ مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ فِي الشَّفَاعَةِ، ويسجد تَحْتَ الْعَرْشِ فيفتَح اللهُ عَلَيْهِ مِنَ المَحَامِدِ مَا لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَيْهِ مِنْ قِبَلُ(٢)، وهذا قَبْلَ دُخُولِ الجنة، بل قَبْلَ أَنْ يُحَاسَبَ الخَلق.

قَوْلُه تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ اللام فِي قَوْلِهِ: ﴿لَهُ﴾ خبرٌ مُقَدَّم، وتقديم الخبر يُفيد الحَصر، قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [القَضَاءُ النَّافِذُ فِي كُلِّ شَيْءٍ]، والحُكم يشمل القضاء،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء:٣]، رقم (٤٧١٢)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، رقم (١٩٤).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾، رقم (٤٤٧٦)، ومسلم كتاب: الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، رقم (١٩٣).

وَهُوَ الْحُكْمُ الكوني، كَمَا قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ويشمل الْحُكْمَ الشَّرْعِيَّ.

فالحُكم لله قضاءً وشرعًا، لا حاكِم إِلَّا اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فَمَنِ ابْتَغَى الْحُكْمَ مِنْ غَيْرِ اللهِ؛ فإنه يَضِلُّ، ومَنِ اتَّبع هُدَى اللهِ، فَإِنَّهُ لَا يَضِلُّ، ولا يَشْقَى.

وتقديم الخبر يُفيد الحصرَ؛ لِأَنَّ الْحُكْمَ للهِ وَحْدَهُ، وَهُوَ كَذَلِكَ إِذَا كَانَ المُرَادُ الحكمَ المطلَقَ، فالحُكم المطلق للهِ لَا يُشَارِكُهُ فِيهِ أَحَدٌ، هُوَ الَّذِي يُوجِبُ الشَّيْءَ ويُحَرِّمه، ويَنْدُب إليه ويُبيحه، وَكَذَلِكَ فِي الْأُمُورِ الكونية، هُوَ الَّذِي يُنزِّل الغيْثَ، وَهُوَ الَّذِي يُزيل القَحْطَ، وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ويرزق، كُلُّ هَذَا مِنَ الْأَحْكَامِ الكونية.

ولكن الإنسان نازَعَ رَبَّهُ فِي الْحُكْمِ الكوني، وَفِي الْحُكْمِ الشَّرْعِيِّ، فهناك -مثلًا- مَنْ أَثْبَتَ مَعَ اللهِ خالِقًا آخر، وهناك مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ رَبٌّ يتصرف كَمَا يَشَاءُ، والمخالفات فِي الْحُكْمِ الشَّرْعِيِّ أكثرُ وأبلَغُ، فما أكثرَ الذين يُشرِّعون، ويَرَوْنَ أَنَّ تشريعاتِهم نافِذة كشرعِ الله، أو أعلى، وهؤُلاءِ سَبَق أنهم كفار حَتَّى لَوْ صَلَّوْا وزَكَّوْا وصاموا وحَجُّوا؛ فهم كفار.

وَكَذَلِكَ أَيْضًا مِمَّا يَتَعَلَّقُ بالحُكم مِثل فِرْعَون؛ لأنه نازَعَه فِي الْحُكْمِ القَدَرِيِّ، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص:٣٨]، وقال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات:٢٤].

فالحُكم المُطلَق لله، ولكن هناك حُكمٌ مُقَيَّد، لكنَّه بِأَمْرِ اللهِ، ولهذا نحن نرى فِي كُتُبِ أَهْلِ الْعِلْمِ أنهم يَذْهَبُونَ إِلَى الْحَاكِمِ، ويقال: الحاكم الشرعي، وبإذن الحاكم، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، هَذَا الْحُكْمُ الَّذِي يستفيده هذا الإنسان مُقَيَّد ومحصور؛ مُقَيَّد بِأَنْ يَكُونَ تحتَ حُكْمِ اللهِ، ومحصورٌ فِي مَكَانٍ مُعَيَّن، وَفِي زَمَنٍ مُعَيَّن.

فإذن: الحُكم المُطلق لله عَزَّوَجَلَّ فِي الدُّنْيَا، وَفِي الْآخِرَةِ.

وَأَمَّا الْحُكْمُ الْمُقَيَّد، فهذا يَكُونُ لِغَيْرِ اللهِ، مِثْلُ مَا يقوله العلماء: الحاكم الشرعي، ويَحْكُم بينهم الحاكم، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

فهَذَا الْحُكْمُ مُقَيَّدٌ فِي زَمَانِهِ، ومكانه، ونَوْعِه، أَمَّا فِي الزَّمَانِ، فَمَعْلُومٌ أَنَّهُ مُقيَّد، لكن الحاكم الشَّرْعِيُّ لَا يَبْقَى أَبَدَ الآبِدِين، بَلْ هُوَ فِي مَكَانِهِ، لَا يَحْكُمُ إِلَّا فِي بُقْعَةٍ مِنَ الْأَرْضِ، وَلَا يَحْكُمُ فِي الْأَرْضِ، وَلَا فِي السَّمَاءِ.

وفي نوعه؛ لأنه مُقَيَّدٌ بِأَنْ يَكُونَ تحت حُكْمِ اللهِ، فَلَا يَمْلِكُ أَنْ يُغَيِّرَ شَيْئًا مِنْ أحكام اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قَوْلُه تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، قوله: ﴿إِلَيْهِ﴾ تَقَدَّمَ عَلَى: ﴿تُرْجَعُونَ﴾، وتقديمُ المعمول يَدُلُّ عَلَى الحصر، فالرُّجوع إِلَى اللهِ مَهْمَا طالت الدُّنيا، ومَهْمَا بَعُد الإنسانُ، وَمَهْمَا كَانَ الإنسان أيضًا؛ فإنَّ مَرْجِعَه إِلَى اللهِ.

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ بِالنُّشُورِ]، والنُّشور يَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فكلُّ الخلائق مَرْجِعُهَا إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حيث يُحشر كُلُّ شَيْءٍ، حتى النَّمل، حَتَّى يَتَبَيَّنَ أَنَّ الْأَمْر كله مَرْجِعُهُ إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: إثبات أُلُوهِيَّة الله.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: انفرادُه بالأُلُوهِيَّة؛ لقوله: ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

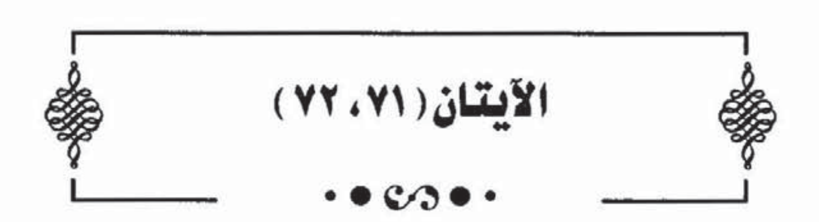
الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: اختِصَاص اللهِ تعالى بالحمدِ الْمُطْلَقِ؛ لقوله: ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ﴾، الحمد المطلق الشامل للدنيا والآخرة.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: ظُهور كَمـال صِفات اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؛ لأن الحمدَ وصفُ المحمودِ بالكمالِ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: اختصاص اللهِ تعالى بالحُكم، وأنه وحدَه هو الحاكمُ؛ لقوله: ﴿وَلَهُ ٱلْحُكْمُ﴾، وَمَا ذُكِرَ مِنْ إِثْبَاتِ الحُكْمِ لغيره، فَهُوَ أَمْرٌ مُقَيَّد.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إثبات البَعث؛ لقوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

• ● ۞ ● •



الآيتان (٧١، ٧٢)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ۝٧١ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [القَصص:٧١-٧٢].

• • ❁ • •

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قُلْ﴾ لِأَهْلِ مَكَّةَ ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ أَيْ أَخْبِرُونِي ﴿إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا﴾ دَائِمًا ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ بِزَعْمِكُمْ ﴿يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ﴾ نَهَارٍ تَطْلُبُونَ فِيهِ المَعِيشَةَ ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ ذَلِكَ سَمَاعَ تَفَهُّمٍ فَتَرْجِعُونَ عَنِ الإشراك، ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ ﴿أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ بِزَعْمِكُمْ ﴿يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ﴾ تَسْتَرِيحُونَ ﴿فِيهِ﴾ مِنَ التَّعَبِ ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْخَطَأِ فِي الْإِشْرَاكِ فَتَرْجِعُونَ عَنْهُ].

الخِطاب هنا لِلنَّبِيِّ ﷺ، ولكن المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: [لِأَهْلِ مَكَّةَ]، والصَّواب أَنَّهُ عامٌّ لِكُلِّ أَحدٍ.

وقَوْلُه تعالى: ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ فسَّره المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: [أَخْبِرُونِي]، وَهُوَ تَفْسِيرٌ بِالمَعْنَى لَا بِاللَّفْظِ؛ لأن رَأَى مِن الرؤية البَصَرية، والمعنى: أَأبصرتُم ذلك فأخبروني عنه.

ولكن المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ فسَّره وَغَيْرُهُ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ باللازم؛ لِأَنَّ مِن لازِم الرؤية إخبارَ الإنسان عما يَرى.

قوله: ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾: (رأى) تَنْصِبُ مفعولين هنا، مَعَ الْعِلْمِ أَنَّهَا تَكُونُ بَصَرِيَّة؛ المفعولُ الْأَوَّلُ قَدْ يَكُونُ مَوْجُودًا، وَقَدْ يَكُونُ محذوفًا، وَأَكْثَرُ مَا يَأْتِي محذوفًا، قَدْ يَكُونُ مَوْجُودًا، مِثْلَ قَوْلِهِ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ [يونس:٥٩]، فقوله: ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ هو المفعول الأول.

وَقَدْ يَكُونُ محذوفًا مِثْلَ قَوْلِهِ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ [الأحقاف:٤]، هنا المفعول الأول محذوف، والتقدير: أرأيتم حالَكُم، يعني: أَخْبِرُونِي عَنْ حالِكم ماذا يَكُونُ لَوْ أنه حَصَل كَذَا وَكَذَا؟ فالمفعول الأول محذوف، وجملة ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ [القصص:٧١]، فِي مَحِلِّ نَصْبٍ، وهي المفعول الثاني.

قَوْلُه تعالى: ﴿أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا﴾ قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [دائِمًا].

قوله: ﴿جَعَلَ﴾ بمعنى: صَيَّر، فمفعولُها الأول ﴿ٱلَّيْلَ﴾، ومفعولُها الثاني ﴿سَرْمَدًا﴾: إِنْ صَيَّرَ اللهُ عَلَيْكُمُ الليل سرمدًا.

والليلُ مِنْ غُرُوبِ الشَّمْسِ إِلَى طلوعِها، هذا اللَّيْلُ يَعْنِي اختفاء الشَّمْسِ فِي الْأُفُقِ، وظُهورها هُوَ النَّهارُ، والنُّور الذي يَخْلُفُها بَعْدَ الْغُروبِ، أو يَتَقَدَّمُها بَعْدَ الْفَجْرِ، هَذَا مِنْ مُقَدِّمات النهار، أَوْ مِنْ مُؤَخَّراته، وإلا فحقيقة الْأَمْرِ أَنَّ اللَّيْلَ يكون بغروب الشَّمْسِ إِلَى طلوعها.

وقوله: ﴿سَرْمَدًا﴾ قيل: إِنَّ أَصْلَهَا سَرْدًا، والسَّرْد التتابُع، يعني: متتابعًا،

وَعَلَى هَذَا التَّفْسِيرِ، فالميمُ زائدة، ويكون وَزْنُه الصرفيُّ فَعْمَلًا؛ لأن الميمَ زائدة، وقيل: إنَّ الميمَ أصليَّة، وإنها مِن: سَرْمَد إِذَا اسْتمَرَّ، وَعَلَى هَذَا فَيَكُونُ وَزْنُهُ الصرفي: فعللًا؛ لأن الميم أصلية.

والسَّرمد معناه: الدائم المستمر إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، أي: لَوْ كَانَ اللَّيْلُ سرمدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَلَا أحد يَسْتَطِيعُ أَنْ يَأْتِيَ بنهار، بَلْ لَا أَحَدَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُقَدِّمَ النَّهَارَ قَبْلَ وَقْتِهِ، وَلَا أَنْ يُؤَخِّرَه بَعْدَ وقته، فالشمسُ الآن تخرج فِي اثْنَتَيْ عَشْرَةَ دقيقة، فلو اجتمع العالَمُ كُلُّهُ عَلَى أَنْ تَخْرُجَ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ إِلَّا دقيقة، لَمَا استطاعوا، أَوْ عَلَى أَنْ تتأخر إلى اثْنَتَيْ عَشْرَةَ ودقيقة ما استطاعوا أيضًا، أَوْ عَلَى أَنْ يُزَحْزِحُوها قليلًا عن مكانها، ما استطاعوا.

إذن: الَّذِي لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُغَيِّرها -لا زمانًا، ولا مكانًا- لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَجْلِبَها، ويأتيَ بنهار أبدًا.

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ بِزَعْمِكُمْ، ﴿يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ﴾ نَهَارٍ تَطْلُبُونَ فِيهِ المَعِيشَةَ].

قَوْلُه تعالى: ﴿مَنْ﴾ مبتدأ، و﴿إِلَٰهٌ﴾ خبرُه، و﴿غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ صِفَتُه، و﴿يَأْتِيكُمْ﴾ حَالٌ مِنْ ﴿إِلَٰهٌ﴾، أي: أَيُّ إله يأتيكم بضياء؟ يقول الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [عَلَى زَعْمِكُمْ]، هَذَا لَا يَفْطِنُ لَهُ إِلَّا إنسانٌ يفهم اللُّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ؛ لأن ﴿مَنْ﴾ يُسْتفهم بِهَا عَنِ التَّعْيِينِ، فتَقبَل التعدُّد؛ لأن التعيين إنما يُطلب عند التعدُّد، فإذا تعددت الأشياء طُلِب التعيين، فَإِذَا قُلْتُ: مَنْ قَامَ؟ فأنا الآن أُثْبِتُ بهذا الاستفهام أن عَدَدًا مِنَ النَّاسِ قَدْ قَامَ، ولكني أستفهم عن تَعْيِين هذا القائم، فَإِذَا قُلْنَا ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ فهل معناه: أَنَّ هُنَاكَ آلهةً، والمطلوب التعيين، فعَيِّنوا لي الْإِلَهَ الَّذِي يأتيكم؟

الجواب: أن هَذَا لَيْسَ حقيقيًّا، وَلِهَذَا قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [بِزَعْمِكُمْ]، يعني: إِذَا كُنْتُمْ تزعمون أَنَّ هُنَاكَ آلهة فمَن الْإِلَهُ الَّذِي يأتيكم بضياء؟ وَيَكُونُ هَذَا أَبْلَغَ فِي التحدي، لَوْ قَالَ: هل إلهٌ غَيْرُ اللهِ؟ صار هنا الاستفهامُ عَنْ وُجُودِ إله، لَا عَنْ تعيينه، لكن الاستفهام عن تعيينه أَبْلَغُ فِي التحدي، أي: حتى على زعمكم أَنَّ هَذِهِ آلهة؛ فإننا نتحدَّاكُم: أين الْإِلَهُ الَّذِي يَأْتِي بِهَذَا الشَّيْء؟ إذا قُلتم: وَاللهِ مَا عِنْدَنَا أَحَدٌ مِنَ الْآلِهَةِ يَفْعَلُ هَذَا، تَبَيَّنَ أَنَّ أُلُوهِيَّتَها باطلة؛ لأن الإله لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ قَادِرًا، سميعًا، بصيرًا، إِلَى آخِرِ الصفات الكاملة.

قَوْلُه تعالى: ﴿يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ﴾ الباء هنا للتعدِيَة، يعني: يجلب إليكم الضياء، وقال: ﴿بِضِيَآءٍ﴾؛ لأنه علامةُ النهار، بَلْ إِنَّهُ هُوَ النَّهَارُ في الواقع؛ إما علامته، أَوْ هُوَ النَّهَارُ.

قَوْلُه تعالى: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [ذَلِكَ سَمَاعُ تَفَهُّمٍ، فَتَرْجِعُونَ عَنِ الإِشْرَاكِ].

قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ يعني: أَصُمَّتْ آذانُكم، فلا تسمعون؟ والمراد بالاستفهام هنا سمعُ التَّفَهُّم الذي يَرْتَدِع بِهِ الْمَرْءُ عن غيِّه، أما المجرد -يعني سمع الإدراك- فَهُوَ الَّذِي لَيْسَ فِيهِ سمع.

هنا قد يَقُولُ قَائِلٌ: لماذا لَمْ يَقُلْ: أَفَلَا تُبْصِرُونَ؛ لأنَّ الإبصار فِي النَّهَارِ أظهرُ؛ بَلْ قَالَ: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾؟

نقول: لأنه تَبيِينٌ لقوله: ﴿عَلَيْكُمُ الَّيْلَ سَرْمَدًا﴾ والليل مَحَلُّ سَمْعٍ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾، وليس تبيينًا عَلَى آخرِ الْآيَةِ ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ﴾،

فهو تبيين عَلَى أَوَّلِ الْآيَةِ، والمعنى: أَنَّكُمْ لَا تسمعون سمعًا تستفيدون منه؛ لِأَنَّ اللَّيْلَ هُوَ مَحَلُّ السَّمْعِ، وَلَيْسَ مَحَلَّ الرؤيا.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: تحدي هؤُلاءِ الْمُشْرِكِينَ أَنْ تَكُونَ أصنامُهم جالِبةً للخير، أو دافعةً للشر.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: بيانُ قُدرة اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ حَيْثُ لَا يُعْجِزُهُ أَنْ يَجْعَلَ الليل سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: تذكير العِباد بنعمة الله؛ فإن الأشياء إنما تتبين بِضِدِّها.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يُغَيِّرَ سُنَّةَ اللهِ فِي الكون، فلو جَعَلَهُ سَرْمَدًا، ما استطاع أَحَدٌ أَنْ يُزِيلَهُ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: الحَثُّ عَلَى سَمَاعِ مَا يُتْلَى مِنْ كِتَابِ اللهِ سَمْعَ تَفَهُّمٍ وقَبُول؛ لِقَوْلِهِ تعالى: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: بيان نِعْمَةِ اللهِ عَلَى الْعِبَادِ بضِياء النهار، فكَم تستهلك الْأُمَّةُ مِنْ طاقة فِي إضاءة اللَّيْلِ الَّذِي لَا يَكُونُ مِثْلَ إضاءة النهار، وبهذا نعرف قَدْر نعمة اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بهذا الضِّيَاءِ الَّذِي يَصِلُ إِلَى النَّاسِ بكميات كبيرة.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: بيانُ نعمةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

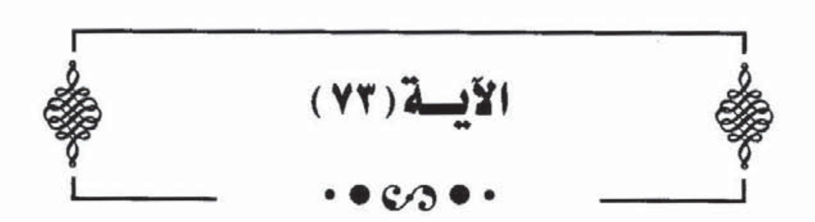
الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: بيان نِعْمَةِ اللهِ تعالى فِي اللَّيْلِ، الَّذِي جَعَلَهُ سكنًا؛ لقوله: ﴿بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أنَّ نَوْمَ اللَّيْلِ أَفْيَدُ للجسم مِنْ نَوْمِ النهار، حَيْثُ جَعَلَ اللهُ الليلَ محل سَكن ووقته، وَهَذَا أَمْرٌ مُشاهَد.

الْفَائِدَةُ العَاشِرَةُ: الحَثُّ عَلَى التبصُّر فِي آيَاتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لقوله: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾؛ لِأَنَّ هَذَا يُفِيدُ حَثَّ الْإِنْسَانِ أَنْ يتبصر فِيمَا جَعَلَهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ؛ حتى يُسْتَدَلَّ بِهَا عَلَى كَمَالِ قُدرة الخالق.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: الليل أنفعُ للبَدن مِنَ النَّهَارِ، ففي نَوْمِ اللَّيْلِ سُكون، بخلاف نَوْمِ النَّهَارِ، فالإنسان يُحِسُّ بالراحة لَكِنْ لَيْسَ كالليل.

• • ۞ • •



۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القَصص:٧٣].

•●○●•

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ تعَالَى ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ﴾ فِي اللَّيْلِ ﴿وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ فِي النَّهَارِ لِلْكَسْبِ ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ النِّعْمَةَ فِيهِمَا].

قوله تعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ﴾ أي: جعل الوقوع متعلقًا بقوله: ﴿جَعَلَ﴾، يعني: وَجَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ مِنْ رَحْمَتِهِ.

وقوله: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ﴾: ﴿مِن﴾ هنا للسببية، أي: بسبب رحمته، وما اتَّصَفَ بِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مِنَ الرَّحمَة، والرَّحمَة صفةٌ حقيقيةٌ ثابتة للهِ عَزَّوَجَلَّ، وَهِيَ غَيْرُ إرادةِ الإنعام، وغيرُ الإنعام.

فأهلُ السُّنة والجماعة يقولون: إن الرَّحمَةَ صِفة حقيقية ثابتة للهِ عَزَّوَجَلَّ، لَا تُشْبِهُ رحمةَ المخلوقِ.

وأما الأشاعرةُ فيُحرِّفون مَعْنَى الرَّحْمَةِ إِلَى أَنَّهَا الإنعامُ أَوْ إِرادَةُ الإنعام، فيُفَسِّرونها بِالْفِعْلِ، وَهُوَ الإنعام، أَوْ إِرَادَتِهِ؛ لأنهم يُثبتون الإرادة، وهي صِفة معنوية، وقد مَرَّ علينا أَنَّهُمْ لَا يُثْبِتُونَ مِنَ الصِّفَاتِ إِلَّا سَبْعَ صفات؛ منها: الإرادة، فيفسِّرون الرَّحمَة بإرادة الإنعام؛ لِأَنَّ الْإِرَادَةَ دَلَّ عليها السمع والعقل، وَهُمْ لَا يُثْبِتُونَ مِنْ صِفَاتِ اللهِ

إِلَّا مَا دَلَّ عَلَيْهِ الْعَقْلُ، فَأَمَّا مَا لَمْ يَدُلَّ عَلَيْهِ الْعَقْلُ أَوَّلوه.

ولكننا نَقُولُ: هَـذَا التَّأْوِيلُ هُوَ تحريـف، لكن أين دَلِيلُ الْعَقْلِ عَلَى الْإِرَادَةِ؟ يقولون: إنَّ العقل يَدُلُّ عَلَى الْإِرَادَةِ بواسطة تخصيص المخلوقات، فَكُلُّ شَيْءٍ مِنَ المخلوقات خُصِّص بشيء، هَذَا أَرَادَ اللهُ أَنْ يَكُونَ قاسيًا، فصار قاسيًا، وَهَذَا يَكُونُ لَيِّنًا فصار لَيِّنًا، وَهَذَا يَكُونُ طَوِيلًا، فيكون طويلًا، وهذا قصير، فيكون قصيرًا، إِلَى آخِرِهِ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى إِرَادَةٍ، أي: إن الْأَمْرَ لَا يَخْلُو مِن إرادة.

وبالنسبـة للرحمة قالوا: نُؤوِّلها، لأن الرَّحمَة عِبَارَةٌ عَنِ رِقَّة تعتـري القلـب، وتُوجِب الْحُنُوَّ عَلَى المرحوم.

فَنَقُولُ لَهُمْ: هذه الرَّحمَة التي ذكرتُم إِنَّمَا هِيَ رحمةُ المخلوقين، ونحن نُثبـت لله رحمةً لَا تُشْبِهُ رحمةَ المخلوقيـن، ثم إننا نستدلُّ على الرَّحمَة بالعَقل كما استدللتم عَلَى الْإِرَادَةِ بالعقل، فكَم للهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَلَيْنَا مِنْ نِعَمٍ لَا تُعَدُّ ولا تُحصى، وكَم للهِ تعالى مِن تفريج كُرُبَاتٍ لَا تُعَدُّ، ولا تُحصى.

والأمر المقتضي لِهَذِهِ الْأَشْيَاءِ لجلب النِّعَم، ودَفْعِ النِّقَمِ هو الرَّحمَة؛ لأن القاسِيَ الَّذِي لَا يرحَم لا يجلب النِّعْمَةَ، وَلَا يَدْفَعُ النِّقْمَةَ.

فإذن: الاستدلالُ بالحوادث الَّتِي فِيهَا جلبُ النعم، ودفعُ النِّقَم أظهرُ وأبينُ مِنَ الاِسْتِدْلَالِ بالتَّخصيص عَلَى الْإِرَادَةِ؛ لأن دَلَالَةَ التَّخْصِيصِ عَلَى الْإِرَادَةِ لَا يَفْهَمُهَا إِلَّا أفـرادٌ مِنَ النَّاسِ، لكن دلالة جَلْـبِ المَنَافِعِ، وَدَفْعِ النِّقَم على الرَّحـمَـة كلُّ الناس يفهمونها، حتى الْعَامِّيّ فِي سُوقه إِذَا رَأَى رَجُلًا قاسيًا عَلَى أَوْلَادِهِ -مثلًا- قال: هَذَا لَيْسَ فِي قَلْبِهِ رحمة. وَإِذَا رَأَى أَنَّهُ -مثلًا- دائمًا يجلـب لهم الخير، ويدفع عنهم الشَّرَّ، قال: هذا إنسان رحيم.

فإذن: دَلالة الْعَقْلِ عَلَى الرَّحمَة أَقْوَى مِن دَلَالَتِـهِ عَلَى الْإِرَادَةِ، وَمَعَ ذَلِكَ هم يثبتون الإرادة، ولا يثبتون الرَّحمَة، فهنا يقولون: مِنْ رَحْمَتِهِ أي: مِن إنعامه.

قَوْلُه تعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ مِن للسببية، و﴿رَّحْمَتِهِۦ﴾ هي صِفَتُه الَّتِي اتصف بها أزلًا وأبدًا، قَالَ تعالى: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة:١]، وقرن رُبوبيته بذلك فَقَالَ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢]، ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة:٣]، إِشَارَةً إِلَى أَنَّ هَذِهِ الرُّبوبية كُلَّها رُبوبيةُ رحمةٍ، لَا رُبُوبِيَّة انتقام وغِلظةٍ، فكيف نُنكِر هَذِهِ الصِّفَةَ العظيمةَ مِنْ صِفَاتِ الله، ونُثْبِتُ مَا هُوَ دُونها؟! وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى تَنَاقُض المُعَطِّلين مِن الأشعرية والمعتزلة وغيـرهم؛ لأنهم يتناقضون فيُثبتون لله مِنَ الصِّفَاتِ ما يدُّل الْعَقْلُ عَلَى إِثْبَاتِ مَا هُوَ أَوْلَى مِنْهُ، ويُنكرون مِنَ الصِّفَاتِ مَا يَدُلُّ الْعَقْلُ عَلَى إِثْبَاتِهَا.

قَوْلُه تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُمُ﴾، بمعنى: خَلَق، وليست بِمَعْنَى صَيَّرَ، وَلِهَذَا لَمْ تنصب مفعولين.

قَوْلُه تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ أي: ليلٌ ونهارٌ يتعاقبان بَيْنَكُمْ عَلَى النَّاسِ.

قَوْلُه تعالى: ﴿لِتَسْكُنُواْ فِيهِ﴾ قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فِي اللَّيْلِ، ﴿وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ فِي النَّهَارِ مِنْ كَسْبٍ].

قوله: ﴿لِتَسْكُنُواْ فِيهِ﴾ اللام للتَّعليل، أي: لِأَجْلِ أَنْ تَسكنوا فيه، وَلَا يَلْزَمُ مِنْ وُجُودِ المعلول وُجُودِ الْعِلَّةِ إِذَا لَمْ تَكُنِ العلة مؤثِّرة، مِثْل قَوْلِهِ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]، فهَذِهِ عِلَّةٌ غائيَّة، والعِلة الغائيَّة لَا يَلْزَمُ مِنْ وُجُودِ المعلولِ وجودُها، فَلَا يَلْزَمُ مِنَ الخَلق وُجود العبادة.

فمَثلًا: قد يَكُونُ هُنَاكَ بَعْضُ النَّاسِ لَا يسكنون فِي اللَّيْلِ، فرَجُل مَعاشُه بالليل

كالحُرَّاس، وآخَرُ لَهْوُه بالليل، كأصحاب البَطَالة الذين ينامون النهار، ويسهرون الليل، ولكن وجود المعلول إِذَا كَانَتِ العلة غائيةً، فلَا يَلْزَمُ مِنْهُ وجودُ العلةِ، كَمَا لَوْ قُلْتُ: قدَّمْتُ لك هذه البعير لتركب عليه، فقَدْ تركب، وَقَدْ لَا تركب، أو أعطيتُك القَلَمَ لِتكتبَ به، فربما تكتب، وربما لَا تَكْتُبُ.

وقوله تعالى: ﴿لِتَسْكُنُواْ فِيهِ﴾ أي: فِي اللَّيْلِ، يعني: تستريحون، ﴿وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ تبتغوا، أي: تطلُبون، وقوله: ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي: مِن عطائه ورزقِه.

وَفِي الْآيَةِ هنا ترتيب ولَفٌّ ونَشْرٌ مُرَتَّب، فقد بدأ بالليل، وقَدَّمَ منفعته السكون، وَهَذَا فِي اللَّيْلِ فِيهِ لَفٌّ ونَشْرٌ مُرَتَّب.

قَوْله تعالى: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾: (لَعَلَّ) هَذِهِ للتَّعلِيل، أَوْ لِأَجْلِ أَنْ تشكُروا اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَلَى نِعْمَتِهِ، فهنا ذَكَرَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ العِلَّتَيْن: الشرعية والقدَرية، أَمَّا القدَرية، فَهِيَ فِي قَوْلِهِ: ﴿لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾، والعِلَّة الشَّرْعِيَّةُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، أي: تشكرون اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْكُمْ مِنْ تعاقب اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ؛ لِأَنَّ الْأَشْيَاءَ تَتبيَّن بِضدِّها، وَلَوْ كَانَ اللَّيْلُ سَرْمَدًا، والنهار سَرْمَدًا، ما استراح أحدٌ بِلَيْل، ولا ابتغى الفضل بالنهار، ولكنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ جعلَ ذَلِكَ لِأَجْلِ الراحة، مَعَ أَنَّ هُنَاكَ فوائدَ أُخرَى غَيْرَ ذَلِكَ ذَكَرَهَا فِي سُورَةِ الْفُرْقَانِ، قَالَ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةً لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان:٦٢]، وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «**إِنَّ اللهَ يَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ، وَبِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ**»[1].

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب التوبة، باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب والتوبة، رقم (٢٧٥٩).

فالحاصِلُ: أَنَّ فِي تعاقُب اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ فوائدَ عظيمةً تستوجب أن نَشْكُرَ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عليها.

واعْلَمْ أَنَّ الشكر يكون بِالْقَلْبِ وَاللِّسَانِ والجوارح؛ أما الشُّكر بالقلب فَهُوَ أَنْ يعترف الإنسانُ بِقَلْبِه بِأَنَّ هَـذِهِ النِّعَمَ مِن اللهِ عَزَّوَجَلَّ وَحْدَهُ، يعترف اعترافًا كاملًا، حتى لَوْ أَنَّ هَذِهِ النِّعَمَ جاءت عَنْ سَبَبٍ، فليعتقد أَنَّ السَّبَبَ مِنَ اللهِ، وَهُوَ الَّذِي أوجده، فحَصَلَتْ بِهِ هَذِهِ النِّعَمُ.

وأما الشُّكر باللسان، فإنه الثَّنَاءُ عَلَى اللهِ تعالى بِمَا يستحِق، سَوَاءٌ عَلَى هَـذِهِ النِّعْمَةِ، أَوْ غَيْرِهَا، وَكُلُّ ذَلِكَ دَاخِلٌ فِي الشكر.

وَعَلَى هَذَا، فقول الإنسان: سبحان اللهِ، وَالْحَمْدُ لله، وَاللهُ أَكْبَرُ. يُعتبر شكرًا، وقوله حينما يأكل طَعَامًا أَوْ يشرب شرابًا: الحمد لله يعني: عَلَى هَذَا الطَّعَامَ أَوِ الشراب، يُعتبر أَيْضًا مِنَ الشكر.

أما الثالث -وَهُوَ الجوارح- فَهُوَ أَنْ يقوم الإنسان بِطَاعَةِ اللهِ، سواء تتعلق بهذه النعمة أَمْ لَا، فيستعين بهذه النعمة عَلَى طَاعَتِهِ، أَوْ يَفْعَلَ الطاعةَ الَّتِي لَا تَتَعَلَّقُ بهذه النعمةِ، قَالَ الشَّاعِر[1]:

أَفَـادَتْكُمُ الـنَّعْمَاءُ مِنِّـي ثَلَاثَـةً ... يَدِي وَلِسَانِي وَالضَّـمِيرَ الْمُحَجَّبَـا

فالشُّكر بالجوارِحِ فِي قَوْلِهِ: يدي. والشكر باللسان فِي قَوْلِهِ: ولساني: والشكر بالقلب فِي قَوْلِهِ: الضَّمير المحجبا.

إِذَا قَالَ قَائِلٌ: ذكرتُم أن الشكرَ باللسان هو الثَّنَاءُ عَلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، سَوَاءٌ

---

(١) البيت في الفائق في غريب الحديث، للزمخشري (١/ ٣١٤) بلا نسبة.

كَانَ يَتَعَلَّقُ بِهَذِهِ النعمة، أَوْ بِغَيْرِهَا، فَهَلْ يَدْخُلُ فِي هَذَا قَوْلُهُ تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى:١١]؟

نقوله له: نعم، هَذِهِ الْآيَةُ تَدْخُلُ فِي هَذَا.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: هل يوجب هذا الافتخارَ؟

قلنا: لا، لَيْسَ هَذَا عَلَى سَبِيلِ الافتخار، بَلْ هُوَ عَلَى سَبِيلِ التواضع لله، وَأَنَّ هَذِهِ النِّعَمَ مِن اللهِ، كَمَا قَالَ الرَّسُول ﷺ: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ»(١).

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: الرَّحمَة صفة حقيقية ثابتة لله عَلَى وَجْهِ الكمال، ولا تُشبه رحمة المخلوقين.

فمثلًا: إِذَا قِيلَ: إِنَّ الرَّحمَة تقتضي الضعف والرِّقَّة، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

قلنا: هذا بالنِّسبة للمخلوق، أما في حق الله -سبحانه- فله رحمة حقيقية لَا تُشْبِهُ رحمة المخلوق.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: بيان نعمة اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بتعاقُب اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّ اللَّيْلَ للسَّكَن، والنهارَ لطلب المعاش، فقوله: ﴿لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ فِي اللَّيْلِ، وقوله: ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ فِي النَّهَارِ.

وتتفرع عَلَى هَذِهِ المَسْأَلَةِ فائدة: وَهِيَ مَا ذَكَرَهُ الأصحاب رَحِمَهُمُ اللَّهُ فِي الْقِسْمَةِ بين

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الفضائل، باب تفضيل نبينا ﷺ على جميع الخلائق، رقم (٢٢٧٨).

الزوجتين، إِذَا كَانَتْ للإنسان زوجتان، وَأَرَادَ أَنْ يَقْسِمَ بينهما؛ فَإِنَّ مَدَارَ القَسْم عَلَى اللَّيْلِ لمن مَعاشُه فِي النَّهَارِ، والنهارِ لمن مَعاشُه فِي اللَّيْلِ، فإذا أشكل علينا الأمرُ، فالعِماد هُوَ اللَّيْلُ؛ لِأَنَّهُ محَلُّ السكن.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّ اللَّيْلَ هُوَ محَلُّ السكن، والسكون فيه بالنوم والراحة أَفْيَدُ للبَدَن مِنْ ذَلِكَ فِي النَّهَارِ.

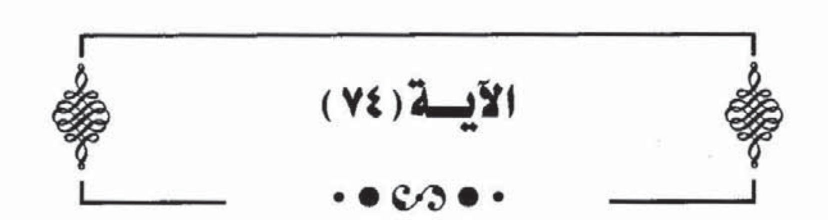
الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إثباتُ الأسباب؛ حَيْثُ قَالَ: ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِۦ﴾ لتطلبوا، فالرزق لَا يَأْتِي مِنَ السَّمَاءِ وينزل، بَلْ لَا بُدَّ فِيهِ مِنْ طَلَبٍ، وإِذَا لَمْ تَفْعَلْ هَذَا السَّبَبَ الَّذِي تَحْصُلُ به على الرزق، لَمْ يَحْصُلِ الرزق؛ لِأَنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى حكيم رَبَطَ الأسبابَ بِمُسَبَّبَاتِها.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أَنَّ الرِّزْقَ مِنَّةٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وفضلٌ وعطاء، وهذا مأخوذ مِنْ قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِۦ﴾، فليس حاصلًا بمجرد كَدِّ الإنسان وكَدْحِه، فَكَمْ مِنْ إنسانٍ يَكَدُّ ويَكْدَحُ، وَمَعَ ذَلِكَ يَكُونُ رزقه ضيقًا! وَكَمْ مِنْ إنسان يفعل أسبابًا أَقَلَّ مِمَّا فَعَلَهُ الأول، ثم يُوَسَّعُ لَهُ فِي الرِّزْقِ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أهمية الشكر، لقوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلْمَرْءِ أَنْ يَكُونَ ذَا بصيرةٍ فيما سَخَّرَ اللهُ لَهُ، حَتَّى يشكُرَ الله عليه؛ فَإِنَّ اللهَ سَخَّرَ لَنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ، فنأخذ مِنْ هَذَا عِبرةً نتوصل بِهَا إِلَى شُكر اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى ذَلِكَ.

• • ❁ • •



الآيــة (٧٤)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القَصَص:٧٤].

•●○●•

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَ﴾ اذْكُرْ ﴿يَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ ذَكَرَ ثَانِيًا لِيَبْنِيَ عَلَيْهِ].

هنا المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ قد أفادنا بتقدير [اذْكُرْ] قَبل الظرف: ﴿وَيَوْمَ﴾.

وقوله ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ أي: اللهُ، وَذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ﴿يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ﴾.

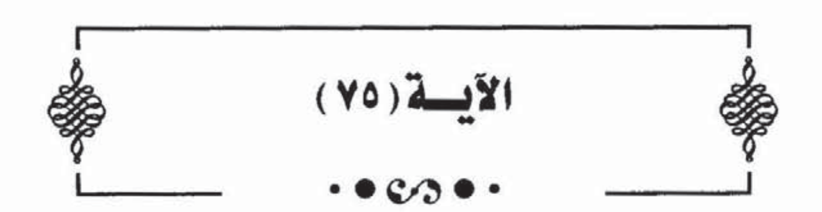
وقد مَرَّ عَلَيْنَا مِثْلُهُ قريبًا، وَهَذَا تَكْرَارٌ للتحذير مِنَ الشِّرْكِ، معناه: اذكر أَيْضًا يَوْمَ النداء مَرَّة.

ومعنى ﴿شُرَكَآءِىَ﴾: الذين جعلتموهم شُركاءَ لِي فِي العِبَادَةِ، فهُم يُقِرُّون بِأَنَّ اللهَ منفرِدٌ بالخَلق والرزق، لَكِنْ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُنْكِرُ ذَلِكَ أَيْضًا وَيَقُولُ: لَا رَبَّ، أَوْ يَقُولُ عَنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ: أَوْجَدَتْها الطبيعة المَحْضَة!

وهَذَا أَيْضًا نَوْعٌ مِنَ الشِّرْكِ، والأول تعطيلٌ محضٌ، فالذي يُنكر الإله مطلقًا هذا مُعطِّل مَحْضٌ، والثاني مشرك.

وقَوْلُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾، قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [ذُكِرَ ثَانِيًا؛ لِيُبْنَى عَلَيْهِ].

•●۞●•



الآية (٧٥)

• • ە • •

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [القصص:٧٥].

• • ە • •

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَنَزَعْنَا﴾ أَخرَجْنا ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ وَهُوَ نَبِيُّهُمْ يَشْهَد عَلَيْهِمْ بِمَا قَالُوا ﴿فَقُلْنَا﴾ لَهُمْ ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ عَلَى مَا قُلْتُمْ مِنَ الْإِشْرَاك ﴿فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ﴾ في الإلهية ﴿لِلَّهِ﴾ لَا يُشَارِكُهُ فِيهَا أَحَدٌ ﴿وَضَلَّ﴾ غَابَ ﴿عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ فِي الدُّنْيَا مِنْ أَنَّ مَعَهُ شَرِيكًا، تَعَالَى عَنْ ذَلِكَ].

قَوْلُه تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا﴾ النَّزْعُ: الإخراج، نَزَعَ الشَّيْءَ مِنَ الشَّيْءِ: أَخْرَجَهُ مِنْهُ.

قَوْلُه تعالى: ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ﴾ المراد بالأُمة هنا الطائفة، ولكنها ليست مجرد الطائفة، بل الطَّائِفَةُ الَّتِي كَانَتْ عَلَى مِنْهَاجٍ واحِدٍ، فَإِذَا كَانَتْ طَائِفَةٌ عَلَى مِنْهَاجٍ وَاحِدٍ فَإِنَّهَا تُسمى أُمَّةً، ولهذا جاءت فيها الميم الدَّالَّةُ عَلَى الْجَمْعِ والاجتماع، فالدولة ذاتُ الأحزاب لَا تكُونُ أُمَّةً في الواقع؛ لأنها مختلفة، لكن الْأُمَّة هِيَ الطَّائِفَةُ الَّتِي اجْتَمَعَتْ عَلَى مِنْهَاجٍ وَاحِدٍ.

فمثلًا: أُمَّةُ الْإِسْلَامِ عَلَى دِينٍ وَاحِدٍ، وأُمَّةُ الْكُفْرِ عَلَى دِينٍ وَاحِدٍ.

وقَوْلُه تعالى: ﴿شَهِيدًا﴾ بمعنى: شاهدًا، ولكنه أتى بصيغة المبالغة، أو بصيغة الصِّفَة الْمُشَبَّهَة باسمِ فاعِلٍ.

والمراد بالشَّهيد -كَما يَقُولُ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ-: [وَهُوَ نَبِيُّهُمْ يَشْهَدُ عَلَيْهِمْ بِمَا قَالُوا]، هَذَا مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ.

وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: المرادُ بالشَّهيد العَرِّيف، أي: الزعيم، ننزعه مِنْ بَيْنِهِم، ثم اسألهم هَذَا السُّؤَالَ المَبْنِيَّ عَلَى التحدي ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾.

وَهَذَا مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ شيخنا عَبْدُ الرَّحْمَنِ فِي تَفْسِيرِهِ[1]، أَنَّ المُرَادَ بالشهيد هنا الْكَبِيرُ مِنَ الأُمَّة، الَّذِي يُعْتَبَرُ بمنزلة العَرِّيف؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْكَبِيرَ مِنَ الأُمَّة نَائِبٌ عَنِ الأُمَّة، وهذا -وَاللهُ أَعْلَمُ- أَقْرَبُ إِلَى الصَّوَابِ.

قَوْلُه تعالى: ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ القائل هُنَا هُوَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ، والبرهان: الدَّليل، أي: هاتوا الدَّلِيلَ عَلَى مَا قُمتم بِهِ مِنَ الإشراك، ولن يجدوا دليلًا.

وقولُه: ﴿هَاتُوا﴾ فِعلُ أَمْرٍ، والمقصود به التحدي؛ لأنهم طلبوا مَا لَا يُمْكِنُ، والتوبيخُ لأنه سوف يَلْحَقُهُمْ مِنَ الخِزْيِ والعار أَمَام النَّاسِ فِي ذَلِكَ المَجْمَعِ مَا لَا يَسْتَطِيعُونَ دَفْعَهُ.

وقوله: ﴿فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ﴾، عَلِمُوا ذلك لَمَّا لَمْ يَأْتُوا بدليل، ولا بُرهان على إشراكهم، عَلِمُوا أَنَّهُ لَا حَقَّ لَهُمْ فِي هَذَا الإشراك، وَأَنَّ الْحَقَّ للهِ وَحْدَهُ، وَأَنَّ هَذِهِ الْأَصْنَامَ لَيْسَ لَهَا حَقٌّ فِي الْعِبَادَةِ، وَأَنَّ الْحَقَّ فِي الْعِبَادَةِ للهِ وَحْدَهُ، وهذا الْعِلْمُ لَا يَنْفَعُهُمْ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ؛ لِأَنَّهُمْ فِي مِثْلِ ذَلِكَ الْيَوْمِ -يوم المُجَازَاة- ينفعهم لو أَنَّهُمْ عَمِلُوا بِهِ فِي الدُّنْيَا، فلو عَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ للهِ فِي الدُّنْيَا، ثُمَّ عَمِلُوا؛ لَكَانَ ذَلِكَ نَافِعًا لهم، أَمَّا بَعْدَ أَنْ شاهَدُوا العذاب، فعلموا أَنَّ الْحَقَّ لله، فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَنْفَعُهُمْ.

---

(١) تفسير السعدي (ص٦٢٣).

ولكن فِيهِ فَائِدَةٌ عظيمة، وهي إِقَامَةُ الحُجَّةِ عَلَيْهِمْ، قَالَ تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ ۝٨ قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ ۝٩ وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك:٨-١٠].

فَالْفَائِدَةُ مِنْ ذَلِكَ كونُهم يَتَحَدَّوْنَ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّ الحَقَّ لله، وأنهم يعرفون أَنَّهُمْ لَمْ يُظْلَمُوا شيئًا.

قَوْلُه تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ﴾ الحَقُّ فِي الأُلُوهِيَّة للهِ لَا يُشَارِكُهُ فِيهِ أَحَدٌ.

قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَضَلَّ﴾ غَابَ ﴿عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ فِي الدُّنْيَا مِنْ أَنَّ مَعَهُ شَرِيكًا، تَعَالَى اللهُ عَنْ ذَلِكَ].

يقول المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إِنَّ (ضَلَّ) بمعنى (غَابَ)، ولكن ضَلَّ أَبْلَغُ مِنْ (غَابَ)؛ لأن (ضَلَّ) يقتضي كأنه أمرٌ مطلوب، ولكنهم عَجَزُوا عنه كالضَّالَّة، فالإنسان إذا ضَلَّ بَعِيرُه -مَثَلًا- أَوْ شاتُه يتطلبها فلا يجدها، وَيَكُونُ ذَلِكَ أَشَدَّ عليه حَسْرَةً، فهُنا قوله: ﴿وَضَلَّ عَنۡهُم﴾ كأنما هُوَ شَيْءٌ مفقودٌ عزيز عليهم، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَتَمَكَّنُوا منه.

وَقَوْلُهُ: ﴿مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾: ﴿مَّا﴾ اسمٌ مَوْصُولٌ فاعِلٌ ﴿وَضَلَّ﴾، والعائِدُ الضَّمير المحذوف فِي قَوْلِهِ: ﴿يَفۡتَرُونَ﴾، أي: مَا كَانُوا يَفْتَرُونَه، وقولُ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فِي الدُّنْيَا]؛ لأن ﴿كَانُواْ﴾ فِعْلٌ مَاضٍ، فما كانوا يفترونه فِي الدُّنْيَا مِن أَنَّ مَعَ اللهِ شريكًا يَضِلُّ عَنْهُمْ هَذَا الشريكُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَقُومُوا ببرهانٍ عليه.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: فِيهَا إِثْبَاتُ البَعْث والحِساب؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَزَعۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدٗا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّ الرُّسُلَ يُسألون يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لكنهم يُسألون تَبْكِيتًا وتوبيخًا لأقوامهم الذين كَذَّبُوهم، هَذَا عَلَى تفسير الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ.

أَمَّا عَلَى التَّفْسِيرِ الثاني، ففيه دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الزُّعماء هُمُ الَّذِينَ يُقامُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ للمناقشة، قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا﴾ [مريم:٦٩].

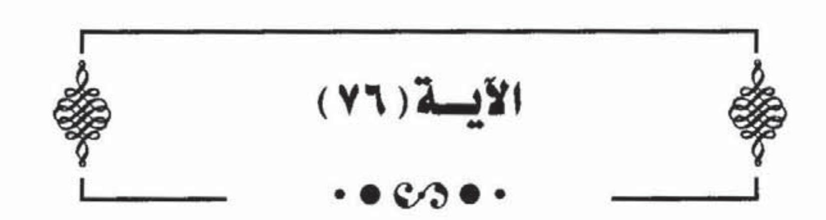
الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: تَبْكِيتُ الْمُشْرِكِينَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ العظيم، حيث يُتَحَدَّوْنَ بِطَلَبِ الدَّلِيلِ عَلَى مَا قَالُوا مِنَ الإشراك.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إذعانُ هؤُلاءِ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَنَّ الْحَقَّ لله، وَلَكِنَّ ذَلِكَ لَا يَنْفَعُهُمْ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّ هَـذِهِ الْأَصْنَامَ لَا تَنْفَعُ عابِدِيها في أَحْوَجِ ما يكونون إليها؛ لقوله: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام:٢٤].

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أَنَّ اتخاذ الْأَصْنَامِ آلهةً مِنَ الِافْتِرَاءِ والكذب، وَيَشْهَدُ لِذَلِكَ قَوْلُ إِبْرَاهِيمَ لقومه: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ [الصافات:٨٦].

• • ۞ • •


الآية (٧٦)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُوْلِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ [القَصص:٧٦].

•••

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾ ابْنُ عَمِّهِ وَابْنُ خَالَتِهِ وَآمَنَ بِهِ ﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ بِالْكِبْرِ وَالْعُلُوِّ، وَكَثْرَةِ المَالِ ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ﴾ تَثْقُلُ ﴿بِٱلْعُصْبَةِ﴾ الجَمَاعَةِ ﴿أُوْلِى﴾ أَصْحَابِ ﴿ٱلْقُوَّةِ﴾ أَيْ تُثْقِلُهُمْ، فَالْبَاءُ لِلتَّعْدِيَةِ، وَعِدَّتُهُمْ قِيلَ: سَبْعُونَ. وَقِيلَ أَرْبَعُونَ. وَقِيلَ عَشَرَةٌ. وَقِيلَ غَيْرُ ذَلِكَ اذْكُرْ ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ﴾ المُؤْمِنُونَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿لَا تَفْرَحْ﴾ بِكَثْرَةِ المَالِ فَرَحَ بَطَرٍ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ بِذَلِكَ].

قَوْلُه تعالى: ﴿قَارُونَ﴾ اسمُ رَجُلٍ غَنِيٍّ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَكَانَ مِنْ قَوْمِ موسى.

وَقَدْ فَسَّرَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا القَوْم بالأقارب، فقال: [إِنَّهُ ابْنُ عَمِّهِ، وَابْنُ خَالَتِهِ]، ولكن هَذِهِ دَعْوَى لَا نَدْرِي: هل تَصِحُّ أَمْ لَا، قيل: هو ابْنُ عَمِّهِ، وقيل: إِنَّهُ كَانَ مِنْ قَوْمِهِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَلَكِنَّهُ أَمْرٌ لَا يَشْغَلُنا.

المهمُّ: هُوَ أَنَّ القِصَّة وَقَعَتْ وفيها رَجُلٌ مِن قَوْمِ مُوسَى، وقد آمَنَ بِهِ.

قَوْلُه تعالى: ﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بِالْكِبْرِ، وَالْعُلُوِّ، وَكَثْرَةِ المَالِ]،

الباءُ للسببية.

وقَوْلُه تعالى: ﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ أي: اعتدى واستطال عليهم، على قَوْمِ مُوسَى، وَذَلِكَ بِمَا أَعْطَاهُ اللهُ تعالى مِنَ المَالِ، فصار طاغيًا، وَهَذَا هُوَ شأن الْإِنْسَانِ مِنْ حَيْثُ هُوَ إنسانٌ، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق:٦-٧]، فهذا الْإِنْسَانُ إِذَا كَثُرَ مَالُهُ، وَرَأَى أَنَّهُ فِي غِنًى عَنْ غَيْرِهِ؛ يطغى.

قَوْلُه تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ﴾ أي: أعطيناه مِن كُنوز المال، وهو جَمْع كَنْز، والكَنْزُ هو ما يُحتفظ به، ويُغْلَقُ عليه، ويَشْمَلُ جَمِيعَ أَنْوَاعِ المَالِ مِن ذَهَبٍ، وفِضَّةٍ، وزُمُرُّد، وجَواهِر، ونُقود، وَغَيْرِ ذَلِكَ.

قَوْلُه تعالى: ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ﴾: ﴿مَآ﴾ اسمٌ موصول بِمَعْنَى الَّذِي، وهي المفعول الثاني لـ(آتيناه)، ومفعولها الأول الْهَاءُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ﴾، و(إِنَّ) حرفُ توكيدٍ ونَصْبٍ، ومَفَاتِح اسمُها، وجُملة ﴿لَتَنُوٓأُ﴾ خَبَرُهَا، والجملة الاسمية صِلَةُ الموصول، يعني: الذي إِنَّ مَفَاتِحَهُ.

قَوْلُه تعالى: ﴿مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ﴾ أي: تَثْقُل بهم، ومَفَاتِح جَمْعُ مَفْتَح، وَهُوَ اسْمٌ للمِفتاح.

قَوْلُه تعالى: ﴿بِٱلْعُصْبَةِ﴾ الباء هنا لِتَعْدِيَة الْفِعْلِ إِلَى مفعوله بِحَرْفِ الجَرِّ، وَإِنَّمَا احْتَاجَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ إِلَى هَذَا؛ لأن (ناءَ يَنُوءُ) يَتَعَدَّى بنفسه، أو بِحَرْفِ الجَرِّ، وهنا تعدى بِحَرْفِ الجَرِّ، أي: تُثْقِلُهم، فالباء للتعدية.

وَقِيلَ فِي عِدَّةِ العُصبة: سبعون، وقيل: أربعون، وقيل: عَشَرة، وقيل غَيْرُ ذَلِكَ، ولا ريبَ أَنَّ العُصبة هِيَ الجَمَاعَةُ الَّتِي يَعْصِبُ بَعْضُهَا بَعْضًا، والعَصْب فِي اللُّغَةِ: الشَّدُّ،

ومنه سَمَّوُا القَرَابَةَ عُصْبةً؛ لأنهم يَشُدُّون أَزْرَ قَرِيبِهم، وهُمُ الجماعة ذَوُو القُوَّةِ.

وبعض الْعُلَمَاءِ يَقُولُ: مِنْ ثَلَاثَةٍ إِلَى سَبْعَةٍ.

وبعضُهم يزيدُهم إِلَى عَشَرَةٍ.

وبعضُهم يقول -كَمَا قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ-: سَبْعُون، أو: أربعُون.

والمسألة فيها خلافٌ، ولكن الظَّاهِرُ لَنَا أَنَّهُمْ هُمُ الْجَمَاعَةُ الَّذِينَ يَشُدُّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونُوا ذَوِي كَثْرَةٍ، وَلَا حَاجَةَ إِلَى حَدِّهم.

لَكِنْ مَعَ كَوْنِهِمْ جماعةً مجتمعين فهُم أقوياء، فاجتَمَع هنا في حَقِّهم أمرانِ: القوة بالكيفية، والعَدَد بالكَمِّيَّة، فصارت عندهم كَمِّيَّة وكيفية، هَذِهِ الْجَمَاعَةُ لَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى حَمْلِ المفاتيح فقط لكانت المفاتيح تُثْقِلُهم، نقول: مفاتيحه لا يحملونها العَشَرَة أصحابُ القُوَّة! إِذَا كَانَ هَكَذَا فما بالُك بالخزائن! يعني: غني جدًّا بعطاء اللهِ تعالى لَهُ.

قَوْلُه تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ﴾ أي: الناصحون له، وَهُمْ كَمَا قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: المؤمنون؛ لِأَنَّهُ لَا يَنصح مِثْلَ هَذِهِ النصيحة إِلَّا رَجُلٌ مُؤْمِنٌ، والإضافة فِي قَوْلِهِ: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ﴾ تُفيد بيانَ أَنَّ هَؤُلَاءِ عَلَى جَانِبٍ كَبِيرٍ مِنَ النُّصح؛ لِأَنَّ مَنْ كَانَ مِنْ قَوْمِك فَإِنَّهُ يَبْعُدُ أَنْ يَغُشَّك، وَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ ناصحًا لك.

وقوله: ﴿لَا تَفْرَحْ﴾: ﴿لَا﴾ ناهِيَة، والفرح يَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ: فَرَحٌ يكون سُرورًا لَا يُحْمَلُ عَلَى الأَشَرِ والبَطَر، بَلْ يَكُونُ حاملًا لِلْإِنْسَانِ عَلَى رضاه بنعمة اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وقيامه بِمَا أَوْجَبَ اللهُ عَلَيْهِ فِيهَا.

والثاني: فَرَحُ بطَرٍ وترَفُّع، وعُدوان، وبغْيٍ، وَهَذَا هُوَ الْفَرَحُ الَّذِي نَهَى عَنْهُ هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ قارونَ.

قَوْلُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ هَذِهِ الجُمْلَةُ المُرَادُ مِنهَا أَنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ، ولَازِمُها أَنَّهُ يَكْرَهُ، مَعَ أَنَّ الْقِسْمَةَ العقلية لَا تَقْتَضِي ذَلِكَ، فنفيُ المحبَّة لَا يَلْزَمُهُ إثباتُ الكُره، فَقَدْ يَكُونُ لَا يُحِبُّ، وَلَكِنَّهُ لَا يُكْرَهُ.

قَالَ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد:٢٣]، وقال: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البقرة:٢٠٥]، فهنا قد يحتمل كُلَّ مَا قُلْنَاهُ، ولكن الظَّاهر -واللهُ أَعْلَمُ- أَنَّ المُرَادَ إِثْبَاتُ ضِدِّهِ، وَإِنْ كَانَتِ القِسمة العقلية لَا تَقْتَضِي ذَلِكَ، لكن السياق يقتضيه؛ لِأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ نَفَى اللهُ عَنْهُ حُبَّهُ نَجِدُ أَنَّهُ مِمَّا يكرهه الله، وَاللهُ لَا يُحِبُّ المُفْسِدِينَ، قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البقرة:٢٠٥]، وَقَالَ تعالى: ﴿لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان:١٨]، وَقَالَ تعالى: ﴿لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام:١٤١].

فالظَّاهر مِن السِّياقات أَنَّ المُرَادَ إثباتُ الكراهة، لكنه أتى بنفي المحبة؛ لِأَنَّ المَحَبَّةَ محبوبة، فَكَأَنَّ هَذَا الَّذِي أحبَّ الفسادَ، أَوْ أَحَبَّ الفرح، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، يُقابَل بِنَقِيضِ قَصْدِه.

وقوله: ﴿ٱلْفَرِحِينَ﴾ قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بِذَلِكَ]، والمشار إِلَيْهِ هُوَ كَثْرَةُ المَالِ، والمراد بالفرح الَّذِي نَفَى اللهُ محبته فَرَحُ البَطَرِ والأَشَر.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: كيف نَجمع بَيْنَ قَوْلِهِ تعالى هنا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾، وقوله: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس:٥٨]؟

قلنا: إِنَّ المُرَادَ بِقَوْلِهِ: ﴿بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ هو الفرح بِفَضْلِ اللهِ الدِّيني: الْعِلْم وَالإِيمَان، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ مِنَ الدُّنْيَا، فَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ الْفَرَحَ الَّذِي أُمِرَ بِهِ أَنْ يَفْرَحَ الإِنْسَانُ بِمَا أَنْعَمَ اللهُ بِهِ عَلَيْهِ مِنَ الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ، وَثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ وَسَاءَتْهُ

سَيِّئَتُهُ فَذَلِكَ الْمُؤْمِنُ»[(١)].

أما الْفَرَحُ الَّذِي لَا يُحمد صَاحِبُه، فَهُوَ الفَرَحُ لِلدُّنْيَا عَلَى وَجْهِ البَطَرِ والأَشَرِ، فَهَذَا لَا بَأْسَ بِهِ، قَالَ عَمْرُو بْنُ سَلَمَةَ لما كَسَاهُ قومُه ثوبًا: فَمَا فَرِحْتُ بِشَيْءٍ فَرَحِي بِذَلِكَ القَمِيصِ[(٢)].

وَقَالَتْ عَائِشَةُ: «لَأَنْ أَكُونَ اسْتَأْذَنْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَمَا اسْتَأْذَنَتْ سَوْدَةُ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ مَفْرُوحٍ بِهِ»[(٣)].

فالفرح الطبيعي الَّذِي مَا يَحْمِلُ عَلَى الأَشَرِ والبَطَرِ والكِبرياء، هَذَا أَمْرٌ لَا يُذمُّ الْإِنْسَانُ عَلَيْهِ، بَلْ إِذَا فرح به -لأنه وَسِيلَةٌ إِلَى مقصودٍ شرعي- كَانَ بِذَلِكَ محمودًا مأجورًا عليه، مِثْلُ أَنْ يَفْرَح بما جاءه مِنَ المَالِ؛ لأنه يُحِبُّ أَنْ يَبْذُله فِي سَبِيلِ اللهِ، أَوْ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ، أَوْ فِي بِنَاءِ المَسَاجِدِ، أَوْ فِي التَّصَدُّق عَلَى الْفُقَرَاءِ، يَكُونُ هَذَا الفرح محمودًا.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أنَّ الغِنى سبب للطُّغيان؛ لأن قارون إنما بَغَى وطغى بسبب مَا آتاهُ اللهُ تعالى مِنَ المَالِ.

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الفتن، باب ما جاء في لزوم الجماعة، رقم (٢١٦٥)، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه، وقد رواه ابن المبارك عن محمد بن سوقة، وقد روي هذا الحديث من غير وجه عن عمر عن النبي ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، بعد باب مقام النبي ﷺ بمكة زمن الفتح، رقم (٤٣٠٢).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الحج، باب من قدم ضعفة أهله بليل، فيقفون بالمزدلفة، ويدعون، ويقدم إذا غاب القمر، رقم (١٦٨١)، ومسلم: كتاب الحج، باب استحباب تقديم دفع الضعفة من النساء وغيرهن من مزدلفة إلى منى في أواخر الليل قبل زحمة الناس، واستحباب المكث لغيرهم حتى يصلوا الصبح بمزدلفة، رقم (١٢٩٠).

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّ القومِيَّة لَا تَنْفَعُ أصحابَها، إنما النافع هُوَ الْإِيمانُ بِاللهِ عَزَّوَجَلَّ، فهذا الرَّجُلُ مِنْ قَوْمِ مُوسَى، وَمَعَ ذَلِكَ بَغَى عَلَيْهِم.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّ اللهَ يَبتلي بِإِعْطَاءِ الْمَالِ العبدَ به، فكَمَا أَنَّ الْفَقْرَ ابتلاء، فكذلك الغنى ابتلاء.

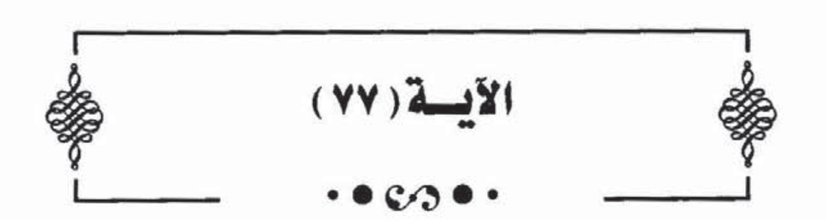
الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: كثرةُ أموال هَذَا الرَّجُلِ لقوله: ﴿إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾.

الْفَائِدَةُ الْخَامِسَةُ: أَنَّ هَـذَا الرَّجُلَ بَغى عَنْ عِلْمٍ؛ لأنه نُصِح، وَقَالَ لَهُ قومه: ﴿لَا تَفْرَحْ﴾، فنصحوه، وَلَكِنَّهُ اسْتَمَرَّ فِي طُغْيَانِهِ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أَنَّ مِنْ حُسن الدعوة إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنَّهُ إِذَا ذُكِرَ الحُكم تُذْكَر العِلة؛ تخويفًا، أو ترغيبًا، إِنْ كَانَ منصوحًا بطَلَبِ تَذَكُّرِ العِلَّة ترغيبًا، وَإِنْ كَانَ منصوحًا بِنَهْيٍ، فإنها تُذْكَرُ تخويفًا؛ لقوله: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إثباتُ المحبة لله، تُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾، مَعَ أَنَّ الْمُرَادَ نَفْيُ المحبة، وَلَكِنْ مَا نَفاها عَنْ هَؤُلَاءِ إِلَّا وَهِيَ ثَابِتَةٌ لِضِدِّهِ؛ ولهذا اسْتَدَلَّ الْعُلَمَاءُ بأن المؤمنين يَرَوْنَ ربهم بقوله: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٥]، قالوا: فلما حُجِبوا عن ربهم دَلَّ عَلَى أَنَّ غيرَهُم غيرُ محجوبين، فَلَوْ كَانَ الْكُلُّ محجوبين، مَا كَانَ لِتَخْصِيصِ هؤُلاءِ فائدة.

• • ❁ • •



قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القَصص:٧٧].

•●○●•

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَٱبْتَغِ﴾ اطْلُبْ ﴿فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ مِنَ المَالِ ﴿ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ بِأَنْ تُنْفِقَهُ فِي طَاعَةِ اللهِ ﴿وَلَا تَنسَ﴾ تَتْرُكْ ﴿نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ أَيْ أَنْ تَعْمَلَ فِيهَا لِلْآخِرَةِ ﴿وَأَحْسِن﴾ لِلنَّاسِ بِالصَّدَقَةِ ﴿كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ﴾ تَطْلُبْ ﴿ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بِعَمَلِ المَعَاصِي ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ بِمَعْنَى أَنَّهُ يُعَاقِبُهُمْ].

قَوْلُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱبْتَغِ﴾ أي: اطلُب، قوله: ﴿فِيمَآ﴾ أي: فِي الَّذِي، قوله: ﴿ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ يعني: أعطاك مِنَ المَالِ، مِنْ هَذِهِ الكنوز العظيمة التي مَفَاتِيحُها تَنُوء بالعُصبة، اطلب فيها الدَّارَ الْآخِرَةَ.

وقوله: ﴿ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ المراد بالدَّار الْآخِرَةِ الجَنَّةُ هنا، قَالَ تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القَصص:٨٣]، ولكن كيف يُطْلَبُ بِهِ الدَّارُ الْآخِرَةَ؟

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بِأَنْ تُنْفِقَهُ فِي طَاعَةِ اللهِ]. وحينئذ يَكُونُ ذَلِكَ ذُخرًا لك

عِنْدَ اللهِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، وإذا عَوَّد الْإِنْسَانُ نَفْسَهُ عَلَى ذَلِكَ، ورَوَّضها عَلَى هَذَا الْأَمْرِ، صَارَ هَذَا الْأَمْرُ سَجِيَّةً له، يفرح به ويُسَرُّ، وتَنعم بِهِ نَفْسُهُ، ولذلك فإنَّ أحب شَيْءٍ إِلَى الكريم هو العَطاء.

وَقَدْ ذَكَرَ ابْنُ القيم رَحِمَهُ اللَّهُ فِي (زاد المعاد)[1] أن الإنفاق لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي اللهِ -فِي حُدُودِ الشرع- يكون سببًا لانشراح الصدر، قال: «وَمِنْهَا: الْإِحْسَانُ إِلَى الْخَلْقِ وَنَفْعُهُمْ بِمَا يُمْكِنُهُ مِنَ المَالِ وَالْجَاهِ وَالنَّفْعِ بِالْبَدَنِ وَأَنْوَاعِ الْإِحْسَانِ، فَإِنَّ الْكَرِيمَ الْمُحْسِنَ أَشْرَحُ النَّاسِ صَدْرًا، وَأَطْيَبُهُمْ نَفْسًا، وَأَنْعَمُهُمْ قَلْبًا، وَالْبَخِيلُ الَّذِي لَيْسَ فِيهِ إِحْسَانٌ أَضْيَقُ النَّاسِ صَدْرًا، وَأَنْكَدُهُمْ عَيْشًا، وَأَعْظَمُهُمْ هَمًّا وَغَمًّا».

وَهَذَا أَمْرٌ معلوم، تجد أَكْثَرَ النَّاسِ انشراحًا فِي الصُّدُورِ هُم الكِرام، وَأَنَّهُ إِذَا أَعْطَى إنسانًا عطيَّةً يجد بذلك سُرورًا وانشراحًا، فهو لو أَنَّهُ اسْتَعْمَلَ هذا، وابتغى به الدَّارَ الْآخِرَةَ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَضِيعُ عَلَيْهِ عِنْدَ اللهِ، ثُمَّ مَعَ ذَلِكَ يَقُولُ الناصحون له: ﴿وَلَا تَنسَ﴾.

قَوْلُه تعالى: ﴿وَلَا تَنسَ﴾ أي: لَا تَتْرُكْ؛ لِأَنَّ النِّسْيَانَ يُطْلَقُ عَلَى أَمْرَيْنِ:

أحدهما: الذُّهول عَنِ الشَّيْءِ المعلوم الذي عَلِمْتَه، ثم ذُهِلْت عَنْهُ.

والثاني: التَّرك.

ومنه أَيْضًا قَوْلُهُ تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة:٦٧]، نَسُوا اللهَ: أي: تركوا عبادته، ولم يقوموا بحقهم.

قوله: ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾ أي فتَرَكَهُم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فلم يُثِبْهُم.

---

(١) زاد المعاد، لابن القيم (٢/ ٢٤).

وَمِنْهَا قَوْلُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَالَّذِينَ نَسُواْ اللَّهَ﴾ [الحشر:١٩]، أي: تركوه، وقوله: ﴿فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ [الحشر:١٩]، أي: جعلهم يَنْسَوْنَهَا ويَغْفُلُون عنها، ويتركونها دُون رِعاية.

وَأَمَّا قَوْلُهُ تعالى: ﴿أَحْصَىٰهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة:٦]، فالمراد بالنسيان: الذُّهول عَنْ شَيْءٍ معلوم، فَاللهُ تعالى أحصاهُ لكن هؤُلاءِ نَسُوه.

فهنا إِذن مِن هَذَيْنِ الشَّاهِدَيْنِ مِنَ الْقُرْآنِ الكريم يتبين لَنَا أَنَّ النسيان يُطْلَقُ عَلَى مَعْنَيَيْنِ: أحدهما: التَّرك، والثاني: الذُّهول عَنْ شَيْءٍ معلوم.

وَالَّذي يَصِحُّ أَنْ يُوصَفَ اللهُ بِهِ هُوَ التَّرْكُ، أَمَّا الذُّهول فقد نَفَاهُ اللهُ عَنْ نَفْسِهِ، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه:٥٢]، هنا النِّسْيَانُ بِمَعْنَى: الذُّهول، وليس التَّرك؛ لِأَنَّ اللهَ يَتْرُكُ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ممن يستحقون التَّرْك.

أَمَّا قَوْلُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه:١١٥]، فهنا مَسْأَلَةٌ فِيهَا قَوْلَانِ لأهل العِلم؛ مِنْهُمْ مَنْ قَالَ: إِنَّ قَوْله: ﴿فَنَسِيَ﴾ أي: تَرَكَ عَنْ عَمْدِ تَرْكٍ، فيكون مُسْتَحِقًّا لِلْعِقَابِ.

وَعَلَى هَـٰذَا الرَّأْيِ لَا إِشْكَالَ فِي المَسْأَلَةِ، فكونُه يُعَاقَبُ عَلَى أَمْرٍ تَرَكَهُ مِنْ غَيْرِ ذُهول، حيث تَرَكَهُ وَهُوَ عَالِمٌ به، ويكون مَلُومًا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾.

وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: إِنَّ الْمُرَادَ بالنسيان الذُّهول، وهؤُلاءِ قَصَدُوا بِذَلِكَ تجنُّب وصف آدم بتعمُّد المعصية؛ لِأَنَّهُ إِذَا تَرَكَهُ عَنْ ذُهول لَا يُلَامُ، وهؤُلاءِ يَحْتَاجُونَ إِلَى الْجَوَابِ عَنْ سُقوط الإثم بالنسيان، ويقولون: إِنَّ مِن خصائص هَذِهِ الْأُمَّةِ: سُقوط الإثم بالنسيان، كَقَوْلِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي الخَطأَ والنِّسْيَانَ،

وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ»(١).

فقوله: «عَنْ أُمَّتِي» يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْأُمَمَ السَّابِقَةَ كانت مؤاخَذَةً به، وكون الْأُمَمِ السَّابِقَةِ مؤاخَذَة، أَوْ غَيْرَ مؤاخذَة فِي الْحَقِيقَةِ هَذَا لَا يُرَجِّحُ أَحَدَ الْقَوْلَيْنِ، لكن الذي يُرَجِّح أنه نسيانُ تَرْكٍ، لا نِسيانُ ذُهولٍ.

أَمَّا قَوْلُهُ تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه:١٢١]، وهذان الوصفان مَعصية، ويَدُلَّان عَلَى أَنَّهُ فَعَلَ ذَلِكَ عَنْ عَمْدٍ، لكنه اغترَّ بِغُرور إبليس، كَما قَالَ تعالى: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾ [الأعراف:٢٢]، وقال: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف:٢١]، وقال: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه:١٢٠]. اغتر آدمُ، وفعَل مَا فَعَلَ.

قَوْلُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَنسَ﴾ كأنهم يقولون: اجعل انْهِماكَك فيما تُريد فِي الْآخِرَةِ، حَتَّى كَأَنَّ ما تُريده للدنيا يَغيب عنك، وَلَكِنْ لَا تَنْسَهُ.

وقوله تعالى: ﴿نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَيْ أَنْ تَعْمَلَ فِيهَا لِلآخِرَةِ].

يشير المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ إِلَى أَنَّ المُرَادَ بنصيبه مِنَ الدُّنْيَا أَنَّهُ عَائِدٌ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ يعني: لَا تَنْسَ نَصِيبَك مِنَ الدُّنْيَا بإمهالِك، فما دُمْتَ قَدْ أُعْطِيت مُهلة؛ فلا تَنْسَ هذه المُهلة أَنْ تُنْفِقَ المَالَ فِي طَاعَةِ اللهِ، فَيَكُونَ المُرَادُ بالنصيب مِنَ الدُّنْيَا هنا العَيش فِي الدُّنْيَا، يعني: لَا تَنْسَ أن تَغْتَنِمَ الفُرصة فِي هَذِهِ الدُّنْيَا، فتُنفق، فتكون الجملة هنا عَائِدَةً عَلَى الجُمْلَةِ الأُولَى فِي المَعْنَى، أي: اطلب الدَّارَ الْآخِرَةَ فيما تُنفِق حَتَّى لَا يُضِيعَ عليك الوقتُ، فيضيعَ نَصِيبُك مِنَ الدُّنْيَا.

---

(١) أخرجه ابن ماجه: كتاب الطلاق، باب طلاق المكره والناسي، رقم (٢٠٤٣).

وَلِهَذَا قَال: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ كَأَنَّهُ يَقُولُ: اغتنم هَـذِهِ الْمُدَّةَ الَّتِي هِيَ نَصِيبُكَ مِنَ الدُّنْيَا اغتَنِمْها للآخِـرة، ويَحتمل -وَهُوَ الأقرب- ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ أَنَّنا لا نأمُرُك بأن تُنْفِقَ جميعَ مالِكَ طلبًا للآخِـرَة، بل اطلُـب الآخرة فيه، وخُذ نَصِيبًا مِنَ الدُّنْيَا لك، فَنَحْنُ لَا نُرِيدُ أَنْ تَنْخَلِع مِنْ مَالِكَ، ولكننا نُرِيدُ أَنْ تَبْتَغِيَ به الدَّارَ الْآخِرَةَ، وَمَعَ ذَلِكَ فخذ نَصِيبَك مِنَ الدُّنْيَا مِن طَيِّب المأكل، ونظافَة المنزل، والثياب، والزوجات، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

وَهَذَا المَعْنَى أقربُ وأصَحُّ؛ لأَنَّنا عَلَى المَعْنَى الَّذِي ذَهَـبَ إِلَيْهِ الْمُفَسِّـر رَحِمَهُ اللَّهُ تَكُونُ الْآيَةُ فِيهَا شَيْءٌ مِنَ التَّكْـرَار، فَقَدْ تَكُونُ سَبَبًا لِجَلْبه وقَبُـولِه النصيحةَ، وَقَدْ يَكُونُ قولُهم له بطلب الآخرة، وعَدَم نِسيان حَظِّهِ مِنَ الدُّنْيَا أَنَّ هَذَا أَقْرَبُ إِلَى قَبُولِ النصيحة، والأخيرُ أقربُ؛ لِأَنَّهُ لَوْ قِيلَ: هَذَا المَالُ الْعَظِيمُ الَّذِي مفاتيحه تَنُوءُ بالعُصبة ابْتَغ به كُلَّه الدَّارَ الآخِرةَ. فالمتبادَر أنه لن يَقْبَلَ، لَكِنْ إِذَا قِيلَ: ابتغ به الآخِرة، وتَمَتَّعْ بالدُّنيا بِنَصِيبِـك، فهَذَا يَكُونُ أدعى للقَبُـول، وَهُوَ أَيْضًا مِنَ الأساليـب الحَسَنة فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

والنبي ﷺ قَالَ لِعَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ: «**إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ**»[1].

فَلَا تَقُلْ: إني أقومُ الليلَ، وأَصُومُ النهارَ ما عِشْتُ، هَذَا خَطَأٌ، فإِنَّ لربِّك عليك حقًّا بعبادته، ولكنْ لنفسك عليك حقٌّ بإعطائها الراحةَ، فالصَّواب هُوَ هَذَا، وَلَا تَنْسَ نَصِيبَك مِنَ الدُّنْيَا.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصوم، باب من أقسم على أخيه ليفطر في التطوع، ولم ير عليه قضاء إذا كان أوفق له، رقم (١٨٦٧).

وَلَا نَدْرِي هل عاصر قارونُ فِرْعَونَ أَمْ كَانَ هَذَا بَعْدَ هلاكه؟ وَلَا يُوجَدُ مَا يَمْنَعُ أَنَّ هَذَا الرَّجُلَ كَفَرَ، واتصلَ بِفِرْعَونَ، وصارت عنده الأموال العظيمة.

قَوْلُه تعالى: ﴿وَأَحْسِن﴾ قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَأَحْسِن﴾ لِلنَّاسِ بِالصَّدَقَةِ]، هنا المُفَسِّر خَصَّ الإحسانَ، قال: أَحْسِن للناسِ بالصَّدَقة، ولكن الصَّحِيحُ أَنَّ المُرَادَ مَا هُوَ أعمُّ، أي: أَحْسَنُ فِي عِبَادَةِ الله، وفي معاملة عِبَادِ اللهِ.

قَوْلُه تعالى: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ الكافُ هنا للتَّعلِيل، وليست للتَّشبيه؛ لِأَنَّهُ لَا يُمْكِنُ لإنسان أَنْ يُحْسِنَ مِثْلَ مَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْهِ، فإحسان الله إِلَيْهِ أكملُ وأعظمُ، وَقَدْ جَاءَتِ الكاف للتَّعلِيل فِي عِدَّةِ مَوَاضِعَ مِنَ الْقُرْآنِ، مِثْلَ قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ﴾ [البقرة:١٩٨]، أي: واذكروه لهدايتكم، وَمِثْلَ قَوْلِهِ ﷺ: «**اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ**»[1]، فإن الكافَ هنا للتَّعلِيل، وليست للتَّشبيه.

وَهَذَا المَعْنَى الَّذِي ذَكَرْنَاهُ نَسلَمُ بِهِ مِنَ الإيراد الذي أورده بَعْضُ النَّاسِ عَلَى هَذَا الحَدِيثِ، وَهُوَ أَنَّهُ مِن الْعَادَةِ أَنَّ الْمُشَبَّهَ أَقلُّ شأنًا ورُتبةً مِن المُشَبَّهِ به، وَمُحَمَّدٌ ﷺ لا شَكَّ أَنَّهُ لَيْسَ أَقَلَّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ، فكيف قيل: «**صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ**».

مِنَ الْعُلَمَاءِ مَنْ أجاب فقال: إِنَّ التَّشبيه لِلصَّلَاةِ عَلَى وَاحِدٍ فِي الصَّلَاةِ عَلَى جَمَاعَةٍ: إبراهيمَ وآلِه، وَهَذَا يَصِحُّ أَنْ يُعطَى مُحَمَّدٌ ﷺ مِثْلَ مَا أُعْطِيَ هَؤُلَاءِ كُلُّهُمْ، وَلَكِنْ لَا حَاجَةَ إِلَى هَذَا التَّأْوِيلِ، بَلْ نَقُولُ: إِنَّ المَعْنَى: أنك يا ربي كَمَا صَلَّيْت عَلَى إِبْرَاهِيمَ، وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، وَإِنَّ هَذَا مِن شأنك، ومِن عادتك التكرُّم، فامنُن أَيْضًا

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، بابٌ، رقم (٣٣٧٠)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب الصلاة على النبي ﷺ بعد التشهد، رقم (٤٠٦).

عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ، فتكُون جُمْلَةُ: «كَمَا صَلَّيْتَ». للتَّعلِيل، وَهِيَ فِي الحَقِيقَةِ للتَّوسُّل، يعني: إننا نَتَوسَّلُ إليك بما فعلتَ مِنْ قَبْلُ فِي إِبْرَاهِيمَ وآلِه، أَنْ تَفْعَلَ ذَلِكَ فِي مُحَمَّدٍ ﷺ وَآلِ مُحَمَّدٍ.

قَوْلُه: ﴿كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَ﴾ أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْهِ بِالمَالِ العظيمِ، الذي مفاتِحُه تَنُوءُ بالعُصبة، وقوله: ﴿وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ الفساد بالبَغي؛ حَيْثُ قَالَ تعالى: ﴿فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡ﴾، فلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ بالبغي، كَذَلِكَ أَيْضًا إِنْ كَانَ هَذَا الرَّجُلُ يعمل بِمَالِهِ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ، فَيَكُونُ هَذَا مِنَ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ، وَهَذَا هُوَ الْغَالِبُ؛ أَنَّ مَنْ آتَاهُ اللهُ مَالًا، وَلَيْسَ عِنْدَهُ إيمان؛ فَإِنَّهُ يَجْعَلُ مِنْ مَالِهِ وَسِيلَةً إِلَى الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ، وقوله: ﴿ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: الْفَسَاد فِي الْأَرْضِ بِالمَعَاصِي؛ لأن المَعَاصِيَ فِي الحَقِيقَةِ هِيَ سَبَبُ فسادِ الأرض، قَالَ تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ﴾ [الروم:٤١].

ولهذا مَا مِنْ شَيْءٍ يَكُونُ فِي الْأَرْضِ مِن فِتَنٍ، وحُروبٍ، وقِتالٍ، وجَدْبٍ، وغيره، إلا بسبب المعاصي، قَالَ تعالى: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ﴾ [فاطر:٤٥].

فهذا الهَرْجُ الَّذِي كَثُرَ فِي هَذَا العصر، كُلُّ ذَلِكَ بسبب المَعَاصِي الَّتِي تُفعل، فهي عقوبة للعُصاة الذين أُصيبوا بهذه، وإنذارٌ للآخرين؛ فإنك قَدْ تَرَى البلاد الآمنةَ المطمئنةَ التي يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رغدًا مِنْ كُلِّ مَكَان، ويَجلب النَّاسُ إِلَيْهَا مِنْ كُلِّ مَكَان، ثم تفاجأ بأنها دُمِّرت مساكِنُها، وبُيُوتُها، وأَمْنُها، ورخاؤها؛ بسبب المعاصي.

قَوْلُه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾، قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بِمَعْنَى أَنَّهُ

يُعَاقِبُهُمْ]. وهذا يُسمونه تأويلًا، ونحن نُسميه تحريفًا؛ لِأَنَّ الْآيَةَ لَيْسَ مَعْنَاهَا أَنَّ اللهَ يُعاقب المفسدين، بَلْ مَعْنَاهُ أَنَّهُ لَا يُحِبُّهم، أي: إنها تنتفي عنهم محبة اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهي الصِّفَة الثابتة لَهُ حَقِيقَةً عَلَى وَجْهِ الكمال، لَكِنْ إِذَا كَانَ لَا يُحبهم، فلا يُثيبُهم.

وَإِذَا قُلْنَا: إِنَّ نَفْيَ المحبة إثباتٌ للكراهة لَزِم منه المعاقبة، فتفسير المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ لمحبته هنا باللازم، وهو المعاقبة، خطأٌ، هذا يعتبر تحريفًا لِكَلَامِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فهناك فرق بَيِّن بَيْنَ نفي المحبة والمعاقبة، كَمَا أَنَّ هُنَاكَ فَرَقًا بَيْنَ المحبة والإثابة، والمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ يحمل المحبةَ على الإثابة، وَمَا هِيَ عَلَى الإثابة.

فالحاصِلُ: أَنَّ هَذَا الَّذِي ذَهَبَ إِلَيْهِ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ هُوَ مَذْهَبُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ مِنَ الأشاعرة وغيرهم، فَإِذَا كَانَتِ الصِّفَةُ لَا تَدْخُلُ عقولهم، قالوا بالتأويل.

فَقَدْ ذَكَرَ شَيْخُ الإسلام عنهم القاعدةَ فِي إِثْبَاتِ الصفات، حَيْثُ قَالَ: «وكان ابن كُلَّاب وأتباعه يقولون: إِنَّ العُلُوَّ على المخلوقاتِ صِفَةٌ عقلية تُعلَم بالعقل، وأمَّا استواؤه على العرش، فهو مِن الصفات السمعية الخبرية التي لا تُعلم إلا بالخَبر، وكذلك الأشعري يُثبت الصفات بالشرع تارةً، وبالعقل أخرى، ولهذا يُثبت العُلُوَّ ونحوه مما تَنْفِيه المعتزلة، وثَبَت الاستواء على العرش، ويرد على مَن تأوله بالاستيلاء ونحوه مما لا يختص بالعرش، بخلاف أتباع صاحب الإرشاد، فإنهم سلكوا طريقة المعتزلة، فلم يُثبتوا الصفاتِ إلا بالعقل، وكان الأشعري وأئمة أصحابه يقولون: إنهم يحتجون بالعقل لما عُرِف ثُبوتُه بالسمع، فالشرع هو الذي يُعتَمد عليه في أصول الدِّين، والعقلُ عاضِدٌ له مُعاوِن.

فصار هـؤُلاءِ يسلكون ما يَسلكُه مَا سَلَكَه مِن أهلُ الكلام المعتزلة ونحوهم فيقولون: إن الشرع لا يُعتَمد عليه فيما وُصِف الله به، وما لا يُوصَف، وإنما يعتمد في

ذلك عندهم على عقلهم، ثم ما لم يُثْبِتْه إما أَنْ يَنْفُوه، وإما أَنْ يَقِفُوا فيه»[1].

هـذه هِيَ الْقَاعِـدَةُ فِي إِثْبَاتِ الصفات أو نَفْيِها عند المتكلميـن مِن المعتزلـة والأشاعرة وغيرهم.

وأهلُ السُّنة جميعًا يقولون: مَا أَثْبَتَهُ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ أثبتناه، وما نفاه الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ نفيناه، وَمَا لَمْ يَكُنْ فِي الْكِتَابِ وَلَا فِي السُّنَّةِ توقفنا فيه.

أما هُم فعلى العكـس، يقولون: مَا أَثْبَتَـهُ العقل أثبتناه، وما نفاه نَفَيْـنَاه، وَمَا لَا يَقْتَضِي إِثْبَاتَهُ، وَلَا نَفْيَهُ أكثرُهم يقولون: نَفَيْنَاهُ، ولا نَقْبَلُه؛ لأَنَّنا نشتـرط لِقَبُـول الصِّفة إثباتَ العقل لها، فَإِذَا لَمْ يُثبتها وَجَبَ نَفْيُهَا.

وبعضُهم يقول: اتَّقُوا اللهَ، واعدلوا، إِذَا كَانَ الْعَقْلُ لَا يَقْتَضِي إثباتها، وَلَا نَفْيَها، فالواجب التوقُّف؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ هُنَاكَ ترجيحٌ بالإثبات، ولا ترجيح بالنفي، فيجـب عَلَيْنَا أَنْ نتوقف.

فَهَؤُلَاءِ هُمُ الوَرِعون منهم، لكنَّ الوَرِعيـن فِي هَذِهِ النقطة غيـر الوَرِعيـن في النقطة الأولى، وَهِيَ مَا أَثْبَتَهُ العقلُ أثبتناه، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَذْكُورًا فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وما نَفَاهُ العقل نَفَيْنَاهُ، وَإِنْ كَانَ مَذْكُورًا فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: فيها دَلِيلٌ عَلَى أَنْ قارون كَانَ يُنْفِقُ المَالَ بِغَيْرِ رَوِيَّةٍ فِي المَعَاصِي والفساد، وَغَيْـرِ ذَلِكَ؛ لقولهم: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾، ولَوْ كَانَ يُنْفِقُهَا مِن أَجْلِ الدَّارِ الْآخِرَةِ مَا قَالُوا لَهُ هَذَا.

---

(١) درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية (٢/ ١٢).

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّهُ يَنْبَغِي لمن آتاهُ اللهُ مَالًا أَنْ يُحْسِنَ النِّيَّةِ، وَالْقَصْدَ فِي بَذْلِه، أي: كُلُّ إِنْسَانٍ عِنْدَهُ مَالٌ يَنْبَغِي بَذْلُه، لكن يَنْبَغِي أَنْ يُحْسِنَ النِّيَّةَ وَالْقَصْدَ، لِقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾، وَقَدْ أَشَارَ إِلَى ذَلِكَ النَّبِيُّ ﷺ حِينَ قَالَ لِسَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ: «**وَاعْلَمْ أَنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللهِ إِلَّا أُجِرْتَ عَلَيْهَا، حَتَّى مَا تَجْعَلُ فِي فَمِ امْرَأَتِكَ**»[1]، فقد قيَّدها بقوله: «**تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللهِ**»، أَمَّا لَوْ أَنْفَقَ الإنسان لِغَيْرِ هَذَا الْغَرَضِ؛ فَإِنَّهُ لا يُثَابُ، وإِنْ أَنْفَقَ لِغَرَضٍ سَيِّئٍ؛ فَإِنَّهُ يُعَاقَبُ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: فِي قَوْلِهِ: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ يُؤْخَذُ مِنْهُ أَنَّهُ يجب أَنْ يَقصد الدَّارَ الْآخِرَةَ، بِأَنْ يَكُونَ فِي الْخَيْرِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّ الْمَالَ -وَإِنِ اكتسبه العبدُ بِفِعْله- فَهُوَ مِنْ فَضْلِ اللهِ؛ لقوله: ﴿فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ فهو، وَإِنْ كَانَ الإنسانُ يكتسب ويَتَّجِر ويُحَصِّل، لكنه مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وَهُوَ الَّذِي يُقَدِّرُه.

الْفَائِدَةُ الْخَامِسَةُ: إثبات الْيَوْمِ الْآخِرِ؛ لقوله: ﴿ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: جواز تمتُّع الْإِنْسَانِ بِمَا آتَاهُ اللهُ تعالى فِي الدُّنْيَا، ولكن بِشَرْطِ أَلَّا يَكُونَ عَلَى سَبِيلِ المعصيةِ؛ لِقَوْلِهِ فِي جُمْلَةِ النصيحة: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَا﴾، هَذَا عَلَى الرأي الَّذِي اخْتَرْنَاهُ.

أَمَّا عَلَى رَأْيِ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ فَإِنَّ هَذَا عَائِدٌ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾، وَيُرِيدُ أَنْ يَكُونَ نَصِيبُهُ مِنَ الدُّنْيَا الفُسحة والمُهلة التي أُعْطِيَها، لا يُضِيعُها.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب ما جاء أن الأعمال بالنية والحسبة ولكل امرئ ما نوى، رقم (٥٦)، ومسلم: كتاب الوصية، باب الوصية بالثلث، رقم (٥٦).

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: حُسْنُ دعوة هـؤُلاءِ، حيث ذَكَّروه بنعمـة الله عليه، لقوله: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾، فكأنهم يقولون: أحسِنْ؛ لِأَنَّ اللهَ أحسنَ إليك، فأنت حينما تُحسن تكون شاكرًا لِنِعْمَةِ اللهِ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أَنَّهُ يَنْبَغِي للدَّاعي أَنْ يُذِكِّرَ المَدعو بنعمة اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لأن الْإِنْسَانَ إِذَا ذُكِّر بالنعمة، فقد يَخْجَلُ مِنَ اللهِ، فَلَا يَعْصِيهِ.

أَمَّا إِذَا ذُكِـرَ لَهُ الْأَمْرُ وَالنَّهْيَ مُجَـرَّدًا عَنِ الأسباب والوسائل التي تَحْمِلُه عَلَى الْفِعْلِ، أَوِ التَّرْكِ؛ فَإِنَّ هَذِهِ الدعوةَ تكون قاصرةً، فالذي يَنْبغي للدَّاعي أَنْ يُذَكِّر المرءَ المدعو بما يقتضي إقبالَه وقَبُولَه؛ لقولهم: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾.

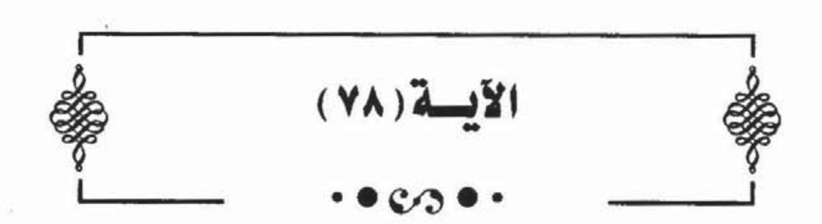
الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: تحريم نِيَّة الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ؛ لقوله: ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ﴾، وإذا حَرُمـت نِيَّة الفساد، فالفسادُ نَفْسُه مِنْ بَابِ أَولى، ويَحْرُم عَلَى المَـرْءِ أَنْ يُفسِد، أو أَنْ يَنْوِيَ الفساد.

الْفَائِدَةُ العَاشِرَةُ: التَّحْذِيرُ مِنَ الْفَسَادِ؛ لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: إثباتُ محَبَّةِ اللهِ؛ لأن نَفْيَهَا عَنِ المفسدين دَلِيلٌ عَلَى ثُبوتها للمصلحين.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: مِن حُسـن الدعوة أَلَّا يُؤَيَّس الْإِنْسَانُ، فيقال: لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ كُلُّ أفعالِك للآخِرة؛ لأن الْإِنْسَانَ إِذَا طُلِبَ مِنْهُ أَنْ تَكُونَ كُلُّ أفعاله للآخرة، فَقَدْ يَنْحَسِرُ، وَلَا يَقْبَلُ، لَكِنْ إِذَا قِيلَ لَهُ: هَذَا وَهَذَا، فهو أدعى للقَبُول، وَهُوَ مِنْ حُسْنِ الدعوة التي سَلَكَها هؤُلاءِ الدعاة.

• • ❁ • •



الآية (٧٨)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [القَصَص:٧٨].

• • • •

قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ﴾ أَيِ المَالُ ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ أَيْ فِي مُقَابَلَتِهِ وَكَانَ أَعْلَمَ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِالتَّوْرَاةِ بَعْدَ مُوسَى وَهَارُونَ، قَالَ تعالى ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ لِلْمَالِ أَيْ هُوَ عَالِمٌ بِذَلِكَ وَيُهْلِكُهُمُ اللهُ ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ لِعِلْمِهِ تعالى بِهَا فَيَدْخُلُونَ النَّارَ بِلَا حِسَابٍ].

انظر جواب قارونَ لهؤُلاءِ الناصحين ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ﴾ أي: المال، ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾.

وكانوا قد قَالُوا لَهُ قَبْلَهَا: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ فَلَمْ يعترف، بَلْ قَالَ: ﴿أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾.

واختلف المُفَسِّرونَ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ فَقِيل -كَمَا قال المُفَسِّرُ- أي: فِي مُقَابَلَتِهِ: أي: إِنَّهُ لَيْسَ فَضْلًا مِنَ اللهِ، ولكن لأني كنتُ عالمًا بالتَّوراة وفاهمًا أُوتيت هذا الشَّيْءَ. فجَعَلَ فَضْلَ اللهِ عَلَيْهِ مِن باب المكافأة، وَلَيْسَ مَنْ باب الفضل.

إذن: هو رَدَّ نصيحتَهم، ولم يعترِف بأن الفضل لله، هَذَا قَوْلٌ.

وَالْقَوْلُ الثَّانِي: إنما آتَانِي اللهُ ذَلِكَ؛ لأني أهلٌ له، فيصير المعنى: عَلَى عِلْمٍ مِنَ اللهِ أَنِّي له أهلٌ.

وبمعنًى آخَر: لأني عالِمٌ بأسباب الرزق، فاكتسبتُه بها معي مِنَ الْعِلْمِ، وَلَيْسَ هَذَا مِنْ فَضْلِ اللهِ، بل أَنَا رَجُلٌ حاذِقٌ أعرفُ كيف أتصرف، وأعرف الْأَسْبَابَ الَّتِي فِيهَا نُمُوُّ المال، فحَصَل لي ذَلِكَ بِمَا عندي. كَأَنَّهُ يَقُولُ: إنما أُوتيتُه بِحَوْلي وقُوَّتِي، وليس بِفَضْلِ اللهِ ومِنَّته.

فصار عَلَى المَعْنَى الْأَوَّلِ نَسَب هذا الإتيانَ عَلَى أَنَّهُ مكافأةٌ مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ له، وَعَلَى الْقَوْلِ الثَّانِي نَسَب هذا الْفَضْلَ إِلَى حَوْلِه وقُوته، وَلَيْسَ إِلَى فَضْلِ اللهِ تعالى.

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وَكَانَ أَعْلَمَ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِالتَّوْرَاةِ بَعْدَ مُوسَى وَهَارُونَ]، وَهَذَا الَّذِي ذَكَرَهُ -مِن زَعْمِه أنه أعلمَ بَنِي إِسْرَائِيلَ بالتَّوراة بَعد مُوسَى وَهَارُونَ- غَيْرُ مُسَلَّم به؛ بَلْ إِنَّ الظَّاهِرَ أَنَّهُ قَالَ: عَلَى عِلْمٍ مِنَ اللهِ أَنِّي له أهل، وأني أهلٌ لهذا الشَّيْء، أَوْ عَلَى عِلْم عندي، أي: عَلَى مَعْرِفَةٍ مني بالأمور، وأمَّا أنه أعلمُ بَنِي إِسْرَائِيلَ بالتوراة، فَلَيْسَ فِي الْآيَاتِ مَا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ.

قَوْلُه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ﴾ الهمزة للاستفهام، وَالْمُرَادُ بِهَا التقرير، أي: إِنَّهُ قَدْ عَلِمَ؛ لِأَنَّ الَّذِي قَدِ عَلِمَ هُوَ اللهُ، وَهُوَ عَالِمٌ بأَنَّ قارونَ عَالِمٌ بِذَلِكَ، فالتقريرُ هنا مِنَ اللهِ، هُوَ الَّذِي أخبرنا بأنَّ قارون قَدْ عَلِمَ بِهَذَا الْأَمْرِ.

وقوله: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ﴾ الإهلاكُ هُنَا بِمَعْنَى الإفْنَاء، وقوله: ﴿مِنَ ٱلْقُرُونِ﴾ جَمْعُ قَرْنٍ، والقَرْنُ تارَةً يُرَادَ بِهِ الْأُمَّةُ، وتارةً يُرَادَ بِهِ الزمن، فيُقال مثلًا: تتابعت الأُمم قَرْنًا بَعْدَ قَرْنٍ، أي: زَمَنًا بَعْدَ زَمَن.

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ﴾: الأمم، ﴿مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ لِلْمَالِ أَيْ هُوَ عَالِمٌ بِذَلِكَ].

قوله: ﴿مَنْ﴾ مفعولُ ﴿أَهْلَكَ﴾، أي: الَّذِي هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ، أي: مِن قارون، قوله: ﴿قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ للمال ﴿أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً﴾ فِي بَدَنِهِ، وَأَمَّا المَالُ فقال: ﴿وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ أي: أكثرُ مجموعًا للمال، أو: أكثر تحصيلًا له، وَهَذَا هُوَ ظَاهِرُ كلام المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ.

قوله: ﴿جَمْعًا﴾ أي: تحصيلًا، وَلَكِنْ إِذَا قُلْنَا: أكثر جمْعًا، أَوْ مجموعًا، كَانَ أَوْلَى؛ لأن المجموعَ نتيجة للقوة التي يُحَصِّل بها المَرْءُ المالَ.

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [أَيْ هُوَ عَالِمٌ بِذَلِكَ]، فأفادنا بأن الاستفهامَ هنا للتقرير، أي: إِنَّ قارونَ قَدْ عَلِمَ، ولكنه تجاهَلَ الأمرَ، قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [فَيُهْلِكُهُمُ اللهُ].

قَوْلُه تعالى: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أي: ولا يسألهم عن ذنوبهم، لا يسألهم سؤالَ استخبار، وإنما يسألهم يَوْمَ الْقِيَامَةِ سؤالَ تَبْكِيت؛ فَإِنَّ اللهَ تعالى يَسْأَلُ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنْ ذُنوبهم، قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف:٦]، وَقَالَ تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر:٩٢-٩٣].

إذن نقول: النفيُ لحالٍ، والإثباتُ لحالٍ، يعني: لَوْ قَالَ قَائِلٌ: كيف تجمعون بَيْنَ هَـٰذِهِ الْآيَةِ: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾، وأمثالها مِثل: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن:٣٩]، وبين الْآيَاتِ الَّتِي تُثبت السؤال مِثْل قَوْلِهِ تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف:٦]، وقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾؟

فالجواب عَلَى ذَلِكَ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ السُّؤَالَ المَنفِيَّ هُوَ سُؤَالُ الاستفسار، الَّذِي يَسْأَلُ: هل أذنبتَ؟ وما ذَنْبُك؟ والسؤال المُثْبَتُ سؤالُ التوبيخِ والتَّبْكِيت والتَّقْرِيع، أي يُسْألون لِيُقِرُّوا، فهذا ثابتٌ كَمَا ذَكَرَ اللهُ هُنَا.

سؤال النفي أَنَّهُمْ لَا يُسألون لِأَجْلِ أَنْ يُخْبِرُوا عَنْ ذُنوبهم، وإذا أَخْبروا -مثلًا- تُرِكُوا، أو يُعاقَبُون عَلَى حَسَبِ إخبارهم؛ لأنهم سيُعَاقَبُون، سواء أَخبَروا أَوْ لم يُخْبِرُوا، لكنهم يُنكِرون، فيقولون: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:٢٣]، ولكنهم لا يَسْتَفِيدُونَ مِنْ هَذَا النفي شيئًا.

فسؤالُ الاستفسارِ مَعْنَاهُ أَنَّك تَسأل الْإِنْسَانَ عَنْ شَيْءٍ تجهلُه لِيُخْبِرَك به، هَذَا لَا يُمْكِنُ أَنْ يَرِدَ بالنسبة للمُجرمين، وَهَذَا هُوَ المَنْفِيُّ.

أَمَّا سؤال التَّوبيخ فتسألُه عَنْ شَيْءٍ لِيُقِرَّ به، لَا لِيخبرك، ولأَجل أَنْ يَخْزَى بَيْنَ النَّاسِ.

فإذا سُئِلوا قالوا: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، وشهِدت جوارحُهم؛ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْتُمُونَ اللهَ حَدِيثًا، أو إنهم يُسأَلون فيجحدون فِي مَكَانٍ، أَوْ فِي وَقْتٍ، ويُسأَلون فيُقِرُّون فِي وَقْتٍ آخَرَ.

فتبيَّن الْآنَ بِذَلِكَ أَنَّ السؤال المنفيَّ غيرُ السؤال المُثْبَت، وَهَذَا هُوَ الصَّحِيحُ.

وبعضهم يقول: إِنَّ السُّؤَالَ المُثْبَت يَكُونُ فِي وَقْتٍ، والسؤال المنفيُّ فِي وَقْتٍ آخَرَ؛ لأن يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِقدارُه خمسون أَلْفَ سَنَةٍ، فالمدة طويلة، فيُمكن أَنْ يُسْأَلُوا فِي مَوْضِعٍ، ولا يُسْأَلُوا فِي مَوْضِعٍ آخَرَ.

وَقَوْلُهُ تعالى: ﴿ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ المجرم هُوَ فَاعِلُ الإجرام، والإجرام: المعاصي،

فالمعنى: أن العُصاة لا يُسألون، وَأَكْثَرُ مَا يُطْلِقُ الإجـرام عَلَى الْكُفْرِ، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ﴾ [المطففين:٢٩]، فلماذا لا يُسألـون؟ يقول المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [لِعِلْمِـهِ تعالى بِهَا فَيَدْخُلُـونَ النَّارَ بِلَا حِسَـابٍ]، أي: إِنَّهُمْ لَا يُسألون، وإنما يُدخَلُون النار بِدُونِ حساب، ولكنَّ الصَّحِيحَ أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنَ الحساب؛ لِأَنَّ مَنْ يؤتَى كتابَه فسوف يُحاسَبُ، قَالَ تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَـٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة:٢٥-٢٦].

فهُم يُحاسَبُون، لكنَّهم لا يُحاسبون محاسبـةَ مَن تُوزَنُ حسناتُه وسيئاتُه؛ لِأَنَّهُمْ ليس لَهُمْ حسناتٌ، وإنما يُحاسَبون محاسبةَ تقريعٍ وتوبيخ.

من فوائد الآية الكريمة:

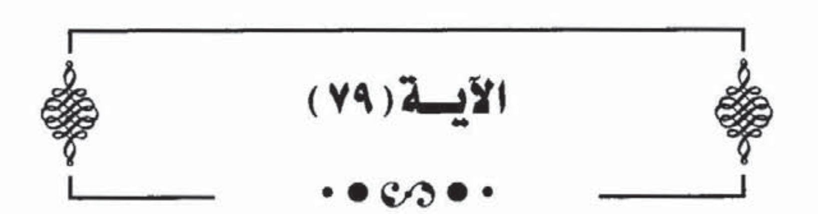
الْفَائِدَةُ الأُولَى: بيان بَغْيِ قارون، حَيْثُ لَمْ يَعْتَرِفْ بِفَضْلِ اللهِ عَلَيْهِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّ مَنِ اعْتَقَدَ أَنَّ مَا رَزَقَهُ اللهُ مِنْ كَسْبِـهِ، فهو مُشابه لقارونَ فِي عَدَمِ اعترافِه بنِعْمَة اللهِ، فالإنسان الَّذِي يَقُولُ: حصَّلت هذا بيدي، وبمعرفتي بالأمور والمكاسب. نقول له: أنت مُشابه لقارون.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: تقريع أولئك الذي يفتخرون بسعيهم، بِأَنَّ اللهَ تعالى قَدْ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَهُمْ مِنَ القرون مِمَّنْ هُوَ أَشَدُّ منهم قوةً، وأكثر جمعًا.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّ المجرمين عند إهلاكهم لا يُسألون فيُرحمون، وإنما يُهلَكُون بِدُونِ سؤال، لِقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾.

• • ۞ • •



الآية (٧٩)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [القَصص:٧٩].

•••

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿فَخَرَجَ﴾ قَارُونَ ﴿عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦ﴾ بِأَتْبَاعِهِ الْكَثِيرِينَ رُكْبَانًا مُتَحَلِّينَ بِمَلَابِسِ الذَّهَبِ وَالْحَرِيرِ عَلَى خُيُولٍ وَبِغَالٍ مُتَحَلِّيَةٍ ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ﴾ يَا: لِلتَّنْبِيهِ ﴿لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ﴾ فِي الدُّنْيَا ﴿إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ﴾ نَصِيبٍ ﴿عَظِيمٍ﴾ وَافٍ فِيهَا].

قَوْلُه تعالى: ﴿فَخَرَجَ﴾ أي: قارون، ﴿عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ المراد بقومه بَنُو إِسْرَائِيلَ، وَقَدْ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ ﴿فِي زِينَتِهِۦ﴾، والجُملة حَالٌ مِنْ فَاعِلِ (خَرَجَ)، يعني: حَالَ كَوْنِهِ متلبسًا في زينته.

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ مفسرًا للزِّينة: [بِأَتْبَاعِهِ الكَثِيرِينَ]؛ لأن الأتباع مِنَ الخَدَمِ ونحوهم زِينَةُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا، قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف:٤٦].

ويحتمِل خِلَافَ مَا قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ، وهو أَنَّ المُرَادَ بزينته أي: بماله الْعَظِيمِ الَّذِي يتزين بِهِمْ مِنَ الخَدَمِ والمركوبات والأمتاع، وغيرها.

ثُمَّ قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [بِأَتْبَاعِهِ الْكَثِيرِينَ رُكْبَانًا مُتَحَلِّينَ بِمَلَابِسِ الذَّهَبِ

وَالْحَرِيرِ عَلَى خُيُولٍ وَبِغَالٍ مُتَحَلِّيَةٍ].

قَدْ يَكُونُ الْأَمْرُ كَما قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وَقَدْ يَكُونُ أَقَلَّ، وَقَدْ يَكُونُ أَعْظَمَ مِمَّا قَالَ، فَالْأَوْلَى أَنْ تَبْقَى الْآيَةُ عَلَى ظَاهِرِهَا.

قَوْلُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فِي زِينَتِهِۦ﴾ أي: فيما يستطيع مِنَ الزِّينَةِ، سواء باللباس، أو بالمركوب، أو بالأتباع، أو بالمال، أَوْ بِغَيْرِ ذَلِكَ، أَيْ فِي زينته التي يَفْخَرُ بِهَا عَلَى قَوْمِهِ.

قَوْلُه تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: يبتغونها ويطلبونها ولها مِيزان فِي نُفُوسِهِمْ.

قَوْلُهُ: ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ﴾ يقول المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿يَا﴾ لِلتَّنْبِيهِ]، يعني: ليست للنداء، لِأَنَّهَا لَمْ تَدْخُلْ على مُنَادًى، فقوله: (لَيْتَ) حرفُ تَمَنٍّ، والمنادَى لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ اسْمًا يصح نداؤه، وعليه فتكون للتنبيه.

وقيل: إنها للنداء، والمنادَى محذوف تقديره: يَا قَوْمَنَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قارونُ، وهذا التركيب متكرر فِي الْقُرْآنِ الكريم، والنحويون اخْتَلَفُوا فِيهِ عَلَى هَذَيْنِ الْوَجْهَيْنِ، مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: هو لمجرد التنبيه، وَلَيْسَ هُنَاكَ نداء ولا منادى، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: هو للنداء، وأن المنادى محذوف، فالتقدير -مثلًا- هنا: يَا قَوْمَنَا لَيْتَ لَنَا.

قوله: ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ﴾ اسم (لَيْتَ) هو ﴿مِثْلَ﴾ وهو منصوبٌ، وخبرُها مُقَدَّم، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿لَنَا﴾ وَهُوَ فِي مَحَلِّ رفع؛ لأن التقدير: ليت مِثْلَ مَا أُوتِيَ قارونُ لنا.

قَوْلُه تعالى: ﴿مِثْلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ﴾: ﴿أُوتِيَ﴾ بمعنى: أُعطِيَ قارون مِنَ المَالِ؛

وَلِهَذَا قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فِي الدُّنيا]، مِنَ المَالِ والكنوز والزينة.

ونرى أَنَّهُمْ لَمْ يَقُولُو: يا لَيْتَ لَنَا مَا أُوتِيَ قارون، بَلْ قَالُوا: مِثْلَه؛ لِأَنَّهُمْ لَوْ قَالُوا: لَيْتَ لَنَا مَا أُوتِيَ قارون، كَانَ ذَلِكَ حسدًا؛ لأنهم يَتَمَنَّون بذلك زَوَالَ النِّعْمَةِ عنه، لكنهم قالوا: مِثلَه، وهذا الْأَمْرُ لَا يَجُوزُ، إذا أُعطُوا مِثله، ولكن لهم مثلُه.

قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [نَصِيبٌ، ﴿عَظِيمٍ﴾ وَافٍ فِيهَا]. أي: فِي الدُّنْيَا.

قوله: ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: قارون، ﴿لَذُو﴾ أي: لصاحبِ، ﴿حَظٍّ﴾ أي: نصيب، ﴿عَظِيمٍ﴾ وافٍ، ويَحتمِل فِي المَعْنَى: وافِر، فالعظيم هو: الوافِرُ الكثير، فَهُوَ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ، وَهَذَا إِنَّمَا يقوله مَن كان نظرُه قاصرًا، وَلَا يُرِيدُ إِلَّا الدُّنيا.

والحقيقة أَنَّ الدُّنْيَا لَيْسَتْ هِيَ الحَظَّ، وإنما الحَظُّ نصيبُ الإِنْسَانِ مِنَ الْآخِرَةِ، أما نصيبُه مِنَ الدُّنْيَا، فَإِنَّهُ لَيْسَ بِشَيْءٍ؛ لأنه نصيبٌ يزولُ هو، أو يزول مَن أُعطِيَه وَلَا يَنْفَعُ؛ ولأنه نَصِيبُ فِي الْغَالِبِ يَحْمِلُ عَلَى الخُسارة والفساد، ويَحْمِلُ عَلَى الأَشَرِ والبَطَر، فيَخْسَر الإنسان دِينَه ودُنياه، فَلَيْسَ فِي الْحَقِيقَةِ حَظٌّ، لكن يَقُولُ ذَلِكَ مَنْ كان نَظَرُه قاصِرًا.

وإلى وقتنا هذا، النَّاسُ إِذَا رَأَوْا شخصًا تاجرًا كَبِيرًا قَدْ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ بِالمَالِ، قالوا: مَا شَاءَ اللهُ، إنه صاحِب حظ. ولكن هؤُلاءِ قِصارُ النَّظَر؛ إِذْ إِنَّ الحَظَّ الحقيقي هو حَظُّ الْآخِرَةِ، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت:٣٥]، هَذَا هو الْحَظُّ الْعَظِيمُ.

وَهُم فِي قَوْلِهِمْ لم يُقَيِّدوا ذَلِكَ أَيْضًا فِي الدُّنْيَا، كأنهم تَنَاسَوُا الآخِرَة، وَرَأَوْا أَنَّ

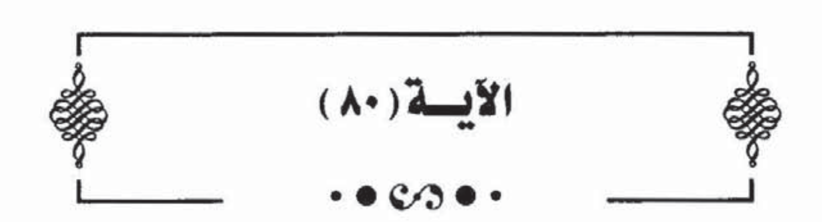
الحَظَّ هو حَظُّ الدُّنْيَا، ولكن قابَلَهم أَهْلُ الْعِلْمِ والإيمان بقولهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أَنَّ قارونَ كَانَ يُظْهِرُ الأُبَّهة والعَظمة، حيث يَخْرُجُ فِي زينته مِنَ المَالِ والرجال.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّ ذَوِي النظر القاصر يتمنَّون مَتَاعَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ﴾.

• • ۞ • •



الآية (٨٠)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ [القَصَص:٨٠].

•••

قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَقَالَ﴾ لَهُمُ ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ بِمَا وَعَدَ اللهُ فِي الْآخِرَةِ ﴿وَيْلَكُمْ﴾ كَلِمَةُ زَجْرٍ ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ﴾ فِي الْآخِرَةِ بِالْجَنَّةِ ﴿خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ مِمَّا أُوتِيَ قَارُونُ فِي الدُّنْيَا ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ أَيِ الْجَنَّةُ الْمُثَابُ بِهَا ﴿إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ عَلَى الطَّاعَةِ، وَعَنِ المَعْصِيَةِ].

قَوْلُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الأولين جُهَّال، ليس عندهم عِلْمٌ، وَلَا معرفةٌ بالأمور وحقائقها.

قوله: ﴿وَيْلَكُمْ﴾ كلمةُ زَجْرٍ، يُقْصَدُ بِهَا زَجْرُ الإنسان عما يُرِيدُهُ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي يَنْبَغي الزَّجْرُ عنها، وَهِيَ فِي الْأَصْلِ (وَيْل)، أي: عذاب، قَالَ تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾ [الماعون:٤]، ولكنها يُرَادُ بِهَا الزَّجْر، أي: وَيْلَكُم إِنْ تَمَنَّيْتُم ذلك، أي: مِثْل مَا أُوتِيَ قارونُ.

وإعرابُ (وَيْلَ): مفعولٌ لِفِعْلٍ محذوفٍ تقديرُه: أَلْزَمَكُمُ اللهُ وَيْلَكم، أي: جعل الوَيْلَ لازِمًا لَكُمْ إِنْ أَنْتُمْ تمنيتم مَا أُوتِيَ قارونُ، أَوْ مِثْله؛ لأن هناك مَا هُوَ أَفْضَلُ مِنْهُ.

قَوْلُه تعالى: ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ﴾ قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فِي الْآخِرَةِ فِي الْجَنَّةِ].

قوله: ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ﴾ الثوابُ هُوَ الْجَزَاءُ؛ كأن العمل ثَابَ، أي: رَجَعَ إِلَى صَاحِبِهِ بجزاءٍ عليه، فثوابُ اللهِ فِي الْآخِرَةِ خيرٌ، لكن لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا، فالمؤمن العاملُ عَمَلًا صَالِحًا ثَوَابُ اللهِ لَهُ فِي الْآخِرَةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، بَلْ قَالَ الرَّسُول ﷺ: «لَمَوْضِعُ سَوْطٍ فِي الجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»[1].

قوله: ﴿لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ الإيمان: التصديقُ مع القَبول والإذعان.

وقوله: ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ الْعَمَل الصَّالِح: هُوَ الَّذِي جَمَعَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ: الإخلاص للهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والمتابعة لِرَسُولِهِ ﷺ، وَكُلُّ ذَلِكَ خَيْرٌ مما أُوتِيَ قارون فِي الدُّنْيَا.

قَوْلُه تعالى: ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَيِ الْجَنَّةُ الْمُثَابُ بِهَا، ﴿إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ عَلَى الطَّاعَةِ، وَعَنِ المَعْصِيَةِ].

قَوْلُه تعالى: ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ أي: ما يُوفَّق لها، ﴿إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [عَلَى الطَّاعَةِ، وَعَنِ المَعْصِيَةِ]، وَلَوْ أَنَّهُ أَتَى بالأمر الثالث، وهو الأقدار، أي لَوْ قَالَ: وعلى الأقدار. لَتَمَّ لَهُ الْأَمْرُ، فالتَّفسير ناقص، فهُمُ الصابرون عَلَى طَاعَةِ اللهِ، لا يَمَلُّون، ولا يَفْتُرُون، ومَعْصِيَةُ اللهِ لَا يُمارِسُونها، وعلى أقدار الله المؤلمة لا يَتَسَخَّطُون منها. وَاللهُ أَعْلَمُ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أَنَّ أَهْلَ الْعِلْمِ الَّذين يعلَمُون حقائِقَ الأُمور، يَدْرُون أَنَّ هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَيْسَتْ بشيء، وأَنَّ ثَوَابَ الْآخِرَةِ أَعْظَمُ وأَجَلُّ.

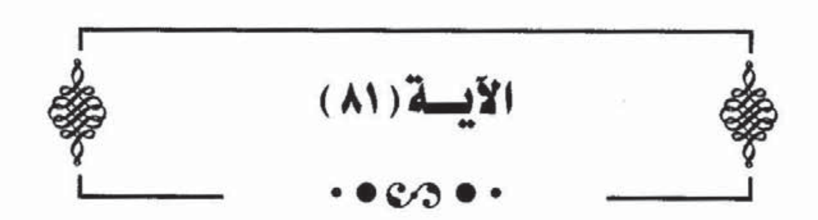
الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّهُ لَا يَنالُ ثوابَ الْآخِرَةِ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا؛ لقوله:

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب فضل رباط يوم في سبيل الله، رقم (٢٨٩٢).

﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّهُ لَا يُوَفَّق لذلك الثَّوَابِ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا الصابرون عَلَى طَاعَةِ اللهِ، وعن معصيته، وعلى أقداره؛ لِقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾.

• • ❁ • •



الآية (٨١)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ [القَصَص:٨١].

• • ◦ • •

قال المُفَسِّرُ: [﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ﴾ بِقَارُونَ ﴿وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أَيْ غَيْرُهُ بِأَنْ يَمْنَعُوا عَنْهُ الْهَلَاكَ ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ مِنْهُ].

قَوْلُه تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ أي بقارون، فَهَوى فِي الْأَرْضِ هُوَ ودارُه، ولم تُغنِ عنه الْأَمْوَالُ، وَلَا الرِّجَالُ، وَلَا غَيْرُها، وَإِنَّمَا كَانَتْ عقوبته بالخَسْف؛ لِأَنَّهُ كَانَ بَاغِيًا عاليًا متكبرًا، فأُخِذ بما يُناسب حالَه، فالعالي أشد عقوبةٍ لَهُ أَنْ يُنَزَّلَ مِن مكانته العالية، ولهذا كانت العقوبة مناسبةً للعَمل، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ [العنكبوت:٤٠]، وممن خسف اللهُ بِهِ الأرض قارونُ ودارُه.

قَوْلُه تعالى: ﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَيْ غَيْرُهُ بِأَنْ يَمْنَعُوا عَنْهُ الْهَلَاكَ].

قوله: ﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ﴾ ما نافية، و﴿مِن﴾ مِن حَرْفُ جَرٍّ زائدٌ إعرابًا، و﴿فِئَةٍ﴾ اسْمُ كَانَ مرفوع بها، وعلامةُ رفعِه ضمةٌ مُقَدَّرَةٌ عَلَى آخِرِهِ، مَنَعَ مِن

ظُهورها اشتغالُ المحَلِّ بحركة المناسبة، أي مناسَبة حَرْفِ الجَرِّ الزائد.

والإتيان بـ﴿مِن﴾ هنا له فَائِدَةٌ مَنْ حيث المعنى، وهي التنصيص عَلَى الْعُمُومِ، أي: مَا كَانَ لَهُ أَيُّ فِئَةٍ تَقُومُ بِنَصْرِه.

والفئةُ: الطَّائِفَةُ الَّتِي يَرْجِعُ إِلَيْهَا المـرء، هذه الفئة مَأْخُـوذَةٌ مِن فَاءَ يَفِيءُ: إِذَا رَجَعَ؛ لأن الفِئة التي يَرْجِعُ إِلَيْهَا المرء لتُنَاصِره هي محلُّ فَيئِه، أي: محلُّ رُجوعه.

والمعنى: أنه مَا كَانَ لَهُ أَحَدٌ ينصره، حَتَّى ما جَرَتِ العادةُ بأنه ينتصر بهم.

وقوله: ﴿يَنصُرُونَهُۥ﴾ النَّصر: المنعُ مما يَضُرُّ، وقوله: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: ﴿دُونِ﴾ هُنَا بِمَعْنَى غير، فلَمَّا نَزَلَ بِهِ بأسُ الله، ما نَفَعَتْهُ زِينَتُه، ولا مَنَعَه جنودُه؛ لِأَنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ لَهُ الْقُوَّةُ الكاملة، والقُدرة العظيمة.

قَوْلُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾: (مِن) أي: مَا كَانَ أَحَدٌ ينصره، وَلَا هُوَ أَيْضًا انتَصر بنفسِه، فصار ضعيفًا بنفسه وبِغَيْرِه، فقوله: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ أي: مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وَمِن عذابِه، بل أصبحَ عاجزًا وَهُوَ فِي بَيْتِهِ، مخسوفًا به.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: بيانُ قُدْرَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: التَّحْذِيرُ مِنَ التعالي والبغي عَلَى الخَلْقِ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّ اللهَ تعالى إِذَا أَنْزَلَ العقوبةَ بأحدٍ، فَلَيْسَ لَهُ ناصـرٌ دُونِ الله، ولو عظُمـت قُوَّتُه، وكَثُرَ جُنْدُه؛ لقوله: ﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾.

• • ۞ • •



الآية (٨٢)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْاْ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [القصص:٨٢].

•••

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْاْ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ﴾ أَيْ مِنْ قَرِيبٍ ﴿يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ﴾ يُوَسِّعُ ﴿ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ﴾ يُضَيِّقُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ، وَ(وَيْ) اسْمُ فِعْلٍ بِمَعْنَى أَعْجَبُ، أَيْ أَنَا، وَ(الْكَافُ) بِمَعْنَى (اللَّامِ) ﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا﴾ بِالْبِنَاءِ لِلْفَاعِلِ وَالْمَفْعُولِ ﴿وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ لِنِعْمَةِ اللهِ كَفَّارُونَ].

قَوْلُه تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْاْ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ﴾ أصبح هنا معناها: صار، أي: صار الذين تمنَّوا مكانه بالأمس يقولون... إِلَى آخِرِهِ.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ بِمَعْنَى أصبح، أي: دَخلُوا فِي الصباح، كَمَا فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ﴾ [القصص:١٨].

قَوْلُه تعالى: ﴿وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾ صار الآن الَّذِينَ كَانُوا يتمنَّون مِثْلَ مَا أُوتِيَ قارون يتعجبون، ويعلمون أَنَّ اللهَ يُوَسِّع الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ، ويُضَيِّقُه عَلَى مَنْ يَشَاءُ، وَأَنَّ هَذَا عَلَى حَسَبِ مُقْتَضَى حِكمته؛ وليس لأن قارون لَهُ حَظٌّ عظيم،

بل لأن اللهَ هُوَ الَّذِي يُعْطِي ويمنع.

إعراب قوله: ﴿ٱللَّهَ﴾ لفظ الجلالة هنا يُعرَب اسمَ (إِنَّ) عَلَى أَحَدِ الْوَجْهَيْـنِ، واسم (كَأَنَّ) عَلَى الْوَجْهِ الثَّانِي.

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿يَبْسُطُ﴾: يُوَسِّعُ]، وقوله: ﴿ٱلرِّزْقَ﴾ أي: العَطاء، وقوله: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ مَنْ بِمَعْنَى الَّذِي، أي: للذي يشاء.

وهذه المشيئة هي مشيئةٌ مقرونة بحكمةٍ، وَقَدْ بَيَّنَّا قَبْلَ ذلك أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ علَّقه اللهُ تعالى بمشيئته؛ فإنه مقرونٌ بحِكمته، فَاللهُ تعالى يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ ممن اقتضت حكمتهُ أَنْ يَبْسُطَ لَهُمُ الرزق، وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ القدسي: «**إِنَّ مِنْ عِبَادِي الْمُؤْمِنِينَ لَمَنْ لَا يُصْلِحُ إِيمَانَهُ إِلَّا الْغِنَى، وَلَوْ أَفْقَرْتُهُ لَأَفْسَدَهُ ذَلِكَ، وَإِنَّ مِنْ عِبَادِي الْمُؤْمِنِينَ لَمَنْ لَا يُصلِحُ إِيمَانَهُ إِلَّا الْفَقْرُ، وَلَوْ أَغْنَيْتُهُ لَأَفْسَدَهُ ذَلِكَ**»[(١)].

فالله تعالى حكيم، يَبْسُطُ الرِّزْقَ لفلان؛ لأن الحكمة تَقْتَضِي ذَلِكَ، ويضيِّقه عَلَى فُلَانٍ؛ لأن الحكمة تَقْتَضِي ذَلِكَ، وليس لِأَنَّ الْمَسْأَلَةَ مسألةٌ اعتباطيَّة دون أيِّ رَوِيَّة، بل للهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْحِكْمَةُ فِيمَا أعطى، وفيما مَنَع.

وقوله: ﴿مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ عباد: جمعُ عَبْدٍ، والمراد بالعبُوديَّة هنا العُبوديَّة العامَّة، الَّتِي هِيَ التذلُّل للأمر الكوني، وليست العبودية الخاصة الَّتِي هِيَ التذلُّل للأمر الشرعي، وقد مَرَّ عَلَيْنَا أَنَّ العبودية تَنْقَسِمُ إِلَى اثْنَيْنِ:

عبودية عامَّة: وهي الخُضوع للأمر الكوني، وهي شَامِلَةٌ لِجَمِيعِ الخَلق، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم:٩٣].

---

(١) أخرجه البغوي في شرح السنة (٥/ ٢٢)، وأبو نعيم في الحلية (٨/ ٣١٨)، وابن عساكر (٧/ ٩٥).

عبودية خاصَّة: وهي الخضوع للأمر الشرعي، مِثْل قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان:٦٣]، وهذه خاصة بالمؤمنين.

فالعُبودية المرادة فِي الْآيَةِ هِيَ العُبودية العامَّة؛ لأن بَسْطَ الرزق وتَضْيِيقَه يكون للمؤمن، ولِغَيْرِ المؤمن.

وَفِي قَوْلِه: ﴿مِنْ عِبَادِهِ﴾ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ جَمِيعَ الْخَلْقِ فِي قَبْضَتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وَأَنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونه.

وعليه؛ فإننا إِذَا كُنَّا بالله، ومع الله، فلا نهابُ أَيَّ قُوَّةٍ فِي الْعَالَمِ؛ لأنَّنا نعلم أَنَّ كُلَّ مَا فِي الكون خاضِعٌ للهِ تعالى.

وقوله: ﴿وَيَقْدِرُ﴾ يُضيِّق عَلَى مَنْ يَشَاءُ، أي: يَجْعَلُهُ عَلَى قَدْرٍ مُعَيَّن، قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ [الطلاق:٧]، فهنا ﴿قُدِرَ﴾ بمعنى: ضُيِّقَ عَلَيْهِ حَتَّى صَارَ عَلَى قَدْرِ كفايته، أَوْ عَلَى أَقَلَّ أيضًا، فَاللهُ تعالى لَهُ الْحُكْمُ فِي بَسْطِ الرزق وتَضْيِيقِه.

فَمِنَ النَّاسِ مَنْ أفسَدَهُ الغِنى، مِثل قارون، وَمِنْهُمْ مَنْ يُفْسِده الفقر، قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ [الحج:١١]، فَمِنَ النَّاسِ مَنْ إِذَا افْتَقَرَ بَعْد الغِنى أَبى أَنْ يَتحمَّلَ مَا نَزَلَ بِهِ، فيكفُر بالله، وَمِنْهُمْ مَنْ ينتحر.

قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [(وَيْ) اسْمُ فِعْلٍ بِمَعْنَى أَعْجَبُ، أَيْ: أَنَا، وَ(الْكَافُ) بِمَعْنَى (اللَّامِ)].

إذن: هُوَ اسْمُ فعلٍ مُضارع، بمعنى: أَعْجَبُ.

وقوله: [أَيْ: أَنَا]، يعني أن ففاعِلَه ضميرٌ مُستتر وُجوبًا، تقديره: أنا.

وقوله: [وَ(الْكَافُ) بِمَعْنَى (اللَّام)]، أي: لِأَنَّ اللَّامَ هُنَا بِمَعْنَى التَّعلِيل، أي: أعجب لِهَذَا الْأَمْرِ؛ لِأَنَّهُ لَا يَصْلُحُ، أي: أَعْجَبُ لِعَدم صلاحِ الكافرين.

فقوله: ﴿وَيْكَأَنَّهُۥ﴾ مُركَّب مِنْ أَرْبَعِ كلمات، لا أربعةِ حُروف، وهي: (وَيْ) اسمُ فِعْل، و(الكاف) بمعنى اللام للتَّعلِيل، و(أَنَّ) حرفُ توكيدٍ، و(الهاء) اسمُها.

وَعَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ يجوز الْوُقُوفُ عَلَى (وَيْ)، فتقول مثلًا: ﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْ﴾، ثم تقرأ: ﴿كَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾.

وَقَالَ بَعْضُهُم: إنَّ (وَيْ) اسمُ فعلٍ مضارع، و(الكاف) حرف خطاب، وليست حَرْف جرٍّ، ولا مَحَلَّ لَهَا مِنَ الإعراب؛ لِأَنَّ هَذَا الْفِعْلَ فاعلُه مُستتر تقديرُه: أنا.

وَعَلَى هَذَا، يكون أنَّه حرفُ توكيد، والجُملة التَّعليلية عَلَى تَقْدِيرِ اللام، فَقَوْلُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون:٦٠]، فهنا فتح الهمزة؛ لأنها تعليلية، هذان إعرابان.

والإعراب الثالث: (وي) اسمُ فِعلٍ مضارع بمعنى: أَعْجَبُ، و(كأَنَّ) حرفُ تشبيه، والمراد بهذا التَّشبِيه التحقيقُ، كما تقول للإنسان: كأنك فاهِمٌ، أي: إنه فاهم، كذلك: كأنه لا يُفلح، أي: أعجب، كأنه لا يفلح الكافِرُون، أي: إن الأمر حق لا يفلح الكافِرُون.

فـ(كَأَنَّ) للتَّشبِيه إذا دخلت على اسمٍ جامِد، وللضَّمِّ، أو للتحقيق إذا دخلت على مُشْتَقٍّ.

وقوله تعالى: ﴿لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ الفلاح هُوَ الْفَوْزُ بالمطلوب، وَالنَّجَاةُ مِنَ

المرفوض، وَهِيَ كَلِمَةٌ مَنْ أَجْمَعَ الكلمات.

وقوله: ﴿ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أي: الكافرين بالله عَزَّوَجَلَّ، وَكُلُّ مَا أُطْلِقَ الكفرُ فَالْمُرَادُ بِهِ الْكُفْرُ بِاللهِ، أَمَّا إِذَا قُيِّد فهو بِحَسَبِ مَا قُيِّد به، فَقَوْلُهُ تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ [البقرة:٢٥٦]، هنا قَيَّد الكفرَ بالطاغوت، لَكِنْ عِنْدَ الْإِطْلَاقِ يَكُونُ الكُفر بالله، فَكُلُّ مَنْ كَفَرَ بِاللهِ بأَيِّ نَوْعٍ مِن أَنْوَاعِ الْكُفْرِ، سَوَاءٌ كَانَ كُفْرَ تكذيب، أَوْ كُفْرَ استِكْبار؛ فَإِنَّهُ لَا يُفْلِحُ.

إِذَا قَالَ قَائِلٌ: أَلَا يُشْكِلُ عَلَى هَذَا مَا كَانَ عَلَيْهِ أَهْلُ الْكُفْرِ مِنَ النَّعِيمِ، والتَّرَف فِي الدُّنْيَا؟

نقول: لَا يُشْكِلُ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يُفلحوا، حتى وإِنْ نُعِّموا فِي الدُّنْيَا، فلا يُفيدهم النعيم، وهُم إذا ماتوا انتقلوا إِلَى الْجَحِيمِ، فهذا النَّعِيمُ فِي الْحَقِيقَةِ يكون وبالًا عليهم؛ لأنه يتحول بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى عَذَابٍ.

ولهذا إذا عُذِّب أَحَدٌ فِي الدُّنْيَا فَإِنَّهُ ينتحر، ويتخلص مِن التزامه إلى راحةٍ.

عَلَى كُلِّ حَالٍ: هُوَ لَا يَفرح، بل يزداد شقاءً، لكن المقصود أَنَّهُ إِذَا انتقل مِنْ هَذَا النعيم إِلَى عَذَابِ الجحيم، صَارَ هَذَا أشدَّ وأَنْكَى، وأعظمَ عليه، وأبلغَ حَسْرةً، فَهُمْ فِي الْحَقِيقَةِ لَمْ يفلحوا.

وهُم ما استفادوا مِن وقتهم فِي الدُّنْيَا شيئًا، بل خَسِرُوه، قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [العصر:١-٣].

قَوْله تعالى: ﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا﴾ قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بِالْبِنَاءِ

لِلْفَاعِلِ وَالمَفْعُولِ][1].

قوله: ﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ﴾ لَوْلَا شَرطية، وَهِيَ حَرْفُ امتناعٍ لِوُجُودٍ، فقد امتنع الخسف لوجود المنَّة، وَمَا بَعْدَهُ يكون مبتدأً، وخبرُه محذوف غالبًا، قَالَ ابْنُ مالك[2]:

وَبَعْدَ لَـوْلَا غَالِبًـا حَـذْفُ الخَـبَرْ ....

قَوْله: ﴿أَن مَّنَّ ٱللَّهُ﴾: ﴿أَن﴾ مَصْدَرِيَّة، وقوله: ﴿مَّنَّ﴾ فِعلٌ ماضٍ، و(أَنْ) وما دَخَلَتْ عَلَيْهِ فِي تَأْوِيلِ مصدر مبتدأ، أي: لولا مِنَّةُ اللهِ عَلَيْنَا، والخبرُ محذوف تقديره: لولا مِنَّةُ اللهِ عَلَيْنَا موجودة، أو واقعة.

وَعِنْدِي أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يُقَالَ: إن المبتدأ هُنَا لَا يَحْتَاجُ إِلَى خَبَـرٍ أصلًا، فلَا نَقُولُ كَمَا قَالَ النحويون: إنه محذوف، بَلْ نَقُولُ: إِنَّهُ لَا حَاجَةَ إِلَيْهِ؛ لِدَلَالة الجْوَابِ عَلَيْهِ، ونقول: هو مبتدأ، وَلَا يَحْتَاجُ إِلَى خَبَرٍ، كَمَا قِيلَ فِي الْقَسَمِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ﴾ [الفجر:١-٥]، إِنَّهُ لَا يَحْتَاجُ إِلَى جوَابٍ، فابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي كِتَابِهِ مختصر الصواعق المرسلة قال: «وَأَمَّا نَحْوُ قَوْلِهِ: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ﴾ [الشعراء:٦٣]، فَلَيْسَ هُنَاكَ تَقْدِيرٌ أَصْلًا إِذِ الْكَلَامُ مُسْتَغْنٍ بِنَفْسِهِ غَيْرُ مُحْتَاجٍ إِلَى تَقْدِيرٍ، فَإِنَّ الَّذِي يَدَّعِي تَقْدِيرَهُ قَدْ دَلَّ اللَّفْظُ عَلَيْهِ بِاللُّزُومِ، فَكَأَنَّهُ مَذْكُورٌ، لِأَنَّ اللَّفْظَ يَدُلُّ بِلَازِمِهِ كَمَا يَدُلُّ بِحُرُوفِهِ، وَلَا يُقَالُ لِمَا دَلَّ عَلَيْهِ دَلَالَةَ الْتِزَامٍ إِنَّهُ مَحْذُوفٌ»[3].

ونقول: استُغْنِي عَنْهُ فِي الجُمْلَةِ؛ لأن دَلَالَةَ اللَّفْظِ عَلَى مَعْنَاهُ لَيْسَتْ دَلالة ذاتية،

---

(١) السبعة في القراءات، لابن مجاهد (ص٤٩٥).

(٢) ألفية ابن مالك (ص١٨).

(٣) مختصر الصواعق المرسلة، لابن القيم (ص٣٥٣).

بَلْ إِذَا كَانَ السياق لَا يُحْتَاجُ إِلَى تَقْدِيرٍ، فلا نُقَدِّر.

وقوله: ﴿مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ المنُّ: هو العطاء الَّذِي لَا يُرَادُ بِهِ المقابلة، أو المكافأة، ولا رَيْبَ أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لَا يُرِيدُ مِن عِباده أَنْ يُكافئوه؛ لِأَنَّهُمْ لَوْ حاولوا المكافأة ما استطاعوا، قَالَ تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم:٣٤]، وقوله: ﴿لَخَسَفَ بِنَا﴾ كما خَسَفَ بقارون، ولكن مِنَّةُ اللهِ عَلَيْهِمْ منعت ذلك، فرَجَعُوا إِلَى الصَّوَابِ، وعرفوا أَنَّ أَمْوَالَ قارونَ لَمْ تُغْنِ عَنْهُ شَيْئًا.

يقول المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿لَخَسَفَ بِنَا﴾ [بِالْبِنَاءِ لِلْفَاعِلِ وَالْمَفْعُولِ] أي: قراءتان سَبْعِيَّتَان: ﴿لَخَسَفَ بِنَا﴾ و«لَخُسِفَ بِنَا»، وعلى قراءة ﴿لَخَسَفَ بِنَا﴾ أي: لَخَسَفَ بنا كما خَسَف بقارون، وعلى قراءة: «لَخُسِفَ بِنَا»، فَإِنَّ المُرَادَ خَسَفَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ لا شَكَّ، لكنهم قَالُوا ذَلِكَ تأدبًا، فلم يَنسِبُوا الخَسف إِلَى اللهِ، بل بَنَوْه للمفعول؛ كَرَاهِيَةَ أَنْ يَنسِبُوا الخَسْفَ إِلَى اللهِ، كقول الجِنِّ: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن:١٠]، فهم يعرفون أَنَّ الَّذِي يُرِيدُ ذَلِكَ كُلَّهُ هُوَ اللهُ، لَكِنْ لَمَّا تكلَّموا عَنِ الشَّرِّ لم يَنسِبُوهُ إِلَى اللهِ، وَهَذَا مِنَ الْأَدَبِ فِي اللَّفْظِ.

فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يترك الْأَمْرَ عَلَى حَقِيقَتِهِ؛ إظهارًا لِعَظَمَتِه، لكن العباد يتأدبون بالأدب، فلا يَنْسِبُونَ إِلَى اللهِ تعالى الشرَّ، ولا الخَسْفَ، ولا الأخذَ.

أَمَّا كونُ الله يَنسِبُ ذَلِكَ إِلَى نَفسِهِ، فهذا إظهارٌ للعَظَمَة، ولضعف هَؤُلَاءِ المُعَذَّبِينَ.

قَوْلُه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [لِنِعْمَةِ اللهِ كَفَارُونَ].

وقد تَقَدَّم الْكَلَامُ عَلَى إعراب: ﴿وَيْكَأَنَّهُۥ﴾.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أَنَّ الَّذِينَ تَمَنَّوا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قارونُ عَرَفُوا أَنَّ مَا أُوتِيَهُ ليس لكونه أَهْلًا لَهُ، بل لِأَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ؛ لِأَنَّهُ قَالَ لَهُمْ فِي الْجَوَابِ: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾، وهنا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ لَيْسَ لهذا السبب، وَلَكِنْ لِأَنَّ اللهَ تعالى بِيَدِهِ الأمرُ، فقال: ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: بَيَانُ أَنَّ تَمَنِّيَ مَتَاعِ الدُّنْيَا لَا بُدَّ أَنْ يَتَبَيَّنَ للمرء أنه تَمَنٍّ لَا حَقِيقَةَ لَهُ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ يزول، فهؤُلاءِ الذين تَمَنَّوْا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قارون لَمَّا زَالَ، وخُسِفَ به عرفوا أَنَّ هَذَا التَّمَنِّيَ فِي غَيْرِ مَحَلِّهِ، وأَنَّ حقيقة الْأَمْرِ أَنْ يتمنى الْإِنْسَانُ مَا فِيهِ ثَوَابُ الْآخِرَةِ.

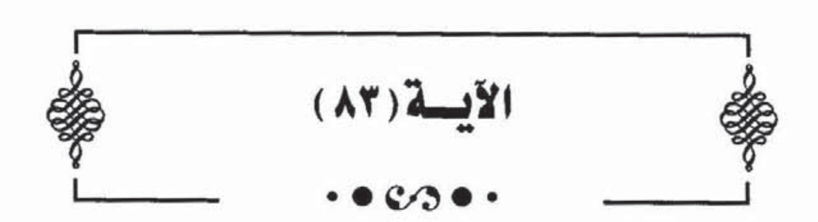
الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثباتُ مَشِيئَةِ اللهِ؛ لقوله: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إثبات حِكْمَتِهِ فِي بَسْطِ الرزق وتضييقه: يَبْسُط ويَقْدِرُ، وهذا تابع لِحِكْمَتِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

الْفَائِدَةُ الْخَامِسَةُ: اعتراف هؤُلاءِ الْمُتَمَنِّينَ بِمِنَّةِ اللهِ عَلَيْهِمْ فِي قَوْلِهِمْ: ﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا﴾، فهنا عرفوا مِنَّةَ اللهِ عَلَيْهِمْ؛ حَيْثُ لَمْ يُعْطِهِمْ مِثْلَ مَا أَعْطى قارونَ، فيكون مآلُهم كَمَآلِه، فتبَيَّنَ لَهُمْ بِذَلِكَ نِعْمَةُ اللهِ عَلَيْهِمْ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أَنَّهُ لَا فَلاح للكافر، ويتضح هذا مِن قولِه: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، ونأخذ مِنْ ذَلِكَ إِثْبَاتَ عكسه للمؤمنين، فَإِنَّ لَهُمُ الفلاحَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

••❁••



﴿ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القَصَص:٨٣].

•••

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ﴾ أي الجَنَّةُ ﴿نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ بِالْبَغْيِ ﴿وَلَا فَسَادًا﴾ بِعَمَلِ المَعَاصِي ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ﴾ المَحْمُودَةُ ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ عِقَابُ اللهِ بِعَمَلِ الطَّاعَاتِ].

قوله: ﴿تِلْكَ﴾ مبتدأ، وَهُوَ اسْمُ إشارة، وقوله: ﴿ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ صِفة لـ﴿تِلْكَ﴾، وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ خبرًا، وقوله: ﴿ٱلْآخِرَةُ﴾ يعني: بذلك الجنة؛ لِأَنَّهَا هِيَ الدَّارُ الآخِرَةُ.

فالإنسانُ له دُورٌ أَرْبَعٌ: الدَّارُ الأولى بَطْنُ أُمِّهِ، والثانيةُ الدُّنيا، والثالثة البَرْزَخ، والرابعة الآخِرَة، وَهِيَ الَّتِي لَيْسَ بَعْدَهَا دَارٌ، ولهذا وُصِفَت بأنها آخِرَةٌ، ليس بعدها شيء.

قَوْلُه تعالى: ﴿نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ﴾ بالنسبة لإعراب كلمة: ﴿نَجْعَلُهَا﴾، إنْ أَعْرَبْنَا: ﴿ٱلدَّارُ﴾ صفةً، فجُملة: ﴿نَجْعَلُهَا﴾ خبَرٌ، وإِنْ أَعْرَبْنا: ﴿ٱلدَّارُ﴾ خبَرًا، فجُملة: ﴿نَجْعَلُهَا﴾ حَالٌ مِن: ﴿ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ﴾، والضَّمير فِي قَوْلِهِ: ﴿نَجْعَلُهَا﴾ يَعُودُ إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأتى بضمير الجمع تَعْظِيمًا لَهُ.

قوله: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بِالْبَغْيِ، ﴿وَلَا فَسَادًا﴾ بِعَمَلِ المَعَاصِي].

وَهَذَا الْكَلَامُ خلافًا لقارُونَ وأمثالِه، فالدَّار الآخرةُ لِلَّذِينَ لَا يُريدون عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ، والعُلُوُّ هنا سَواءٌ كَانَ عُلُوًّا عن أَوَامِرِ اللهِ، أو عُلُوًّا على عِبَادِ اللهِ، فالذين لا يريدون العُلُوَّ إِنَّمَا يُرِيدُونَ الذُّلَّ لله، والذُّل للعباد عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يرضاه الله، هَؤُلَاءِ هُمُ الَّذِينَ لَهُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ، فَمَنْ أَرَادَ العُلُوَّ عَلَى الْخَلْقِ، كَانَ ذَلِكَ بِمَالِهِ، أَوْ بِعَشِيرته، أو بِقُوَّتِه البَدَنِيَّة، أو بِعِلْمِه، أو بسُلْطَان؛ فَإِنَّهُ لَا حَظَّ لَهُ فِي الْآخِرَةِ عَلَى حَسَبِ مَا عِنْدَهُ مِنْ إِرَادَةِ العُلو.

وقوله: ﴿وَلَا فَسَادًا﴾ الفساد -كَمَا يَقُولُ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ-: [بِعَمَلِ المَعَاصِي]؛ فَإِنَّ عَمَلَ العاصي فسادٌ فِي الْأَرْضِ، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ﴾ [الروم:٤١].

والْفَرْقُ بَيْنَ الصفتين: أَنَّ الْأَوَّلَ مستكبر مُتَعَالٍ فِي نَفْسِهِ، والثانيَ لَيْسَ كَذَلِكَ، بَلْ عَلَى العكس، ولكنه يريد المعاصي، يريد -مثلًا- الفُجور، يريد السرقة، يريد قَطْعَ الطَّرِيقِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، وكِلتا النِّيَّتَيْنِ باطلة: إرادةُ العُلو، وإرادةُ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ، فَمَنْ لَمْ يُرِدِ العُلو، ولا الفساد هُوَ الَّذِي تكُونُ لَهُ الدَّارُ الْآخِرَةُ.

قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ﴾ المَحْمُودَةُ ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ عِقَابَ اللهِ بِعَمَلِ الطَّاعَاتِ].

العاقبةُ هِيَ النِّهَايَةُ، التي تعقُب مَا سَبَقَهَا، وهذه للمتقين، فَمَنْ كَانَ مُتَّقِيًا لله عَزَّوَجَلَّ فالعاقبةُ لَهُ فِي كُلِّ حَالٍ، ولكنها تكُونُ لَهُ باعتبار شخصه وعمله أحيانًا، وَتكُونُ لَهُ باعتبار عمله دُون شخصه.

ولنفرض -مثلًا- أَنَّ هَذَا الإنسانَ الْمُتَّقِيَ قام بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِ مِنْ تَقْوَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وَدَعَا إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ، لكنه تُوفي قَبْلَ أَنْ تَتِمَّ له المهمة، فهل نَقُولُ إِنَّهُ لَمْ تتحقق له العاقبة، فَقَدْ مَاتَ.

ولكن العاقبة لِعَمَلِهِ الَّذِي دَعَا إِلَيْهِ، فَلَا بُدَّ أَنْ ينجح، وَلَوْ بَعْدَ وَفَاةِ العامل، فالإنسان الْمُتَّقِي للهِ عَزَّوَجَلَّ لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ العاقبة له، حَتَّى لَوِ اعتَدَى عَلَيْهِ مَنْ يعتدي، فَإِنَّ الْعَاقِبَةَ له، قَالَ تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء:١٠٥]، فالعاقبة للمتقين بِكُلِّ حَالٍ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: إثباتُ الجزاء يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ لقوله: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: مَدْحُ مَنْ لَا يُرِيدُ العُلو فِي الْأَرْضِ، وَلَا الفساد، وَهُوَ أَعْظَمُ مِنْ مَدْحِ مَنْ لَا يَعْلُو، وَلَا يُفْسِدُ.

ووَجْهُ ذَلِكَ أَنَّ انتفاءَ الإرادة يَلْزَمُ مِنْهُ انتفاءُ الفِعل، أما انتفاء الْفِعْلِ، فَلَا يَلْزَمُ مِنْهُ انتفاء الإرادة، فقَدْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ العُلو والفساد، وَلَكِنْ لَا يَعْلُو، وَلَا يُفْسِدُ؛ لعدم تَمكُّنه، أو لَسَبَبٍ مِنَ الأسباب، أَمَّا الَّذِي لَا يُرِيدُ، فهو أكمل.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّ النِّيَّةَ لها أثرٌ؛ لقوله: ﴿لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ والإرادة بمعنى النِّية.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: ذَمُّ مَنْ يُرِيدُ العُلو والفَساد، سواء علَا وأفسد، أَوْ لَمْ يَعلُ ويُفسد؛ لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ فِي الْجَنَّةِ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ لَا يريدون عُلوا ولا فسادًا، وَهَذَا مَدْحٌ لهم بلا رَيْبٍ؛ فَإِنَّ مَنْ أَرَادَ فهو مذموم، سواء تَمَكَّنَ مِنْ تنفيذ إرادته أَمْ لَمْ يَتَمَكَّنْ.

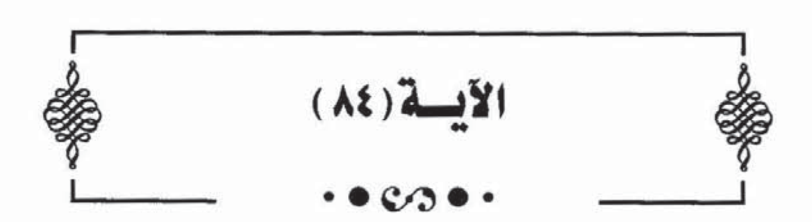
الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّ المَعَاصِيَ سببٌ للفساد، تُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَلَا فَسَادًا﴾؛ لأَنَّنا نعلم أَنَّ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ليس مَعْنَاهُ أَنْ يَأْخُذُوا المَعَاوِل والمَنَاشِـر، ويقطعوا الأشجار، ويهدموا البيوت، بَلِ المَعْنَى أَنَّهُمْ يفعلون أفعالًا تُوجِب الفساد.

ويُفسـر ذَلِكَ قَوْلُه تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم:٤١].

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: فضيلةُ التقوى، تُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أَنَّ العاقِبَةَ تكون للمُتقين، وَهِيَ لَيْسَتْ كَمَا قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ﴾ المَحْمُودَةُ]، بَلْ هِيَ أَعَمُّ مِن هذا، فالعاقِبَة فِي الدُّنْيا بِأَنْ يَكُونَ النصر لَهُ فِي آخِرِ الأمر، والعاقبة فِي الْآخِرَةِ بِأَنْ تَكُونَ الدَّارُ الْآخِرَةُ هِيَ الجنة لَهُ دُونَ غَيْـرِهِ، فالعاقبـة أَعَمُّ مِمَّا قال المُفَسِّـرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، حَتَّى فِي الدُّنْيَا، إِذَا تقابَلَ المتقـون والفُجار، فالنهاية للمتقين.

• ● ۞ ● •



الآية (٨٤)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [القَصص:٨٤].

•••

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ ثَوابٌ بِسَبَبِهَا، وَهُوَ عَشْرُ أَمْثَالِـهَا ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا﴾ جَـزَاءَ ﴿مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أَيْ مِثْلَهُ].

قوله: ﴿مَن جَآءَ﴾: ﴿مَن﴾ شرطية، وهي تَعُمُّ كُلَّ مَنْ جَاءَ، وقوله: ﴿بِٱلْحَسَنَةِ﴾ الباء للمُصاحَبة، ويَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ للتَّعْدِية، والمعنى: أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا أَتَى بالحسنة مصطحبًا لَهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ فَإِنَّ لَهُ خَيْرًا مِنْهَا، ولكن كيف ذلك؟

قَالَ الْمُفَسِّـرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [ثَوَابٌ بِسَبَبِهَا، وَهُوَ عَشْـرُ أَمْثَالِهَا]، ولكن لا تتوقـف عِنْدَ هَذَا الْعَـدَدِ فقط، بل تَصِلُ إِلَى سَبْعِمِـائَةِ ضِعْفٍ، وإلى أضعافٍ كثيـرة، وَاللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ، فالإنسانُ إِذَا جَاءَ بِالْحَسَنَةِ، فَلَهُ خَيْـرٌ مِنْهَا بلا رَيْـب، قال النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِنَّ اللهَ كَتَبَ الحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ، فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللهُ لَهُ عِنْدَهُ عَشْـرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِ مِائَـةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيـرَةٍ، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ، فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَـةً كَامِلَـةً، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا، كَتَبَهَا اللهُ لَهُ

سَيِّئَةً وَاحِدَةً»[1].

قَالَ الْمُفَسِّـرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ إِلَّا جَـزَاءَ ﴿مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ أَيْ: مِثْلَهُ]، أي: مَنْ جَاءَ بالسيئـة يَوْمَ الْقِيَامَـةِ؛ فَإِنَّـهُ لَا يُجزى إلا مِثْلَهَا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَلَا يُجۡزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ أي: إِلَّا جَزَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ، لَا يُزَادُ عليهم.

وَفِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَن جَآءَ﴾ فِي الْمَوْضِعَيْـنِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ الْمَدَار على مجـيء الإنسان بذلك، لَا عَلَى عَمَلِهِ، فقد يَعمل الحَسَنة، ثُمَّ يَرِدُ عَلَيْهَا مَا يُبطلها، فمثلًا: هناك إنسانٌ عَمِل صدقة، ثم مَنَّ بِهَا، أو آذى مَنْ تَصَدَّقَ عَلَيْهِ، فَلَا تَكُونُ هَذِهِ صَدَقَةً، وتَبْطُل، ولا يُثاب عَلَيْهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وإنسانٌ آخَر عَمِل سيئـة، لكنه تابَ منها، فذهبـت السيئة، فلَا يَأْتِي بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وقارون طغى فِي الْأَرْضِ وعَلا، ولم يَتُبْ، فعاقَبَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى صَارَ نازِلًا بعد أن كان عاليًا.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: جزاء الحَسنة خَيْرٌ مِنْهَا بالكَمِّية والكيفية، أما الكَمِّية فالحسنة بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، وأما الكيفية، فَإِنَّ جَزَاءَ الحسنة دائم، وفِعل الحسنة ليس بدائم، فالفِعل ينتهي بموت الإنسان، وَلِهَـذَا قَالَ اللهُ تعالى: ﴿بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ﴿١٦﴾ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ [الأعلى:١٦-١٧].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب من هم بحسنة أو بسيئة، رقم (٦٤٩١)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب إذا هم العبد بحسنة، رقم (١٣١).

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّهُ لَيْسَ المدار عَلَى عَمَلِ الحسنة، بل المدار عَلَى أَنْ يَأْتِيَ بالحسنة؛ لقوله: ﴿مَن جَآءَ﴾، فقد يعمل الإنسان الحَسنة، ولكن يأتيها ما يبطلها، فالمدار عَلَى أَنْ يَأْتِيَ الإنسان يَوْمَ الْقِيَامَةِ بالحَسنة، لَا عَلَى أَنْ يفعلها.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثبات الجزاء؛ لقوله: ﴿فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّ السيئة لا تُضاعَف، نأخذه مِنْ قَوْلِهِ تعالى: ﴿إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّ عَدمَ مُضاعفة السيئة عَامٌّ فِي مَكَّةَ، وَفِي غَيْرِهَا، ووجهه أَنَّ الْآيَةَ عَامَّةٌ، لَيْسَ فِيهَا استثناء، ثُمَّ إِنَّ سُورَةَ القصص مَكِّيَّة نَزَلَتْ بِمَكَّةَ، وَالْآيَةُ نَزَلَت بِمَكَّةَ، ولم يُستثنَ شيء.

وَأَمَّا مَا رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: «لَا أُقِيمَ فِي بَلَدٍ حَسَنَاتُهُ كَسَيِّئَاتِهِ». فَهَذَا بَاطِلٌ، لَا يَصِحُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ؛ لِأَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ أَكْبَرُ مِنْ أَنْ يَقُولَ مِثْلَ هَذَا الْقَوْلِ.

لكن السيئة فِي مَكَّةَ تُضاعَف، لَا مِنْ جِهَةِ الكَمِّية، وَلَكِنْ مِنْ جهة الكيفية، فتكون عُقوبتُها أَشَدَّ وأَبْلَغَ إيلامًا.

فالسيئةُ لَا تكُونُ عَشْرَ سيئاتٍ، لكنْ جزاؤها يَكُونَ أَشَدَّ، وَلِهَذَا قَالَ اللهُ تعالى: ﴿وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۢ بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ [الحج:٢٥].

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: التنديدُ بعامِلِ السيئات، أي: الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ؛ لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ لَمْ يَقُلْ: ﴿فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا﴾، كَمَا قَالَ فِي آيـةٍ أُخْرَى، وَلَكِنْ قَالَ: ﴿فَلَا يُجۡزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ﴾، فهذا تنديدٌ بِهِمْ، وبيانٌ لاستحقاقهم ما يسوؤهم مِنَ الْعَذَابِ، كَأَنَّهُ قَالَ: لِأَنَّهُمْ عَمِلُوا السيئات

يُجزون سيئة، فَهَذَا لَا شَكَّ أنه تَبْكِيتٌ، وتَنْدِيدٌ بهم؛ لِعَمَلِهِمُ السيئات.

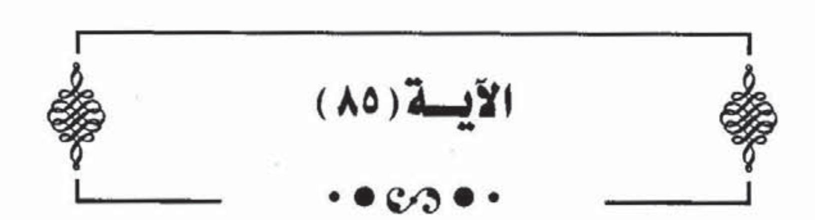
الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ ثَوَابَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى دائرٌ بين العَدل والفَضل، وهذان قِسمان، ثالثُهما: الجَوْر.

الفَضل بالنسبة للمحسنين، كَمَا قَالَ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾، والعَدْل بالنسبة للمُسيئين، كَمَا قَالَ: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

أما الجَوْرُ، فهذا مُمْتَنِعٌ فِي حَقِّ اللهِ، قَالَ تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه:١١٢]، فجزاءُ اللهِ تعالى دائرٌ بين الفضل والعدل.

إذن: فهو محمود عَلَى كُلِّ حَالٍ؛ لأنه إمَّا عَدْلٌ، وإِمَّا فَضْلٌ.

• • ۞ • •



الآية (٨٥)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [القَصَص:٨٥].

• • ❦ • •

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أَنْزَلَهُ ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ إِلَى مَكَّةَ وَكَانَ قَدِ اشْتَاقَهَا ﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ نَزَلَ جَوَابًا لِقَوْلِ كُفَّارِ مَكَّةَ لَهُ: إِنَّكَ فِي ضَلَالٍ، أَيْ فَهُوَ الْجَائِي بِالْهُدَى، وَهُمْ فِي ضَلَالٍ، وَأَعْلَمُ بِمَعْنَى عَالِمٍ].

قَوْلُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ﴾ وَهُوَ اللهُ، وهذا وعدٌ محقَّق ببيان الشاهد ليُقاس عليه الغائب؛ فَإِنَّ فَرْضَ الْقُرْآنِ عَلَى الرَّسُولِ ﷺ ثابتٌ محقق، وَرَدَّهُ ﴿إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ موجود، وليس مشهودًا، فَأَرَادَ أَنْ يُحَقِّقَ الموجودَ بالمشهودِ.

قَوْلُه تعالى: ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ هنا لَمْ يَقُلْ ربنا عَزَّوَجَلَّ: (إِنَّ اللهَ رادُّكَ إلى مَعاد)، بَلْ قَالَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾؛ لأن فَرْضَ الْقُرْآنِ عَلَى الرَّسُولِ ﷺ مُتيقَّن، فأراد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أَنْ يُثبت الموجود بالمشهود؛ فَإِنَّ فَرْضَ القرآن مشهود معلوم، وَرَدَّهُ إِلَى مَعَادٍ موجودٌ غيرُ مشهود، ولكنه حَقَّقَ ذلك الموجودَ بالمشهود.

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾: [أَنْزَلَهُ]، وَهَذَا أَحَدُ

التفسيرين فِي الْآيَةِ، وقيل: ﴿فَرَضَ﴾ بمعنى: أوجب عَلَيْك الْقُرْآنَ، أي: أوجب عليك تِلاوته وتبليغه وَالْعَمَلَ بِهِ.

أي: إِنَّ اللهَ فَرَضَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ في الْقُرْآنِ ثَلَاثَةَ أُمُورٍ: أَنْ يَتْلُوَهُ، وأَنْ يُبَلِّغَهُ إِلَى النَّاسِ، وَأَنْ يَعْمَلَ بِهِ.

وحينئذٍ يَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي: فَرَضَ عَلَيْكَ تِلاوته، وتبليغه، وَالْعَمَلَ بِهِ.

وَهَذَا التَّفْسِيرُ أَقْرَبُ إِلَى ظَاهِرِ اللَّفْظِ؛ لِأَنَّ الْفَرْضَ بمعنى الإنزال نادِرٌ وُجُودُهُ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، لكن الفَرْضُ بمعنى الإلزام كَثِيرٌ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، قَالَ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء:١٠٣]، وقال رَسُولُ اللهِ ﷺ: «وَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ»[1]، فهنا فَرَضَ بمعنى: أَلْزَمَ وَأَوْجَبَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿لَرَآدُّكَ﴾ اللامُ هنا للتوكيد، و(رَادٌّ) خَبَرُ (إِنَّ)، والمعنى أي: لَمُرْجِعُك.

وقوله: ﴿إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [إِلَى مَكَّةَ، وَكَانَ قَدِ اشْتَاقَهَا]، فَعَلَى قَوْلِ الْمُفَسِّرِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إِنَّ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَا بُدَّ أَنْ يُعِيدك إِلَى مَكَّةَ، فتفتحها، كَمَا أَنَّ الْقُرْآنَ نَزَلَ عليك فيها.

وَهَذَا مَعْنَى كلام الْمُفَسِّرِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فيكون الْمَعاد مكة، أي: مكان العَوْد، أي: مكان الرجوع، وأنك سوف تَرْجِعُ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي أُخرجتَ منه، فَيَكُونُ فِي هَذِهِ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب لا تؤخذ كرائم أموال الناس في الصدقة، رقم (١٤٥٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، رقم (١٩).

الْآيَةِ وَعْدٌ مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ أَنْ يَفْتَحَ النَّبِيُّ ﷺ مَكَّةَ، وأَنْ يَعُودَ إِلَيْها، قال ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «﴿لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ قَالَ: إِلَى مَكَّةَ»[1].

وقيل: إِنَّ المُرَادَ بِقَوْلِهِ: ﴿لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ أي: لرادُّك إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فالمراد بالمعاد معادُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَيَكُونُ المَعْنَى: إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ، وَأَوْجَبَ عَلَيْكَ تِلاوتَه، وتبليغَه، وَالْعَمَلَ بِهِ، لم يُنْزِلْه عَبَثًا، بل أَنْزَلَه لِأَمْرٍ يَعُودُ النَّاسُ إِلَيْهِ، وَهُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَكُونُ المُرَادُ: يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ لتجزى وتسأل: هل بَلَّغْتَ أَمْ لَمْ تُبَلِّغْ؟ قَالَ اللهُ تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ [الأعراف:٦-٧].

وَهَذَا المَعْنَى أَقْـرَبُ مِمَّا رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَهُوَ مَرْوِيٌّ عَنْهُ أَيْضًا؛ فَإِنَّهُ قَـدْ رُوِيَ عَنْهُ هَذَا المَعْنَى، ويُقَرِّبُه أَنَّ السُّورَةَ مَكِّيَّةٌ، فَإِذَا كَانَتْ مكية، فَكَيْفَ يُقَالُ لِمَنْ فِي مَكَّةَ: ﴿لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ أي: إلى مكة؟! وَأَيْضًا هُوَ أنسبُ بالنسبة لصَدْرِ الآية، فقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ هَـذَا الْفَرْضُ لَمْ يَكُنْ عَبَثًا، بَلْ لَهُ يَوْمٌ يُعاد فيـه النَّاسُ، ويسألون عنه، ويُجازون فيه.

وَهَذَا الْقَوْلُ هُوَ الصَّوَابُ، وما قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ لَهُ وَجْهٌ، لكنه بَعِيد.

فيكون مَعْنَى قَوْله: ﴿إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ أي: إِلَى مَكَّـةَ، فيكون إِشَارَةً إِلَى فَتْحِ مَكَّـةَ، وعلامةً عَلَى قُرْبِ أَجَلِ النَّبِيِّ ﷺ، وقُرب الأجَل معناه الموتُ، ثم البعث.

قَوْلُه تعالى: ﴿قُل رَّبِّىٓ﴾ الرُّبوبية هنا خاصَّة، أي: رَبِّي الَّذِي أرسلني ﴿أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ﴾، أي: يَعْلَمُ مَنْ هو آتٍ بالهُدى، وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾، رقم (٤٧٧٣).

مُبِينٍ، هَلْ هُوَ الرَّسُولُ، أو غيـرُه، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ:٢٤]، فاللهُ أَعْلَمُ.

قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إِنَّ ﴿أَعْلَمُ﴾ بمعنى: (عالِم).

قوله: ﴿أَعْلَمُ﴾ اسمُ تفضيل، وقولُه: ﴿مَن﴾ اسمٌ موصول، وإعرابها فِيهِ ثَلَاثَةُ أَوْجُهٍ:

الإعراب الأول: هو مآلُ كلامِ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وَهُوَ أَنَّ ﴿أَعْلَمُ﴾ بمعنى: عالِم، و﴿مَن﴾ مَفْعُولٌ بِهِ.

الإعراب الثاني: أَنَّ ﴿أَعْلَمُ﴾ اسمُ تفضيل عَلَى بَابِهِ، و﴿مَن﴾ مَفْعُولٌ بِهِ لاسم التفضيل، وهذا رأيُ الكوفيين.

الإعراب الثالث: أَنَّ ﴿مَن﴾ مَفْعُولٌ بِهِ لِفعلٍ مَحْذُوفٍ دَلَّ عَلَيْهِ السياق، والتقدير عِنْدَ مَنْ قَالَ بِهَذَا الرأي: قل ربي أعلمُ يَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بالهدى، فيجعلون ﴿مَن﴾ مفعولًا لِفعل محذوف تقديره: يَعْلَم، وَهَذَا تَقْدِيرٌ مُطلق.

فالآراء إذن ثلاثة، والقاعدة عِنْدِي أَنَّهُ إِذَا اخْتَلَفَ النَّحْوِيُّون فِي شَيْءٍ أخذنا بالأسهلِ، وأَسْهَلُ هذه الآراء رأيُ الكوفيين؛ لأن الكوفيين لَا يَحْتَاجُونَ إِلَى تَقْدِيرٍ وَلَا غَيْرِهِ، لا تقدير (يَعْلم)، ولا تأويل ﴿أَعْلَمُ﴾ بمعنى: عالم، يقول: ﴿أَعْلَمُ﴾ اسم تفضيل، و﴿مَن﴾ مَفْعُولٌ بِهِ، فهو مَفْعُولٌ بِهِ لـ﴿أَعْلَمُ﴾ مباشرةً.

وَقَوْلُهُ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ﴾، الهدى المُرَادُ بِهِ الْعِلْمُ النافع، والذي جاء بالهدى هو النَّبِيُّ ﷺ.

وقوله: ﴿وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: وَأَعْلَمُ مَن هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ، وَلَمْ يَقُلْ:

مِمَّنْ لَمْ يَأْتِ بِهِ، وأتى بـ(في) الدَّالَّةِ عَلَى الظرفيـة، كَأَنَّ هَـذَا مُنغمس فِي الضَّـلَالِ، والضلالُ محيـط بِهِ مِنْ كُلِّ جَانِـبٍ إحاطةَ الظرفِ بالمظروف، كَمَـا تَقُولُ: (المَاءُ فِي الْإِنَاءِ)، و(الإناء محيـط بِالمَاءِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ)، كَمَـا قَالَ اللهُ تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام:١٢٢]، فهنا الضلال محيط بهؤُلاءِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ.

وقوله: ﴿مُّبِينٍ﴾ بمعنى: بَيِّن، وَقَدْ تَقَدَّمَ لَنَا أَنَّهُ قَالَ: بان الفَجْرُ وأبانَ الفَجْرُ، بمعنى: ظَهَر، كأَنَّ الرُّباعي مِثل الثلاثي، فَعَلَى هَذَا يَكُونُ ﴿مُّبِينٍ﴾ مِن الرُّباعي، لكنه بمعنى الثلاثي، أي: بَيِّن.

ولَمْ يَقُلْ: (أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بالهدى، وَمَنْ لَمْ يَأْتِ بِهِ)، لِأَنَّهُ لَا وَاسِطَةَ بين الهدى والضلال، فالأمر إما هُـدًى، وإما ضَلال، وَيَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس:٣٢]، وقوله: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ﴾ [سبأ:٢٤].

فليْسَـت هُناك وسطٌ بيْـن الهُدَى والضَّـلال، فلَا يَكُونُ الْإِنْسَانُ لَا مهتـديًا ولا ضالًّا، بَلِ النَّاسُ كُلُّهُمْ إِمَّا مُهْتَدٍ، وإِمَّا ضَالٌّ، قَالَ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [التغابن:٢]، فالأمر دائر بَيْنَ شَيْئَيْنِ كِلاهما قَسِيمٌ للآخَر، وهما الهدى والضلال؛ لِأَنَّهُ لَا وَاسِطَةَ بَيْنَهُمَا.

يَقُولُ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [نَزَلَ جوابًا لِقَوْلِ كُفَّارِ مَكَّةَ لَهُ: إِنَّكَ فِي ضَلَالٍ، أَيْ فَهُوَ الْجَائِي بِالْهُدَى، وَهُمْ فِي ضَلَالٍ، وَ﴿أَعْلَمُ﴾ بِمَعْنَى عَالِمٍ].

واحتمـال مَا قَالَهُ الْمُفَسِّـر رَحِمَهُ اللَّهُ صحيح؛ بِأَنَّهُمْ قَالُوا هكذا، فَنَزَلَتِ الْآيَةُ، وَيَحْتَمِلُ أَنَّهُ غَيْرُ صَحِيحٍ؛ لِأَنَّ سَبَبَ النزول لَا بُدَّ أَنْ يَثْبُتَ بدليلٍ صحيح، أَمَّا مُجَرَّد

أَنْ نَفْهَمَ مِن السياق أَنَّهُمْ قالُوا، وَقِيلَ لَهُمْ، فَهَـذَا لَا يَجُوزُ؛ لِأَنَّ سَبَـبَ النزول أمـرٌ منقول، والأمر المنقول لَا يُمْكِنُ أَنْ يستنتجه الإنسان بعقله.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: وُجوب تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ، وَالْعَمَلِ بِهِ، وتبليغِه عَلَى النَّبِيِّ ﷺ لقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثباتُ البَعث فِي قَوْلِهِ: ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: الحِكمة مِنْ إِنْزَالِ القرآن، وهو المُجَازَاةِ عَلَى الْعَمَلِ بِهِ؛ لِأَنَّ قَوْلَه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ﴾ كأنه عِلَّة ومعلولها، كأنه إِنَّمَا فَرَضَ الْقُرْآنَ مِنْ أَجْلِ المُجازاة عليه.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: دوامُ قُدْرَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ عَلَى البَعث، فِي قَوْلِهِ: ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إثباتُ عِلم اللهِ، وأنه أكملُ العُلوم، فِي قَوْلِهِ: ﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ﴾، وأن ﴿أَعْلَمُ﴾ اسم تفضيل، وأحسن أَنْ يَكُونَ أفضل العلوم.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أَنَّهُ مَا عَدَا الهدى فهو ضلال؛ لقوله: ﴿أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾، وَأَنَّهُ لَيْسَ ثَمَّةَ واسطةٌ بين الهـدى والضلال، وذكرنا آياتٍ شواهدَ لِهَذَا الْأَمْرِ، مِثْل قَوْلِهِ تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَـٰلُ﴾ [يونس:٣٢]، وَمِثْلَ قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ:٢٤]، وهذا المثال -في الحقيقة- تتبين بِهِ أَشْيَاءُ كَثِيرَةٌ التبست عَلَى بَعْضِ الناس.

فمَثلًا: ما نُشِـر فِي الصُّحُفِ هَـذِهِ الأَيَّامَ مِنْ أَنَّ الأشعرية هُمْ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ والجماعة!

ونحن نسأل: هل قولُ الأشعرية هُوَ قَوْلُ السَّلَفِ؟

والجواب: لا؛ لأن الأشعرية لَا يُثْبِتُونَ مِنَ الصِّفَاتِ إلا سَبعًا، عَلَى أَنَّ إثباتهم لَهَا لَيْسَ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يُرِيدُهُ اللهُ وَرَسُولُهُ؛ لأنهم يُثبتون -مثلًا- الكلام، ويقولون: إِنَّ الْكَلَامَ هُوَ المَعْنَى القائمُ بالنفس، وَلَيْسَ هُوَ الْحُرُوفَ وَالْأَصْوَاتَ، وهكذا، فَهُمْ غَيْرُ موافقين للسلف.

فَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ، فَإِمَّا أَنْ يَكُونُوا هُمْ عَلَى الْحَقِّ، والسلف عَلَى الضَّلَالِ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ السَّلَفُ عَلَى الْحَقِّ، وهؤُلاءِ عَلَى الضَّلَالِ، وَلَيْسَ هُنَاكَ مرتبة متوسطة بَيْنَ هَذَا وذاك؛ لِأَنَّ اللهَ يَقُولُ: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس:٣٢].

وحينئذٍ يكونون ضالِّين، وَإِذَا ثَبَتَ ضلالُهم، فَإِنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَبَدًا أَنْ يُقَالَ: إنهم مِنْ أَهْلِ السُّنة والجماعة؛ لِأَنَّهُ يَلْزَمُ مِنْ ذَلِكَ أَنْ تَكُونَ السُّنة ضَلالًا، وَهَذَا أَمْرٌ غَيْرُ مُمْكِنٍ.

ولكن يَجِبُ أَنْ نعرف -وَإِنْ قُلْنَا: إِنَّهُمْ ضالون فِي الْعَقِيدَةِ- أنه لَا يَلْزَمُ أَنْ نُضَلِّلَهم فِي كُلِّ شَيْءٍ، ونُخرِجَهم مِنَ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ فِي جَمِيعِ الْأَشْيَاءِ؛ لِأَنَّ هَؤُلَاءِ منهم أئمة، أو منهم علماء كبار لَا شَكَّ أنهم يَتَحَرَّون السُّنَّةَ فِي أُمُورٍ كثيرة، وأنهم مُوَفَّقُون لها أيضًا.

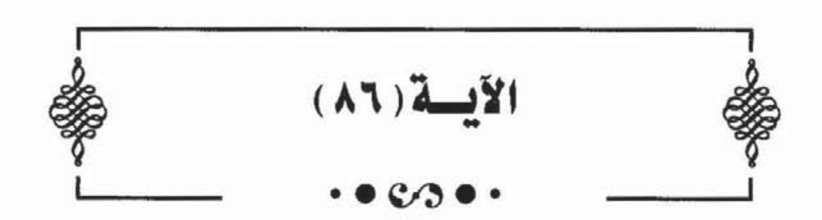
فالإنسان يَجِبُ أَنْ يَكُونَ كلامُه فِي النَّاسِ بالعَدل، والقسطاس المستقيم، فلا يَهضِم أحدًا حَقَّهُ، وَلَا يُعطِي آخرَ أَكْثَرَ مِنْ حَقِّهِ.

فالحاصِلُ: أنَّ هناك ميزانًا ذَكَرَهُ اللهُ هُنَا، وَفِي آيَاتٍ أُخرى، وهو ميزان واضح جدًّا، وَأَنَّ الْأَمْرَ لَيْسَ إلا حقًّا، أو ضلالًا.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إثبات أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ عَلَى الْهُـدَى، مِنْ قَوْلِهِ: ﴿أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ﴾، ومعلوم أَنَّ الَّذِي جَاءَ وَوَرَد عَلَى النَّاسِ هُوَ الرَّسُول ﷺ؛ لِأَنَّ أَهْلَ الْجَاهِلِيَّةِ بَاقُونَ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ، ما جاءوا بجديد، والَّذِي جَاءَ بجديدٍ هو الرَّسُولُ ﷺ.

فَقَوْلُهُ تعالى: ﴿أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ يُشِيـرُ إِلَى أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ جَاءَ بالهدى، وأن أولئك في ضَلَالٍ مُبِينٍ.

• • ۞ • •



الآية (٨٦)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [القصص:٨٦].

• • • •

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ الْقُرْآن ﴿إِلَّا﴾ لَكِنْ أُلْقِيَ إِلَيْكَ ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا﴾ مُعِينًا ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ عَلَى دِينِهِمُ الَّذِي دَعَوْكَ إِلَيْهِ].

قوله: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ﴾ في رسم المصحف هناك أَلِفُ وَصْلٍ بَعْدَ واوِ المُضارع ﴿تَرْجُونَ﴾، وهي هنا زَائِدَةٌ فِي الرسم، وَلَيْسَتْ عَلَى قَوَاعِدِ الْكِتَابَةِ فِي عصرنا الحالي، فَحَسْبُ قواعدِ الْإِمْلَاءِ لَا تُكْتَبُ إِلَّا إِذَا كَانَتِ الواو للجماعة، مثل: (قالوا)، فتقع الأَلِفُ بَعدها، أَمَّا إِذَا كَانَتْ واو الفعل فَإِنَّهَا لَا تَكْتُبُ، لكن هَذِهِ الْكِتَابَةُ فِي الْقُرْآنِ كَانَتْ عَلَى الرسم العثماني، فيَرْسُمُونه، سَوَاءٌ كَانَ مُوَافِقًا للقواعد الحاضِرة أَمْ لَمْ يَكُنْ موافقًا.

قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ الْقُرْآنُ].

قوله: ﴿يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ﴾ أي: يُنَزَّلَ عَلَيْكَ، فمَا كَانَ الرَّسُولُ ﷺ يرجو هذا، وَلَا خَطَرَ بِبَالِهِ أنه يُلقى إليه القرآن، فَإِذَا كَانَ لَمْ يَخْطُرْ بِبَالِهِ أَنْ يُلقى إليه القرآن، فَلَا يُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ: إِنَّهُ تَعَلَّمَهُ مِنْ غَيْرِهِ؛ لأن المتعلم للشيء مِنْ غَيْرِهِ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ

عِنْدَهُ أَمَلٌ في الحصول عليه، حَتَّى يَقَعَ فِي أسبابه ويُحَصِّلَه، أَمَّا شخص لَمْ يَكُنْ يرجو ذَلِكَ إِطْلَاقًا، ولم يَخْطُرْ بِبَالِهِ أَنْ يُلقى إِلَيْهِ الْكِتَابُ؛ فَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ مِن عنده، بَلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وقوله: ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾ نائبُ فاعِل، وَهُوَ الْقُرْآنُ، وكتابٌ بمعنى مكتوب: ووُصِفَ الْقُرْآنُ بِهِ؛ لأنه مَكْتُوبٌ فِي اللَّوْحِ المَحْفُوظِ، مكتوب بِأَيْدِي المَلَائِكَةِ، ومكتوب بأيدي الناس، فهو مكتوب، وَهُوَ فِي أَيْدِي الملائكة، ومكتوب أَيْضًا، وَهُوَ فِي أَيْدِي النَّاسِ، ودليلُه فِي سُورَةِ عبس: ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ﴾ [عبس:١٥].

قَوْلُه تعالى: ﴿إِلَّا رَحْمَةً﴾ قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [لَكِنْ أُلْقِيَ إِلَيْكَ] إشارةً مِنْهُ إِلَى أَنَّ الِاسْتِثْنَاءَ هنا منقطع، وليس متصلًا؛ لأن المتصل أَنْ يَكُونَ المستثنى مِنْ جِنْسِ المُسْتَثْنَى مِنْهُ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الرَّحمَة لَيسَتْ هِيَ الرجاء، وَلَيْسَتْ مِنْهُ، فالرَّسُول ﷺ مَا كَانَ يَرْجُو ذلك، وَلَكِنَّ الْأَمْرَ حصل لمجرد الرَّحمَة.

وَأَنَا أَقُول: إِنَّ ﴿إِلَّا﴾ أداة استِثْناء، والاستِثْناء هنا منقطع، ﴿رَحْمَةً﴾ مَنْصُوبٌ عَلَى الِاسْتِثْنَاءِ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَنْصُوبًا عَلَى أَنَّهُ مَفْعُولٌ له، يعني: مَفْعُولٌ مِنْ أَجْلِهِ، أي: ولكن أُنزِل لأجل الرَّحمَة، والرَّحمَة هنا لِلرَّسُولِ ﷺ ولغيره، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧].

قَوْلُه تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ هنا ذكر الرُّبوبية الخاصة؛ لِأَنَّ رَحْمَةَ اللهِ لِلنَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بالرِّسالَة رحمة خاصَّة، وأنه أُلْقِي إِلَيْك الْكِتَابَ: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ﴾ لا ناهية، والفِعل بعدها مَبْنِيٌّ عَلَى الفتح؛ لاتصاله

بنون التوكيد، وَهُوَ فِي مَحِلِّ جزم.

والخطاب هنا للرسول ﷺ، ولكن كيف يُنهى الرَّسُول ﷺ أَنْ يَكُونَ ﴿ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾؟

بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ يقول: إِنَّ هَذَا الْخِطَابَ للرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَالْمُرَادُ بِهِ الْأُمَّةُ، وَلَكِنَّهُ عَلَى حَدِّ قَوْلِ الشَّاعِرِ[1]:

.... إِيَّاكِ أَعْنِي وَاسْمَعِي يَا جَارَةُ

وَقَالَ بَعْضُهُم: بل الخطابُ للرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وقالوا: النَّهْيُ عَنِ الشَّيْءِ لَا يَلْزَمُ مِنْهُ الوقوع.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: لَا يَلْزَمُ مِنْهُ الوقوع، لكن هَلْ يَلْزَمُ مِنْهُ جواز الوقوع، بمعنى: أَنْ يَكُونَ الرَّسُولُ ﷺ ﴿ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾؟

نقول له: لَا يَصِحُّ؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ مستحيلًا، فالنهي عن المستحيل لَغْوٌ.

وَالْجَوَابُ عَنْ ذَلِكَ مِنْ وَجْهَيْنِ:

الوجه الأول: إِمَّا أَنْ نَقُولَ: إِنَّ الرَّسُولَ ﷺ لَوْلَا تثبيت الله لَهُ لَرَكَن إليهم، كَمَا فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ [الإسراء:٧٤-٧٥].

الوجه الثاني: أَنْ يُقَالَ: إِنَّ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قد يَفْعَلُ الشَّيْءَ مِمَّا هُوَ مظاهرة للكافرين، وَهُوَ لَا يَعْلَمُ أَنَّهُ مُظاهرة، فنهاه اللهُ تعالى عَنْهَا؛ لِأَجْلِ أَنْ يَكُونَ

---

(١) هذا عجُز بيت قاله سَهْل بن مالك الفَزَاري، كما في مجمع الأمثال للميداني (١/ ٤٩)، وصدره:
أَصْبَحَ يَهْوَى حُرَّةً مِعْطَارَهْ

مِنْهَا عَلَى حَذَرٍ، وعلى بُعد مِنْ هَؤُلَاءِ الكافرين.

ثُمَّ نَقُولُ أَيْضًا: إِنَّهُ لَوْ جَازَ عقلًا وعادةً، فقد يُنهى عنه شرعًا، فافرِض أَنَّ هَذَا أَمْرٌ قَدْ يَجُوزُ للرسول ﷺ أَنْ يَفْعَلَهُ باعتبار العادة، أو باعتبار الحالة البَشرية، لَكِنَّهُ مِنَ الناحية الشَّرْعِيَّةِ لَا يُمْكِنُ، فَيَكُونُ عَائِدًا إِلَى الرَّسُولِ ﷺ باعتبار الحال البشرية الطبيعية، أَمَّا شَرْعًا فَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ.

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿ظَهِيرًا﴾ مُعِينًا ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ عَلَى دِينِهِمْ].

الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَا كَانَ معينًا للكافرين، لكنه يُنْهَى عَنْ أَمْرٍ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ وَاقِعًا منه، أو مُتَصَوَّرًا أَنْ يَقَعَ، كَمَا قَالَ تعالى أَيْضًا: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [القَصَص:٨٧]، مَعَ أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يُشْرِكَ، ولكنه نُهِيَ عَنْ ذَلِكَ، فقيل: إن النهي هُوَ نهي لأُمَّته.

وقيل: بَلْ إِنَّ النهيَ نهيٌ حقيقي له، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ وَاقِعًا منه، وَالْفَائِدَة مِنْ ذَلِكَ بَيَانُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ مَا كَانَ يتطلب الرِّسالَة، ولا خَطَرَتْ لَهُ عَلَى بَالٍ، نأخذُه مِنْ قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: بيان تكذيبِ الَّذِينَ قَالُوا: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ [النحل:١٠٣]، فالكفار يقولون: إِنَّمَا يُعَلِّمُ محمدًا القرآنَ بَشَرٌ، فَلَوْ كَانَ الرَّسُولُ ﷺ يتعلم مِنْ بَشَرٍ، لكان مُتطلعًا لِهَذَا الْقُرْآنِ، وَاللهُ يَقُولُ: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ رَحْمَةٌ لِلْخَلْقِ، رحمةٌ فِي

الدُّنْيَا وَالْآخِـرَةِ؛ ففي الدُّنيا تستقر الأمور، وتصلُح أحـوالهم، ويَعْلُو أمرُهم، وَفِي الْآخِرَةِ يكونون فِي جنات النعيم.

فهذا القرآن رحمة؛ أَوَّلًا وَآخِرًا، وَهُوَ أَعظَمُ نِعْمَةً مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأعظم مِن نُزول المَطَرِ الَّذِي تحيا بِهِ الْأَرْضُ؛ لِأَنَّ الْقُرْآنَ تحيا بِهِ الْقُلُوبُ، وتصلح به الأعمال، وبحياة القلوب والأعمال تحيا الأرض، قَالَ تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف:٩٦].

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إثباتُ رُبوبية الله الخاصة لِلرَّسُولِ ﷺ؛ بقوله: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾، فهذا يقتضي رُبوبيةً خاصة، كَمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَهُ عُبودية خاصَّة؛ فعُبوديته خاصَّة، ورُبوبية اللهِ لَهُ خَاصَّةً أيضًا.

وإذا شئتَ أن تعرف أنَّ الرُّبوبية نوعان، فاقرأ قَوْلَ اللهِ تعالى عَنْ سَحَرَة آلِ فِرْعَوْنَ الَّذِينَ آمَنُوا: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الشعراء:٤٧-٤٨]، فالأُولى عامَّة، والثانية خاصَّة.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: مِنْ قَوْلِهِ: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾، ففيه تحريمُ مُظاهَرَة الكفار، أي: مُعاونتُهم؛ لِأَنَّ النَّهْيَ للتحريم، لَا سِيَّمَا وَقَدْ أُكِّدَ بِنُونِ التوكيد؛ لأن النُّون هنا للتوكيد، وَالدَّلِيلُ عَلَى التوكيد أَنَّ الْفِعْلَ بُنِيَ عَلَى الفتح.

والمعاونةُ للكفَّار تكونُ معاونةً عسكـرية، ومعاونةً فِكريَّـة، ومعاونةً ماليَّـةً ومعنوية، فَكُلُّ مَا فِيهِ معاونة الكفار ومساعدتهم وتقويتُهم؛ فَإِنَّهُ مُحَرَّمٌ، لِأَنَّ الْوَاجِبَ علينا -نحن المسلمين- العكسُ مِنْ ذَلِكَ، الْوَاجِبُ عَلَيْنَا إذلالهم، وخَذْلُهم بِكُلِّ مَا نستطيع، بَلْ قَدْ قَالَ اللهُ لِلرَّسُولِ ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة:٧٣]، وقال للمؤمنين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم

مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة:١٢٣]، وَأَنَّ هَذَا مِن تَقْوَى اللهِ؛ إذا قاتلتموهم فليَجِدُوا منكم الغِلظة.

ومعنى هذا: أنا إِذَا لَمْ نُقاتلهم، ووجدوا منَّا اللين؛ فإن هذا مخالف للتقوى.

والحاصِلُ: أَنَّهُ لَا يَجُوزُ مُعاونة الكفار بِأَيِّ وَجْهٍ مِن وُجوه المعاونة، وَهُوَ مِنْ أخطر الأمور؛ لِأَنَّ اللهَ تعالى يَقُولُ: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [المائدة:٥١].

• ● ۞ ● •



الآية (٨٧)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [القَصَص:٨٧].

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ﴾ أَصْلُهُ يَصُدُّونَنَكَ، حُذِفَتْ نُونُ الرَّفْعِ لِلْجَازِمِ، وَالْوَاوُ لِلْفَاعِلِ لِالْتِقَائِهَا مَعَ النُّونِ السَّاكِنَةِ ﴿عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ أَيْ لَا تَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ ﴿وَٱدْعُ﴾ النَّاسَ ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ لِتَوْحِيدِهِ وَعِبَادَتِهِ ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ بِإِعَانَتِهِمْ، وَلَمْ يُؤَثِّرِ الْجَازِمُ فِي الفِعْلِ لِبِنَائِهِ].

قوله: ﴿يَصُدُّنَّكَ﴾ أصلُه: يَصُدُّونَنْكَ قَبْلَ دُخُولِ (لا) الناهية، ولمَّا دَخَلَتْ (لا) الناهية وجب حذفُ النون الأُولى للجَزم، فصارت: يَصُدُّونَّك، فلما حذفنا النون الأُولى أصبح لدينا واو ساكنة، ونون مُشَدَّدة، والنون المشدَّدة عبارة عن نونين الأولى ساكنة والثانية متحركة، فيلتقي ساكنان، وإذا التقى ساكنان وجب حذف الْأَوَّلِ مِنْهُمَا، قَالَ ابْنُ مَالِكٌ فِي الكافية:

إِنْ سَاكِنَانِ الْتَقيَا اكْسِرْ مَا سَبَقْ ... فَإِنْ يَكُنْ لَيْنًا فَحَذْفُهُ اسْتَحَقّ

أَمَّا قَوْلُه تعالى: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ﴾ [آل عمران:١٨٦]، فَلَيْسَ فِي هَذَا الْبَابِ؛ لِأَنَّ الْفِعْلَ لَمْ يَسْبِقْهُ جازمٌ، وأصلُه: لتسمعونَنَّ، فحُذفت النون الأُولى لِتَوَالِي الأمثال، ثُمَّ حُذِفَتِ الْوَاوُ لالتقاء الساكنين، أي النون المشددة والواو الساكنة.

قوله: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ﴾ الضَّمير -وَهُوَ الواو المحذوفة- تَعُودُ إِلَى الكافرين، أي: ولا يَصُدَّنَّك الكافِرُون، والخطابُ لِلرَّسُولِ ﷺ، و(يَصُدُّ) يُستعمل لازمًا ومُتعديًا؛ فَإِنْ كَانَ لازمًا فهو بمعنى: أعرَض، وَإِنْ كَانَ متعديًا فهو بمعنى: صَـرَف، فتقول مثلًا: صددتُه عن الخطأ، أي: صرفتَه، وتقول: صددتُه عن الضلال، أي: أَعْرَضْتَ عَنْهُ، وَفِي الْقُرْآنِ: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [النحل:٨٨]، الفعل هنا الْأَوْلَى أَنْ نَقُولَ: إِنَّهُ مُتَعَدٍّ؛ لِأَنَّ مَنْ صَدَّ غَيْرَهُ فَهُوَ عَنِ الْحَقِّ أَصَدُّ، لَكِنْ مَنْ صَدَّ بنفسه، فقَدْ لَا يُصَدُّ غيرَه.

فَالْأَوْلَى أَنْ نَحْمِلَ مَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ مِنْ ذِكْرِ الصَّدِّ عَلَى الشَّيْءِ المتعدي، لَا عَلَى اللازم.

وهنا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ﴾ الفِعل مُتَعَدٍّ، بدليل الكافِ، فهي مَفْعُـولٌ بِهِ، أي: لا يَصْرِفَنَّك هَؤُلَاءِ عَنِ آيَاتِ اللهِ، والمراد هنا الآياتُ الشرعية.

قَوْلُه تعالى: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ اللَّهِ﴾ أي: عَنِ الْقُرْآنِ؛ فَإِنَّ الْقُرْآنَ آيَاتُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، قَالَ تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية:٦]، وكَوْنُ الْقُرْآنِ مِنْ آيَاتِ اللهِ تعالى؛ لأنه كلامُه، وما يَتَضَمَّنُهُ مِنَ الْأَخْبَارِ، والقَصص النافعة، والأحكام العادلة؛ وَلِأَنَّهُ لَا يُمْكِنُ لِأَحَدٍ أَنْ يَأْتِيَ بِمِثْلِه، كَمَا قَالَ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦ﴾ [الطور:٣٣-٣٤]، فهنا تَحَـدٍّ لهؤُلاءِ الأعداء الَّذِينَ هُمْ أقوى الناس فصاحةً، وَمَعَ ذَلِكَ عَجَزُوا، وما استطاعوا، وَلِهَذَا كَانَ الْقُرْآنَ آيَةً مِنْ آيَاتِ اللهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ إِذَا قُلْنَا: مَا الْفَائِـدَةُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾، وأصل النهـي لَا يَقَعُ: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ اللَّهِ﴾ إِلَّا إِذَا كَانَـتْ نَازِلَةً؟

فهل هَذَا الْكَلَامُ لَهوٌ لَا فَائِدَةَ منه؟

الجواب: لا، ليس لهوًا لَا فَائِدَةَ منه، بَلْ فِيهِ فَائِدَةٌ، وهو تذكير الرَّسُول ﷺ بهذه الحُجَّة والمستَند، وَهُوَ أَنَّهَا أُنْزِلَت مِنْ عِنْدِ اللهِ، فَإِذَا كَانَ يَذْكُرُ هذا المستند، فَإِنَّهُ لَا يُمْكِنُ لِأَحَدٍ أَنْ يَصُدَّكَ عنه، وَإِنْ كَانَ مَفْهُومًا أَنَّ الصَّدَّ عَنِ الشَّيْءِ لَا يَكُونُ إِلَّا بِوُجُودِهِ، لكنه لِأَجْلِ أَنْ يُذَكِّر الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بحال الإنزالِ حَتَّى يَكُون ذَلِكَ أَثْبَتَ لَهُ.

وقوله: ﴿بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [أَيْ: لَا تَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ]، وَهَذَا التَّفْسِيرُ لَيْسَ بِصَحِيحٍ؛ لأن صَدَّهم للرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَمَّا أُنْزِلَ إِلَيْهِ لَا يستلزم أَنْ يَرْجِعَ إليهم، فقد يَرْضَوْن مِنْهُ أَنْ يَخْرُجَ مِن دِينه، وَإِنْ لَمْ يُوافِقْهم عَلَى دِينِهِمْ؛ لأن أعداء المسلمين يقولون: نَحْنُ لَا نُرِيدُ أَنْ يَكُونَ المسلمون نصارى، أو يهودًا، بل نُرِيدُ أَنْ يَخْرُجُوا مِن دِينهم فقط.

وقَوْلُه تعالى: ﴿وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ الدُّعاء: الطَّلب، يعني: اطلُب من النَّاسِ أَنْ يَدْخُلُوا فِي دِينِ اللهِ، وادعُ الناس.

وقد أفاد الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّ المفعول محذوفٌ، فقال: [﴿وَادْعُ﴾ النَّاسَ، ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾؛ لِتَوْحِيدِهِ وَعِبَادَتِهِ]، هَذَا التَّفْسِيرُ للدُّعاء، وأَنْ يَدْعُوهُمْ إِلَى التَّوْحِيدِ والعبادة، والتوحيدُ له أنواعٌ ثلاثة، وهي:

توحيد الأُلُوهِيَّة، وتوحيد الرُّبوبية، وتوحيد الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ، فَيَكُونُ المُرادُ: ادْعُ إِلَى كُلِّ هَذِهِ الْأَنْوَاعِ، بالإضافة إلى دعوتهم إلى العبادة.

وَهَذَا هُوَ المهم، أَنْ تَكُونَ دعوةُ الْإِنْسَانِ إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، لَا إِلَى أَيِّ قَصْدٍ آخَرَ،

فمَن دَعَا النَّاسَ إِلَى الْحَقِّ ليُقَوِّيَ جبهتهم، ويُكَثِّرَ عددهم، فليس بداعٍ إِلَى اللهِ.

ومَن دعا النَّاسَ إِلَى اللهِ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَجْهٌ بَيْنَ النَّاسِ؛ فَإِنَّهُ لَمْ يَدْعُ إِلَى اللهِ، بَلْ لَا بُدَّ أَنْ يَدْعُوَ الْإِنْسَانُ إِلَى اللهِ، وَلَيْسَ لَهُ غَرَضٌ، اللَّهُمَّ إِلَّا رَجُلٌ يَقُولُ: أنا أُحِبُّ أَنْ تَقْوَى الجبهةُ التي أدعو إِلَيْهَا مِنْ أَجْلِ أَنْ نتمكن مِن الدعوة إِلَى اللهِ. فَهَذَا لَا حَرَجَ عَلَيْهِ، وَلَكِنْ مَعَ ذَلِكَ الْأَوْلَى أَنْ يَقْصِدَ القَصْدَ الأول، وَإِلَّا فَلَا حَرَجَ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَدْعُوَ إِلَى اللهِ، قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ [الأنفال:٦٢-٦٣].

قَوْلُه تعالى: ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بِإِعَانَتِهِمْ].

هنا فَسَّر الْمُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ الْآيَةَ بِتَفْسِيرٍ قَدْ يَكُونُ عَلَى خِلَافِ الظَّاهِرِ، فقال: إِنَّ قَوْلَه: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ ليس معناه: لَا تُشْـرِكْ، فالرَّسُول ﷺ لَا يُمْكِنُ أَنْ يُشْـرِكَ، ولكن المعنى بإعانتهم؛ فَإِنَّ مَنْ أَعَانَ قَوْمًا، فَهُوَ مِنْهُمْ، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ﴾ [المائدة:٥١]، فكأَنَّ الْمُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: إِنَّ اللهَ لَمْ يَنْهَ رَسُولَهُ ﷺ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ؛ لِأَنَّ هَذَا لَا يُمْكِنُ أَنْ يَقَعَ، بَلْ نَهَاهُ أَنْ يَكُونَ مُعِينًا لَهُمْ عَلَى شِرْكِهِمْ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ يجعله منهم.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ عَلَى ظَاهِرِهِ، أنه نُهِيَ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُشْـرِكِينَ، وَالنَّهْيُ عَنِ الشَّيْءِ لَا يَلْزَمُ مِنْهُ وقوعُه، وَلَا يَلْزَمُ مِنْهُ جوازُ الوقوع شرعًا؛ فَإِنَّهُ لَوْ فُرض أَنَّهُ جَائِزٌ أَنْ يَقَعَ عادةً؛ فإنه شَرْعًا لَا يُمْكِنُ.

وَعَلَى هَـذَا، فقَوْلُه تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر:٦٥]، لَا يَدُلُّ عَلَى جَوَازِهِ شرعًا، وَلَكِنْ إِنْ جَازَ أَنْ يَقَعَ ذَلِكَ مِنْهُ، أَوِ وَقَعَ مِنْهُ؛ فإنه يُحْبِطُ عَمَلَهُ، كَمَا فِي

قَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ [الزخرف:٨١]، فَهَذَا الشَّرْطُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ، فَلَا يَلْزَمُ مِنْ تعذُّرِ، أو استحالَةِ الشَّيْءِ أَلَّا يَقَعَ شرطًا، حَتَّى فِي الْأُمُورِ العادية، لَوْ قَالَ إنسانٌ لزوجته: إِنْ طِرتِ فَأَنْتِ طَالِقٌ. يَصِحُّ الكلام، ولكن تعليق الشَّيْءِ عَلَى المستحيل يجعله مستحيلًا، هُوَ جَائِزٌ، لكن يجعله مستحيلًا، مثل قَوْلُ الشَّاعِرِ[1]:

إِذَا شَـابَ الْغُـرَابُ أَتَيْـتُ أَهْـلِي وَصَـارَ الْقَـارُ كَـاللَّبَنِ الحَلِيـبِ

وَالْغُرَابُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَشِيبَ أبدًا، والقَارُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يُصَيِّرَ مِثْلَ اللبن أبدًا، وَلَكِنَّهُ مَا دَامَ عَلَّقَ الْأَمْرَ عَلَى شَيْءٍ مستحيل، فالمعلَّق على المستحيلِ مستحيلٌ.

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [وَلَمْ يُؤَثِّرِ الْجَازِمُ فِي الفِعْلِ لِبنَائِهِ]، يقصد بالجازم والفِعلَ، وهو قوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ﴾، [لِبنَائِـهِ] لِأَنَّهُ لَوْلَا البنـاءُ لَقال: وَلَا تَكُنْ، فَحُذِفـت لامُ الفعل، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ﴾ [النحل:١٢٧]، فالجازم هنا -وَهُوَ لَا الناهية- قَدْ أَثَّرَ فِي الْفِعْلِ.

فأصل الفعل: (تكـون)، و(لا) النهاية تؤثر بتسكيـن آخِرِ الفِعل، فالتقـى ساكنان، الواو والنون الساكنة، فحُذفت الواو، وبَقِيَت النون الساكنة، فأصبحت: (تكُن)، ثُمَّ حُذِفَتِ النون تخفيفًا.

أما فِي قَوْلِهِ تعالى هنا: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ﴾ فالجازم لَمْ يُؤَثِّرْ فِي الْفِعْلِ بحذف الواو، ولا النون؛ لبناء الْفِعْلِ كَمَا قال الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ.

وقوله: ﴿مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ الشرك يَنْقَسِمُ إِلَى: شِرك أكبر مُخرج عَنِ الْمِلَّةِ،

---

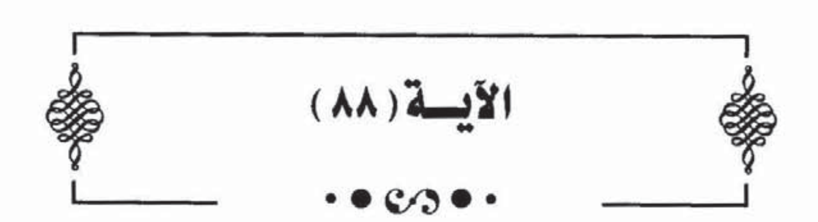
(١) البيت في حياة الحيوان، للدميري (٢/ ٢٤٤) بلا نسبة.

وشِركٍ أصغرَ لَا يَخْرُجُ مِنَ الملة.

فالأكبر: أَنْ يُشْرِكَ مَعَ اللهِ أَحَدًا فِي عِبَادَتِهِ، أو رُبوبيته، فَمَنْ فَعَلَ فَهُوَ مُشرك، وَمَا دُونَ ذَلِكَ -مما أُطْلِقَ عَلَيْهِ الشِّرْكُ- فَهُوَ شركٌ أَصْغَرُ، والغالب أَنَّ الشِّرْكَ الأصغرَ يكون إِمَّا لِأَنَّهُ وَسِيلَةٌ للأكبر، كَمَا فِي مَسْأَلَةِ الرياء؛ لأن الرِّيَاءِ شِرك؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ يؤدي العبادة، ويُحسنها للناس، وقد يؤدي بِهِ الْأَمْرُ إِلَى أَنْ يَعْمَل أَصْلَ العبادة للناس، وَيَكُونُ بِذَلِكَ مُشركًا شِركًا أكبرَ، وَقَدْ يَكُونُ الشرك الأصغر ليس وسيلةً إلي الشرك الأكبر، وَإِنَّمَا يَتَعَلَّقُ بأمورٍ أُخرَى، لَا يَتَعَلَّقُ بِهَا الشرك الأكبر.

وَلَكِنْ عَلَى كُلِّ حَالٍ: الشركُ الْأَكْبَرُ هُوَ أَنْ يعتقد الْإِنْسَانُ أنَّ للهِ شَرِيكًا فِي أُلوهيته، أو ربوبيته.

• • ۞ • •



قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القَصَص:٨٨].

•• ❁ ••

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَا تَدْعُ﴾ تَعْبُدْ ﴿مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ إِلَّا إِيَّاهُ ﴿لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ الْقَضَاءُ النَّافِذُ ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ بِالنُّشُورِ مِنْ قُبُورِكُمْ].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ﴾ أي: لَا تَعْبُدْ، و(لا) ناهيةٌ، والفِعل بَعْدَها مجزومٌ بِحَذْفِ حَرْفِ العِلة، وهو الواو، وَدَلَّ عَلَيْهِ الضَّمةُ عَلَى الْعَيْنِ.

قوله تعالى: ﴿مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا﴾: ﴿إِلَٰهًا﴾ مفعول تدعو، والإله بمعنى المألُوه، أي المعبود.

قوله تعالى: ﴿إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ وَهَذَا غَيْرُ مُمْكِنٍ؛ أَنْ يَكُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ بحق؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ الآلهة التي سِوَى اللهِ كُلَّهَا بَاطِلَةٌ، كَمَا قَالَ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [لقمان:٣٠].

وَاللهُ تعالى فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ سَمَّى مَا يُعْبَدُ إِلَهًا؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ (الإله) فِعالٌ بِمَعْنَى مَفْعُول، أَيْ معبود.

قوله تعالى: ﴿لَآ إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ هَـذِهِ الجُمْلَةُ كالتَّعلِيل للنفي السابق، أي: فإنه لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ.

إِذن: هَذَا النفيُ نفيٌ للحَقِّ؛ لأنه هو المعبود الحقُّ، فإنه لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وحينئذ لَا يَكُونُ بَيْنَهَا، وَبَيْنَ مَا سَبقَهَا مُنافَاة؛ إِذْ إِنَّ مَا سَبَقَهَا يُثبت إلهًا مَعَ اللهِ، لكن نَهى أَنْ تدعو هذا الإله، والثاني يَقُولُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، فينفي أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ إله، وَالجَمْعُ بَيْنَهُما أَنْ يُقَالَ: الإله الحَقُّ الَّذِي عُبد، وهو يَسْتَحِقُّ أَنْ يُعْبَدَ هو اللهُ وحده.

وأَمَّا الإلهُ الْبَاطِلُ الَّذِي عُبد، وَهُوَ لَا يَسْتَحِقُّ أَنْ يُعْبَدَ، فهذا ثابتٌ لِغَيْـرِ اللهِ، وَهَذَا هُوَ الصَّحِيحُ فِي النَّفْيِ، مَعَ أَنَّهُ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ نفيًا بِمَعْنَى النَّهْيِ، أي: لَا تَعْبُدْ إِلَّا اللهَ.

والنفيُ بِمَعْنَى النَّهْيِ وَارِدٌ فِي الْقُـرْآنِ، كَمَـا فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة:٢].

قَالَ بَعْضُ المُفَسِّرِينَ: لَا رَيْبَ فِيهِ، أي: لَا تَرْتَابُوا فيه. فيجعلون النفيَ مكانَ النهي، ولكن الْأَوْلَى أَنْ يبقى النَّفْيُ عَلَى ظَاهِرِهِ، وَأَنْ يُجْعَلَ نفيًا حقيقةً، ويكون النفيُ أَبْلَغَ مِنَ النَّهْيِ؛ لأن النَّفْيَ إِثْبَاتُ صِفـة، وأما النهيُ، فَقَدْ يَحْصُل الِامْتِثَالُ لَهُ، وَقَـدْ لَا يَحصُلُ.

وعليه نَقُولُ: إن هَذَا النَّفْيَ لَا يَتَعَارَضُ مَعَ مَا قَبْلَهُ؛ لِأَنَّ مَا قَبْلَهُ باعتبار أَنَّهُ إِلَهٌ باطِل، والثاني باعتبار أَنَّهُ إِلَهٌ حَقٌّ، فَلَا إله حَقٌّ إِلَّا اللهُ.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا هُوَ﴾ هو ضَمِيرٌ يَعُودُ إِلَى اللهِ، وَلَيْس هُوَ اسمًا مُستقلًّا، بِمَعْنَى أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَسْمَـاءِ اللهِ، خلافًا للصُّوفية المبتدعة الضالّة، فإنهم يجعلون (هُوَ) مِنْ

أَسْمَاءِ اللهِ، ويقولون: (لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ) مِثل (لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ)، وَيَقُولُونَ فِي أذكارهم الباطلة: (هُوَ هُوَ هُوَ)، يُكَرِّرُونها، ويقولون هَذَا هُوَ التوحيد.

ولكن نقول لهم: الضَّمِيرُ (هُوَ) ليس عَلَمًا لله، وَإِنَّمَا هُوَ ضَمِيرٌ يَعُودُ عَلَى اللهِ، فِي قَوْلِهِ: ﴿مَعَ ٱللَّهِ﴾.

قَوْلُه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ هالك بمعنى زَائِل ومُضْمَحِلّ ومعدوم بعد الوجود.

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾: [إِلَّا إِيَّاهُ] أي: إِلَّا اللهُ، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ ليس بِهَالِكٍ، كَمَا قَالَ تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٢٦-٢٧].

وتفسير المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيه رَدٌّ عَلَى قَوْلِ أَهْلِ الْبَاطِلِ، الَّذِينَ قَالُوا: إِنَّ اللهَ يَفْنَى إِلَّا وَجْهَهُ. فلم يجعلوا الوجهَ مُعَبِّرًا عَنِ الذات، بل جعلوه دَالًّا عَلَى لَفْظِهِ فَقَطْ، وَهُوَ الْوَجْهُ نفسُه.

وَهَذَا -لَا شَكَّ- كلامٌ باطل، فالمراد بالوجه هنا الذاتُ كُلُّها، كل الذات العَلِيَّة، لكنه عَبَّرَ بالوجه كسائِرِ التعبيرات اللغوية؛ حيث يُعَبِّرُ بالوجه عَنِ الشَّيْءِ كله.

وَلَكِنْ قَدْ يُفْهَمُ كَلَامُ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ باطلًا بأن مَعْنَاهُ إنكار الوجه، لكن المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ لا أَظُنُّ أَنَّهُ يُرِيدُ ذَلِكَ، والمعروف أن الأشاعِرَة يُنكرون الوجهَ حقيقةً.

ولكننا نَقُولُ إِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ لَهُ وَجْهٌ، ونستدل عَلَى ذَلِكَ بِهَذِهِ الْآيَةِ، ولكنه عَبَّرَ بالوجه عن الذات كسائر أساليب اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ.

وقيل: إِنَّ المَعْنَى أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا مَا أُرِيدَ بِهِ وَجْهُهُ، وَيَكُونُ هَـذَا عَائِدًا عَلَى الْأَعْمَالِ، يعني جميع الأعمال مَرْدُودة، وغير مَقْبُولَةٍ إِلَّا مَا أُرِيدَ بِهِ وَجْهُ الله، ويَسْتَدِلُّ هؤُلاءِ بقوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ أَنَّ هَذَا مِنْ عَمَلِ الإنسان.

ثُمَّ قَالَ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ كَأَنَّهُ قَالَ: إِنَّ الشرك هالِكٌ وفَانٍ فِي غَيْرِ فِعْلِ المرء، إِلَّا مَا أُرِيدَ بِهِ وَجْهُ الله، الخالص له، فإنه يبقى للمرء.

وَكُلُّ مَا فِي يَدِ الإنسان هَالِكٌ لَا يُفِيدُه، مِثْل قَوْلِ الرَّسُولِ ﷺ: **«مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»**(١).

ولكننا نقول: إِنَّ المَعْنَى الْأَوَّلَ أَقْوَى، وَهُوَ أَنَّ المُرَادَ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ فانٍ وتَالِفٌ إِلَّا وَجْهَ الله، وكالتَّعلِيل لقوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: كَأَنَّهُ يَقُولُ: هَذِهِ الْأَصْنَامُ المعبـودة مِنْ دُونِ الله لَا تَبْقَى، والله تعالى هُوَ الَّذِي يَبْقَى، فَهُوَ الَّذِي يَسْتَحِقُّ أَنْ يُعْبَدَ.

قَوْلُه تعالى: ﴿لَهُ الْحُكْمُ﴾ هَذِهِ الجُمْلَةُ مُكَوَّنَة مِن مُبْتَدأ وَخبَر، الخَبَرُ ﴿لَهُ﴾ مُقَدَّم، و﴿الْحُكْمُ﴾ مبتـدأٌ مؤخَّر، وتقديمُ ما حَقُّه التأخيرُ يُفيد الحصـرَ، والمعنى: لَهُ وَحْدَهُ الحُكم.

يقول المُفَسِّـرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿لَهُ الْحُكْمُ﴾ القَضاءُ النَّافِذُ]، وفَسَّرَهُ بالحُكم الكَوْني، وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ يَشْمَل الحُكم الكوني والشرعي، وله القضاءُ النافِذ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ، وله أيضًا الْفَصْلُ بَيْنَ الخَلْقِ بالأحكام الشرعية.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب النجش ومن قال: لا يجوز ذلك البيع. ومسلم كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور، رقم (١٧١٨).

فالحُكم شامِلٌ للأمرين: الكوني والشرعي.

وقد مَرَّ علينا أَنَّ مِنْ أمثلة الحُكْمِ الشَّرْعِيِّ قَوْلَه تعالى فِي سُورَةِ المُمْتَحَنَةِ: ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الممتحنة:١٠].

والحُكم الكوني قَوْلُه تعالى عَنْ إِخْوَةِ يُوسُفَ: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [يوسف:٨٠].

وقوله: ﴿لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ ذَكَرْنَا أَنَّ الجُملة فيها اختصاص أَنَّ الحُكْمَ للهِ وَحْدَهُ، مَعَ أَنَّ غَيْرَهُ لَهُ حُكْمٌ، لكنه حُكم مُقَيَّد.

ولهذا يقال: الحاكِم الشرعي، وحاكِم البلد، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ. ولكن حُكْمُ هَؤُلَاءِ تابعٌ لِحُكْمِ اللهِ، والحُكم المطلَق التامُّ الشامِل إنما هُوَ للهِ وَحْدَهُ، فأحكامُ هؤُلاءِ الحكام هِيَ مِن باب التَّبَعِيَّة؛ إِذْ إِنَّ هَذَا الحَاكِمَ لَا يَحْكُمُ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللهُ، وإِذَا حَكَم لَمْ يَنْفُذْ حُكْمُهُ.

قَوْلُه تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [بِالنُّشُورِ مِنْ قُبُورِكُمْ].

قولُه: ﴿وَإِلَيْهِ﴾ أَيْ: إِلَى اللهِ، وذلك بالنُشور إذا نَشَرَكُم مِن القُبور، فلا مَرْجِعَ إِلَّا إِلَى اللهِ، ويُحتِّمُ أَنْ يَكُونَ الرُّجوع هنا أَعَمَّ مِمَّا ذَكَرَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ؛ بِحَيْثُ يَكُونُ المعنى: وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ حَتَّى فِي أحكامكم، ترجعون إِلَى اللهِ، ولهذا يُرَدُّ الحُكْمُ بَيْنَ النَّاسِ إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

• • ۞ • •